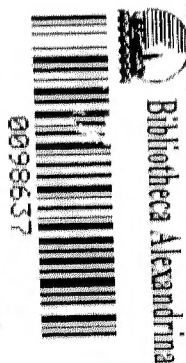


دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٤

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

برهوت





الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد الرابع عشر

دوستوفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا
ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

المراة
١

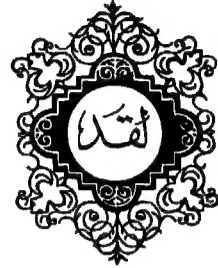
جميع الحقوق محفوظة

« المراهق » ، نشرت هذه الرواية اول مرة فى مجلة « حويات الوطن » ، المجلد ٢١٨ - ٢٢٣ ، من شهر كانون الثانى (يناير) الى شهر كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٧٥

الجزء الأول

الفصل الأول

١



فرغ صبرى ، فهأنا آخذ بكتابة قصة خطواتى الأولى فى طريق الحياة • وكان يمكننى مع ذلك أن أستغنى عن هذا • ان هناك شيئاً محققاً لا ريب فيه ، هو أننى لن أكتب سيرة حياتى عن غير هذه الفترة ، ولو قد رلى أن أعيش مائة سنة • فلا بد أن يكون المرء حقيراً فى شدة افتقانه بنفسه حتى يتحدث عنها بغير خجل ولا حياء • وشفيعى الوحيد فيما أفعله الآن هو أن الذى يحدونى الى الكتابة ليس ما يحدو اليها سائر الناس : اننى لا أكتب بغية الحصول على اعجاب القارىء ومديحه • ولئن خطر يبالى فجأة أن أسجل ، كلمة كلمة ، كل ما وقع لى منذ السنة الماضية ، فانما تدفعنى الى ذلك حاجة داخلية : ان الوقائع التى تحققت قد خطف بصرى وملأت على نفسى • وسأقتصر على تسجيل الأحداث ، متحاشياً ، بكل ما أوتيت من قوة ، أن أتعرض لما هو غريب عنها ، ومتحاشياً ألعيب الأدب وزخارف البيان • رب أديب يسلم من عمره ثلاثين عاماً فى الكتابة ، ثم هو يجهل آخر الأمر لماذا كتب طوال هذه السنين • ولست بالأديب على كل حال ، ولا أنا أحب أن أكون أديباً • وعندى أن استخراج ما تنطوى عليه نفسى ومحاولة وصف عواطفى

من أجل أن أعرضها في سوق الأدب هي في نظري من الأمور المعيبة التي تدل على صغار . ومع ذلك أكتب ، على كره مني واستياء ، أنه قد يستحيل عليّ أن أتحدثي وصف عواطفني تحاشيا كاملا وأن أتجنب عرض تأملاتي وأفكاري ولو كانت عامة : فإلى هذا الحد يسقط العمل الأدبي بصاحبه ولو كان لا يفعله إلا لنفسه . وقد تكون هذه الأفكار على جانب عظيم من العمومية ، ذلك أن ما تقدرونه أتم قد لا يكون له أية قيمة في نظر انسان غريب . على أن هذا الكلام كله استطراد . وهأنذا فرغت من التمهيد ، ولن أعود بعد الآن الى شيء من ذلك . فلأبدأ العمل ، وإن لم يكن ثمة شيء أعسر من الشروع في تأليف كتاب ، وربما لم يكن هناك شيء أعسر من الشروع في العمل على وجه الاجمال .

سنوف أبدأ أو قل اننى أريد أن أبدأ مذكراتى بيوم ١٩ ايلول
(سبتمبر) من السنة المنصرمة ، أى على وجه الدقة باليوم الذى التقيت
فيه أول مرة بـ ..

ولكن .. لأن أذكر الشخص الذى التقيت به سلفا على هذا النحو،
فى حين أن أحدا لما يعرف شيئا فذلك أمر عامى ؛ بل اننى لأعتقد أن هذه
اللهجة نفسها عامية ، فهأنذا أقع فى الزخرفة الأدبية بعد أن آليت
على نفسى أن أجتنبها . ثم انه ليس يكفى المرء أن يرغب فى الكتابة على
نحو معتدل حتى يستطيع أن يفعل ذلك . وأحب أن ألفت نظركم أيضا
الى أننى أعتقد أنه ليس هناك لغة أوروبية تصعب الكتابة فيها كما تصعب
الكتابة فى اللغة الروسية . لقد أعدت الآن قراءة ما كتبت فى هذه
الملاحظات ، فلاحظت أننى أذكر كثيرا من هذا الذى كتبت . فلماذا تكون
الأشياء التى يعبر عنها انسان ذكى أغبى كثيرا مما يبقى فى ذهنه ؟ لقد
لاحظت هذا الأمر فى نفسى غير مرة ، ولاحظته فيما أقوله للناس طوال
هذه السنة الماضية الحاسمة ، ولقيت من ذلك عذابا أليما .

ورغم أننى أبدأ باليوم التاسع عشر من ايلول (سبتمبر) ، فسأقول
بكلمتين ؛ من أنا وأين كنت قبل ذلك التاريخ ثم ما لعله كان قائما فى
ذهنى ، ولو جزئيا ، فى ذلك الصباح من اليوم التاسع عشر من ايلول
(سبتمبر) ، بنية أن أيسر الفهم على القارئ ، وربما على نفسى أيضا .

أنا طالب قديم من طلاب المدارس الثانوية ، وقد بلغت الآن السنة الواحدة والعشرين من عمري . اسمي دولجوروكي ، واسم أبي الشرعي ماكارايفانوف دولجوروكي ، وهو قن سابق من أفنان الأسياد آل فرسيلوف . أنا اذن ابن شرعي ، رغم أنني ولد غير شرعي الى أقصى حد ، ورغم أن نسبى أمر محقق لا يساور الشك فيه أحدا من الناس . واليكم تفصيل ذلك : منذ اثنين وعشرين عاما زار مالك الأطلان فرسيلوف (وهو أبى) أراضيهِ في مقاطعة تولا . وانشى لأفترض أنه كان حتى ذلك الحين اسمانا تافها ، وأستغرب كيف أن هذا الانسان الذى خطف بصرى منذ طفولتى الى هذا الحد ، وأثر فى تكوين نفسى تأثيرا يبلغ هذا المبلغ من القوة ، وألقى ظله علىّ زمنا لعله طويل ، لا يزال الى اليوم لثرا فى نظرى من وجوه لا حصر لها . ولكننى سأعود الى هذا الأمر من بعد . ليس سهلا على المرء أن يأخذ بسرد قصة . ومهما يكن من أمر فإن هذا الرجل سيملاً كتابى كله .

كان فرسيلوف فى ذلك الحين يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وكان قد فقد زوجته منذ زمن قصير . وكانت زوجته هذه فتاة تنتمى الى المجتمع الراقى ، ولكنها لم تكن على جانب كبير من الثراء ، وكان اسمها فاناريوتوفا ، وقد أنجب منها صييا وبتنا . ان ما أعرفه عن هذه الزوجة التى توفيت فى سن مبكرة ناقص كثيرا ، ضائع فى ثنايا الأمور التى عرفتها وجمعتها . هذا الى أن كثيرا من ظروف حياة فرسيلوف تفوتنى ، لأنه كان يعاملنى دائما فى كبر وتعال ، وكان يعلق نفسه دونى ، وكان يهملنى ، رغم ما كان يظهره تجاهى من مذلة تدعو الى الدهشة فى بعض الأحيان .

يجب أن أذكر على سبيل العلم بالشئ أنه قد بدد أثناء حياته ثلاث ثروات ، ثروات ضخمة ، يبلغ مجموعها أكثر من ٤٠٠٠٠٠ روبل أو يزيد . وهو لا يملك الآن كوبيكا واحدا بطبيعة الحال .

لقد جاء يومئذ الى أراضيه « لا يدري لماذا الا الله » ؛ أو هذا على الأقل ما ذكره لي بعد ذلك شارحا . ولم يكن طفلاه الصغيران معه ، بل كانا عند أقارب له ، على عادته دائما ، فكذلك كان يفعل بأعقابه طوال حياته ، شرعيين كانوا أو غير شرعيين . وكان في أملاكه عدد كبير من الخدم ، أحدهم هو البستاني مكارا ايفانوف دولجوروكى . وأضيف هنا ، حتى لا أضطر الى العودة الى هذا فيما بعد ، أنه قل بين الناس من كرهوا اسمهم ولعنوه كما كرهت اسمى ولعنته طوال حياتي . كنت كلما دخلت مدرسة أو التقيت بناس تضطرنى سنى الى الاجابة عن أسئلتهم ، من معلمين أو مربين أو مراقبين أو كهنة أو أى أحد من هذا القليل ، أسأل عن اسمى ، فاذا عرفوا أن اسمى هو دولجوروكى ، شعروا بالحاجة الى أن يسألونى :

— الأمير دولجوروكى ؟

فأضطر فى كل مرة أن أشرح لجميع هؤلاء الحليين :

— بل دولجوروكى فحسب .

وانتهت هذه ال « فحسب » الى انارتى اثاره تبلغ حد الجنون . يجب أن أقول ، من قبيل الاطلاع على هذه الواقعة ، أننى لا أذكر أن أحدا من الناس أغفل أن يطرح على هذا السؤال : صحيح أن بعضهم كان يطرحه دون أى اهتمام (ولست أدري فى الواقع قيم كان يمكن أن يهمهم هذا الأمر) ، ولكنهم كانوا يطرحونه جميعا ، من أولهم الى آخرهم . حتى اذا عرف السائل أن اسمى دولجوروكى فقط رقمى فى العادة بنظرة حمقاء لا معنى لها ولا مبالاة فيها تدل على أنه كان لا يعرف

هو نفسه لماذا ألقى هذا السؤال ثم انصرف • ولكن الذين كانوا يجرحون شعوري أكثر من سائر الناس إنما هم رفاق المدرسة • كيف يسأل تلميذ من التلاميذ رفيقا جديدا ؟ ان التلميذ الجديد ، التائه اللب المضطرب النفس ، فى اليوم الأول من دخوله المدرسة (أية مدرسة) هو فريسة للتلاميذ يتتدرون عليه ويضطهدونه ويسومونه سوء العذاب : انهم يتحكمون فيه ، يغيظونه ، يعاملونه كما يعامل خادم • هذا طفل قوى البنية ممتلىء صحة وعافية يقف فجأة أمام ضحيته وجها لوجه ويتفرد فيه بضع لحظات ناظرا اليه نظرة قاسية وقحة ، فيجمد التلميذ الجديد أمامه صامتا ينظر اليه من جانب ، اذا هو لم يكن جانا ، ويتنظر ما سيقع من أحداث •

- ما اسمك ؟

- دولجوروكى

- الأمير دولجوروكى ؟

- بل دولجوروكى فقط •

- ها • • فقط • • بلاهة !

وانه لعل حق : فلا شيء أشد بلاهة من أن يكون اسم المراء دولجوروكى دون أن يكون أميرا • وهذه بلاهة أجراها ورائى دون أن يكون لى فى فى ذلك ذنب • وفيما بعد ، حين أصبحت أغضب من هذا الأمر غضبا شديدا ، صرت أجيب دائما عن سؤال من يسألنى « هل أنت أمير ؟ » بقولى :

- بل أنا ابن خادم كان قنا •

وبعد ذلك أيضا ، حين أهاجنى السؤال فى ذات يوم اهاجة عنيفة ، وجدتني أجيب عنه بقوة وحزم قائلا :

- بل اسمى دولجوروكى فقط ، وأنا ابن غير شرعى لمولاي السابق الأمير فرسيلوف •

لقد أحسست حين اهتديت الى هذا الجواب بأننى كنت فصيحاً غاية الفصاحة ، ورغم أننى لم ألبث أن أدركت أن فى هذا الجواب حماقة لا محل لها ، فأننى لم أعدل عنه فوراً • أذكر أن أحد أساتذتى اكتشف - وهو الأستاذ الوحيد الذى اكتشف ذلك - أننى « ممتلىء النفس بمعانى الانتقام والتمرد » • ويمكن أن أقول على وجه العموم ان الناس استقبلوا غضبى هذا بجدٍ لا يخلو من اهانة لى • وقد اتفق أن قال لى أحد رفاقى ، وهو فتى قصير القامة سليل اللسان ، لم أكن أخاطبه الا مرة فى العام ، قال لى وقد لاح فى وجهه تفكير عميق وأشاح بصره عنى قليلاً :

- هذه المشاعر تشرفك طبعاً ، ولا شك فى أن هناك ما يدعوك الى الاعتزاز والفخر ، ولكننى لو كنت فى مكانك لما زهوت كثيراً بكونى ابن زنا •• لكأنك من هذا فى عرس حقا !

وأصبحت منذ ذلك الحين لا أباهى بأننى ولد غير شرعى •

أعود فأقول ان الكتابة باللغة الروسية أمر شاق جداً : لقد سوّدت حتى الآن ثلاث صفحات من أجل أن أشرح كيف كان استيائى من اسمى طوال حياتى ، ولا شك فى أن القارئ قد خلس من هذا الى اعتقاد صادق ساذج بأن مرد غيطى الى أننى لست أميراً ، بل دولجوروكى فقط • ولكننى لن أتدنى الى حيث أشرح الأمر وأبرىء نفسى مرة أخرى •

٤

بين ذلك العدد الكبير من الخدم كان هنالك ، عدا ماكار ايفانوف ، فتاة كانت في نحو الثامنة عشرة من عمرها حين أظهر ماكار دولجوروكى ، فجأة ، وهو في الخمسين من عمره رغبته فى تزوجها . وأنتم تعلمون أن الزواج بين الأقنان الخدم فى عهد القنانة انما يتم بموافقة الأسياد ، وربما تم أحيانا بأوامر منهم . وكان يسكن فى المنطقة أيامئذ سيدة يسميها الناس عمة ، والحق أنها لم تكن عمة أحد . لكننى لا أدري لماذا كان جميع الناس يسمونها عمة ، عمة على وجه العموم ، حتى لدى أسرة فرسيلوف التى لعلها كانت تربطها بها صلات قرابة . ان اسمها تاتانيا بافلوفنا بروتكوفنا . وكانت تملك هى أيضاً ، فى ذلك العهد ، فى تلك المنطقة نفسها ، خمسة وثلاثين « نفسا » . وكانت بحكم الجوار تدير أملاك فرسيلوف (٥٠٠ نفس) أو قل تشرف عليها ؛ وكان هذا الاشراف ، فيما قيل لى ، يسارى اشراف أى موظف من الموظفين المتعلمين الذين يملكون خبرة خاصة . على أن معارفها هذه لم تكن تهمنى فى شئ . وانما أريد أن أضيف ، متجنباً كل رغبة فى المديح أو التملق ، أن تاتانيا بافلوفنا هذه كانت مخلوقة نبيلة بل وأصيلة .

لم تعارض هذه السيدة رغبة ماكار دولجوروكى القاتم المزاج (يظهر أن مزاجه كان قاتماً جداً) ، بل شجعت أكبر تشجيع . وكانت صوفيا آندريفنا (تلك الخدام التى كانت فى الثامنة عشرة من عمرها ، وهى أمى) قد تيمت منذ سنين ؛ وكان أبوها الذى كان يحترم ماكار دولجوروكى احتراماً عظيماً ويضمّر له امتناناً كبيراً لا أدري ما مصدره ، كان أبوها هذا قناً كذلك ، فلما وافاه المرض قبل ست سنين ، ورقد على

سرير الموت ، بل وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة برقع ساعة فيما يدعى بعض الناس ، حتى لقد كان يمكن أن تعد وصيته نتيجة من نتائج الهذيان لولا أنه قن لا يملك أن يوصى بشيء ، دعا إليه ماكار دولجوروكى وقال له أمام الناس وبحضور الكاهن ، قال له بصوت عال وهو يومئ يده الى ابنته : « نسئها واتخذها زوجة لك » . لقد سمع الناس جميعا هذا الكلام . أما ماكار ايفانوف دولجوروكى فأننى لا أدرى ما هى العواطف التى حملته على الزواج : أهو تزوج رغبة فى هذا الزواج مبتهجا به ابتهاجا كبيرا ، أم هو تزوج قيما بواجب ووفاء بعده ؟ أغلب الظن على كل حال أنه أقبل على هذا الزواج بمظهر من لا يبالى الأمر ولا يكثر به . لقد كان رجلا يعرف منذ ذلك الحين كيف يصطنع المظهر الذى يجب أن يظهر به . وهو على عدم درايته العميقة بالكتب المقدسة وعلى جهله القراءة والكتابة (ولكنه كان يحفظ الصلوات على ظهر القلب ، ويعرف خاصة تاريخ حياة بعض القديسين ، عن طريق السماع) ، كان ذا طبع حازم ، بل كان فى بعض الأحيان على جانب من جرأة ومجازفة . كان بطيء الكلام ، قاطع الأحكام ، وكان يعيش حياة كريمة فاضلة على حد تعبيره الغريب . كذلك كان هذا الرجل فى تلك الأيام . وكان طبيعيا أن يتمتع باحترام الناس كافة ، ولكن يقال ان الناس كانوا فى بعض الأحيان يستقلون ظله ولا يطبقونه . غير أن كل شيء قد تغير حين ترك المنزل : فلم يتحدث عنه أحد بعد ذلك الا حديثه عن قديس أو شهيد . ذلك كله أعرفه من مصدر مطلع .

أما أمى فقد احتفظت بها تاتانيا بافلوفنا قريبة منها حتى السنة الثامنة عشرة من عمرها رغم ارادة الحطيب الذى كان يريد أن يعلمها بموسكو ، فتققتها بعض الشيء ، علمتها الحياطة والتفصيل وآداب الحياة الاجتماعية بل علمتها القراءة قليلا . أما الكتابة فلم تتوصل أمى الى اجادتها يوما . وكان هذا الزواج بماكار ايفانوف أمرا مقرررا فى نظرها

منذ زمن بعيد ، وكل ما وقع لها عندئذ قد بدا لها رائعا وقيدت الى المبد
 طائعة مختارة ، يبدو على وجهها أكبر هدوء يمكن أن يظهر على وجه
 فتاة في حالة كهذه ، حتى ان تاتانيا بافلوفنا قد وصفتها حينذاك بأنها أشبه
 بسمكة . ان تاتانيا بافلوفنا هذه هي التي أطلعتني على ما يتعلق بطبع أمي
 في ذلك العهد . وقد وصل فرسيلوف الى أراضيه بعد هذا الزواج بستة
 أشهر تماما .

ولا أستطيع أن أحزر على نحو يرضيني كيف بدأت الأمور بينه وبين
 أمي . واني لأميل الى تصديق ما أكدته لي هو نفسه في العام الماضي محمرا
 الوجه ، رغم أنه روى لي القصة كلها مسترسلا منطلقا « مرحا » ، فقال
 ان الأمر لم يكن حكاية طويلة ، وان كل شيء قد جرى من تلقاء نفسه
 « هكذا » . . . أعتقد أن ذلك صحيح ، وأن كلمة « هكذا » هذه كلمة
 موفقة رائعة . ورغم كل شيء فقد ظلت دائما شديد الرغبة في أن أعرف
 كيف بدأ هذا الأمر . لقد كنت دائما وما أزال أحقر هذه الأشياء
 القذرة . وطبعي أن ما يؤجج في نفسي هذه الرغبة ليس من نوع الفضول
 السخيف . يجب أن أذكر لكم أنني حتى السنة الماضية لم أكن قد
 عرفت أمي ان صح التعبير ، فقد عهد بي الى غرباء منذ نعومة أظفاري ،
 من حرص فرسيلوف على تمتعه بالراحة وخلو البال (سأتكلم عن هذا
 فيما بعد) ، ولذلك لا أستطيع أن أتصور كيف كان وجهها أيامذاك .
 ترى اذا لم تكن جميلة ، فما الذي عساه أغرى بها رجلا مثل فرسيلوف ؟
 تلك مسألة تهمني ، لأن الناس يرسمون لهذا الرجل هنا صورة غريبة كل
 الغرابة . ومن أجل هذا تراني ألقى ذلك السؤال ، فأنا لا ألقيه من
 قيل فساد الخلق وفضول الطبع . لقد قال لي هو نفسه ، هذا الرجل
 القاتم المزاج المغلق النفس ، قال لي بتلك السداجة المحببة التي لا أدرى
 من أين كان يخرجها (كمن يخرج منديلا من جيبه) اذا أراد أن
 يخرجها ، قال لي انه كان في تلك الأيام « كلبا صغيرا أبله » ، وانه دون

أن يكون من أولئك الناس العاطفين الحالمين كن قد قرأ منذ قليل قصة « أنطوان الضحية » وقصة « بولين ساكس » ، وهما كتابان أدبيان أثرا في الجيل الجديد تأثيرا حضاريا لا يقدر مداه . وأضاف أنه لعله قد عاد الى الريف مدفوعا بتأثير « أنطوان الضحية » ، قال ذلك جادا أكبر الجد . فطلى أية صورة استطاع هذا « الكلب الصغير الأبله » أن ينشئ علاقة بينه وبين أمى ؟ يخطر ببالي فى هذه اللحظة أنه لو كان هناك قارىء يقرأ هذا الكلام الذى أكتبه لانفجر يضحك على حتما ، ولعدتني مراقبا مضحكا لا يزال يحتفظ ببراءته الغبية ويطلع فى فهم أمور لا يفهم منها شيئا البتة ! وهذا صحيح ، فأتى ما زلت لا أفهم من هذه الأمور شيئا ، وأنا أعترف بذلك بلا فخر ولا اعتزاز ، لأننى أعرف أن فقدان التجربة هذا أمر سخيف لدى شاب فى الحادية والعشرين من عمره ، ولكننى سأقول لذلك السيد القارئ انه هو أيضا لا يفهم فى هذه الأمور شيئا ، وسأبرهن له على ذلك . صحيح أننى لا أعرف من شئون النساء شيئا ، ولا أريد أن أعرف شيئا أيضا ، وسأظل استخف بهذا ما حييت ، فقد آليت على نفسى أن لا أحفل به ، ولكننى أعرف مع ذلك أنه رب امرأة تفتك بجمالها أو بما لا أدرى ، فى طرفة عين ؟ و رب امرأة أخرى لا بد لك من ستة أشهر حتى تعرف مصدر السحر وأن ترى هذا السحر . فهذه المرأة الثانية ، اذا أردت أن تراها كاملة وأن تحبها لا يكفى أن تنظر اليها ، ولا يكفى أن تكون جريئا ، وانما ينبغى لك شيء آخر . اتى من ذلك على يقين رغم أننى لا أعرف شيئا ، والا كان يجب أن تنزل جميع النساء الى منزلة الحيوانات الداجنة وأن لا نحتفظ بها لدينا الا على هذه الصورة . ولعل هذا ما يتمناه كثير من الناس .

وأنا أعلم من عدة مصادر أن أمى لم تكن على حظ كبير من الجمال ، رغم أننى لم أر صورتها التى ترجع الى ذلك العهد يوما ، وهى صورة موجودة فى مكان ما . فمن المستحيل اذن أن يفتن المرء بها من أول

نظرة • ولقد كان في وسع فرسيلوف لو أراد « التسلية » وحدها أن يختار امرأة أخرى ، وكان هنالك امرأة أخرى فعلا ، بل فتاة عذراء هي آنفيرا كونستانتينوفا سابويكوف ، التي كانت تعمل وصيفة في المنزل . أضف الى ذلك أن رجلا يصل الى هنالك قارئاً « أنطوان جورميكا » كان لابد أن يرى ، بحكم قوانين الأسياد ، أن محاولته اغراء امرأة هي زوج قن من أقفانه شيء معيب • انه منذ أقل من شهر ، أى بعد عشرين عاما انقضت على ذلك العهد ، كان لا يزال يتحدث عن أنطوان المسكين حديثا يبلغ غاية الجذ ، مع أن ما سلب من أنطوان كان حصانه لا زوجته • فلا بد أنه قد حدث اذن يومئذ شيء جعل الأمسة سابويكوف تضرر القضية (وأنا أعتقد انها ربحتها) • لقد أتيح لى مرة أو مرتين ، في السنة الماضية (ولم يكن في الامكان التحدث اليه كل يوم) أن ألقى عليه هذه الأسئلة جميعها ، فلاحظت أنه رغم لباقة كلها ، ورغم انقضاء عشرين سنة على ذلك العهد ، لم يكن يجب الا بعد رجاء كثير • ولكننى وصلت الى غايتى ؟ أو قل ، على الأقل ، انه بفضل ذلك الاسترسال والانطلاق الذى كان يبيحه لنفسه فى كثير من الأحيان ، قد ثرثر يوما فى أمور غريبة • فقال ان أمى كانت من تلك النساء التى لا تعرف كيف تدافع عن نفسها ، ولا يمكن للمرء أن يحبها ، ولكنها ما تلبث على حين فجأة أن يشعر المرء نحوها بشفقة ، لا أدري لماذا ، أسبب عذوبتها أم بسبب شيء آخر ! لا أدري ! ولكن الشفقة تدوم وتبقى ، وبهذه الشفقة يتحقق ارتباط • • « وأوجز لك الكلام يا صغبرى فأقول انه ليتفق للمرء أن يصبح عاجزا عن الانفصال • • ذلك ما قاله لى • فاذا كانت الأمور قد جرت على هذا النحو فعلا ، كنت مضطرا أن أرى فيه امرءاً آخر مختلفا كل الاختلاف عن « كلب صغير غبى » ، كما وصف نفسه بهذا فى ذلك الوقت •

وقد أكد لى بعد ذلك أن أمى أحبته عن « مذلة » حتى لقد أوشك

أن يقول انها أحبه عن « اطاعة كاطاعة العيد » ! ولقد كذب ! كذب من قيل التأتق ، كذب على ضميره ، كذب على الشرف وعلى كرم النفس وسماحة الخلق •

رب قائل يقول اننى اكتب هذا على سبيل ازجاء المديح لأمى ، ولكننى سبق أن أعلنت أننى أجهل جهلا مطلقا كيف كانت أمى فى ذلك الوقت • وأكثر من ذلك أننى أعلم حق العلم ظلام البيئة وسخافة الافكار التى تعفنت فيها منذ طفولتها وعاشت وسطها طوال حياتها • وقد وقع البلاء على كل حال • يجب أن أبادر ، فى هذه المناسبة ، الى بعض التصحيح : لقد تهت بين السحب ونسيت أمرا كان ينبغى فى الواقع أن أبرزه قبل أى شىء آخر : وهو أن الأمور بينهما قد بدأت بوقوع البلاء راسا (أرجو أن لا يتظاهر القارىء بأنه لا يفهم على الفور ما أريد أن أقوله) • أعنى أن البداية كانت بداية سيد من الأسياد ، ولو أن الآنسة سابويكوف قد تركت جانبها ولم تمس بسوء • ويجب أن أتدخل هنا فأعلن أن كلامى هذا لا يناقض ما سلف • فى أى شىء • يارب ، كان يمكن أن يتحدث رجل مثل فرسيلوف الى امرأة كأمى حتى ولو كان الأمر أمر حب لا سبيل الى مقاومته ؟ لقد سمعت رجلا فاسقين يقولون انه ليتفق فى كثير من الأحيان لرجل يواجه امرأة أن يبدأ الفعل بدون أن يقول كلمة واحدة ، وواضح أن هذا منتهى الشذوذ ، وأنه يثير أقصى الاشمئزاز • وعندى مع ذلك أن فرسيلوف ما كان له أن يبدأ غير هذه البداية مع أمى ولو أراد • أكان يستطيع أن يبدأ بأن يشرح لها « بولين ساكس » ؟ ولقد كان الأدب الروسى أيسر الأمور شأنا عندهما ، على حد تعبيره هو (حين كشف عن نفسه أمامى ذات يوم) • لقد كانا يختبئان فى الزوايا والأركان ، ويتربص أحدهما بالآخر على السلالم ، حتى اذا مر بهما أحد وثبا بعيدا كوثوب كرتين ، وقد احمر خجلا ؟ وكان « الطاغى » يرتجف ويرتجس أمام أية كناسة تكنس الأرض ، رغم ما له من حقوق

الاقطاعى • واذا كانت الأمور قد بدأت على نحو ما يبدوها الأسياد ، فقد استمرت على هذا النحو ، ولكنها لم تبقى كذلك تماما ؛ والحق أنه ليس لهذا تفسيرات يجب البحث عنها ، فأمثال هذه التفسيرات لا يمكن إلا أن تزيد الظلمات كسافة • ان الأبعاد التى بلغها جبهما هى فى حد ذاتها لغز ، لأن الشرط الأول لدى أناس مثل فرسيلوف هو أن يدعوا كل شئ • حيث هو ، متى حققوا هدفهم وقضوا وطهرهم • لكن الأمور تمت على غير هذا النحو • فلأن يزنى امرؤ بامرأة جميلة ناقصة العقل من الاقان (ولم تكن أمى ناقصة العقل على كل حال) فذلك أمر هو فى نظر « كلب صغير » فاسق (ولقد كانوا جميعا فاسقين ، من أولهم الى آخرهم ، تقديمين ورجعيين على السواء) فذلك أمر ليس ممكنا فحسب ، بل هو لا مناص منه أيضا ؛ لاسيما اذا تذكرتم وضع أبى من حيث أنه ترمل شابا ومن حيث أنه عاطل لا يعمل شيئا • أما استمرار الحب مدى الحياة فأمر خارق • ولست أضمن أنه أحبها على كل حال ، ولكننى أعلم واقعة ثابتة هى أنه جرها وراءه طوال حياته •

لقد ألفت أسئلة كثيرة ، الا أن بين هذه الأسئلة سؤالاً هو أهمها جميعا ، لم أجزؤ أن أطرحه على أمى طرحا قاطعا ، رغم أننى تقربت إليها كثيرا فى السنة الماضية ، ورغم أننى بفظاظتى وعقوفى وشعورى بأننى مجنى علىّ لم أخرج معها قط • ذلكم السؤال هو كيف أمكنها ، هى المتزوجة منذ ستة أشهر ، هى التى تسحقها معانى قداسة الزواج سحق ذبابة ، كيف أمكنها ، بعد مالا يزيد على خمسة عشر يوما ، أن تسقط فى خطيئة كهذه الخطيئة ؟ ثم انها لم تكن امرأة منحرفة عن الصراط ، بالعكس ، حتى ليكننى ان أقول ، مستبقا الأمور ، ان من الصعب على المرء أن يتصور نفسها ظلت طاهرة مدى الحياة كنفسها • فليس هناك من تفسير اذن الا أن نقول انها فعلت ما فعلته على غير وعى منها ولا شعور ، لا بالمعنى الذى يستعمله الحمامون فى هذه الأيام حين يصفون بذلك

موكلهم من القتل والصوص ، بل بالمعنى الذى يصدق على انفعال من تلك الانفعالات العارمة التى تعصف بضحية ساذجة فندنيها من الفاجعة . ومن يدري مع ذلك : لعلها أحب حبا شديدا تفصيله ملايسه وفرقة شعره على طريقة أهل باريس ، أو نطقه الفرنسى (نعم ، الفرنسى) الذى لم تكن تفهم منه شيئا ، أو العاطفى الذى عزفه على البيانو ! لقد أحبته فيه شيئا لم تر مثله فى حياتها (وكان رجلا بارعا الجمال) ، ثم أحبته كله الى حد التهالك والسقوط ! .. لقد سمعت من يقول ان هذا كان يقع أحيانا للفتيات من الاقنان فى عهد القنائة ، بل كان يقع مثله لأكثرهن تمسكا بأهداب الشرف . وانى لأفهم ذلك . وعندى ان من الخطأ أن نرده الى العبودية و « المذلة » وحدهما . وأغلب الظن اذن أن هذا الرجل كان يملك من القوة ومن الاغراء ما يكفى لاجتذاب مخلوقة كانت حتى ذلك الحين بريئة تلك البراءة كلها ، وكانت على وجه الخصوص غريبة تلك الغرابة كلها عن طبيعته ، آتية من عالم يختلف عن عالمه كل الاختلاف ، ومن أرض تختلف عن أرضه كل الاختلاف ، فسارت الى هوة واضحة لا ريب فيها . أما أن السير كان الى هوة فأحسب أن أمى قد فهمت ذلك ، لكنها كانت وهى تمضى نحو الهوة لا تفكر .

ان هذه المخلوقات التى لا تملك قوة الدفاع عن نفسها متشابهة متماثلة : تعرف أن الهوة تنتظرها هناك ، ثم هى تجرى اليها لا تلوى على شىء .

وما ان ارتكبا الخطيئة حتى استبدت بهما الندامة . وقد روى لى أبى متندرا كيف أنه أجشش يبكى على كتف ماكار ايفانوفتش حين دعاه الى غرفته خصيصا لهذا الأمر ، بينما كانت هى فى ذلك الوقت . . . راقدة فى مكان ما ، مغشيا عليها فى حجرتها الصغيرة ، حجرة الخادم القن .

ولكن حسبى كلاما على هذه المسائل وعلى هذه التفاصيل الفاضحة •
لقد اشترى فرسيلوف أمى من ماكار ايفانوف ، وأسرع ماضيا بها ،
مصطحبا اياها منذ ذلك الحين ، كما قلت من قبل ، الى كل مكان تقريبا ،
الا اذا غاب غيبة طويلة ؟ فكان عندئذ يعهد بها فى أكثر الأحيان الى
عمته ، أى الى تاتيانا باقلوفنا بروتكوفا التى لا تفتقد قط فى مناسبات
كهذه المناسبات • لقد أقاما مددا فى موسكو ، وأقاما مددا فى مقاطعات
أخرى أو فى مدن أخرى ، بل أقاما مددا فى خارج روسيا أيضا ، ثم
أقاما أخيرا فى بطرسبرج • وسأتحدث عن هذا فيما بعد ، أو قد لا أتحدث
عنه البتة ، ولكننى أقول اننى ولدت بعد زواج ماكار ايفانوفتش بسنة •
وبعد سنة أخرى ولدت أختى • وبعد عشر سنين أو احدى عشرة سنة ولد
أخى الأصغر وهو صبي ممرض مات بعد بضعة أشهر • وكان من شأن
هذه الولادات الأليمة أن فقدت أمى جمالها ، أو هذا ما قيل لى على
الأقل : لقد بدأ الهرم والضعف يدهبان اليها سريعين •

ولكن العلاقات بماكار ايفانوفتش لم تنقطع يوما • فحيثما يحل
فرسيلوف ، سواء أقام عدة سنين متتالية فى مكان واحد أم سافر متقللا
من مكان الى مكان ، فإن ماكار ايفانوفتش كان لا يفوته أن يكتب الى
« الأسرة » يبلغها أنباءه • وهكذا نشأت علاقات غريبة يختلط فيها شيء من
التكلف بشيء من الجد • وانى لأعلم أنه لو كان الامر بين أسياد
لمازج ذلك حتما عنصر كوميدي • ولكن لم يحدث شيء من ذلك فى
الحالة التى نحن بصدد الكلام عليها • كانت الرسائل تصل مرتين فى
العام ، لا أكثر من ذلك ولا أقل • ومن الغريب أنها كانت متشابهة تشابها

عجيباً • لقد أتيج لى أن أرى هذه الرسائل ، فوجدت أنها لا تكاد
تتضمن على شئ شخصى ، ولا تكاد تضم الا أخبارا عن أحداث عامة جدا
وعواطف عامة جدا ، ان صح أن توصف العواطف بمثل هذا : كانت
تلك الرسائل تتضمن أنباء عن صحة مرسلها وأسئلة عن صحة الأشخاص
المرسلة اليهم ، وتحتوى على تمنيات وتحيات وتبريكات مهذبة ، ثم
لا شئ عدا ذلك البتة • • وأعتقد هذا الاختصار على الأمور العامة ، وهذا
الابتعاد عن الشؤون الشخصية هى فى تلك البيئة لهجتها اللبقة وآدابها
الاجتماعية : « الى زوجتنا العزيزة المحترمة صوفيا آندريفنا ، نبعت بأخلص
تحياتنا المتواضعة » • • • « الى أولادنا الأعززة أعبر عن رضى ومباركى
التي لن يفسدها الدهر • • • ثم يعقب ذلك ذكر أسماء الأولاد على ترتيب
أعمارهم وأنا منهم • ويجب أن أشير هنا الى أن ماكار ايفانوفتش كان
يملك من حصافة الرأى ما يكفى لأن لا يبعث « صاحب النبالة السيد
المحترم آندره بتروفتش » بصفة « المحسن اليه » ، ولكنه كان لا يغفل
فى أية رسالة من رسائله أن يبعث اليه بخالص تحياته المتواضعة وأن
يسأله الرضى عنه ، وأن يطلب له من الله دوام نعمته عليه • وكانت أمى
تسارع الى الرد على رسائله ، وتكتبها دائما بأسلوب واحد لا يتغير ،
وكان فرسيلوف لا يشارك فى هذه المراسلة • وكان ماكار ايفانوفتش
يبعث برسائله من جميع أركان روسيا ، من المدن التى يكون فيها ، ومن
الأديرة التى يقيم بها زمنا طويلا فى بعض الأحيان • لقد أصبح ماكار
ايفانوفتش جواً يضرب فى الأرض ولا يستقر فى مكان • وكان لا يطلب
فى يوم من الأيام شيئاً البتة • لكنه كان يجرى الى البيت ثلاث مرات فى
السنة بلا تخلف ، فيتلبث قليلا عند أمى التى كان لها منزل خاص بها
دائماً ، مستقل عن منزل فرسيلوف • سوف أعود الى الكلام على هذا
الأمر فيما بعد • وحسبى أن أذكر الآن أن ماكار ايفانوفتش لم يكن
يسترخى على مقاعد الصالون الوثيرة ، بل كان يجلس فى مكان ما وراء

حاجز من الحواجز متواضعا • وكان لا يمكث مدة طويلة : فما هي
الا خمسة أيام أو أسبوع حتى يرحل •

نسيت أن أقول انه كان يحب كثيرا ويحترم كثيرا اسمه ،
دولجوروكى • ومن الواضح أن هذا منه سخف مضحك • وأسخف
ما فى الأمر أن هذا الاسم انما يعجبه ويرضيه لأن هناك أمراء يسمون
دولجوروكى • ألا ما أعجبه من تصور هو نقيض ما يوحى به الحسن
السليم !

قلت ان الأسرة كانت مجتمعة الشمل دائما ، ولكن بدونى طبعاً •
كنت كمن رمى خارج السفينة ، فما كدت أولد حتى عهد بى الى غرباء •
ولم يكن ذلك مقصودا متعمدا ، فحين ولدتنى أمى كانت لا تزال شابة
جميلة ، وكانت اذن تنفع فرسيلوف نفعا ما ، ولا بد أن يزعجه أن
يصحبهما طفل صغير كثير الصراخ ، وخاصة أثناء الأسفار • فذلكم هو
السبب فى أننى بلغت من عمرى العام العشرين دون أن أرى أمى تقريبا ،
فيما عدا مناسبتين أو ثلاث مناسبات عارضة • ولم تكن عواطف أمى هى
السبب فى ذلك ، وانما كان السبب فى ذلك تكبر أبى على الناس •

والآن هنالك شيء آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف •

منذ شهر ، أى قبل اليوم التاسع عشر من ايلول (سبتمبر) ، قررت وأنا فى موسكو أن أعدل عنهم جميعا وأن أنطوى على « فكرتى » انطواء نهائيا • وإذا كنت أكتب هذه العبارة « أن أنطوى على فكرتى انطواء نهائيا » فلأن هذا التعبير يمكن أن يصور كامل رأى الأساسى تقريبا • أما ما هى هذه الفكرة فسوف أتحدث عنها فيما يلى من صفحات هذا الكتاب ، بل سوف أسهب فى الحديث عنها • لقد تكونت فكرتى هذه أثناء وحدتى الحاملة سنين طويلة من حياتى بموسكو منذ أيام الدراسة ، ثم لم تتركى بعد ذلك لحظة واحدة ، بل ابتلعت وجودى كله ابتلاعا • ولقد كنت أعيش فى الأحلام أيضا قبل أن تثبت هذه الفكرة فى نفسى ، فانتبى قد عشت فى عالم مسحور آخر ، منذ طفولتى الغضة ، غير أن أحلامى ، حين بزغت فى نفسى هذه الفكرة الأساسية التى التهمتني التهاما ، قد اشتدت وترسخت واكتست على الفور صورة محددة ، فإذا هى أحلام عاقلة بعد أن كانت أحلاما سخيفة • ان المدرسة الثانوية التى تابعت فيها دراستى لم تكن تمنع أحلامى ، ولا هى منعت بعد ذلك فكرتى • ولكننى أحب أن أضيف الى ذلك أن السنة الأخيرة التى قضيتها فى المدرسة كانت سنة سيئة ، على أننى كنت خلال سائر السنين الأولى متفوقا أحتل بين رفاقى أولى الصفوف ؛ وذلك يرجع الى فكرتى تلك نفسها ، والى النتيجة التى استخرجتها منها والتى لعلها كانت خطأ • وهكذا فإن المدرسة لم تمرقل الفكرة ، غير أن الفكرة عرقلت المدرسة • وقد عرقلت الجامعة أيضا • ذلك أننى منذ أنهيت دراستى الثانوية عزمت

أمرى لا على هجر أهلى هجرا حاسما فحسب ، بل كذلك على هجر العالم كله اذا اقتضى الأمر ، رغم أننى كنت ما أزال فى العشرين من عمرى . فكتبته الى من يجب على أن أكتب اليهم ، ومن يحق لى أن أكتب اليهم بيطرسبرج ، طالبا أن يدعونى وشأنى نهائيا ، وأن لا يرسلوا الى بعد الآن مالا لمعيشتى ، وأن ينسونى نسيانا كاملا اذا أمكن الأمر (هذا اذا خطرت ببالهم طبعاً) ، وقائلا اننى لن أدخل الجامعة قطعا بحال من الأحوال . ذلك أننى كنت أمام أمرين لا ثالث لهما ، ولابد أن أختار أحدهما : فاما أن أدخل الجامعة فأرجىء الشروع فى تنفيذ فكرتى أربع سنين واما أن لا أدخل الجامعة . وقد اخترت الثانية بغير تردد ، لأننى كنت مقتنعا بذلك اقتناعا رياضيا . وجاءنى ردُّ فرسيلوف ، أبى الذى رأيته طوال حياتى مرة واحدة خلال لحظة قصيرة (والذى اتسع وقته فى تلك اللحظة لأن يذهبنى) أقول جاءنى رد فرسيلوف على رسالتى التى لم أوجهها اليه على كل حال ، يدعونى ، ببطاقة كتبها بخط يده ، أن أجيء الى بطرسبرج ؟ ويعمدنى بوظيفة لدى « شخص » . ان هذه الدعوة التى تصلنى من رجل جاق الزواج متكبر الطبع صلف الخلق ، من رجل أهملنى هذا الإهمال كله ، ولم يكتف ، بعد أن جاء بى الى هذه الحياة وعهد بى الى غرباء ، بأن لا يعرفنى بعد ذلك ؟ بل لم يشعر أيضا بشيء من ندامة على ما جنت يده (ومن يدرى فلعله كان خالى البال الا من فكرة غامضة عن وجودى ، لأنه ، وقد ثبت هذا بعدئذ ، لم يكن هو الذى ينفق على معيشتى بموسكو ، بل كان يتولى ذلك آخرون) ؟ أقول ان هذه الدعوة التى تصلنى من هذا الرجل الذى تذكرنى على حين فجأة وشرفنى بتوجيه رسالة الى كتبها بط يده ، قد دغدغت غروورى فحددت مصيرى . هناك شيء غريب : ان ما أعجبنى فى هذه البطاقة ، بين ما أعجبنى فيها (وكانت صفحة قصيرة على ورقة صغيرة) هو أنه لم يذكر الجامعة بكلمة واحدة ، ولم يسألنى أن أغير رأبى ، ولا أخذ غلى أننى

لا أريد أن أتابع دراستي ، أى أنه لم يعمد الى شيء من ذلك الكلام الكثير الذى ألف الآباء أن يزجوه لأبنائهم معاداً مكروراً فى مثل هذه الحالات . ومع ذلك فإن هذا بعينه هو ما كان سيئاً منه ، لأنه شاهد جديد على أنه لا يحفل بى ولا يكثر بأمرى . وقررت أن أسافر لسبب آخر أيضاً ، هو أن هذا السفر لن يعوق حلمى الأساسى . قلت لنفسي : «سرى ما يحدث . ولن أرتبط بهم الا زمناً على كل حال ، زمناً قد يكون قصيراً جداً . فمتى لاحظت أن هذه الخطوة ، على تفاهتها ، ستصرفنى عن الأمر الأساسى ، قطعت صلتى بهم فوراً ، وتركت كل شيء عائداً الى قوقتى ، نعم الى قوقتى ، ولطوت هنالك كسلحفاة . . . ووقع هذا التشبيه فى نفسى موقع الاعجاب الشديد . « ولن أكون وحيداً » ، كذلك استمررت أجرى حساباتى راضياً من أقصى موسكو الى أقصاها فى تلك الأيام الأخيرة . « لا لن أكون وحيداً ، كما كنت كذلك حتى الآن خلال هذه الأعوام الرهيبة كلها : بل ستصحبنى فكرتى التى لن أخونها يوماً ، ولو أعجبونى جميعاً هنالك ، ولو وهبوا الى السعادة ، ولو عشت معهم عشر سنين ! » وأستبق الأمور فأقول : هذا هو الشعور الذى خالط نفسى وهذا هو ازدواج الخطط الذى نشأ فى ذهنى وأنا بموسكو ثم لم يبارحنى لحظة واحدة بطرسبرج (لا أدري هل مرّ بى ، وأنا فى بطرسبرج ، يوم واحد لم أحدد لنفسي فيه أجل قطيعتى معهم ومغادرتى بطرسبرج) . وأعتقد أن هذا الازدواج كان هو السبب فيما اندفعت اليه من تهور أثناء تلك السنة ، وفيما قارفت من أمور بشعة ، بل فيما انحدرت اليه من صغار ، ناهيك طبعاً عما ارتكبت من حماقات .

لقد ظهر فى حياتى على حين غرة أبٌ لم يكن يوجد قبل ذلك . وأسكرتني هذه الفكرة أثناء استعدادى للسفر بموسكو ، وأثناء ركوب القطار الى بطرسبرج . أن يكون لى أب فذلك لم يكن الى ذلك الحين شيئاً ، وما أنا ممن يحبون الخنان والدلال : ولكن هذا الرجل لم يشأ أن

يعرفنى ، حتى لقد أذلتنى ؛ على حين أننى كنت طوال تلك الأعوام كلها لا تنصرف أحلامى الا اليه ، حتى لأبلغ من ذلك حد الشنيع (اذا صح ان توصف الأحلام بمثل هذا) • كان كل حلم من أحلامى منذ طفولتى يتجه اليه ويحوم حوله ويرتد آخر الأمر نحوه • لا أدرى أكنت أكرهه أم كنت أحبه ، ولكنه كان يملأ مستقبلى كله ، وكان يملأ جميع تنبؤاتى عن الحياة ، وقد جاءنى هذا الشيء من تلقاء نفسه ، وكان يقوى مع تقدمى فى السن يوماً بعد يوم •

وهناك ظرف قوى كان له أيضاً أثر كبير فى سفرى من موسكو • ان ثمة اغراء كان قد قام فى نفسى قبل سفرى بثلاثة أشهر (ومعنى هذا قبل أن ترد مسألة السفر الى بطرسبرج) ، فارتعش له قلبى وخفق ! ان ما كان يجذبنى الى ذلك الحضم المجهول هو أننى كنت أستطيع أن أدخل اليه سيداً ، وأن أحكم فيه مصير غبرى • وأى غير ! غير أن عواطف نبيلة لا مشاعر طاغية هى التى كانت تغلى فى نفسى • وأبادر فأقول سلفاً ، حتى لا يوقع كلامى القارئ فى الخطأ ، ان فرسيلوف كان يمكن أن يقدّر (اذا هو رضى أن يفكر فى أمرى) أن يستقبلنى استقبال فتى صغير خرج. أمس من المدرسة الثانوية ، استقبال مراهق غر تحملى عيناه حين يرى النور • ولكننى كنت أعلم كل ما فى جوفه ، وكنت أملك فى عبنى وثيقة خطيرة كل الخطورة ، وثيقة لا يتردد أن يهب عدة سنين من عمره (وأنا أعلم الآن ذلك علم اليقين) فى سبيل أن أطلعه على سرها • على أننى ألاحظ أننى أتكلّم فى أُلغاز وأحجيات • ان من المستحيل على المرء أن يصف عواطف دون أن يذكر وقائع • وسوف يجرى الحديث عن كل هذا تفصيلاً فى حينه ، ومن أجل ذلك انما أمسكت بالقلم • لأن يكتب المرء بهذه الطريقة ، فكأنه يهنئ أو كأنه يسبح فى الغيوم •

٧

من أجل أن أصل أخيراً الى اليوم التاسع عشر من شهر ايلول (سبتمبر) سأذكر ، موجزاً وعابراً ، أنني قد وجدتهم جميعاً ، أغنى فرسيلوف ، وأمي ، وأختي (التي أراها أول مرة في حياتي) على حالة أليمة من الفاقة والعوز ، فهم يعيشون فيما يشبه البؤس أو هم يوشكون أن يصبحوا على البؤس في غد قريب . كنت قد عرفت ذلك بموسكو ، ولكنني لم افترض أن يكونوا قد بلغوا من الفقر هذا المبلغ . لقد تعودت منذ طفولتي أن أتصور هذا الرجل (أغنى أبي في المستقبل) عظيم المهابة كأنه هالة للألاء ؛ ولم أكن أستطيع أن أتخيله الا محتلاً أولى المراكز بين الناس . ان فرسيلوف لم يسكن يوماً مع أمي ، فكان يستأجر لها منزلاً خاصاً : ولا ريب في أنه كان يفعل هذا ترفعاً واحتشاماً . أما الآن فهم يقيمون جميعاً في منزل واحد هو جناح خشبي في شارع صغير من حي سيمينوفسكي . وكان أثاث المنزل كله قد رُهن ، حتى لقد اضطرت أن أعطى أمي على غير علم فرسيلوف ، الروبلات الستين العجيبة التي كانت معي : أقول عجيبة لأنها حصيد ما كنزته من مصروفي الذي كنت أعطاه خمس روبلات في الشهر على مدى سنتين : ولقد بدأت أكنز هذا الكنز منذ بزغت « فكرتي » في رأسي . لذلك كان فرسيلوف لا يعرف شيئاً عن هذا المبلغ .

ولم تكن هذه المساعدة التي قدمتها لأمي الا قطرة في خضم . لقد كانت أمي وأختي تقومان بأعمال خياطة . أما فرسيلوف فكان يعيش عاطلاً ، كثير النزوات ، ولا يزال يحتفظ بطائفة كبيرة من عادات تقتضي نقفات باهظة . كان صعب المراس كثير المطالب ، ولا سيما على المائدة ،

وكانت جميع حركاته وسكناته تدل على أنه امرؤ طاغية • ولكن أمي وأختي وتاتيانا بافلوفنا وجميع أفراد أسرة المرحوم أندرونيكوف (وهو مدير مكتب في إحدى الدوائر توفي منذ ثلاثة أشهر وكان يعالج أمور فرسيلوف) وهم عدد لا نهاية له من النساء ، كان هؤلاء جميعاً يركعون أمامه ركوعهم أمام تمثال معبود • كنت لا أستطيع أن أتصور منظراً كهذا المنظر • يجب أن أقول أنه كان منذ تسع سنين أرق حاشية وأشد فتنة •

لقد سبق أن قلت أنه كان يبدو لي في أحلامي حالة للألاء ، لذلك صعب على أن أعتقد أن يكون الهرم والبلى قد دبا إليه في مدى سنين تسع لا أكثر ، فسرعان ما شعرت من ذلك بحزن وشفقة وخجل • حتى أن رؤيتي إياه أول وصولي قد أحدثت في نفسي شعوراً كان من أقسى ما أحسست به من عواطف في ذلك اليوم • أنه لم يكن شيخاً ، فهو لا يزال في الحامسة والأربعين لم يتجاوزها • وحين أنعمت النظر فيه اكتشفت في جماله شيئاً يخطف البصر أكثر من كل ما احتفظت به ذاكرتي من ملامح جماله • صحيح أنه أصبح أقل تألقاً ، وأبسط مظهرأ ، وأدنى أناقة ، ولكن الحياة قد نقشت على وجهه ما فيها من تعقد ، فأضفت عليه معاني جديدة •

ومع ذلك كان الفقر أيسر هموم فرسيلوف قاطبة • لقد عرفت هذا حق المعرفة • كان هنالك ، عدا الفقر ، أشياء أعظم شأنًا وأكثر جدأ ، ناهيك عن الأمل الذي لا يزال يحتفظ به ، وهو أن يكسب الدعوى التي أقيمت منذ عام ، والتي سيفصل فيها القضاء بينه وبين الأمراء سوكولسكي بشأن ميراثه ، والتي قد تهيئه بعد زمن قصير بأمالك يقدّر ثمنها بسبعين ألف روبل ، وربما قدّر بأكثر من ذلك •

سبق أن قلت ان فرسيلوف هذا كان قد أتلّف في حياته ثلاثة موارث : فلعله سيُنقذ مرة أخرى بميراث جديد ! والفروض أن يتم الفصل في القضية وصدور الحكم قريباً جداً • وقد وصلت إليهم وهم

على هذا الأمل يحيون • غير أن أحداً لا يقرض مالاً بالاستناد الى أمل ، فلم يكن هنالك من يستطيعون الاقتراض منه ، فكانوا يعانون من العذاب ما يعانون بانتظار أن يأتي الفرج •

على أن فرسيلوف لم يكن يذهب الى أحد يلتمس منه العون والوساطة ، رغم أنه كان يقضى نهاره كله خارج المنزل فى كثير من الأحيان • لقد طرد من المجتمع الراقى منذ ما يزيد على عام • وقد ظلمت عاجزاً عن تفسير هذا الأمر رغم جميع ما بذلت من جهود ، ورغم انقضاء شهر بكامله على اقامتى ببطرسبرج • أكان فرسيلوف مذنباً أم لا ؟ ذلك ما كان يهمنى أن أعرفه • وذلك ما من أجله جئت • لقد أدار الناس كافةً ظهورهم له - ومنهم جميع الشخصيات التى تملك نفوذاً والتى استطاع أن يكون له بها صلات سابقة - وذلك بسبب اشاعات ذاعت عن سلوك شائن سلكه فى ألمانيا قبل ذلك بعام ، بل عن سلوك فاضح الى أقصى حد ، وذلك فى نظر الناس أنكى وأدهى ؛ حتى لقد قيل انه تلقى يومئذ على مشهد من الناس صفقة كالحا له أمير من الأمراء سوكولكى ، ثم لم يردّ هو عليها بأى تحد • فحتى ولداه (الشرعيان) ، ابنه وابنته ، أدارا له ظهرهما وأشاحا وجهيهما ، وعاشا منفصلين عنه • ولقد كان هذا الابن وهذه البنت يختلفان الى أرقى المجتمعات بواسطة أسرة فاناريوتوف وبواسطة الأمير العجوز سوكولسكى (صديق فرسيلوف سابقاً) • ولكننى حين أنعمت النظر فى الرجل خلال هذا الشهر ، رأيته انساناً عزيز النفس متكبر الطبع لم يبعده المجتمع بل أبعد هو المجتمع - فالى هذا الحد كان يظهر بمظهر الاستقلال ! ولكن هل كان يحق له أن يظهر بهذا المظهر ؟ ذلك ما كان يشغل بالى ويقلق نفسى ! وكان علىّ حتماً أن أعرف الحقيقة كاملةً فى أقصر مدة ، لأننى انما جئت لأقطع برأى فى الرجل • كنت ما أزال أخفى عنه قواى ، ولكن كان علىّ أن أتخذ أحد موقفين : فاما أن أرتضيه ، واما أن أرفضه وأنبذه نبذاً كاملاً • وكان الحل الثانى سيؤلىنى

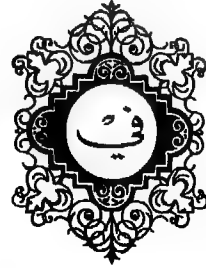
أشد الألم ، لذلك كنت فى عذاب وقلق • وسأعترف الآن بشئ : لقد
هذا الرجل عزيزاً على نفسى •

أقمت معهم حتى الآن فى ذلك المنزل نفسه ، وكنت أعمل ،
يصعب على أن أمنع نفسى عن بعض الفظاظات • كنت لا أمتنع عن
الفظاظات تماماً •

وبعد انقضاء شهر أصبحت ازداد اقتناعاً ، يوماً بعد يوم ، بأن الـ
النهائى يجب أن لا أنسده لديه هو • لقد كان هذا الرجل الصلف يـ
أمام عينيّ لفرأ يحير عقلى ويجرح نفسى جرحاً عميقاً • كان هو
ملاطفاً مدارياً ، أما أنا فكنت معه أميل الى المشاجرات منى الى الملا
والأمازيح • كانت جميع أحاديثى معه تشتمل على شئ من الالتبا
أو تشتمل فى أقل تقدير على نوع من سخريه غريبه من جانبه • إذ
البدايه ، أى منذ وصولى من موسكو ، لم يأخذنى مأخذ الجد • ولم أـ
أن أفهم لماذا كان يعاملنى على هذا النحو • لعله كان قد اقتنع بأـ
الضرورى أن يظل مستعلقاً على فهمى • ولكننى ، من جهتى ، كنت أـ
أن أتنازل فأسأله أن يعاملنى بمزيد من الجد • أضف الى ذلك أنه
له أساليب عجيبه صارمه لا أملك ازاءها أن أعرف ماذا يجب على
أعمل • وخلاصه القول انه كان يعاملنى كما يعامل فتى غر ، وذلك مـ
يؤلمنى احتماله ، رغم علمى بأن الأمور لابد أن تجرى هذا المجر
وكانت نتيجة ذلك كله أننى انقطعت عن الكلام انقطاعاً يشبه أن يـ
تاماً • كنت أنتظر شخصاً سيصل الى بطرسبرج فى وسعه أن يكشف
عن الحقيقه نهائياً : فعلى ذلك كنت أعقد آخر أمل لى • ومهما يكر
أمر فقد وطنت العزم على القطيعه النهائيه ، واتخذت جميع الاجر
اللازمه لذلك • كانت أمى تثير شفقتى • ولكن : « اما هو ، واما أنا
ذلك ما كنت أريد أن أقترحه عليهما ، أعنى أن أقترحه على أبى وأخ
حتى لقد حددت اليوم • وابتظار ذلك ، كنت أذهب الى مكتبى •

الفصل الثاني

١



ذلك اليوم التاسع عشر من شهر أيلول
(سبتمبر) كان على أيضاً أن أقبض راتب شهرى
الأول لدى « الشخص » المذكور . انهم لم
يسألونى رأى فى هذه الوظيفة ، بل اكتفوا
بأخذى اليه فى اليوم الأول من وصولى فيما أظن . هو رجل على جانب
كبير من الفظاظه ، حتى لقد أوشكت أن أضطر الى الاحتجاج . ان
الوظيفة التى 'عينت لها هى فى منزل الأمير العجوز سوكولسكى . ولكن
الاحتجاج سيكون معناه القطيعة معهم فوراً ، وذلك أمر لم يكن يخيفنى
أبدأ ، غير أنه يخالف ما رسمته لنفسى من أهداف أساسية . لذلك قبلت
المنصب صابراً ، مكتفياً من الدفاع عن كرامتى بالصمت . ويجب أن
أبادر فأذكر أن هذا الأمير سوكولسكى ، وهو رجل غنى ومستشار
خاص ، لم يكن يمت بقربى الى الأمراء سوكولسكى بموسكو ، الذين
آلوا الى الفقر والبؤس منذ سنين ، والذين كان بينهم وبين فرسيلوف
دعوى ينظر فيها القضاء . لم يكن بينه وبينهم الا التشابه فى الاسم . ومع
ذلك كان الأمير العجوز يهتم بأمرهم كثيراً ، ويحب أكبرهم حباً خاصاً ،
وهو ضابط شاب 'يعد' رئيس الأسرة ان صح التعبير . ولقد كان

لفرسيلوف ، فى الماضى ، تأثير كبير على أمور هذا الشيخ ، وكان صديقه ، بل كان له ولياً حقيقياً ، لأن هذا الأمير المسكين (وقد أدركت ذلك فيما بعد) كان يخشاه خشية رهيبية ، لا حين دخلت فى خدمته فحسب ، بل فى جميع الأوقات فيما أظن ، ما ظلت صداقتهما قائمة . على أنهما كانا قد أصبحا منذ زمن لا يلقى أحدهما الآخر . فإن الفعل الشائن الذى اتهم به فرسيلوف انما كان يتعلق بأسرة الأمير نفسه . ولكن الحظ شاء أن تكون تاتيانا بافلوفنا هنالك ، وبواسطتها انما تم توظيفي لدى العجوز الذى أراد أن يكون معه شاب يقيم الى جانبه فى المكتب . وقد اتفق أيضاً أنه أراد أن يسرّ فرسيلوف ، وأن يخطو هو نحوه الخطوة الأولى ، اتفق أن أراد فرسيلوف ذلك أيضاً . هذا ما قرره الأمير العجوز فى غيبة ابنته ، التى مات عنها زوجها الجرال ، والتى كان لا يمكن حتماً أن ترضى عن خطوة كهذه . سوف أتحدث عن هذا الأمر فيما بعد ، ولكننى أريد أن أذكر فوراً ان غرابة هذه العلاقة بين العجوز وبين فرسيلوف قد لفتت نظرى كثيراً ، وجعلتني أحسن الظن بفرسيلوف . قلت لنفسى : اذا استمر رئيس أسرة أهيت كرامتها هذا الاستمرار على احترام فرسيلوف ، فذلك دليل على أن الاشاعات التى ذاعت عن سقوط أخلاق فرسيلوف اشاعات كاذبة ، أو اشاعات تحتل التأويل فى أقل تقدير . وهذا بعض ما منعنى من الاحتجاج : فلقد كنت آمل أن يمكننى دخولى فى خدمة الأمير من التحقق من هذه الأمور كلها .

كانت تاتيانا بافلوفنا هذه تلمب دوراً خاصاً حين وجدتتها فى بطرسبرج . كنت قد نسيت وجودها أو كدت ، ولم أثوق قط أن أرى لها من خطورة الشأن وعلو المنزلة ما رأيت . كنت قد قابلتها حتى ذلك الحين ثلاث مرات أو أربعاً بموسكو . كانت تنبجس لا أدرى من أين ولا بأمر من من الناس ، كلما كان يجب أن تسكننى منزلاً ، أو أن تدخلنى ذلك المعهد الداخلى الكالح الحزين ، معهد توشار ، أو أن تتقلبنى

بعد ذلك بستين ونصف سنة الى المدرسة الثانوية ، أو تنزلى عند يقولوا
سيمينيفتش الذى لا يمكن أن أنسى ذكره . وكانت ، كلما ظهرت ،
تبقى سحابة النهار ، تستعرض غسلى وملابسى وتمضى معى الى
كوزتسكى أو الى السوق فشتى الى الأمتعة اللازمة ، وتجهزنى بكل ما
أنا فى حاجة اليه ، من آخر علبه الى آخر موسى . وكانت وهى تفعل ذلك
لا تقطع عن تقريعى وتوبيخى واغراقى بأنواع اللوم ، ولا تكف عن
امتحانى ، وعن ضرب أمثلة لى بأولاد آخرين من أصحابها أو أقاربها
(هم من خلق خيالها) قائلةً انهم جميعاً خير منى فى رأيها ، حتى لقد
كانت لا تتورع ، والله ، عن قرصى وضربى ضرباً موجعاً مرات كثيرة .
حتى اذا فرغت من اسكانى وتأمين الاستقرار لى اختفت عدة سنين دون
أن تترك لى أثراً من آثارها . ان هذه المرأة هى التى تولت الاهتمام بأمرى
من جديد فور وصولى الى بطرسبرج ، فوظفتنى لدى الأمير العجوز .
هى امرأة قصيرة القامة جافة الطبع ، ذات أنف دقيق حاد كأنف غصنور ،
عينين صغيرتين ثاقبتين تشبهان أعين العصافير أيضاً . ولقد كانت ازاء
فرسيلوف أشبه بعدد : تقف منه موقف العابد كأنها أمام البابا ، ولكنها
تفعل ذلك عن اقتناع وايمان . على أننى سرعان ما لاحظت ، على غير قليل
من الدهشة ، أن الناس جميعاً بغير استثناء ، وفى كل مكان ، يحضونها
احتراماً خالصاً ، ولاحظت خاصة أن الناس جميعاً بغير استثناء وفى كل
مكان يعرفونها . وكان الأمير العجوز سوكولسكى يقدسها تقديساً .
وكذلك كان شأنها بين أفراد أسرتها . وكذلك كان شأنها أيضاً مع ولدى
فرسيلوف المتعجرفين ، ومع أعضاء أسرة فاناريوتوف . ومع ذلك كانت
تعجنى رزقها من الحياطة والغسيل والتطريز ، وتعمل لأحد المخازن فى
بطرسبرج . وقد تشاجرنا منذ أول كلمة تبادلناها ، لأنها طمعت أن
توبخنى كما كانت تفعل ذلك منذ ست سنين ؛ وظللنا نتشاجر كل يوم .
ولكن ذلك لم يكن يمنعنا من التحدث أحياناً ، وانى لأعترف بأنها أخذت

تحظى بأعجابى بعد شهر ؛ وإنما يرجع ذلك فى رأى الى ما كانت
تصف به من استقلال الطبع ؛ على أنى حاذرت أن أعلن لها ذلك أو أن
أشير اليه •

وسرعان ما فهمت أنهم « وظفوني » لدى هذا العجوز المريض
لا شيء الا أن « أملأ فراغه » ، وأدركت أن مهمتى كلها هى القيام بهذا
العمل • وقد شعرت من ذلك بشيء من المذلة طبعاً ، وما لبثت أن اتخذت
اجراءاتى ، ولكن ما كاد ينقضى وقت قصير حتى أحدث هذا الشيخ الغريب
فى نفسى أثراً لم يكن فى الحسين ، أثراً هو نوع من الشفقة عليه ،
وأصبحت فى آخر الشهر أحس نحوه بارتباط عجيب : وأياً كان الأمر
فقد تركت ما كنت قد عقدت عليه العزم من القضاظه فى معاملته • ولم
تكن سنه تتجاوز الستين على كل حال • وكانت قد وقعت له حادثة تشبه
أن تكون قصة كاملة • لقد أصيب قبل ثمانية عشر شهراً بنوبة عقلية ،
فيما كان مسافراً لا أدري الى أين فقد صوابه أثناء الطريق ، فكان ذلك
فضيحة تحدث الناس عنها فى بطرسبرج • وكما يجدر فى مثل هذه
الأحوال ، أرسل الرجل الى الخارج ، فما هى الا خمسة أشهر حتى عاد
الى روسيا سليماً معافى ، ولكن متقاعداً • وقد أكد فرسيلوف جداً
(بحماسة واضحة) أن ما حدث لصاحبه لم يكن جنوناً قط ، وإنما
كان نوبة عصبية بسيطة • وانى لأكاد أشاركه هذا الرأى • ان كل ما
كان يبدو على العجوز هو شيء من خفة لا تليق بسننه كثيراً ، خفة يقال
انها لم تظهر فيه يوماً قبل ذلك • قالوا انه كان فى الماضى مستشاراً يبدل
النصح فى مكان ماء ، وانه قد عهد اليه يوماً بالقيام بمهمة فأحسن القيام
بها على خير وجه • غير أننى ، وقد عرفته منذ شهر ، ما كان لى أن أقدر
أن له كفاءات خاصة تؤهله لأن يكون مستشاراً • وقد لاحظوا (رغم
أننى لم ألاحظ أنا شيئاً من ذلك) أنه أصبح بعد إصابته بتلك النوبة
مأخوذاً برغبة قوية فى أن يتزوج سريعاً ، وأنه خلال هذه الأشهر الثمانية

عشر قد فكر في تحقيق هذه الفكرة غير مرة • يظهر أن الناس كانوا يعرفون ذلك ، ويهتمون به • ولكن لما كان هذا الميل لا يتفق كثيراً ومصالح بعض الذين حوله ، فقد كانوا يحيطون العجوز بسياج من كل جهة • لم تكن أسرته كبيرة العدد • لقد ترمل منذ عشرين عاماً ، وليس له الا ابنة وحيدة هي أرملة الجنرال التي يتوقعون وصولها من موسكو بين يوم ويوم ، وهي شابة كان واضحاً أن أباهـا يخشى طبعها • غير أن للشيخ طائفة من الأفراد يمتون اليه بقرابات بعيدة ، وخاصة من جهة زوجته المتوفاة ، وكان هؤلاء جميعاً يعيشون في فاقة وبؤس • يضاف الى هؤلاء ذلك الجمع من الأيتام الذكور والأناث الذين كان يحسن اليهم ويتصدق عليهم ، ويتوقعون أن يجعل لهم في وصيته نصيباً ، ويشتركون لذلك في احكام الرقابة عليه • يضاف الى هذا أيضاً أنه كان منذ شبابه يتصف بخصلة لا أدري أهى مضحكة أم لا : تلك هي رغبته في تزويج الفتيات الفقيرات • انه يزوج فتيات فقيرات منذ خمسة وعشرين عاماً : بعضهن تصله بهن قرابات بعيدة ، وبعضهن أخوات لزوجات أبناء أعمام زوجته ، وبعضهن يربطه بهن أنه كان لهن عراباً ، حتى ان منهن واحدة كانت بنت بواب منزله • كان يكفلهن صغاراً ، فيعهد بتثقيتهن الى مربيات وخادماـت فرنسيات في أول الأمر ، ثم يرسلهن الى أحسن المؤسسات التعليمية ، حتى اذا بلغن مرحلة الزواج دفع لهن مهورهن • فكان هؤلاء الناس جميعاً يحومون حوله بغير انقطاع • وطبعى اذا تزوجت هذه البنيمات أن يلدن بنات ، فكانت هاته البنات جميعاً تطمع في رعايته ، وكان هو عرابهن جميعاً ، وكان هذا الجمع كله من الناس يتوافد عليه في أعياده مهتماً مباركاً ، وكان هو يجد في ذلك متعة لا تفوقها متعة •

وحين صرت في بيته ، سرعان ملاحظت - وكان يستحيل على المرء أن لا يلاحظ ذلك - أنه قد استقر في دماغ العجوز اقتناع أليم بأن الناس أصبحوا ينظرون اليه نظرة غريبة ، وأصبحوا لا يعاملونه كما

كانوا يعاملونه فى الماضى أيامَ كان يملك صحته كاملةً ، كان هذا الشعور لا يبارحه أبداً ، حتى أثناء اجتماعات الناس يسودها أكثر الأجواء مرحاً وفرحاً . لقد أصبح الشيخ مفرط الحساسية سريع التأذى . كان يلاحظ شيئاً فى جميع الأعين . وكان يعذبه تعذيباً واضحاً أن يتصور أن الناس لا يزالون يتخللون فيه جنونا . حتى لقد كان يتفرس فى وجهى أنا مشتبها مرتابا . وأحسب أنه لو علم يوماً أن أحد الناس أذاع أو أكد هذه الاشاعة لأضمر له عداوة قاتلة رغم أنه انسان لا يعرف قلبه الحقد أبداً . ذلك ما أريد أن يبقى مائلاً فى ذهن القارىء . وأضيف اليه أن هذا أيضاً هو ما جعلنى أعزم أمرى منذ أول يوم على أن لا أغلظ له القول . حتى لقد كنت أشعر بالسعادة يوم تتيح لى المصادفات أن أفرحه أو أن أسليه : وما أعتقد أن هذا الاعتراف يمكن أن يلقى على كرامتى ظلاً .

ولقد وضع جزءاً كبيراً من ثروته فى مشروعات . وساهم بعد مرضه فى شركة كبيرة قوية جداً . ورغم أن هذا المشروع كان يديره آخرون فقد كان يهتم به اهتماماً شديداً ، فهو يحضر اجتماعات المساهمين ، وينتخب عضواً مؤسساً ، ويتراأس بعض المجالس ، ويلقى خطاباً مسهباً ، وينافس ويعترض ، يفعل ذلك كله مقتبلاً به راضياً عنه . وكان يعشق لقاء الخطب : فإن ذلك يتيح للناس أن يلاحظوا قوة فكره على الأقل . ويمكن أن أقول على وجه العموم انه كان حتى فى حياته الخاصة الصميمية يحب كثيراً أن يدخل فى الحديث بعض الأقوال العميقة أو بعض الكلمات الجميلة . ولست استغرب منه هذا . ولقد كان فى الطابق الأدنى من الدار نوع من مكتب منزلى ، يعمل فيه مستخدم يسير الأعمال ويجرى الحسابات ، ويمسك الدفاتر ، عدا قيامه بإدارة شئون المنزل . ولقد كان هذا المستخدم ، الذى يشغل عدا ذلك وظيفة رسمية ، ينهض بالعمل نهوضاً كافياً ، ولكنهم أضافونى اليه تنفيذاً لرغبة الأمير ، بحجة أننى سأساعده فى عمله . ولكننى ما لبثت أن نقلت الى حجرة الأمير ، فلم يكن أمامى

هنالك ، ولو من قليل مراعاة الشكل ، لا عمل ولا أوراق ولا كتب •
 اتنى أكتب الآن كما يكتب انسان فقد نشوة الحماسة منذ زمن
 طويل ، وعدل عن كثير من الأمور • فكيف أستطيع أن أصور ذلك
 الحزن (الذى مازلت أذكره حياً قوياً) الذى ملأ يومئذ قلبى ، وكيف
 أصور خاصة ذلك الاضطراب الذى استبد يومئذ بى حتى قادنى الى حالة
 من القلق والهياج بلغت من القوة اتنى أصبحت مسهداً لا أعرف الى النوم
 سيلاً من نفاد صبرى على الألفاظ التى كنت أطرحها على نفسى بنفسى •

أن يطلب المرء مالاً فذلك طلب حقير جداً ، ولو كان طلباً لأجر ، اذا كان المرء يحس في ركن من أركان ضميره أنه لم يستحق هذا الأجر . وبالأمر همست أمي في أذن أختي ، على غير علم من فرسيلوف (حتى لا تسبب ألماً لأندره بتروفتش) تقول لها ان في نيته أن ترهن لدى « بنك التسليف » « أيقونه » كانت تحرص عليها حرصاً شديداً . وكان لي أجر هو خمسون روبلاً في الشهر ، ولكنني كنت أجهل كل الجهل كيف أقبض هذا الأجر . فانهم لم يذكروا شيئاً واضحاً عن هذا الأمر حين أسندوا اليّ هذه الوظيفة . وكنت قبل ذلك بثلاثة أيام قد سألت المستخدم الذي يعمل في الطابق الأدنى : أين أقبض أجرى ؟ فنظر ليّ بابتسامة انسان دهش (وكان لا يحبني) ، ثم قال :

— هل لك راتب تقبضه ؟

وتوقعت أن يضيف الى سؤاله بعد جوابي على الفور :

— وعلام يكون لك راتب ؟

ولكنه اقتصر على الاجابة في جفاف قائلاً : « لا أدري » ، ثم أكبر على دفتره المخطط الذي كان ينقل اليه حسابات سجلت على وريقات . وكان مع ذلك لا يجهل أنني أقوم بعمل . حتى أنني قبل ذلك بخمسة عشر يوماً قد أنفقت أربعة أيام كاملة في عمل عهد به اليّ هو نفسه : وهو نسخ مسودة . وقد اضطرت في الواقع الى صياغة النص كله صياغة جديدة . وكان الأمر أمر مجموعة من « أفكار » للأمير كان ينتهي لتقديمها الى لجنة المساهمين . فكان عليّ أن أنشيء من شتاتها كلا منسجماً ، وأن أصلح الأسلوب . وقد قضينا بعد ذلك مع الأمير ، أنا وهو ، يوماً

بكامله ننظر فى هذه الورقة ، فناقشنى الأمير مناقشة حارة جداً ، ولكنه رضى عنها آخر الأمر . على أننى لا أدرى أقدّمت الورقة الى لجنة المساهمين أم لا . هذا عدا رسالتين أو ثلاثاً من رسائل الأعمال توليت أنا كتابتها بطلب منه .

واذا أزعجنى أن أطلب أجرى ، فذلك لأننى كنت قد قررت أن أترك العمل ، لشعورى بأننى سأكون مضطراً الى المغادرة أيضاً بسبب ظروف لا سبيل الى تحاشيها . حين استيقظت من نومى فى ذلك الصباح وأخذت أرتدى ملابسى فى غرفتى الصغيرة فوق ، شعرت بقلبى يخفق خفقاناً قوياً ، ثم حاولت أن أصطنع الهدوء وعدم الاكتراث ، غير أننى حين دخلت على الأمير عاودنى ذلك الاضطراب نفسه : ففى ذلك الصباح كان سيصل ذلك الشخص ، كانت ستصل تلك المرأة التى أنتظر منها تفسير كل ما كان يخلق خاطرى ويعذب نفسى ! انها أخماكوف ، بنت الأمير ، أرملة الجنرال الشابة التى سبق أن تحدثت عنها ، والتى كانت فى حرب صريحة مع فرسيلوف . أخيراً كتبت هذا الاسم ! ولم أكن رايتها قبل ذلك فى يوم من الأيام طبعاً ، ولم أكن أستطيع أن أتصور كيف ترائى أكلهما اذا أنا كلمتها . ولكن كان يبدو لى (ربما لأسباب كافية) أن مجيئها سيبدد ظلمات تلف فرسيلوف فى رأبى . لم أستطع أن أظل رابط الجأش : انها لحسرة رهية أن يجد المرء نفسه منذ اليوم الأول جباناً كل هذا الجبن ، أخرق كل هذه الحراسة . كان ذلك أمراً عجيبيّاً الى أقصى حد ، وكان كريهاً على وجه الخصوص : ثلاثة مشاعر فى آن واحد . اننى أذكر ذلك اليوم وأحفظه على ظهر القلب .

لم يكن الأمير يعرف ، بعد ، شيئاً عن احتمال وصول ابنته . وكان لا ينتظر وصولها قبل أسبوع . أما أنا فقد عرفت هذا قبل ذلك بيوم ، وعرفته بمحض مصادفة . ان تاتيانا بافلوفنا التى تلقت رسالة من أرملة الجنرال قد أفلت لسانها أمامى ففشت السر وهى تتحدث الى أمى . كانتا

تكلمان همساً ، وتحدثان بالفاظ معماة غامضة ، فحزرت كل شيء •
لم أكن أصنى اليهما • ولكنني لم أملك الا أن أصبح بسمعى حين رأيت
على حين فجأة أن أمى اضطربت اضطرباً شديداً لدى سماعها
بأ وصول هذه المرأة • ولم يكن فرسيلوف وقتئذ فى البيت •

لم أشأ أن أنبئ الأمير الشيخ ، لأننى كنت قد لاحظت طوال هذه
المدة مدى اشفاقه من وصول ابنته • حتى أنه ، قبل ذلك بثلاثة أيام ، مضى
الى حد القول ، على شيء من الاستحياء وفى شيء من الغموض ، انه
يخشى من وصولها على ، أو قل انه يتوقع قيام شجار بينه وبينها بسببى •
يجب مع ذلك أن أضيف أنه كان يحتفظ ازاء أسرته باستقلاله وسلطته
وتفوقه ، وخاصة فى شئون المال • ولقد كان شعورى الأول تجاهه أنه
لم يكن الا امرأة • ولكنني اضطرت بعد ذلك الى تصحيح هذا الشعور
قائلاً لنفسى : اذا كان امرأة فانه يحتفظ بشيء من عناد بديلاً عن
الرجولة • لقد مرت لحظات كان فيها ، رغم ما يبدو فى طبعه من رخاوة
ظاهرة ، رجلاً صعب المراس عسير القيادة • وقد شرح لى فرسيلوف هذا
الأمر بمزيد من التفصيل فيما بعد • وانى لألاحظ الآن ، على دهشة منى ،
أنا لم نكد نتحدث يوماً عن أرملة الجنرال ، بل كنا نتحاشى أن نتحدث
عنها ان صح التعبير : كنت أنا الذى أتحاشى الخوض فى هذا الحديث
خاصة ، وكان الأمير يتحاشى من جهته أن يتكلم على فرسيلوف ، حتى
لقد أدركت أنه لن يجيبني اذا أنا ألقيت عليه سؤالاً من تلك الأسئلة
التي كانت تقلقنى ذلك الافلاق كله وتحيرنى تلك الحيرة كلها •

واذا أردتم أن تعرفوا فيم تحدثنا طوال ذلك الشهر قلت : لقد
تحدثنا فى كل شيء اجمالاً ، ولكننا تحدثنا دائماً فى أمور غريبة • وكان
ما يعجبني فى الرجل كثيراً هو تلك اللطافة الطيبة العظيمة التي كان
يعاملني بها • حتى لقد كنت فى بعض الأحيان أتأمل هذا الرجل مندهشاً
أشد الاندهاش ، قائلاً لنفسى : لو قد عاصرته فى المدرسة لكان خير رفيق

لى • وكان وجهه يخطف بصرى فى بعض الأحيان أيضاً : انه جاد أقصى الجذ (ويكاد يكون جميلاً) ، جاف أشد الجفاف ، ذو شعر مجعد أبيض كئيف ، واسع العينين ؛ وكان يشع الجفاف من شخصه كله ، وكان حسن القامة ، غير أن وجهه يمتاز بصفة أقرب الى أن تكون مزعجة ، حتى لتوشك أن تكون غير لبقه ، فهو يتقل فجأة من أقصى درجات الجذ الى أقصى درجات المرح انتقالا لا يمكن لامرئ أن يتنبأ به اذا كان يرى هذا الرجل أول مرة • ولقد قلت ذلك لفرسيلوف ، فأصغى فرسيلوف الى قولى متعجباً ، فانه ما كان يظن أن فى وسعى أن ألاحظ ملاحظات كهذه • ولكنه قال لى ، كمن يقول عابراً ، ان هذه الحالة قد ظهرت فى الأمير بعد مرضه ، لاسيما فى الآونة الأخيرة •

هناك موضوعان مجردان كان يدور عليهما حديثنا خاصة ، أولهما هو الله ووجوده (الله موجود أم لا ؟) ، وثانيهما هو النساء • لقد كان الأمير متديناً جداً ، حساساً جداً • وكانت حجراته تضم خزانه كبيرة ذات مصباح ، زاخرة بالأيقونات • غير أنه كانت تستبد به فى بعض الأحيان نزوة ، فاذا هو يأخذ يشك فجأة فى وجود الله ، ويقول أشياء عجيبة من أجل أن يحرضنى على الاجابة • وكنت من جهتى قليل الاكتراث بهذه الفكرة على وجه العموم ، ولكن هذا لا ينفى أننا كنا كلانا نتحمس تحمساً صادقا فى جميع الأحوال • والحق أن هذه الأحاديث التى كانت تدور بيننا قد خلفت فى نفسى ذكرى ممتعة الى هذا اليوم • على أن الحديث عن النساء كان أمتع ما يجب أن يلغو فيه ؛ واذا كنت لا أعشق الحديث فى هذا الموضوع كثيراً ، فأننى لم أكن له فى هذا المجال نعم المجلس ، وكان ذلك يسوؤه فى بعض الأحيان •

وقد أثار هذا الموضوع عني منذ وصلت اليه فى ذلك الصباح • وجذته يومئذ مرح المزاج مبتهج النفس ، وكنت قد تركته بالأمس مفعماً بالحزن والأسى • وكان على أن أحل مسألة راتبى فى ذلك اليوم

نفسه قطعاً قبل وصول بعض الأشخاص • كنت أقدر أن خلوتنا ستقطع
 حتماً (لم يخفق قلبي في ذلك اليوم خفقاناً شديداً لغير سبب) ، وقد
 لا أجرؤ عندئذ أن أتكلم في مسألة الأجر • ولكن الحديث لم يقع
 يومئذ على شؤون المال ، فأخفقتي حماقتي طبعاً ، فإذا أنا (وما زلت أذكر
 ذلك جيداً) أنزعج من سؤال طرحه عليّ ، وكان سؤالاً مرحاً كل المرح ،
 وإذا أنا أنطلق أبسط له آرائي في النساء دفعة واحدة بعنف شديد وحمياً
 قوية ، فما كان منه الا أن ازداد اندفاعاً وحماسة •

... لست أحب النساء لأنهن فظات ، لأنهن خرقات ، لأنهن لا يملكن روح المبادعة والمبادرة ، ولأنهن يرتدين ملابس غير لائقة !
بهذه الحاتمة المضطربة المشوشة أنهيت كلامى الطويل •

— رفقا بهن يا عزيزى !

كذلك صاح الأمير فرحاً مبرحاً الى أقصى حدود الفرح والمرح ،
فما زادنى ذلك الا غيظاً وحنقاً •

انى امرؤ لين العريكة سهل المصالحة فى الأمور الصغيرة فحسب ،
أما فى الأمور الكبيرة فلا أخضع ولا أرضخ قط • انك فى الشئون
اليسيرة وفى المناقشات النافعة التى تدور بين الناس ، تستطيع أن تجعلنى
ما تشاء ؛ وأنا ألعن هذه الصفة من صفات طبعى دائماً • لقد اتفق لى فى
بعض الأحيان ، بسبب هذه الطيبة الكريهة فى طبعى ، أن كنت مستعداً
لتأييد دعى سخيف من أبناء المجتمع « الرافى » لا لشيء الا لأننى فتنت
برقة حاشيته وحسن تهذيبه ، أو أن أدخل فى مناقشة مع رجل غبى
أحمق ، وهو أمر لا يمكن أن يفتقر بحال من الأحوال • كل ذلك لأننى
لم أتعلم الصمود ، ولأننى عشت وترعرعت فى ركنى المعزول • وطالما
خرجت من ذلك حائقاً غاضباً ، خالفاً أن لا أعود الى مثله ، فإذا جاء الغد
تكرر الأمر نفسه • من أجل هذا كنت أعد فى بعض الأحيان سيياً فى
السادسة عشرة • ولكننى بدلا من أن اكتسب السيطرة على نفسى مازلت
حتى اليوم أوتر أن ازداد انحجاسا فى ركنى ، ولو فى أقوى صورة من
صور كره الناس والبعد عن البشر : « أنا اذا شئت أحرق ، ولكن

وداعاً ! » • أقول ذلك جاداً والى الأبد • على أننى لا أكتب هذا بصدد الأمير ، ولا بصدد الحديث الذى جرى بيننا •

صحت أقول فيما يشبه المعادة :

- لست أتكلم لأسرك ، وإنما أنا أعبر عن رأىي •
- ولكن كيف تكون النساء فظات ، وكيف تعد ملايسهن غير لائقة ؟ ألا ان هذا الأمر جديد !

- هن فظات • اذهب الى المسرح ، اذهب الى تزهة • ان كل رجل من الرجال يعرف يمينه ، فاذا تقابل رجلان أفسح كلا منهما الطريق لصاحبه ، هذا يتجه الى يمينه وذاك يتجه الى يمينه • أما المرأة ، أقصد السيدة ، لأتتى عن السيدات انما أتكلم ، فانها تقتحمك حتى دون ان تلاحظك ، كأنك مضطر أن تخلى لها مكانك • اننى مستعد أن أتنازل عن موضعى لمخلوق ضعيف ، ولكن المسألة هنا ليست مسألة حق مفروض • لماذا هى واثقة بأننى مضطر الى اخلاء مكانى لها اضطراراً ؟ ذلك ما يفيظ ! اننى لا أملك الا أن أبصق استمزازا فى مثل هذه الالتقاءات • ورغم هذا كله يملأن الدنيا صراخاً بأنهن مضطهدات ، ويطالبن بالمساواة • كيف يتحدثن عن المساواة وهنَّ يدسننى ويملأن فمى غباراً ؟

- غباراً ؟

- نعم • لأنهن يرتدين ملابس غير لائقة • لابد أن يكون المرء فاسقاً حتى لا يلاحظ ذلك • ان المحاكم نفسها تعقد جلسات سرية حين تشتمل القضية على أمور غير لائقة : فلماذا يسمح بمثل هذه الأمور فى الشارع ، حيث الجمهور أكبر عدداً ؟ انهن يعلقن على أردافهن ذبولا ذات حفيف ، ليبرهنوا على أنهن نساء جميلات : يفعلن ذلك صريحاً ظاهراً بغير استخفاء ولا استحياء • وليس يمكن أن لا ألاحظ ذلك ، والشبان يلاحظونه أيضاً ، والطفل والصبي الصغير يلاحظانه كذلك • ألا ان هذا

لعب وعار ! ولأن يعجب بهن رجال مسنون فاسقون ماجنون يجرون وراءهن ويخرجون ألسنتهم متلمظين ، فلا ضير ! الا أن هنالك شبيبة طاهرة يجب أن نحميها • لم يبق الا أن يبصق المرء تفرزاً واشمزازاً • ان السيدة من هؤلاء تذرع الشارع جيئة وذهاباً ، ووراءها ذيل طوله متر يكس الأرض ويثير الغبار • وعليك أنت الذي يتفق أن تكون سائراً خلفها أن تغذ الخطى راكضاً حتى تتجاوزها ، أو أن تثب الى الطرف الآخر ، والا حشت أنفك وفمك برطلين من الغبار • ثم انها تجر هذا الحرير وراءها على الحصى ثلاثة كيلو مترات ، لا لشيء سوف أن تتبع • الموضة ، ، ومرتب زوجها من مجلس الشيوخ خمسمائة روبل في العام • ألا ان هذا هو مصدر جميع الرشاوى • انى لأبصق عندئذ بصوت صاحب مسموع •

لقد سجلت للقارىء هذا الحديث على نحو فيه شيء من روح السخرية ، وفيه ما كان فيه من حرارة وعنف حين جرى بينى وبين الأمير • ولكن الأفكار التي وردت في ذلك الحديث لا تزال أفكارى الى الآن •

قال الأمير مهتماً :

— ولم يقع لك شيء ؟

— أبصق وأمضى • وطبعاً أن السيدة تفهم ما أعنى ، ولكنها لا تظهر شيئاً ، بل تظل مقتحمة طريقها على فخامة وأبهة وجلال لا تلتفت الى ولا تلوى على شيء • مرة واحدة قام شجار بينى وبين امرأتين تجران كلتاهما ذيلين فى الشارع • لم أنطق بألفاظ نابية طبعاً ، ولكننى قلت بصوت عال ان هذين الذيلين يؤذيان بصرى •

— قلت ذلك هكذا ؟

— طبعاً • ان هذه المرأة تدوس أولاً قواعد المجتمع ثم هى عدا ذلك

تثير عجاجاً فى شارع حافل بالناس : فأنا- أتتزه ، وشخص آخر يتتزه ،
 وشخص ثالث يتتزه أياً كان هذا الشخص سواء أكان اسمه
 فيدور أم كان اسمه ايفان . . . ذلك ما قلته بصوت عال . ثم اتنى على وجهه
 العموم لا أحب مثية النساء حين تترى من خلف . قلت ذلك أيضاً ولكننى
 قلته تلميحاً لا تصريحاً .

— ولكن كيف تفعل ذلك يا صديقى ؟ قد تسبب لنفسك أذى .
 ان فى امكانهن أن يشكينك الى القضاء .

— مستحيل . ما عسى أن تكون شكواهن ؟ رجل مر بجانبهن ،
 وكلم نفسه . ان من حق كل انسان أن يفصح عن رأيه فى الهواء . لقد
 قلت كلاماً مجرداً لم أتجه به اليهن . هن اللواتى هاجمتنى . أخذن يقلن
 كلمات نابية ، أسوأ كثيراً من كلماتى . قلن اتنى ولد قليل الأدب ، واتنى
 يجب أن 'أحرم من الحلوى ، واتنى من أتباع المذهب العدمى ، وان عليهن
 أن يأخذننى الى الشرطة ، واتنى انما تشبعت بهن لأنهن وحدهن ولأنهن
 ضعيفات ، واتنى كنت سألوذ بالفرار لو كان معهن رجل . فما زدت على أن
 طبلت منهن ببرود أن يدعثنى وشأئى ، فانى منتقل الى الجهة الأخرى . غير
 أننى أضفت الى ذلك : « ولكن من أجل أن أبرهن لكن على أننى لا أخشى
 رجالكن واتنى مستعد لأن استجيب للتحدى ، فهأنذا أتبعكن لأقف على
 مسافة عشرين متراً من منازلكن أنتظر أن يخرج الى رجالكن . . » .

— أهذا ممكن ؟

— طبعاً . كان ذلك حماقة منى ، ولكن دمنى كان فائراً فوراً
 شديداً . هكذا جررتنى وراءهن مسافة تزيد على ثلاث كيلو مترات ، فى
 جو خافق من الحر الشديد ، حتى « معهد الأوانس » . ثم دخلن داراً
 من خشب بلا طوابق ، داراً لائقة والحق يقال ، تترى من خلال نوافذها
 أزهار كثيرة ، وطائران من طيور الكنارى ، وثلاثة كلاب جميلة ، وطائفة

من لوحات ذات أطر • لبثت أمام البيت في وسط الشارع نصف ساعة •
 فرأيتهن يطلن ثلاث مرات خفية ؟ ثم أسدلن جميع الستائر • وأخيراً
 خرج من باب صغير موظف طالعن في السن ، إذا صدق ما تدل عليه سمته ،
 يرتدى ثوباً مما يلبس في المنزل ، أو رداء بسيطاً على كل حال ، فوقف
 أمام الباب ، ينظر الى واضعاً يديه وراء ظهره ؟ ونظرت اليه ، فحول بصره
 عنى ، ثم نظر مرة أخرى واتسم لى • فأدبرت ظهرى ، وانصرفت •

— ولكن هذا من شأن شيلر يا صديقى • هناك أمر آثار دهشتى
 دائماً : ان خديك لخمراوان ، وان وجهك ليفيطن عافية • فهل يشمئز
 من النساء من كان كذلك ؟ أيعقل أن لا تثير فيك المرأة شيئاً وأنت في هذه
 السن من ريعان الصبا ؟ يا عزيزى (١) ، كنت أنا في الحادية عشرة من
 عمرى حين نبهنى المربى الذى كان يتولى تنشئتى أننى أسرف فى الاقتراب
 من تماثيل « حديقة الصيف » للنظر اليها •

— أتريد منى يا أمير أن أذهب الى « امرأة » ما من تلك الأماكن ،
 الى « جوزيفين » ما ، ثم أعود أثقل اليك أخباراً عنها ؟ ! أنا أيضاً رأيت
 عرى المرأة كاملاً ولما أتجاوز الثالثة عشرة •• ومنذ ذلك الحين انما
 شعرت منه بالاشمزاز •

— أتقول هذا جاداً أم هازلاً ؟ يا بنى (٢) ، ان امرأة نصرة لهى
 تفاحة عبة ؟ أين فى هذا ما يثير هذا الاشمزاز كله ؟ •

— حين كنت فى مدرستى الداخلية القديمة ، عند توشار ، أى
 قبل دخولى المدرسة الثانوية ، كان لى رفيق اسمه لامبير • كان لامبير هذا
 يضربنى دائماً ، لأنه كان أكبر منى بثلاث سنين ، وكنت أنا أخدمه

(١) بالفرنسية فى الاصل •

(٢) بالفرنسية فى الاصل •

وأخلع له حذاهيه • ففى يوم تقديسه الذى يعقب التعميد جاء القس ريجو يزوره بمناسبة تناوله الأول ، فرأيت الاثنين يرتى كل منهما على عنق صاحبه والدموع تهطل من عينيه ، ورأيت القس يضمه الى صدره ويربت على ظهره • فبكيت أنا أيضاً ، وحسدته حسداً كبيراً • فلما توفى ابوه خرج من المدرسة الداخلية ، ثم لم أره بعد ذلك سنتين بل أكثر ، الى أن لقيته فى الشارع مصادفةً فى ذات يوم • فقال لى انه قد يجرى الى زائراً بعد حين • وكنت قد دخلت المدرسة الثانوية ، وكنت أقيم لدى نيقولا سيمينوفتش • فاذا هو يجيئنى فى ذات صباح ، ويرينى خمسائة روبل ، ويسألنى أن أتبعه • لقد ظل يضربنى فى الماضى عامين كاملين ، ومع ذلك ما يزال فى حاجة الى • لا لأخلع له حذاهيه فحسب • وقص عليه أموره كلها • فقال انه قد سرق هذا المال من أمه فى ذلك اليوم نفسه ، بعد أن صنع مفتاحاً مماثلاً لمفتاح صندوقها ، لأن هذا المال حق له من ارث أبيه شرعاً ، ولا يجوز لأمه أن تمنعه عنه بعد الآن • وقال ان القس ريجو قد جاءه امس مساءً يريد أن يلقي عليه درساً فى الأخلاق : دخل الى البيت ، ووقف أمامه ، وأخذ يشن ويتذمر ، مظهرًا أشد الاستياء ، رافعاً ذراعيه نحو السماء • « فما كان منى الا أن استللت سكينى وقلت انى سأذبحه (قال سأذبحه) • • • ومضينا معا الى كوزنفسكى • فأسرنا الى أثناء الطريق أن أمه قد كانت لها علاقة بالقس ريجو ، وأنه قد لاحظ هو ذلك ، وأنه أصبح لا يعبأ بشيء ، ويرى أن كل ما يقال عن التناول سخافات • وتكلم كثيراً أيضاً • وكنت أشعر أنا بخوف • واشترى فى كوزنفسكى بندقية ذات طلقتين ، وخرجاً مما يحمله الصيادون ، وخراطيش وسوطاً مجدولاً ، ورطلاً من حلوى ، ومضينا نصطاد فى الضواحي • ففىما نحن فى الطريق صادفنا رجلاً من باعة الطيور يحمل أقفاصاً ، فاشترى منه لامير عصفوراً من عصافير الكندارى • فلما وصلنا الى غابة صغيرة أطلق لامير المصفور الذى كان لا يستطيع أن يطير بعيداً

عقب خروجه من القفص ، فأطلق لأمير عليه من بندقيته ولكنه أخطأه . كانت تلك أول مرة يطلق فيها ، ولكنه كان يود أن يشتري بندقية منذ زمن طويل ، منذ كنا معاً لدى توشار : كان ذلك حلماً لنا كلينا من ذلك الزمان . كان كالمختق من فرط الانفعال . ان شعره أسود سواداً مخيفاً ، ووجهه أبيض على احمرار بلون الأرجوان فكأنه قناع ، وأنفه طويل أقي كأتوف الفرنسيين ، وأسنانه بيضاء وعينه سوداوان . شد العصفور بخيط الى غصن من الأغصان ، وسدد اليه من مسافة أربع سنتيمترات ، ثم أطلق عليه من مدفيه كليهما ، فبعثره ألف ريشة صغيرة . . . وقفلنا راجعين ، فدخلنا أحد الفنادق ، واستأجرنا غرفة وأكلنا وشربنا شمبانيا . ووصلت سيدة . . . أذكر أن بذخ ملابسها قد لفت انتباهي وأن ثوبها الحريري الأخضر قد خطف بصري . وهناك رأيت كل شيء . . . رأيت ماحدثت عنه . . . ثم عدنا نشرب . . . وعاد هو يفيظها ويشتمها . كانت خالعة ملابسها . وأخفى هو ثوبها ، فلما نار غضبها وطالبت بثوبها لترتديه ، جلدها بسوطة جلدة قوية على كتفيها العاريتين . فنهضت وأمسكت به من شعره امسكاً قوياً بلغ من الاحكام أنه سقط على الأرض فوراً . فتناول شوكة وأخذ يفرزها في فخذي . فلما أخذت أصبح هرع الينا الناس ، واستطعت أن أهرب . ومنذ ذلك الحين أصبح العري يثير في نفسي التقزز . وصدقني اذا قلت لك انها كانت آية من آيات الجمال .

كنت وأنا أقص على الأمير هذه الحكاية أرى وجهه يتقلب بين الاشراح والحزن .

— مسكين أنت يا بني (١) . لقد كنت دائماً على اقتناع بأن طفولتك عرفت أياماً شقية كثيرة .

— لا يقلقنك شأني ، أرجوك .

(١) بالفرنسية في الاصل .

- ولكنك كنت وحدك • أنت نفسك قلت لى ذلك • أما ذلك
الفتى لامير ^(١) فقد رسمت لى صورته •• طير الكنارى ، ذلك القديس
الذى رافقته دموع على الصدر ، ثم قصة أمه مع القس بعد عام •• آه
يا عزيزى ^(٢) • مشكلة الطفولة هذه أمر رهيب فى عصرنا هذا :
فما ظلت هذه الرموس الذهبية ذات الضفائر والبراءة تتطور فى طفولتها
الأولى أمامنا وتنظر الينا بضحكاتها الصافية ونظرانها المشرقة ، فانا
نحسبها ملائكة سماء أو عصافير صغيرة رائعة •• حتى اذا انقضى ذلك
كله •• فقد يحدث أن يكون من المفضل أن لا يكونوا قد شبوا عن
الطوق !

- هانت ذا متشائم يائس أيها الأمير • حتى لكأن لك أولاداً
بالفعل • ومع ذلك ليس لك أولاد ولن يكون لك أولاد فى يوم
من الأيام •

- عجيب ! ^(٣) •

هتف بذلك وقد تغير وجهه فجأةً وأضاف :

- أول أس ، هه هه ! أول أس تماماً ، حين قلت لألكسندرا
بتروفا سيتسكاللا - لاشك أنك صادفتها هنا منذ ثلاثة أسابيع - حين قلت
لها على سبيل المزاح اننى اذا تزوجت الآن فانى أكون على الأقل مطمئناً
الى أننى لن أنجب •• أجابتنى فجأةً ، بل أجابتنى بشيء من حقن قائلة :
بالمعكس ، ستعجب ؟ ان رجالاً مثلك هم الذين لابد أن ينجبوا حتماً ،
وستعجب منذ السنة الأولى ، سترى • ، هه هه ! ان جميع الناس يتصورون
أننى سأتزوج • لا أدري لماذا يتصورون ذلك ! يجب أن تعترف على كل
حال أن كلامها فكه مضحك ، رغم انه قيل فى خبث •

- فكه مضحك ؟ بل انه لمثير مزعج !

(١،٢،٣) بالفرنسية فى الأصل •

- أوه يا بنى (٩) ! هناك أناس لا يمكن أن يزعل المرء من كلامهم . وان روح المزاح التى توشك أن تزول هى ما أقدره فى الناس أكثر من أى شئ آخر ؟ ثم هل يمكن أن يقيم المرء وزناً لكلام تقوله الكسندرا بتروفا ؟

- كيف ؟ ماذا قلت ؟ هل قلت ان هناك أناساً لا يجب أن .. أهذا ما قلته ؟ صدقت .. ما من انسان يستحق أن يلتفت اليه . تلك قاعدة رائعة ! هذه القاعدة هى بعينها ما أنا فى حاجة اليه . لسوف أسجلها .
انك لتتلق أحياناً بحكم رائعة أيها الأمير !

وأشرق وجهه كله !

- ألسبت ترى يا بنى العزيز أن روح الفكاهة الحقيقية هى الآن بسبيل الاختفاء ، وأنها تزول يوماً بعد يوم ؟ ولكن .. ولكنى أعرف أنا النساء ! (٩) صدقتى اذا قلت لك ان حياة كل امرأة ، مهما يكن كلامها ، ليست الا بحثاً أبدياً عن سيد .. ان فيها ظمأ الى الطاعة ان صح التعبير احفظ هذا الكلام .. ولا تمسثن منهن واحدة .

- صحيح اطلاقاً ! رائع !

كذلك هتفت متحمساً . وكان يمكن أن تندفع فوراً فى تأملات فلسفية حول هذا الموضوع ، مدة ساعة على الأقل ، لولا أن شعرت فجأة بأننى كمن "لسع" ، واحمر وجهى احمراراً شديداً . لقد خيل الى أننى كنت بامتداح كلامه أتملقه من أجل ماله ، وأنه سيظن ذلك على كل حال حين سأطلب اليه أجرى . ومن أنجل هذا انما أذكر هذه الواقعة هنا .

- أيها الأمير ، سأكون شاكراً لك أجزل الشكر اذا أمرت بأن يدفع

(٢٠٩) بالفرنسية فى الأصل .

لى فى هذا اليوم نفسه مبلغ الخمسين روبلاً ، وهو راتبى عن هذا الشهر •
كذلك سقت الكلام سريعاً بجملة واحدة ، مع شىء من الاحتياج
يوشك أن يكون فظاظه •

وانى لأذكر (لأننى أتذكر ذلك الصباح كله بأدق تفاصيله) أنه
وقع عندئذ بيننا مشهد كريمة دميم • انه لم يفهم كلامى فى أول الأمر ،
بل نظر الىّ طريلاً لا يدرك أى مال أعنى • كان واضحاً أنه لم يكن
يتصور أننى أتقاضى أجراً • وفيهم عسلى أستحق أجراً ؟ صحيح أنه أكد
لى بعد ذلك أنه كان قد نسي الأمر ، ثم لم يلبث بعد أن فهم ، أن تناول
خمسین روبلاً مرة واحدة ، بسرعة شديدة ، واحمرار واضح • فلما رأيت
ذلك كله ، نهضت من مكاني وأعلنت له جازماً أننى أصبحت لا أستطيع
أن أقبل مالاً وأن ما ذكر لى من أننى سأقضى أجراً كان من قبيل الخطأ
أو الخداع من غير شك ، وذلك حتى لا أرفض الوظيفة ، واننى أفهم الآن
أنه لم يكن من المفروض أن أتقاضى شيئاً ، اذ لم يكن لى عمل أقوم به •
فارتاع الأمير وحاول أن يقنعنى بأننى قدمت له خدمات كبيرة ، وبأننى
سأقدم له مزيداً من الخدمات ، وأن خمسين روبلاً مبلغ زهيد جداً ،
وأنه سيزيد لى هذا المبلغ ، فذلك واجبه ، وأنه كان قد اتفق على هذا
مع تاتيانا بافلوفنا ، لكنه ارتكب « نسياناً لا يقتفر » • فانفجرت وأعلنت
جازماً أننى ألتح شرفى اذا أنا تقاضيت أجراً على قصص فاضحة رويتها
له عن ملاحظتى امرأتين حتى « معهد الأوائس » ، وقلت اننى لم أدخل
فى خدمته من أجل أن « أسليه » بل من أجل أن أقوم بعمل جاد مفيد ،
فاذا لم يكن هنالك عمل أقوم به ، فلا بد أن أمضى ، الخ الخ • ما كنت
أتخيل أن امرأاً يمكن أن يصيبه من الارتياح ما أصاب الأمير بعد سماعه
هذه الكلمات القليلة • على أن الأمور انتهت كما يلى : كفت عن
الاحتجاج ، ودس الأمير المبلغ فى يدي قسراً •

مايزال جينى يحمر حين أتذكر أننى قبلت هذا المال ! ان كل

شيء في هذه الحياة الدنيا ينتهي دائماً بصغار وحقارة • والأُنكى من ذلك أنه كاد يبرهن لي على أنني كسبت هذا المال حقاً لا مراء فيه ؛ وكنت من الحماقة بحيث صدقته لقد • بدا لي أنه يستحيل على إطلاقاً أن لا أخذه •

- يابني العزيز ، يابني العزيز ^(١) (صاحب كذلك وهو يعانقني ويفرقني بالقبل - ويجب أن أعترف أنني كنت أوشك أن أبكي لا أدري لماذا ، ولكنني ملكت زمام نفسي وحسبت دموعي ؛ وحتى الآن ، وأنا أكتب هذه الأسطر ، يصعد الدم الى رأسي ويحمر وجهي -) يا صديقي العزيز ، أنت لي بمنزلة ابن ، وقد أصبحت خلال هذا الشهر جزءاً من قلبي ! ليس في « المجتمع » الا « ناس » ، ولا شيء غير ذلك • ان كاترين نيقولايفنا (ابنته) امرأة لامعة مرموقة ، واني لفقخور بهذا ، ولكنها كثيراً ما تجرح شعوري يا عزيزي •• أما أولئك البنات (وهن في غاية الظرف واللطف ^(١)) وأمهاتهن اللواتي يأتين مباركات مهتات بعيدى ، فهن يحملن الى الهدايا من جميل مطرراتهن ، ولكنهن عاجزات عن قول كلمة واحدة • اننى أملك الآن من هذه المطررات حوالى ستين مخدة كما أملك من هداياهن كلابا كثيرة ووعولاً جميلة • اننى أحبهن كثيراً ، أما أنت ففسأنى معك شأن آخر • اننى أكاد أشعر حين أجالسك بأننى مع ابني ، أو قل مع أخى ، وما أكثر ما أحب أن تجاوبني وترد على •• انك على حظ من المعرفة بالأداب •• لقد قرأت •• وأنت قادر على الحماسة •

- أنا لم أقرأ شيئاً ، وليس لي من المعرفة بالأداب أى حظ • قرأت ما اتفق أن وقع في يدي • وفي الستين الأخيرتين لم أقرأ شيئاً البتة ، ولن أقرأ بعد اليوم شيئاً البتة أيضاً •

- لماذا ؟

(١) بالفرنسية في الأصل •

ـ الى أهداف أخرى

ـ يا عزيزى (١) ، لسوف يكون مؤسفاً أن تقول فى أواخر حياتك ما أقوله أنا الآن : أعرف كل شيء ، ولكننى لا أعرف أى شيء .
 تافع (١) . اتنى لا أدرى حقاً لماذا عشت ! غير أننى مدين لك بأمور كثيرة . بل لقد كنت أريد . . .

وقطع الأمير حديثة فجأة ، وأظلم وجهه ، وأصبح حالماً . انه بعد كل هزة (وكانت هذه الهزات يمكن أن توافيه فى كل لحظة ، لا يعلم سبب ذلك الا الله) ، يفقد فى العادة قدرته على التفكير والتصرف بعض الوقت ؛ الا أنه يبلغ من السرعة فى السودة الى حالة الطبيعية أن ذلك كان لا يضيره كثيراً . وظللنا على هذه الحال مدة دقيقة . كانت شفته السفلى ، السمىكة ، متدلية تدلياً تاماً . . والأمر الذى أثار دهشتى أكثر من أى شيء آخر هو أنه ذكر اسم ابنته ، وخاصةً بهذه الصراحة كلها . وقد عزوت ذلك الى ما اتابه من اضطراب الفكر .

قال فجأة :

ـ بنى العزيز (٣) . أنت لا تؤاخذانى ، أليس كذلك ؟ أنت لا تؤاخذنى اذا خاطبتك بصيغة المفرد ؟

ـ أبدأ . على أننى أعترف لك أن ذلك قد ساءنى فى المرات الأولى قليلاً ، حتى لقد أردت أن أبادلك ذلك فأخاطبك بصيغة المفرد . ولكننى أدركت أن ذلك يكون حماقةً منى ، لأنك لا تخاطبني بصيغة المفرد على سبيل الاحانة والاذلال .

ولاحظت أنه كان قد كف عن الاصفاء الى ونسى السؤال أساساً ،
 بينما كنت أتكلم .

ورفع الى نظرتة الشاردة فجأةً وسألنى :

- وأبوك ؟

انتفضت • أولاً لأنه سمى فرسيلوف أبى ، وذلك ما لم يبحه
لنفسه يوماً قط • وثانياً لأنه تكلم عن فرسيلوف بادئاً ، وذلك ما لم يحدث
من قبل •

قلت فى جفاف ، وأنا احترق رغبةً فى الاطلاع :

- انه بلا مال ، يجتبر أفكاراً سوداء مظلمة •

- نعم ، انه بلا مال • وفى هذا اليوم نفسه انما تُنظر قضيتهم فى
محكمة النقض والابرام ، وأنا أنتظر الأمير سرجى لأسمع ما سيقوله •
لقد وعدنى أن يجرى من المحكمة الى هنا رأساً • ان مصيرهم كله يتقرر
اليوم : والأمر أمر ستين ألفاً أو ثمانين • طبعاً أنا أحب الخير لأندرم
بتروفتش (أى فرسيلوف) ، وأظن أنه هو الذى سيكسب القضية • ولن
ينال الأمراء شيئاً • ذلك هو القانون !

صحت مبهوراً :

- أليوم 'يفصل فى القضية ؟

لقد امتلأت انبهاً حين تصورت أن فرسيلوف لم يتنازل فينبئنى بهذا
الخبر • وسرعان ما قلت لنفسي « لاشك اذن أنه لم 'يطلع أمى ولعله لم
يطلع أحداً قط • • »

وفجأةً وافتنى فكرة أخرى فسألت :

- وهل الأمير سوكولسكى هو الآن بطرسبرج ؟

- منذ أمس • جاء رأساً من برلين ، لهذا اليوم •

وهذا نبأ آخر بالغ الخطورة عندى • • سيجى اليوم الى هنا ،
الرجل الذى قام هو بالصفحة • • •

- أى نعم ! (أردف الأمير يقول وقد تغير وجهه فجأة) انه لا يزال يعظ ! .. ولا شك .. أنه لا يزال يجرى وراء الفتيات ، الفتيات الصغيرات اللواتى ليس لهن فى الحياة تجارب ! هه هه ! بالمناسبة ، عندى نادرة من النوارد المضحكة جداً !

- من الذى يعظ ؟ من الذى يجرى وراء الفتيات ؟

- آندره بتروفتش ! هل تصدق أنه كان لا ينفك يضايقنا جميعاً : ماذا نأكل ؟ فى أى شىء نفكر ؟ وأسئلة أخرى من هذا القبيل . كان يخيفنا . كان يقول لنا مثلاً : « اذا كنتم متدينين ، فلماذا لا تدخلون الدير ؟ » ، هكذا ، لا أكثر ولا أقل . يا لها من فكرة ! (١) لعله كان على صواب . ولكن أليس هذا قاسياً ؟ وكان يجب أن يخيفنى أنا خاصة ، كان يجب أن يخيفنى بالحديث عن قيام الساعة ويوم الحساب . أنا خاصة .

- لم الأخط شيئاً من هذا وقد انقضى شهر على وجودنا معاً .

قلت ذلك نافذ الصبر ، وقد ساءنى أنه لم يعد الى رشده وأنه لا يزال يتعثر فى كلامه ويسوقه فوضى بغير ترتيب ..

- ذلك أنه أصبح لا يقول لى هذا الكلام . ولكن صدقنى . هذا حق . انه رجل ذكى لا يُجحد ذكاؤه ، وانه عميق العلم ، ما فى ذلك شك . ولكن هل هو مترن ؟ لقد وقع له هذا كله بعد اقامته فى أوروبا ثلاث سنين . واني لأعترف لك بأن ذلك هزنى هزاً قوياً .. كما هز سائر الناس على كل حال .. اننى أحب الله يا بنى (١) اننى مؤمن ، مؤمن بقدر ما أستطيع .. ولكنه قد أخرجنى عن طورى فى تلك اللحظة .. ولنسلم بأننى استعملت وسيلة كان فيها شىء من طيش .. لقد فعلت ذلك عامداً ، من قبيل النكاية . ثم ان اعتراضى كان فى حقيقة الأمر

(٢٠١) بالفرنسية فى الاصل .

لا يقل جديةً عنه منذ بدء العالم • قلت له : « اذا كان يوجد كائن أسمى ،
واذا كان يوجد وجوداً شخصياً ، لا على صورة روح مبنوثة في الخليقة ،
على صورة سائل مثلاً (لأن هذا أعسر على الفهم أيضاً) ، فأين هو هذا
الكائن الأسمى ، أين مكانه ؟ ، يا صديقي ، لقد كن هذا الكلام هراءً
سخيفاً من غير شك • ولكن ألا ترتد جميع الاعتراضات اليه ؟ وقد غضب
غضباً رهيباً • ذلك أنه كان قد اعتنق الكاثوليكية هنالك •

— سمعت من يقول هذا • ولا شك في أنه كذب واختلاق •
— أؤكد لك أن هذا هو الواقع ، وأحلف عليه بأقدس ما أقدس •
أنظر اليه وأنعم النظر ! ثم انك أنت نفسك تقول انه تبدل • فهل تصدقه
يوم كان يرهقنا ذلك الارهاق كله ؟ كان يصطنع أوضاع قديس ، فلا
يكاد ينقصه الا أن يقوم بمعجزات • كان يحاسبنا على سلوكنا حساباً
عسيراً ، أقسم لك • معجزات •• واليك شيئاً آخر ^(١) • انه سواء أكان
راهباً أم زاهداً ، فانه يتجول هنا بمسوح على كل حال •• أما الباقي ••
وبعد هذا يتكلم على المعجزات ! ألا انها لرغبة غريبة لدى انفسان من
المجتمع الراقى ! لست أدعى طبعاً أن •• فذلك أشياء مقدسة ، وكل شيء
يمكن أن يقع •• أضف الى ذلك أن هذا كله من باب المجهول ^(١) •
لكن الأمر لا يليق بانفسان من المجتمع الراقى • واني لأقسم لك صادقاً
غير حائن أن هذا الشيء لو وقع لي أو غرض عليّ لرفضته • هبني أتناول
اليوم طعام الغداء في النادي ، ثم اذا بي أصنع معجزات ^(١) على حين
غرة • لسوف يضحك عليّ الناس عندئذ •• وهل تعلم أنه كان يحمل
سلاسل ؟

احمر وجهي غضباً فسأله :

— هل رأيت أنت هذه السلاسل ؟

(١) بالفرنسية في الاصل •

— لم أرها ، ولكن ...

— اذن فذلك أكاذيب ، تلك أراجيف باطلة ، تلك نميمة أعداء
بل قل انها نميمة عدو واحد ، لأنه ليس له الا عدو واحد ، هو ابتك *
وانفجر الأمير هو أيضاً قائلاً :

— يا عزيزي (١) ، أرجوك وألح في الرجاء أن لا يُذكر اسم
ابنتي بعد اليوم بصدد هذه الحكاية البشعة !
وهممت أن أنهض * لقد خرج الأمير عن طوره ، وكانت ذقنه
ترتجف ارتجافاً *

— هذه القصة البشعة ! (١) أنا لا أصدقها .. ولم أشأ يوماً أن
أصدقها .. ولكن قيل لي .. صدق أنتى .. صدق أنتى ..
ودخل علينا خادم فى تلك اللحظة يبلغ عن قدوم زائرين * ففعدت *

(١) بالفرنسية فى الاصل *

دخلت سيدتان ، بل قل فتاتان .. احدهما هي زوجة ابن أحد أبناء عمومة المرحومة زوجة الأمير ، أو هي شيء من هذا القليل . انها واحدة ممن يرعاهن الأمير ، وكان قد وهب لها مهرأ ، وهي تملك ثروة ضخمة (أذكر هذا الآن للمستقبل) . أما الثانية فهي أنا آندريفنا فرسيلوفا ، بنت فرسيلوف ، التي تكبرني بثلاث سنين وكانت تعيش مع أخيها لدى فاناريوتوفا ، والتي لم أكن قد رأيتها قبل ذلك الا مرة واحدة ، مصادفةً في الشارع ، رغم أنني كنت قد تشاجرت مع أخيها ، مصادفةً كذلك ، في موسكو (قد أجيء على ذكر هذه المشاجرة التافهة فيما بعد ، اذا وجدت متسعاً لذلك ، لأنها لا تستحق في الواقع عناء الحديث عنها) . ان أنا آندريفنا هذه كانت منذ طفولتها أليفة الأمير الكبرى (كانت علاقات الأمير بفرسيلوف قد بدأت منذ زمن بعيد جداً) . كنت قد بلغت من الاضطراب بسبب ما حدث قبيل دخولهما أنني لم انهض ، رغم أن الأمير هبّ واقفاً لاستقبالهما . ثم قدرت بعد ذلك أنه سيكون أمراً مخجلاً أن انهض بعد فوات الأوان ، فلبت جالساً في مكاني . وكنت على وجه الخصوص متحيراً لا أدري ماذا أفعل ، بعد أن صرخ الأمير في وجهي ثلاث مرات قبل دقائق ثلاث ؛ ولبت لا أدري أيجب أن أنصرف أم يحسن أن أبقى . ولكن العجز الطيب كان قد نسي كل شيء على عادته ، وارتدت اليه حرارته كاملةً جميلةً حين رأى الفتاتين . حتى لقد استطاع أن يسارع فيغير سحنه ، ويغمزني غمزةً عجيبةً ، ليهمس في أذني على عجل قبيل دخولهن قاتلاً :

- أنظر الى أولب جيداً ، أنعم النظر فيها .. وسأروى لك فيما

بعد ..

وقد أنعمت النظر اليها فعلاً ، فلم أجد فيها شيئاً خاصاً يلفت
البصر : هى فتاة متوسطة القامة ، بدينة الجسم ، حمراء الحدين احمراراً
شديداً . وجهه ممتع على كل حال ، من تلك الوجوه التى ترضى
الشهوانيين . ولقد يعبر عن طيبة ، لكنه يعبر أيضاً عن خفايا . ليس
الذكاء هو الذى يمكن أن يجعل هذه الفتاة لامة ، وأعنى بالذكاء معناه
العالى فى أقل تقدير ، لأن المكر واضح فى عينيها . انها تتجاوز التاسعة
عشرة من عمرها . لا شئ فيها يخطف البصر اذن . فلو كنا فى المدرسة
الثانوية لوصفناها قائلين : مخدة طرية . (اذا كنت أصفها هذا الوصف
المفصل كله فما ذلك الا لأنه سيفيدنى فيما بعد)

هذا الى أن كل ما وصفته حتى الآن مفصلاً هذا التفصيل الذى قد
يبدو نافلاً لا غناء فيه ولا حاجة اليه ، انما هو توطئة لازمة لما سيلي من
حديث ؟ انى لم أستطع أن أتخاشى ذكر هذه التفاصيل . فان وجدتم
كلامى مملاً باعثاً على السأم فلا تقرأوا .

أما بنت فرسيلوف فهى شخص آخر مختلف كل اختلاف : هى
فتاة فارعة القوام ، أميل الى النحافة ، ذات وجه يضاوى واضح الشحوب ،
ولكن شعرها فاحم غزير ؟ عيناها قاتمتان واسعتان . نظرتها عميقة .
شففتها رقيقتان بلون الارجوان . فمها غض نصير . انها أول امرأة لم
توقظ مشيتها فى نفسى شيئاً من اشمزاز . ثم انها رقيقة الحاشية على
شئ من جفاف . وجهها لا يعبر عن طيبة القلب بقدر ما يعبر عن الجد
والاتزان . وهى فى الثانية والعشرين من عمرها ولا يكاد مظهرها
يشبه مظهر أيتها فى شئ . ومع ذلك يشعر المرء ، لا أدري كيف ، بأن
بينها وبينه شياً عجيباً خارقاً فى تعبير الوجه والسحنة . لا أدري أهى

تعد جميلة أم لا ، فالأمر هنا أمر ذوق • وكانت الفتاتان كلتاهما ترتديان ملابس بسيطة متواضعة ، ليس فيها ما يستحق أن يوصف • وكنت أتوقع أنني لن ألبث أن تجرح شعوري نظرة من فرسيلوفا أو حركة • وتهيات للأمر • لشد ما أهانني أخوها في موسكو منذ أول لقاء بيني وبينه في هذه الحياة ! وما كان يمكن أن تعرفني اذا رأيتني ، ولكن لا شك أنها كانت قد سمعت عن وجودي لدى الأمير • فقد كان كل ما يتسويه الأمير أو يشرع فيه أو يقوم به يثير اهتماماً سريعاً ويبدو حدثاً كبيراً لدى كل هذه العصابة من الأقرباء « والأدعياء » : فكان شغفه بي على حين فجأة أحق باهتمامهم • وكنت أعلم علم اليقين أن الأمير مهتم أشد الاهتمام بمصير آنا آندريفنا ، وأنه كان يبحث لها عن خطيب • ولكن العثور على خطيب لفرسيلوفا كان أعز منلا من العثور على خطيب لواحدة من أولئك اللواتي كن يطرزن له الطنافس •

وعلى خلاف كل ما كنت أتوقع رأيت فرسيلوفا ، بعد أن صافحت الأمير وبادلته بعض الملاحظات الاجتماعية ، تلقى على نظرة استطلاع قوية ، حتى اذا لاحظت أنني أرنو إليها ببصرى أيضاً ، انحنت على حين فجأة متبسمة • صحيح أنها كانت قد دخلت منذ هنيهة قصيرة ، وأنها انحنت كما انحنت في المرة السابقة ، ولكن ابتسامتها قد بلغت من اللطف مبلغاً يدل دلالة واضحة على أنها كانت مقصودة • وما زلت أذكر أنني شعرت من ذلك عندئذ بمتعة رائعة تبعث على الدهشة •

تمتم الأمير متلعثماً وقد لاحظ أنها حيتني وأنتى لبثت قاعداً :

- وهنا ••• هنا ••• صديقى العزيز الشاب أركاد آندريفتشى

دول •••

وانقطع فجأة عن اتمام جملة • لعله خجل أن يقدمنى إليها (أى أن يقدم أحاً لأخته) • وحيتنى المخدة الطرية أيضاً • ولكننى ما لبثت

أن على الدم فى عروقى فجأة ، بحماسة شديدة ، فوثبت عن مقعدى : هى
اندفاعه زهو مصطنع لا معنى لها البتة • هى أنايتى نفسها لم تتغير !
قلت أقاطع الأمير مقاطعة عنيفة ، ناسياً أنه كان على أن أرد تحية
السيدات ، كما توجب ذلك آداب اللباقة :
- عذراً أيها الأمير ، أنا لست آرКАД آندريفتش ، بل آرКАД
ماركوفتش •

- ها ... نعم ! (٩) •

كذلك هتف الأمير وهو يلطم جبينه بأصبعه •
ودوَّى فوق رأسى سؤال غبى بعض الغباوة بطيء بمض البطء ،
ألقتة على « المخذة الطرية » وهى تقترب منى اقتراباً شديداً :
- أين تعلمت ؟

- بموسكو طبعاً ، فى الليسيه •

- ها ... نعم • قيل لى ذلك • هل التعليم فيها جيد ؟

- جداً •

كنت لا أزال واقفاً أجب كما يجيب جندى رئيسه •

لا تدل أسئلة هذه الفتاة على كثير من الخيال طبعاً • لكن هذا
لا ينفى أنها وجدت ما 'ينسى الآخرين اندفاعتى الحمقاء السخيفة ، وما
يهدى اضطراب الأمير ، الذى أخذ يصغى ، باهتمام فرحة ، الى الأشياء
المرحة التى كانت تهمس له بها فرسيلوفا (كان واضحاً أن الحديث بينهما
لم يكن عنى) • ولكن لماذا قدرت هذه الفتاة التى لا أعرفها البتة أن من

(١) بالفرنسية لى الاصل •

المفيد أن تقول ما يُنسى حماقتى الهوجاء وغير ذلك ؟ ان من المستحيل على المرء أن يصدق أنها فعلت معى ذلك لغير سبب : لا شك أن لها نية • وكانت تنظر الى نظرة استطلاع شديد • لكأنها كانت تريد ، هى أيضا ، أن أكثر من النظر اليها ما أمكن • قلت هذا كله لنفسى ••• ، ولم يخطئ ظنى •

صاح الأمير يقول فجأة وهو ينهض عن مقعده :

- كيف ؟ اليوم ؟

فقال فرسيلوفا مدهوشة :

- اذن أنت لا تعرف ذلك • يا آلهة الأولمب (بالفرنسية) •

كان الأمير لا يعلم أن كاترين نيقولايفنا قد وصلت اليوم •

وأضافت فرسيلوفا :

- لقد ذهبنا اليها وكنا نظن أنها ركبت قطار الصباح ، وأنها فى الدار منذ زمن طويل • ولكننا التقينا بها أمام سلم الباب ، واصله من المحطة رأساً ، فطلبت منا أن ندخل اليها ، وستجئ الى هنا بعد قليل •• بل هاهى ذى قد وصلت !

انفتح الباب الجانبى وضهرت تلك المرأة !

كنت أتخيل وجهها من قبل ، وذلك من صورة لها رائعة كانت معلقة فى مكتب الأمير • كنت قد درست هذه الصورة طوال ذلك الشهر • وفى حضورها ، قضيت فى ذلك المكتب ثلاث دقائق ، لا أحول بصرى عن وجهها لحظة واحدة • فلو كنت لا أعرف الصورة ، ثم سألتى بعد تلك الدقائق الثلاث : « كيف وجدتتها ؟ » ، لما أجبك ، لأننى كنت لا أرى رؤية واضحة •

لقد بقيت لى من تلك الدقائق الثلاث ذكرى امرأة جميلة حقاً ،
كان الأمير يعانقها وباركها بيده ، ثم اذا هو ، على حين غرة ، بعد دخولها
فوراً على وجه التقريب ، يلقي نظرة سريعة على * . ولاحظت بوضوح
كيف دمدم لها الأمير بضع كلمات ، وهو يومئ الى * من غير شك ، وكيف
أطلق ضحكة صغيرة فى حق سكرتيه الجديد وهو يسميني * .

ورأيها تبوّز وترمقنى بنظرة سيئة وتبتسم ابتسامة بلغت من الوقاحة
أننى تقدمت خطوة الى أمام ، فاقتربت من الأمير ، وتمتمت مرتعشاً
ارتعاشاً جنونياً ، دون أن أستطيع انهاء كلمة واحدة ، مصطك الأسنان
فيما أظن :

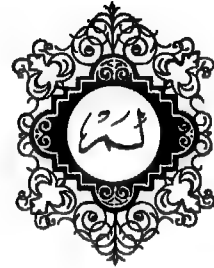
— اذن .. أنا .. أنا الآن .. مشغول .. أنا ذاهب * .

وأدريت ظهري وخرجت * . لم يقل لى أحد شيئاً ، ولا الأمير * .
اقتصروا جميعاً على ملاحظتى بأبصارهم * . وقد أسرّ لى الأمير فيما بعد
أننى بلغت من اصفرار الوجه أنه « شعر بخوف » * .

وما كان الى الخوف داع * .

الفصل الثالث

١



يمكن الى الخوف داع : كان هنالك اعتبار واحد
يستغرق جميع التفاصيل ، كانت هنالك عاطفة
قوية تعوض عندي كل ما عدا ذلك • خرجت
وأنا أشعر بنوع من الحماسة • وحين وضعت
قدمي في الشارع كنت على استعداد لأن أصدق مغنياً • وبصدفة كأنها
ميعاد ، كان ذلك الصباح رائعاً : شمس ، ومارة ، وضوضاء ، وحركة ،
وفرح ، وازدحام - كيف لم أشعر بأن هذه المرأة أهانتني ؟ ومن كان
يمكنني أن احتمل نظرة كهذه النظرة وابتسامة وقحة كهذه الابتسامة ،
دون أن أردّ ردّاً مباشراً مهما يكن أحق ؟ لاحظوا أنها انما جاءت
خصيصاً على نية اهانتني بأسرع ما يمكن ، من قبل أن تراني • كنت في
نظرها « سمسار » فرسيلوف ، وكانت مقتنعة منذ تلك اللحظة - وقد
ظلت على هذه القناعة زمناً طويلاً بعد ذلك - أن فرسيلوف كان يقبض
بيديه على مصيرها كله ، وأنه كان قادراً على تدميرها في أية ساعة ، اذا
هو أراد ذلك ، بواسطة وثيقة من الوثائق • • أو هذا ما كانت تشبه فيه
على كل حال • كانت المباراة مبارزة موت • ومع ذلك لم أشعر بانتي
أهنت • كان ثمة اهانة ، لكنني لم أحسها • بل لقد شعرت بفرح • لقد

جئت من أجل أن أكره ، فإذا أنا أحس اننى بدأت أحبها • « انى لأتساءل هل يستطيع العنكبوت أن يكره الذبابة التى يتربص بها ويقبض عليها • أيتها الذبابة المسكينه ! يخيّل الىّ أن المرء يجب فريسته ، أو انه يستطيع أن يحبها على الأقل • هكذا أحببت أنا عدوى • انى لسعيد سعادة رهيبة بأنها جميلة • اننى يا سيدتى لسعيد سعادة هائلة بأن تكونى متعجرفة هذه العجرفة كلها متكبرة هذا التكبر كله : لو كنت أكثر تواضعاً لكنتُ أنا أقل تلذذاً • لقد بصقت علىّ ، وأنا المنتصر فى الواقع • لو أنك بصقت فى وجهى فعلاً ، لما زعلت ، لأملك ضحيتى ، ولأنك لى أنا ، لا له هو ! ما أشد فتنة هذه الفكرة ! لا ، لا ، لأن يشعر المرء شعوراً خفياً بقدرته فذلك أمتع كثيراً من أن يكون مسيطراً سيطرةً ظاهرة • لو كنت غنياً أملك الملايين ، لطاب لى ، فيما أظن ، أن ارتدى ثياباً مرقمة ، وأن أوهم غيرى بأننى أبأس الناس طراً ، وبأننى شبه متسول ، وأن أجعلهم يزدروننى ويحتقروننى : حسبى عند ذلك شعورى بشرائى • • •

بهذا كنت أستطيع أن أفسر أفكارى وفرحى وكثيراً مما شعرت به يومذاك • لكننى أضيف الآن أن ما كتبت فى هذه اللحظات أكثر سطحية فى واقع الأمر : فالحق أننى كنت أعشق احساساً وأشدّ حياءً • وما زلت الى الآن أشدّ حياءً حقيقتى مما أقول ومما أفعل ، والحمد لله !

ولعلنى أخطأت اذ أخذت أكتب : ان ما يبقى فى أعماق نفسى من أمور أكثر كثيراً مما يظهر فى كلماتى • ما ظل تفكيرك فى داخلك ، فانه مهما يكن ضعيفاً يظل أعظم منه حين تفصح عنه • ان تفكيرك ، متى عبرت عنه ، يصبح أقرب الى الاضحاك وأبعد عن الصدق • لقد قال لى فرسيلوف ان نقيض هذا لا يصدق الا على الأشرار من الناس • ان هؤلاء لا يزيدون على أن يكذبوا ، فالكذب سهل عليهم • أما أنا فأتنى أحاول أن أكتب الحقيقة كلها : وفى هذا صعوبة هائلة •

فى ذلك اليوم ١٩ ، قمت بعمل آخر أيضاً .

لأول مرة منذ وصولى ، كان فى جيبي مال ، لأن الستين روبلاً التى كنزتها خلال سنتين ، كنت قد أعطيتها أمى ، كما سبق أن ذكرت ذلك . ولقد قررت منذ بضعة أيام أن أقوم ، متى قبضت راتبي ، بتجربة حلمت بها زمناً طويلاً . وكنت فى اليوم السابق قد قصصت من احدى الجرائد اعلاناً صادراً عن « المأمور الوزارى لدى مجلس محاكم الصلح فى بطرسبرج ، الخ الخ » يقول انه فى ذلك اليوم ١٩ ، عند الظهر ، فى تازان ، مديرية رقم كذا ، الخ الخ ، فى العمارة رقم كذا ، ستباع بالمزاد العلنى اثاثات السيدة لبرخت ، وأن « الجرد » وتقدير الأسعار والأشياء المعروضة للبيع ، يمكن الاطلاع عليها يوم البيع نفسه ، الخ الخ . . .

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية ، فمضيت الى المكان المعين سيراً على الأقدام . اننى منذ ثلاث سنين لا أتنقل بعربات (ولولا ذلك ما استطعت أن أدخر ستين روبلاً) . ولم أكن أذهب الى المزادات ، لم أكن قد أبحت لنفسى هذا بعد ؛ واذا كانت الخطوة التى أقوم بها الآن هى من قبيل التجريب ، فاننى كنت قد قررت أن لا أقوم بها الا بعد التخرج من الليسيه ، وبعد أن أقطع صلتى بالعالم كله ، فأعود الى قوتعتى وأملك حريتى كاملة . غير أننى كنت قد قررت أن لا أقوم بمثل هذه الخطوة الا على سبيل التجربة ، من أجل أن أرى ، أو من أجل أن أحلم قليلاً ، ثم قد لا أعود الى مثل ذلك زمناً طويلاً بعدئذ ، الى أن يأتى اليوم الذى قد أعود فيه الى هذا العمل جاداً . كان ذلك المزاد ، عند غيرة ، مزاداً صغيراً لا قيمة له . أما عندى أنا فكان أول خشبة فى المركب الذى سافر

عليه كريستوف كولومب يستكشف أمريكا • تلکم هي العواطف التي كانت تملأ نفسى حينذاك •

فلما بلغت المكان نفذت فى مدخل من فناء العمارة التى حددها الاعلان ، ودخلت شقة السيدة لبرخت • ان الشقة تتألف من فسحة وأربع غرف صغيرة واطئة السقف • فأما فى الغرفة الأولى بعد الباب فكان يزدهم جمهور يبلغ نحواً من ثلاثين شخصاً ، نصفهم من الذين سيشترون فى المزاد ، والآخرى لا يخفى على الناظر اليهم من أول وهلة أن بعضهم 'طلعة' أو هواة أو أناس يشاركون فى المزاد لمصلحة أسرة لبرخت ؛ وكان هنالك تجار ، وكان هنالك يهود يترقبون أن يقموا على أشياء مذهبة ، وكان هنالك أشخاص « مهندمون » ، انطبعت وجوه بعضهم فى ذاكرتى انطباعاً عميقاً • وعند الباب المفتوح من الغرفة الواقعة فى الجهة اليمنى ، وضعت بين المصراعين منضدة تحول بين المرء وبين أن يستطيع الدخول الى تلك الغرفة : فهناك كانت توجد الأشياء التى تضمها القائمة والتى ستعرض للبيع • وعلى اليسار غرفة أخرى ، لكن بابها مغلق يشق من حين الى حين فيرى وراءه شخص ينظر : لاشك أن هذا الشخص هو أحد أفراد أسرة لبرخت الكثيرين ، ولاشك أنه كان يشعر بغير قليل من الحجل طبعاً • ووراء المنضدة ، فى مواجهة الجمهور تماماً ، كان يجلس « مأمور الوزارة » متزیناً بوسامه ، يتولى عمل البيع • وحين وصلت كان قد انتهى من المزاد نصفه تقريباً • فأسرعت أشق لنفسى طريقاً حتى بلغت المنضدة • كانت تعرض عندئذ شمعانات من البرونز • ونظرت •

نظرت ثم ما لبثت أن قلت لنفسى : ما عسبى اشترى هنا ؟ وأين أدرس هذه الشمعدانات من البرونز ؟ هل ، يتحقق هدفى ؟ أهكذا تتم الأمور ؟ هل يصدق حسابى ؟ ترى ألم يكن حساب صبية صغار ؟ كنت أدير هذه المعانى فى نفسى وأتظر • وذلك هو على وجه التقريب الشعور الذى يحسه أمرؤ أمام مائدة مقامرة قبيل « الخط » حينما يقترب بورقه • انه يتساءل :

« ان في وسعى أن » أحط » ، وفي وسعى أن أمضي ، وكل شيء رهن
 بي . . . ان قلبه لا يكون قد أخذ يدق دقاً شديداً بعد ، ولكنه يكون قد
 أخذ يتهالك ويخفق خفقاناً خفيفاً - وذلك احساس لا يخلو من لذة .
 ولكن التردد ما يلبث أن يثقل عليك ، فأنت كالأعمى : تمد يدك ، تتناول
 ورقة ، ولكن على غير ارادة منك ، وربما على رغم ارادتك ، كأن شخصاً
 آخر هو الذي يحرك يدك . وها أنت ذا تقرر أخيراً ، « فتخط » ان
 احساسك يختلف عندئذ اختلافاً كبيراً ، انه احساس آخر تماماً ، احساس
 كبير واسع . لست أتكلم الآن على المزاد ، وانما اتكلم عن نفسي : من ذا
 الذي لعله يشعر بخفقان القلب أثناء بيع بالمزاد ؟

كان هنالك من يتحمسون ، وكان هنالك من يصمتون ويترقبون .
 وكان هنالك من يشتررون ثم يندمون . وما شعرت بشفقة قط على ذلك
 الرجل الذي أخطأ السمع حين المناداة على ابريق من معدن المخور ،
 فحسبه من فضة فاشتراه بخمسة روبلات بدلاً من روبلين اثنين ، حتى
 لقد أفرحني ذلك كثيراً . وكان المنادى ينوِّع الأشياء التي يعرضها للبيع .
 فبعد الشمعدانات ، عرض قرطين مما تزين به النساء آذانهن ، ثم مخدة
 من جلد مطرز ، ثم صندوقاً صغيراً . ولعله كان ينوع هذا التنويع اما
 للتنويع ذاته ، واما استجابةً لمطالب الجمهور . لم أستطع أن أنتظر أكثر
 من دقيقتين ، فاقتربت من المخدة أولاً ، ثم من الصندوق الصغير ، لكنني
 كنت في كل مرة أتوقف في اللحظة الحاسمة : مستحيل أن اشترى أشياء
 كهذه . وأخيراً ظهر بين يدي المنادى « ألبوم » .

« ألبوم » مجلد بجلد أحمر ، مستعمل ، عليه رسوم بالتلوين المائي
 والجبر الصيني ، في غمد من عاج محفور ، مع مغاليق من فضة :
 روبلان » .

تقدمت : كان الألبوم يبدو رائعاً ، الا أن في شغل علاجه عيباً .

كنت الشخص الوحيد الذى مضى ينظر فى « الألبوم » • صمت الجميع •
ما من منافس • كان فى امكانى أن أسل الألبوم من غمده لأدقق النظر
فيه ، لكننى لم أستعمل هذا الحق ، وأشرت الى النادى بيد ترتعش :

— روبلان وخمسة كوكبات •

كذلك قلت وأسنانى تصطك فيما أظن •

وقع المزاد على • فسرعان ما سحبت الثمن من جيبي ، فدفعته ،
وأخذت الألبوم ، ومضيت الى ركن من الغرف ، فأخرجته من غمده ،
وأخذت أتأمله محمواً مسرعاً : اذا صرفنا النظر عن الغمد فان « الألبوم »
أبأس « ألبوم » فى الدنيا بأسرها • • هو ألبوم صغير ليس أكبر من ورقة
صغيرة من أوراق الرسائل ، نحيل شديد النحول ، قد حال تذهيب غلافه
أو كاد ، يشبه تماماً تلك « الألبومات » التى كنا نراها لدى الفتيات عند
اتتهائهن من المدرسة الابتدائية • وقد رسمت عليه بالتلوين المائى والحبر
الصينى رسوم معابد فوق جبال ، ومشاهد غرام ، وغدير تسبح فى مائه
بجعات ؟ وكتبت كذلك أبيات شعر :

أنا ذاهب مسافر بعيداً

أنا تارك موسكو ولن أعوداً

تحية الوداع يا احبتى

ففى بلاد الكرم صارت مهتى

لقد بقيت هذه الأبيات فى ذاكرتى) • وخلصت من ذلك الى أننى
أخفقت اخفاقاً ذريعاً • اذا كان هناك شىء لا حاجة بأحد اليه فى العالم كله ،
فهو هذا الشىء عينه • قلت لنفسى : « لا ضير • • ان أول رهان خاسر
دائماً • حتى لقد يكون خسراى هذا بشير خير • • لقد كنت فرحاً حقاً •
وبينا كنت أقول هذا الكلام لنفسى اذ دوى صوت فى أذنى قائلاً :
— آ • • • وصلت متأخراً • هو معك ؟ هل اشتريته ؟

- هو صوت سيد يرتدى معطفاً أزرق ، حسن القامة ، جميل الهندام •
لقد جاء متأخراً • وأضاف يقول :
- نعم ، وصلت متأخراً • يالها من مصيبة ! بكم اشتريته ؟
- بروبلين وخمسة كوبيكات •
- خسارة ! ألا تتنازل لى عنه ؟
- فهمست فى أذنه قائلاً وقد أخذ قلبى يخفق :
- لنخرج !
- وخرجنا الى الفسحة أمام باب المنزل •
- اتنازل لك عنه بعشرة روبلات •
- قلت له ذلك بينما كانت تسرى فى ظهرى قشعريرة برد •
- عشرة روبلات • اسمح لى ! ما هذا الذى تقول ؟
- انت حر •
- نظر الى الرجل ملياً • كنت حسن الملبس ، فما أشبه أن أكون
يهودياً أو متاجراً • قال :
- ولكن ، أرجوك ، هذا ألبوم عتيق لا قيمة له ! فيم عساه ينفعك ؟
- ان الغمد نفسه لا يساوى شيئاً • ولن تجد من يشتريه منك •
- ومع ذلك فأنت تريد أن تشتريه •
- لسبب خاص ، عرفته أمس فقط • أنا انسان فريد فى نوعه •
- كان يجب أن أطلب خمسة وعشرين روبلاً ، ولكن لما كان
يمكن أن تعدل عندئذ عن شرائه فقد اكتفيت بطلب عشرة روبلات ،
- زيادةً فى الضمان • ولن أخفض الثمن كوبيكاً واحداً •
- قلت ذلك ثم أدت ظهرى وانصرفت •

فأدركنى فى فناء الدار ، وقال :

- خذ أربعة روبلات ، بل اليك خمسة ! فطلت أسير دون أن

أجيب •

- طيب • خذ •

قال ذلك وهو يمدُّ الى عشرة روبلات ، فأعطيته « الألبوم » •

قال :

- اعترف أن هذا ليس من الشرف فى شىء • شىء تشتريه بروبليين

ثم تبعه بعشرة !

- ولماذا لا يكون من الشرف فى شىء ؟ هذا سوق •

- أى سوق ؟ (وأخذ يفضب) •

- حيث يكون طلب يكون سوق • لولا أنك طلبته لما قدّر لى أن

أبعه بأربعين كوبكاً •

جهدت أن لا أنفجر ضاحكاً ، وأن أحتفظ بمظهر الجذ ، فضحكت

فى داخل نفسى - ضحكت لا عن حماسة ، ولكن دون أن أعرف لماذا !

وكنت كمن تختنق أنفاسه قليلاً •

جمجمت أقول له ، رغم ارادتى تماماً ، ولكن بلهجة الصديق ،

وعلى شعور بالمودة له :

- اسمع ما سأقوله لك • ان المرحوم جيمس روتشيلد الباريسى ،

الذى خلف تركة تقدر بمليار وسبعمئة مليون فرنك (هز الرجل رأسه

موافقاً) ، حين علم ، فى شبابه ، مصادفة ، قبل غيره ببضع ساعات ،

بمقتل دون بيرى ، أسرع يبلغ من يجب ابلاغه ، فكسب بذلك عدة ملايين

فى طرفة عين • هكذا يعمل !

- أأنت اذن روتشيلد ؟

كذلك صاح مستاءً كأنه يوجه كلامه الى غبي أبله . خرجت من البيت نشطاً . مسعى واحد يربيع سبعة روبلات وخمسة وتسعين كويكا ! لقد كانت مجازفتي حمقاء ، كانت لعبة طفل . اننى أسلم بذلك . ولكنها كانت تتفق مع فكرتى ولا يمكن الا أن تملأ نفسى انفعالاً عميقاً . . . ولا داعى الى وصف عاطفتى . ان الورقة النقدية فى جيب صدرتى ، وأنا أدس اصبعى فى الجيب أتمسكها وأجسها ، وأسير هكذا لا أستل يدي من جيبي . حتى اذا صرت على مسافة مائة متر من الدار ، تناولت الورقة النقدية أنظر فيها ، وأتفحصها ، حتى لقد اشتبهت أن أقبلها . وفجأة توقف أمام أحد المنازل ركب . ففتح الجندى الباب ، وصعدت الى العربة سيدة باذخة المظهر ، فى ريعان الصبا ، بارعة الجمال ، واسعة الثراء ، ترفل فى حرير ومخمل ، ويبلغ ذيل ثوبها متراً ونصف متر . وفجأة افلتت من يديها محفظة جميلة صغيرة فسقطت على الأرض . واستقرت السيدة فى موضعها من العربة ، فمال الخادم على الأرض يريد أن يتناول المحفظة ، ولكنى أسرع فالتقطتها بوثبة سريعة ، ومدتها الى السيدة رافعاً قبعتى (وهى قبعة عالية . لقد كنت ارتدى ملابس شاب يعنى بهندامه) . فقالت لى السيدة فى وقار وتحفظ ، مع ابتسامة لطيفة غاية اللطف : « شكرا يا سيدى . » ومضت العربة . وقبّلت ورقة العشرة روبلات .

فى ذلك اليوم نفسه كان علىَّ أن ألقى ايفيم زفيريف ، وهو واحد من رفاقى فى اللسيه تركها ليدخل مدرسةً خاصةً بطرسبرج • انه لا يستحق أن أصفه لك الآن ، ولم تكن لى به أية صداقة • ولكننى أخذت أبحث عنه • ان فى وسعه (وذلك بسبب ظروف لا تستحق أن تذكر أيضاً) أن يدلنى على عنوان رجل اسمه كرافت كنت فى حاجة ماسة اليه متى رجعت من فلنو • وكان زفيريف ينتظر وصوله فى ذلك اليوم نفسه ، أو فى الغدا ، وأعلمنى بذلك أول أمس • كان يجب علىَّ أن أذهب الى بطرسبرج سكاي ستورونا ، لكننى لم أكن أشعر بتعب •

وجدت زفيريف (وهو فى التاسعة عشرة من عمره أيضاً) ، فى فناء منزل عمته التى كان يقيم عندها مؤقتاً • كان قد تناول غداءه ، فهو ينتزه الآن فى الفناء فوق عكازين طويلين • فأسرع ينبثنى أن كرافت وصل أمس ، وأنه نزل شقته القديمة فى بطرسبرج سكاي ستورونا ، وأنه يريد هو أيضاً أن يرانى فى أقرب وقت ممكن ، لأنه يحمل نبأً مستعجلاً يريد أن ينقله الىَّ وختم ايفيم كلامه بقوله :

— وسيسافر غداً ، لا أدري الى أين !

ولما كان لقاى كرافت على جانب عظيم من خطورة الشأن عندى ، فى الظروف الراهنة ، فقد رجوت ايفيم أن يقودنى اليه فوراً ، مادام يقيم فى شارع صغير مجاور ، على بعد خطوتين من هناك • ولكن زفيريف قال انه صادفه منذ ساعة ذاهباً عند درجاشيف • وأردف يقول :

— فلنذهب الى درجاشيف ! ما لك تتصل دائماً ؟ أنت خائف ؟

لقد يتأخر كرافت عند درجاشيف ، فأين عسى أجده بعدئذ ؟ ولم أكن أخاف درجاشيف ، لكننى لا أحب أن أذهب إليه ، رغم أن ايفيم حاول أن يأخذنى إليه غير مرة . هذه هى المرة الثالثة على الأقل . وكان يطرح علىّ دائماً هذا السؤال : « أأنت خائف ؟ » ، مبتسماً ابتسامة خيثة . ولم يكن الأمر أمر خوف مع ذلك ، أقول هذا سلفاً ؟ وإذا كنت أشعر بشيء من خشية ، فذلك شأن آخر . وقررت هذه المرة أن أذهب الى درجاشيف وكان المكان على مسافة خطوتين أيضاً . سألت ايفيم أثناء الطريق أما يزال عازماً على الهروب الى أمريكا . فأجاب يقول ضاحكاً ضحكة يسيرة :

— قد أثرَّيْتُ .

لم أكن أحبه كثيراً ، بل لم أكن أحبه البتة : ان شعره يشبه من شدة شقرته أن يكون أبيض وان وجهه مدور مسرف فى بياضه الى حد غير لائق يكاد يكون وجهه حبيب صغير . ورغم أنه أطول منى ، فلقد كان من المستحيل أن يحسبه المرء فوق السابعة عشرة من العمر . أما أن يقوم بينك وبينه حديث فذلك مستحيل .

سألته لأقول شيئاً ما :

— وماذا يجرى هنالك ؟ أما تزال تجتمع عنده جمهرة غفيرة ؟

فقال مرة أخرى ضاحكاً :

— ولكن لماذا لا تزال خائفاً ؟

أجبت غاضباً

— كفالك سخفاً !

— لا جمهرة ولا شيء من ذلك . ليس يجيء الا أصحاب . ما من

غريب واحد . اطمئن بالآ !

- وفيهم يعننى أن يكونوا غرباء أو أن لا يكونوا غرباء ؟ ثم ، ألسنت
أنا غربياً هناك ؟ كيف تريد أن يشقوا بى ؟

- يكفى أنتى أقودك أنا اليهم • لقد سمعوا عنك • ومن الجائز
أيضاً أن يقول كرافت رأيك فيك •

- اسمع ، هل سيكون فاسين هناك ؟

- لا أدري •

- اذا كان هناك فالكزنى بكوعك متى دخلنا ودلتى عليه • متى
دخلنا • سمعت ؟

كنت قد سمعت كثيراً عن فاسين ، وكنت أهتم به منذ زمن طويل •

كان درجاتشيف يسكن مع زوجته وأختها واحدى قريباتهما فى
جناح صغير بقاء المنزل الخشبى الذى تملكه امرأة أحد التجار • ولكنه
كان يحتل الجناح كله • وكان الجناح يضم ثلاث غرف جميلة • ان ستائر
النوافذ الأربع مسدلة • والرجل شبه مهندس ، له وظيفة فى بطرسبرج •
وقد علمت مصادفةً أنهم يعرضون عليه منصباً هاماً فى الريف ، وأنه كان
يستعد للانتقال بمنصبه هناك •

فما كدنا ندخل حجرة المدخل حتى سمعت أصواتاً تملع • لكنهم
فى مناقشة حادة • وكان يصيح قائلاً بالالمانية : « ما لا تشفيه الأدوية
يشفيه الحديد ، وما لا يشفيه الحديد تشفيه النار » •

شعرت بقلق حقاً • لم أكن قد تعودت صحبة المجتمع ، أياً كان
هذا المجتمع • صحيح أننا كنا فى اللبسة تتخاطب جميعاً بصيغة المفرد ،
ولكن يمكننى أن أقول انه لم يكن لى أى رفيق ، فلقد جعلت لنفسى ركناً
أتروى فيه • على أن هذا ليس هو ما أفلقنى يومئذ • وكنت قد وعدت

نفسى ، على كل حال ، بأن لا أشارك فى أية مناقشة ، وأن لا أقول من الكلام الا ما لا بد من قوله ، حتى لا يستطيع أحد أن يخرج برأى عنى •
كنت قد قررت خاصة أن لا أناقش ... خاصة أن لا أناقش •

كان فى الغرفة سبعة أشخاص ، فاذا عدت النساء صاروا عشرة •
ان درجاشيف فى الخامسة والعشرين من عمره ، وهو متزوج ، ولزوجته أخت وقريبة أخرى كانتا تقيمان عنده كما قلت • أثاث الغرفة بسيط ، كافى ، بل ونظيف • وعلى الجدران ترى صورة مطبوعة بطريقة الليتوغرافيا ، ولكنها لا قيمة لها ؛ وفى الزاوية أيقونة لا يزينها معدن ، لكن عليها قنديلاً مشتعلاً • تقدم درجاشيف يستقبلنى ، فصافحنى ، وقدم الى مقعداً •

– اجلس • أنت هنا فى بيتك !

وسرعان ما أضافت سيدة شابة ، لطيفة الوجه متواضعة اللبس ، تقول :

– تفضل !

ثم خرجت فوراً بعد أن حيتنى تحية خفيفة • انها امرأته • ويظهر أنها كانت تشارك فى المناقشة • وقد مضت الآن تطعم ابنها • ولكن بقيت سيدتان ، احدهما قصيرة القامة جداً ، فى نحو العشرين من عمرها ، ترتدى ثوباً أسود ، لا بأس به ؛ والثانية فى نحو الثلاثين ، جافة المظهر ناقبة العينين • وكانت السيدتان جالستين ، تصفیان اصغاء شديداً ، لكنهما لا تشاركان فى الحديث •

أما الرجال فقد كانوا جميعاً واقفين ، الا كرافت وفاسين وأنا • وسرعان ما سَمَّاهم لى ايفيم ، لأننى أرى كرافت أول مرة أيضاً ، فهضمت مقترباً منهم للتعارف • لن أسى أبداً وجه كرافت : ما من جمال خاص يلفت النظر ، غير أن فى وجهه رهافة خالية من أى خبث أو مكر ،

الى وقار شخص يتجلى واضحاً فى كل شيء • هو فى السادسة والعشرين من العمر ، نحيل بعض التحول ، أطول من متوسط طول الرجال ، أشقر ، توحى اليك سحنته بالجد على رقة وعذوبة • ان نوعاً من هدوء يشع فى شخصه كله • ومع ذلك أقول لك ، اذا شئت أن تعرف هذا ، اننى لا أرضى أبداً أن استبدل بوجهى الكابى وجهه ذاك الذى بدا لى على هذا الجانب العظيم من الفتنة والاعراء • لقد كان فى هيئته شيء لا أتمنى أن يكون فى هيئتي ، شيء لا أدرى ما هو ؟ شيء من هدوء مفرط ، بالمعنى الأخلاقى لهذه الكلمة ، شيء من كبر خفى مستتر يجهل نفسه • وعلى كل حال فاننى لم أكن قادراً على أن أحكم فى الأمر على هذا النحو تماماً حينذاك • والآن انما يبدو لى أن حكمى قد قام على هذا الأساس حين حكمت ذلك الحكم •

قال كرافت :

— أنا سعيد بمعرفتك • وان معى رسالة تهملك • سنلبث هنا لحظة ، ثم نمضى الى بيتى •

كان درجاتشيف متوسط القامة ، قوى الجسم ، أسمر اللون ، عريض المنكبين ، ذاك لحة كبيرة • انك ترى فى نظراته الذكاء العملى ، والرزانة فى كل شيء ، وشيئاً من ترو لا يخطئه قط • ومع أنه صامت أكثر الوقت ، فقد كان واضحاً أنه هو الذى يدير دفة الحديث • أما فاسين فلم يلفت وجهه نظرى كثيراً ، رغم كل ما كنت قد سمعته عن ذكائه النادر : شاب أشقر اللون ، واسع العينين ، لونهما أشهب ، شديد انبساط الوجه ، ولكن على شيء من صلابة مفرطة • يشعر المرء أنه ليس بالرجل الاجتماعى كثيراً ، لكن نظراته ذكية حقاً ، أذكى من نظرة درجاتشيف ، وأعمق وأنفذ من نظرات سائر الحضور • وأما الآخرون جميعاً من هؤلاء الشباب فاننى لا أتذكر من بينهم الا اثنين : واحداً طويل

القامة ، برونزى اللون ، له « شامات » سود ، كثير الكلام ، فى نحو السابعة والعشرين من العمر ، هو أستاذ أو ما يشبه ذلك ؛ وفى فى مثل سنى ، يرتدى عباءة قصيرة واسعة مما يلبسه الفلاحون ، مخد الوجه ، شديد الصمت لا يتكلم ، ولكنه يصنى اصغاءً قوياً • وقد اتضح فعلاً أن أصله من الفلاحين •

– لا • • ما هكذا يجب أن تطرح المسألة ! فيما يتعلق بالبراهين الرياضية ، ليس لى ما اعترض عليه • ولكننى ، فيما يتصل بهذه الفكرة ، مستعد لقبولها بغير براهين رياضية •

كذلك بدأ يتكلم الأستاذ ذو « الشامات » السود ، يستأنف الحديث الذى كانوا آخذين فيه منذ قليل متحمساً أكثر من سائر الحضور •

فقاطعه درجاشيف صاخباً يقول :

– اسمع يا تيخومиров ، ان الحضور الجدد لا يعرفون الموضوع (وهنا التفت فجأة نحوى وحدى – وانى لأعترف أنه اذا كان ينسوى أن يمتحن الشخص « الجديد » ، أو كان يريد أن يجبرنى على الكلام ، فقد أحسن اختيار الوسيلة البارة ؛ لقد شعرت بذلك رأساً وتأهبت) •

الموضوع هو أن السيد كرافت – السيد كرافت مثلاً – وهو معروف لدينا جميعاً بصلابة طبعه وقوة اقتناعاته – قد انتهى من النظر فى أمر عادى جداً الى استخلاص نتيجة خارقة أذهلتنا جميعاً • لقد انتهى الى أن الشعب الروسى / شعب من الدرجة الثانية •

صاح أحدهم :

– بل من الدرجة الثالثة !

– • • من الدرجة الثانية ، شعب خلق أداة لعرق أسمى وأبل ، فليس له أى دور مستقل فى مصائر الانسانية • وعلى أساس هذه

النتيجة - التى ربما كانت صادقة - وصل السيد كرافت الى أن نشاط
أى روسى ، أياً كان ، لابد أن يعطّله الشعور بهذا التقصير عن غيره ،
فما علينا جميعاً الا أن نسبل أذرعنا ان صح التعبير .

قال تيخومиров نافد الصبر :

- اسمح لى يا درجاشيف . ما هكذا يجب أن تطرح المسألة .

فأذعن درجاشيف وترك له أن يتم كلامه . قال تيخومиров :

- لما كان كرافت قد قام بدراسات جدية ، واستخرج من علم
الفزيولوجيا استنتاجات يعدها رياضية ، ولعله وقف ستين من وقته على
فكرته (التى لا أرفض أن أقبلها هادئاً كل الهدوء) أى لما كان كرافت
يعانى مخاوف كبيرة وكان كلامه يشتمل على جدٍ خطير ، فإن الأمر
يبدو لى ظاهرة غريبة . ان كل شىء يدعونا الى التساؤل عما عجز كرافت
عن فهمه ، وبهذا انما يجب أن نعنى الآن ، أقصد ان علينا ان نعرف
السبب الذى يجعل كرافت عاجزاً عن فهم المسألة . هذه ظاهرة يجب ان
ننظر فيها ، فرى أهى حالة مفردة من اختصاص الطب ، أم هى خاصة
يمكن أن تتكرر تكرراً طبعياً فى حالات أخرى . تلکم مسألة تهم القضية
المشتركة . أما فيما يتعلق بروسيا فأنا أصدق كرافت ، بل أقول ان ذلك
يسرنى ؟ فاذا سلّم جميع الناس بهذه الفكرة فكّت هذه الفكرة الوثائق
الذى يقيد أيدينا ، وحررت كثيراً من الناس من وهم الوطنية .

قال كرافت بشىء من جهد :

- لا شأن لهذا بالوطنية !

وكان يبدو عليه أن هذه المناقشات كلها تضايقه وتزعجه .

قال فاسين الذى ظل صامتاً مدة طويلة :

- وطنية ، لا وطنية ، دعوا هذا جانباً !

صاح الأستاذ (كان وحده يصيح ، أما الآخرون فكانوا يتكلمون بصوت خافت) :

- ولكن قولوا لى : .هل يمكن للنتيجة التى وصل اليها كرافت أن تضعف التطلع الى العمل المشترك الذى يجب أن تحققه الانسانية ؟ لنسلم جدلاً بأن روسيا تأتى فى المرتبة الثانية ، أفلا يمكن العمل من أجل غيرها . ثم كيف يمكن أن يظل كرافت وطنياً اذا فقد الايمان بروسيا ؟

قال صوت من الأصوات :

- ان كرافت ليس روسياً !

- أنا روسى !

- تلك مسألة لا تتعلق بصميم المسألة .

كذلك قال درجاتشيف للذى قاطع الأستاذ .

قال تيجوميروف متابعاً كلامه كأنه لا يريد أن يسمع شيئاً :

- اخرجوا اخرجوا من فكرتكم الضيقة . اذا لم تكن روسيا الا أداة لعروق أسمى وأنبى ، فلماذا لا تقبل روسيا هذا الدور ! انه دور لامع على كل حال . لماذا لا نتمد على هذه الفكرة من أجل أن نوسّع نظراتنا بعد ذلك . ان الانسانية على أبواب انبعاثها ، وقد بدأ هذا الانبعاث فعلاً . لابد أن يكون المراء أعمى حتى لا يرى المهمات التى سيكون علينا أن ننهض بها . دعوا روسيا وشأنها اذا كنتم قد أصبحتم لا تؤمنون بها ، واعملوا من أجل المستقبل ، مستقبل شعب لما يزل مجهولاً ، ولكنه سيتألف من الانسانية كلها ، دون تفريق بين عروق . ستموت روسيا فى يوم من الأيام على كل حال . ان الشعوب ، مهما تكن موهوبة ، تعيش ألفاً وخمسمائة سنة ، تعيش ألفى سنة فى أقصى تقدير . وما من فرق تقريباً بين ألفى سنة ومائتى سنة ؟ ان الرومانيين لم يبقوا

ألفاً وخمسمائة سنة على حالة الحياة ، وانما تحولوا هم أيضاً الى أداة •
انقضى زمان طويل لم يعودوا فيه شيئاً مذكوراً • لكنهم أورشوا الانسانية
فكرة ، وكانت هذه الفكرة عنصر تقدم للانسانية • كيف يمكن أن نقول
لإنسان انه لم يبق هنالك شيء 'يعمل ؟ اعملوا من أجل الانسانية ، وانسوا
كل ما عدا ذلك ! ثمة أعمال لا يكفيها العمر اذا أنتم أنعمتم النظر !

— يجب على المرء أن يعيش على ما يريد • قانون الطبيعة والحقيقة •

كذلك قالت السيدة درجاشيف من وراء الباب • كان الباب
مشقوقاً ، فهي 'ترى واقفة' أمام شق الباب ، حاضنة طفلها ، مغطاة الصدر
نصف تغطية ، مصيخةً بسمعتها في حماسة •

أصغى اليها كرافت وهو يتسم ابتسامة خفيفة • وأخيراً ، قال وقد
بدا في وجهه الاعياء ، ولكن في صدق قوى :

— أنا لا أفهم كيف يستطيع المرء ، اذا هو كان خاضعاً لتأثير فكرة
مسيطرة يرتبط بها عقله وقلبه ارتباطاً تاماً ، أن يعيش أية حياة خارج
هذه الفكرة •

— ولكن اذا قبل لك بالحجج المنطقية والرياضية ان النتيجة التي
اتمتهت اليها خطأ ، وان فكرتك ضلال ، وانه لا يحق لك البتة أن
تبعد نفسك عن العمل المشترك المفيد لمجرد أن روسيا محكومة في رأيك
حكماً لا راد له على أن تأتي قيمتها في المرتبة الثانية ، واذا أمكن أن نريك
أفقاً لا نهاية له ولا حدود ، بدلا من الأفق الضيق الذي يجيب نظرك ،
واذا أمكن بدلا من فكرتك الضيقة هذه عن الوطنية •••

قال كرافت وهو يحرك يده متمللاً :

— سبق أن قلت لكم ان الأمر ليس أمر وطنية •

فتدخل فاسين فجأة يقول :

— هاهنا سوء تفاهم • الخطأ هو أننا لا نجد لدى كرافت مجرد استنتاج منطقي ، وانما نجد لديه استنتاجاً انحدر فصار الى عاطفة ان صح التعبير • طبائع البشر ليست واحدة : كثير من البشر يتحول الاستدلال المنطقي عندهم أحياناً الى عاطفة قوية تستولى على وجودهم كله ، فيصعب جداً طردها أو تعديليها • فلكى نشفى انساناً أصيب بهذا الداء يجب علينا أن نغير هذه العاطفة ، وهذا لا يكون ممكناً الا بأن نحل محل هذه العاطفة قوة أخرى تساويها • وذلك صعب دائماً ، حتى لقد يكون في بعض الأحيان مستحيلاً •

صاح المشاجر :

— خطأ • ان النتيجة المنطقية تبدد بذاتها الأحكام السابقة والأوهام المستقرة • والافتناع العقلي يولد عاطفة تناسبه • ان الفكر ينبع من العاطفة حتى اذا استقر فينا قام يولد بدوره عاطفة جديدة !

— الناس متفاوتون ، فبعضهم يسهل أن تتغير عاطفته ، وبعضهم يصعب أن تتغير عاطفته •

كذلك قال فاسين وقد بدا عليه أنه لا يريد أن يطيل المناقشة • أما أنا فقد راقنتى فكرته وأعجبتنى أيما اعجاب •

فقلت على حين بفتة أحطم الجليد وأبدأ الكلام :

— صحيح تماماً ما قلت • فالحق أنك لا تستطيع أن تزيل عاطفة الا باحلال عاطفة أخرى يمكن أن تقوم مقامها • أذكر أنه منذ أربع سنوات • • وكان ذلك في موسكو • • وقع الجنرال من الجنرالات • • أنا لم أكن أعرفه • • ولكن يمكن أن لا يكون ممن يوحون بالاحترام • • أضيفوا الى ذلك أن الواقعة نفسها يمكن أن تبدو غير معقولة • • المهم أن هذا الجنرال قد فقد ابنة له • • بل فقد ابنتين ، واحدة بعد أخرى • • بمرض واحد • •

ان هذا الرجل قد بلغ فجأة من الارهاق ما جعله لا ينسى مصيبته لحظة واحدة •• كان في حداد دائم لا يملك المراء حين يراه الا أن يتألم ••• ثم لم تمض ستة أشهر حتى مات • أما أنه مات حزنا وألما فذلك واقعة لا ريب فيها • فكيف كان يمكن أن نشفيه قبل أن يموت ؟ بعاطفة تساوى قوة عاطفته؟ كيف ؟ ينبغي عندئذ اخراج ابنته من القبر ورددهما اليه ! أقصد •• شيئاً من هذا القيل ! لقد مات الرجل ! ولكن كان يمكن أن تقدم له براهين رائعة : أن يقال له ان الحياة قصيرة ، وان كل انسان الى فناء ؟ كان يمكن أن تؤخذ له أرقام من سجلات الوفيات عن عدد الأطفال الذين ماتوا بهذا المرض •• لقد كان الجنرال محالاً على التقاعد •••

هنا توقفت عن الكلام محتقناً ، ونظرت حولى •

قال أحدهم :

— الأمر مختلف !

قال فاسين ملتفتاً نحوى :

— ان الواقعة التى ذكرتها ، على كونها من طبيعة أخرى غير ما نحن

بصدده ، تشبهه بعض الشبه وتلقى عليه ضوءاً •

٤

يجب أن اعترف هنا لماذا افتتنت بالحجة التي أدلى بها فاسين عن « الفكرة العاطفة » ؛ ويجب على أن أعترف في الوقت نفسه أنني شعرت بعار جهنمي . نعم لقد كنت أخاف أن أذهب الى منزل درجاشيف ، ولكن لسبب آخر غير السبب الذي كان يظنه ايفيم . كنت أخاف ، لأنني كنت أخشى هؤلاء الناس منذ كنت بموسكو . كنت أعرف أنهم (هم أو أضرابهم) أناس مجادلون ، وأن من الجائز جداً أن يمزقوا « فكرتي » ارباً ارباً . كنت على ثقة تامة بأنني لن أبوح لهم بها . ولكن كان يمكن (هم أو أضرابهم ، أقولها مرة أخرى) أن يقولوا أشياء قد تفقدني تفكتي بفكرتي حتى دون أن يشيروا إليها . لقد كان في « فكرتي » مشكلات لم تحل ، ولكنني لا أريد لهذه المشكلات أن يجعلها أحد عني . حتى لقد انقطعت في هاتين السنتين الأخيرتين عن القراءة ، مخافة أن أقع على فقرة من الفقرات لا تؤيد « فكرتي » حتى لقد تززع عني . وهذا فاسين يحل المسألة من أول وهلة ، ويهديء روعي الى أقصى حد . ما الذي كان يخيفني فعلاً ، وماذا كان في وسعهم أن يفعلوه لي بكل ما يملكون من جدل ؟ لعلني الشخص الوحيد الذي فهم ما أراد أن يقوله فاسين حين تحدث عن « الفكرة - العاطفة » . ليس يكفي أن تدحض فكرة جميلة ، وإنما ينبغي لك أن تحل محلها فكرة تضارعها جمالاً . وبدون ذلك فأنني اذ أرفض التخلي عن عاطفتي بحال من الأحوال ، أستطيع أن أدحض دحضك في قرارة قلبي ، ولو اكرهاً واجباراً مهما يكن رأيك أنت . وما الذي كان في وسعهم ، أن يعطوني بديلاً عن فكرتي ؟ أما كان ينبغي اذن أن أكون أكثر شجاعة . كان عليّ أن أملك مزيداً من البسالة . ولذا فأنني حين

تحمست لرأى فاسين شعرت بعار ، وأحسست أننى طفل لا يستحق
الاحترام •

رئمة أمر آخر أشعرنى بالعار • ان تلك العاطفة المحترقة التى
تدفع المرء الى تغليب رأيه ليست هى التى حملتنى على تحطيم الجليد
والأخذ بالكلام ؟ وانما حملتنى على ذلك رغبة فى الوثوب الى « معانقة »
الناس ، من أجل أن يجدوا أننى رجل طيب ، من أجل أن يأخذوا
بتقبيلى ، أو شئ من هذا القليل (شئ دميم فيصح على كل حال) • وأعتقد
أن هذه الرغبة هى أبشع الرغبات التى تثير الشعور بالعار فى نفسى • لقد
لاحظت وجود هذه الرغبة فى نفسى منذ زمن طويل ؟ لاحظتها وأنا قابع
فى ذلك الركن الذى قبعته فيه ذلك العدد كله من السنين ، دون أن أشعر
بندامة على ذلك • كنت أعرف أن علىّ أن أكون بين الناس أشد جهامة •
على أن الشئ الوحيد الذى كان يعزىنى ، بعد كل مرة من مرات شعورى
بالعار هذا ، هو أن « فكرتى » لا تزال رغم كل شئ ملكى ، لا تزال رغم
كل شئ كامنة فى مخبئها ، وأننى ما أفصيت بها الى أحد • كان ينقبض
صدرى حين أتصور أحيانا أننى فى اليوم الذى سأبوح بفكرتى لأحد فلن
يبقى لى بعدئذ شئ ، وسأكون بعدئذ شبيهاً بسائر الناس ، وأننى قد أترك
فكرتى نفسها حينذاك • لذلك كنت أحافظ عليها ، وأصونها ، وأختبئ
الثرثرات • وهأنذا فقدت تحفظى عند درجاشيف منذ أول لقاء تقريباً :
صحيح أننى لم أبح بشئ ، لكننى لغوت لغواً كثيراً لا يفتقر • شعرت
بالعار • ذكرى أليمة ! لا ، لن أستطيع أن أعيش مع البشر • مازلت
مقتنعاً بهذا الى اليوم • انى لأحدث عن أربعين سنة سلفاً • ان فكرتى هى
ملاذى ومأوى •

ما ان أيد فاسين كلامى حتى تملكنتى رغبة فى الكلام لا سبيل الى
مقاومتها •

– فى رأى أن من حق كل انسان أن يكون له مشاعر وعواطف •
شريطة أن يكون ذلك عن اقتناع • وليس لأحد أن يأخذ عليه ذلك •

قلت هذا متجها بالكلام الى فاسين • وقد نطقت بالعبارة حارة سريعة ،
ولكن خيّل الى أننى لم أفعل ذلك من تلقاء نفسى ، حتى لكأن انساناً آخر
كان يحرك لسانى فى فمى •

– يا ... سلا ... م ••

بذلك نطق الصوت نفسه الذى قاطع درجاشيف منذ هنيهة ، والذى
صاح يصف كرافت بأنه ألمانى • نطق بذلك هازئاً ساخراً • واذ عدده
انساناً تافها لا قيمة له البتة ، التفت نحو الأستاذ ، كأنه هو الذى صاح •
وقلت :

– يقينى أنه ليس لى حق فى أن أحكم على أحد •

وكنت قد أخذت أرتجف لعلمى سلفاً بأننى لن أتوقف عن الكلام •
وقلت وأنا أصدق فى الأستاذ الذى لزم الصمت وراح ينظر الى مبتسماً :

– لكل انسان فكرته !

صاح التافه يسأل :

– وأنت ما فكرتك ؟

– يطول شرحها كثيراً • فاذا أردت أن أذكر لك جزءاً منها ، فاليك

هو : ليدعني الناس وشأني ! ما بقي معنى روبلان ، فأننى أريد أن أعيش وحيداً ، أن لا أكون رهنأ بأحد (هدىء روعك ، اننى أعرف الاعتراضات) ، وأن لا أعمل حتى ولا من أجل الانسانية الكبيرة المقبلة التى تريدون أن تتحموا كرافت فى خدمتها • ان الحرية الفردية ، أعنى حرىتى أنا ، هى قبل كل شىء • ولا أريد أن أعرف شيئاً عداها •

وكان خطئى أننى غضبت •

— معنى ذلك أنك تدعو الى هدوء البقرة الشبعانة !

— أسلم بذلك • ليس فى البقرة ما يؤذى • لست مدينأ لأحد بشىء : اننى أدفع للمجتمع ما علىّ فى صورة ضرائب ، حتى لا أسرق ، حتى لا أضايق ، حتى لا أقتل ، وليس لأحد أن يطالبنى بأكثر من ذلك • قد تكون لى ، شخصياً ، أفكار أخرى ، وربما كنت أريد أن أخدم الانسانية ، ولسوف أخدمها ، ولعننى سأخدمها أكثر من جميع الواعظين عشر مرات • ولكننى لا أريد أن يفرض علىّ هذه الخدمة أحد • لا أريد أن يكرهنى عليها أحد اكراهاً ، كما تريدون اكراه كرافت • أريد لحرىتى أن تبقى كاملة ، حتى ولو لم أحرك أصبعى • أما أن أركض وأمضى أتشبث بأعناق الناس حباً بالانسانية ، وأن أذرف الدموع رقة وحناناً ، فما ذلك الا « موضة » ! ثم لماذا يجب علىّ أن أحب جارى ، أو أن أحب الانسانية المقبلة التى تتحدثون عنها ، الانسانية التى لن أراها يوماً ، والتى لن تعرفنى يوماً ، والتى ستزول هى أيضاً من غير أن تخلف لا أثراً ولا ذكرى حين تستحيل الأرض بدورها الى كتلة من نلج وتطير فى الفضاء بلا هواء مع طائفة لا حصر لها من كتل أخرى مثلها • ألا ان هذا أسخف ما يمكن أن يتخيله خيال ! هذه عقيدتكم ، فانظروا ما هى ! قل لى : لماذا يجب علىّ حتماً أن أكون كريماً ، خاصة اذا كان كل شىء لا يدوم الا لحظة !

صاح صوت :

- باه ••• باه •••

كنت قد أطلقت هذه العبارات القليلة في غضب وخبث ، محرراً
جميع سفنى • كنت أعلم أنتى أطير الى الهاوية ، ولكننى كنت أسرع خشية
الاعتراض • كنت أحس انتى أسوق كلامى فوضى على غير هدى ، بلا
تسلسل ولا نظام ، ولكننى كنت أتعجل افنائهم وسحقهم ! كان هذا على
جانب عظيم من خطورة الشأن فى نظرى ! لقد تأهبت ثلاث سنين • والأمر
العجيب الذى يلفت النظر أنهم صمتوا دفعة واحدة ، كأنهم لم يقولوا
شيئاً ، واكتفوا بالاصغاء • وأردفت أقول موجهاً كلامى الى الأستاذ :

- تماماً • ان هناك رجلاً عظيم الذكاء قال يوماً فيما قال انه لا شىء
أصعب من الاجابة عن هذا السؤال : « لماذا يجب على المرء أن يتمسك
بالفضيلة ؟ » • ان فى هذه الحياة الدنيا ثلاثة أنواع من الأردال : أردال
سذج مقتنعين بأن رذالتهم هى الفضيلة المثلى ، وأردال خجلين هم أولئك
الذين يحمرّون حياءً من رذالتهم مع اصرارهم على أن يمشوا فيها الى
النهاية ، وأردال أردال ، أردال محض • واسمحوا لى أن أضرب لكم
هذا المثال : لى رفيق اسمه لامير ، كان يقول لى ، ولماً تتجاوز السادسة
عشرة من العمر ، انه حين سيصير غنياً ستكون أعظم لذة يتمتع بها هى أن
يفدى كلاباً بخبز ولحم بينما يموت أولاد الفقراء جوعاً ، وانه اذا رأى
هؤلاء الأطفال يرتعدون من شدة البرد ولا يملكون ما يستدفئون به ،
فسيشتري أكواماً كبيرة من الحطب فيمضى بها الى العراء يحرقها هنالك
ليدفىء بها الهواء دون أن يعطيهم منها عوداً واحداً • انظروا الى عواطف
هذا الفتى ثم قولوا بماذا عساي أجيب هذا الوبش المحض اذا هو سألتنى :
« لماذا يجب على قطعاً أن أتمسك بالفضيلة » ، ولا سيما فى هذا العصر
الذى جعلتموه على هذه الصورة ! ان الأمور لم تكن فى يوم من الأيام
أسوأ منها الآن أيها السادة ! ان الوضع فى مجتمعنا خال من أى وضوح •
انكم تتجددون وجود الله ، وتتجددون القداسة ، فما عسى أن تكون

القاعدة الصماء العمياء البهيمية التى يمكن أن تجربنى على أن أسلك سلوكاً ما اذا كان من الأنفع لى أن أسلك سلوكاً آخر ؟ تقولون : « ان تصرفى الحكيم تجاه الانسانية هو من مصلحتى أنا أيضاً » • ولكن اذا كنت أرى كل هذه الأشياء المجنونة ، كل هذه الثكنات ، كل هذه الكتائب ، فماذا أصنع بهذا كله ، وماذا أصنع بمستقبلكم وليس لى الا حياة واحدة أعيشها ! دعونى أعرف مصلحتى بنفسى : فسأستخرج من ذلك لذة أكبر • كيف يمكن أن أهتم بما سيجرى فى انسايتكم بعد ألف عام ، اذا كان قانونكم لا يهب لى جزاء ذلك لا حياً ولا حياة آخرة ولا شهادة بأنى امرؤ فاضل ؟ لا يا سادتى ، اذا كان الأمر كذلك ، فسأحيا لنفسى كأوقع ما تكون حياة امرئ لنفسه • والى الجحيم فليذهب الآخرون •

- ألا انك لتمنى للناس تمنيات لطيفة كريمة !

- وأنا مستعد مع ذلك لأن أتبعهم •

- أحسن (ذلك الصوت نفسه قال هذا) •

وظل الآخرون صامتين جميعاً ، ينظرون الىّ ويلاحظوننى • ولكن سرعان ما أخذت تظهر شيئاً فشيئاً فى أركان شتى من الغرفة ، ضحكات بدأت متخفية ثم سفرت فراحوا يهزأون منى جميعاً وجهاً لوجه ، الا فاسين وكرافت • وكان ذو « الشامات » السود يتسم أيضاً : يحدق الىّ ويصفى •

قلت وأنا أرتعش من قمة رأسى الى أخمص قدمى :

- أيها السادة ، لن أقول لكم فكرتى مهما كلف الأمر • ولكننى ، بالعكس ، أسألكم ، من وجهة نظركم أتم ، لا من وجهة نظرى أنا ، لأننى ربما كنت أحب الانسانية ألف مرة أكثر منكم مجتمعين ، أسألكم أن تقولوا لى ، وأنتم مضطرون أن تجيبونى فوراً ، مضطرون أن تجيبونى لأنكم تضحكون : ماذا تملكون أن تقدموا لى اذا أنا اتبعكم ؟ كيف

تبرهنون لى على أن الأمور ستكون أفضل فى ظل نظامكم ؟ ماذا أنتم
 قاعلون باحتجاجى فى نكتتكم على المساكن المشتركة ، وعلى الاكتفاء
 بالزوى الذى لا بد منه (١) ، والالحاد ، والنساء المشاع بغير أولاد . -
 ذلك هو اتفاقكم النهائى ، أنا أعرفه . وفى وسيل هذا الجزء اليسير
 الزهيد من المصلحة المتوسطة التى سيكفلها تنظيمكم العقلى ، فى
 سبيل قطعة خبز وقليل من دفء ، وشئ من ملابس تريدون أن تأخذوا
 كل شخصى فى مقابل ذلك . انتظروا قليلاً ! لنفرض أن أحداً انتزع
 منى امرأتى . فهل تقيدوننى تقييداً كافياً يمنعنى من قتل غريمى ؟ رب
 قاتل منكم يقول لى : ولكنك ستصبح أنت نفسك أعقل من ذلك يومئذ .
 ولكن امرأتى ، ما عساها تقول عن بعل متعل كل هذا التعقل ، اذا كانت
 تحترم نفسها أقل احترام ؟ اعترفوا أن هذا مخالف للطبيعة . ألا تشعرون
 بحياء ؟

هتف صوت الرجل التافه قائلاً فى سخرية :

- أأنت اختصاصى .. فى شئون المرأة ؟

فمرت بى لحظة تمنيت فيها أن أنهض له مسرعاً فوسمعه ضرباً
 مبرحاً . انه رجل قصير أحمر منطى الوجه ببقع حمراء على كل
 حال ، ليس مظهره بالأمر الذى يهمنى .

- طمئن بالك . اننى ما عرفت النساء بعد .

أطلقت هذه الجملة ملتفتاً إليه أول مرة .

- اعتراف غريب كان يمكن أن يقال بلفة أقرب الى التهذيب
 والأدب فى حضور سيدات .

ولكن جميع المجتمعين أخذوا يتحركون ؟ فهم يتناولون قبعاتهم

(١) بالفرنسية فى الأصل .

ويلوح عليهم أنهم منصرفون - لا بسبي ، بل لأنه آن الأوان • غير
أن هذه الطريقة فى معاملتى بالصمت ملأتنى شعوراً بالعار • ونهضت
أنا أيضاً •

- هل تريد أن تذكر لى اسمك رغم كل شيء ؟ انك لم تكف
عن النظر الى •

كذلك سألتى الأستاذ وهو يتقدم نحوى خطوة ، مبتسماً ابتسامة
غير لائقة •

- دولجوروكى

- الأمير دولجوروكى

- بل دولجوروكى فحسب ، ابن قنٍ قديم اسمه ماكار دولجوروكى ،
وابن زنا لمولاي السابق السيد فرسيلوف • طمن بالك يا سيدى ، فلست
أقول هذا من أجل أن ترتضى على عنقى وأن تذرف الدمع كالعجول •
فانفجرت عاصفة من الضحك تدوى بلا تخرج حتى اسقط من
شدة أصواتها الطفل الذى كان نائماً فى الجهة الأخرى وأخذ يبكى •
كنت أرتعش غيظاً • وصافح الجميع درجاشيف وانصرفوا دون أن
يولونى أى التفات •

قال كرافت وهو يلكنزنى بكوعه :

- هيا بنا !

فتقدمت نحو درجاشيف فصافحته بكل قواى وهزرت يده مرات ،
بكل قواى أيضاً •

قال لى كرافت :

- معذرة اذا كان كودريوموف قد آذاك • (ان كودريوموف هو

الرجل القصير الأحمر) •

وتبت كرافت ، لا أشعر بخجل من شيء •

بديهي أن بينى اليوم وبينى يومئذ مسافة لا نهاية لها •

ظلمت أمضى « غيرَ خجل من شيء » حتى أدركت فاسين على السلم ، تاركاً كرافت ، وهو شخص من الدرجة الثانية ، فسألته بلهجة طبيعية وهيئة عادية كأن شيئاً لم يحدث :

- أعتقد أنك تعرف أبى ، أقصد فرسيلوف ؟

فأجاب على الفور (دون اصطناع ذرة من تلك اللباقة الرقيقة ، ولكن الجارحة ، التى يعتمد عليها أولئك الأشخاص اللطاف مع أناس كانوا منذ لحظة يشعرون بعار) ، أجاب قائلاً :

- لا أعرفه معرفة خاصة •

قلت :

- اذا كنت قد سمعته فقد عرفته ، لأنك أنت ما أنت ! فما رأيك إذن فيه ؟ اغفر لى هذا السؤال المبالغ ، ولكننى فى حاجة الى جوابك ؛ فى حاجة الى أن أعرف رأيك أنت فيه • فما هو رأيك أنت ؟

- سؤال صعب • يخيلى الى أن هذا الامسان قادر على أن يطلب لنفسه بأشياء كثيرة ، وربما كان قادراً على أن ينفذها ، ولكنه يأبى أن يحاسبه أحد •

- هذا صحيح • هذا صحيح كل الصحة • انه شديد الكبرياء ؟ ولكن أهو واضح تماماً ؟ اسمع • ما رأيك فى كاثوليكيته ؟ ولكننى نسيت أنك ربما كنت لا تعلم أنه ...•••

لولا أنتى كنت مضطرباً هذا الاضطراب كله فلا شك أنتى ما كنت لألقى مثل هذه الأسئلة مباغتة على انسان لم أكلمه قبل ذلك فى حياتى قط ، ولا كنت أعرفه الا من السمعة • وأدهشنى أن فاسين لم يد عليه أنه يلاحظ جنونى هذا •

- لقد سمعت كلاماً من هذا القيل ، ولكننى لا أدرى الى أى حد يمكن أن يكون ذلك صدقاً •

كذلك أجاب بلهجة لا تزال متساوية هادئة • قلت :

- ليس فى ذلك أى صدق • ليس ذلك الا كذباً • هل تتصور أن من الممكن أن يؤمن بالله ؟

- انه انسان شديد الكبرياء والعجب بنفسه ، كما قلت أنت ذلك منذ هنيهة ، وكثير من المتكبرين جداً يحبون أن يؤمنوا بالله ، وخاصة أولئك الذين يحتقرون الناس بعض الاحتقار • كثير من الناس الأقوياء يشعرون بنوع من حاجة طبيعية الى أحد أو الى شئ يعبدونه • ان الانسان القوى يشق عليه كثيراً فى بعض الأحيان أن يحتمل قوته •
صحت أقول :

- اسمع اذن ! ذلك ما لا بد أنه الحقيقة الصادقة صدقاً رهيباً • ولكننى أريد أن أفهم ••

- السبب فى هذا واضح : انهم يختارون الله ، حتى لا يعبدوا البشر ، طبعاً دون أن يدركوا هم أنفسهم ما يجرى فى قرارة أنفسهم • أولئك هم أشد المؤمنين حماسة للايمان ، أو قل أولئك هم أشد المؤمنين رغبة فى الايمان ، غير أنهم يحسبون رغبتهم هذه ايماناً • وهؤلاء أنفسهم هم أيضاً أولئك الذين يفقدون آخر الأمر أوهامهم فى أكثر الأحيان • أما السيد فرسيلوف ، فأحسب أن فى طبعه صفات صادقة كل الصدق • وهو على كل حال انسان يلفت نظرى •

هتفت أقول :

- فاسين ، ان كلامك يسرنى • ليس ذكاؤك هو ما يدهشنى ، وانما يدهشنى أن انساناً له هذا الصفاء كله ، ويتفوق على هذا التفوق الذى لا حدود له ، يرضى أن يسير الى جانبى وأن يكلمنى بمثل هذه الساطة وبمثل هذا اللطف حتى لكأن شيئاً لم يحدث •

ابسم فاسين :

- أنت تمتدحنى فوق ما استحق • ان ما حدث هنالك لا يدل الا على أنك مسرف فى حب المناقشات المجردة • صحيح أنك كنت قد صمت حتى ذلك الحين زمناً طويلاً •

- صمت ثلاث سنين ؟ ثلاث سنين تأهب للكلام •• هذا واضح • ولئن لم أظهر لك غيباً فلأنك أنت ذكى الى أقصى حدود الذكاء ، أما سلوكى أنا فكان يستحيل أن يكون أشد حماقة وأكثر غباءً مما كان • ولكننى بدوت لك امرأ ردىء الطبع •

- ردىء الطبع ؟

- نعم ، بدون شك • قل لى بصراحة : ألا تحقرنى فى داخل نفسك لأننى ذكرت أنتى ابن زنا لفرسيلوف •• ولأننى تفاخرت بأننى ابن قن ؟

- أنت تسرف فى تعذيب نفسك وارهاقها • اذا كنت ترى أنه ما كان لك أن تقول ذلك ، فليس عليك الا أن تمتنع عن قوله مرة أخرى • ان أمامك خمسين سنة •

- أنا أعلم أن على أن أكون صامتا مع الناس • أسوأ مساوىء المرء أن يرتضى على أعناق الآخرين • لقد قلت لهم ذلك منذ قليل • وهأنذا مع ذلك أرتضى على عنقك ! الا أن هناك فرقا بين الأمرين ، أليس هذا

صحيحاً ؟ فإذا كنت قد أدركت هذا الفرق ، اذا كنت قد استطعت أن تدركه ،
فانتى أبارك هذه الدقيقة ...

ابتسم فاسين مرة أخرى :

- زرنى ان شئت • أما الآن فأنا مشغول ينتظرني عمل من الأعمال •
لكنك ستسرنى اذا زررتى •

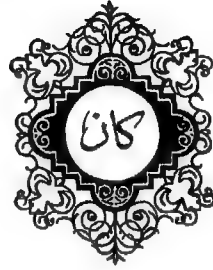
- أستتج من النظر فى وجهك أنك امرؤ مغلق جداً ، وأنت قليل
الرغبة فى الإفصاح عن ذات نفسك •

- ربما كان هذا صحيحاً • لقد عرفت أختك اليزابيث ماكاروفنا ،
العام الماضى ، فى لوجا • • هاقد وقف كرافت ، وهو ينتظرك فيما أظن •
سيكون عليه أن يرجع القهقرى •

صافحت يد فاسين مصافحة قوية ، ولحقت بكرافت الذى كان قد
تقدم فى الطريق أثناء حديثى مع فاسين • ومضينا صامتين الى أن بلغنا
منزله • كنت لا أريد ولا أستطيع ، بعد ، أن أكلمه • ان من أبرز صفات
طبع كرافت أنه رقيق الحاشية •

الفصل الرابع

١



لكرافت فى الماضى وظيفة رسمية ، وكان عدا ذلك يساعد المرحوم آندرونيكوف (بأجر يتقاضاه منه) فى معالجة بعض الشئون الخاصة التى كان كرافت يقوم بها اضافة الى أعمال وظيفته . والأمر الذى كان يهمنى أنا أنه لما كان بينه وبين آندرونيكوف من صلة صميمية ، كان يمكن أن يعرف بعض الأمور التى تعينى . لكننى كنت أعلم من ماريا ايفانوفنا ، زوجة نيقولا سيمينوفتش ، التى عشت لديها سنين طويلة أيام كنت فى اللبسيه - والتى كانت بنت أخت آندرونيكوف وكانت أثيرة قلبه ويؤبؤ عينه - ان كرافت كان قد « كلف تكليفا » بأن يسلمنى شيئاً ما . فكنت انتظره منذ شهر كامل .

كان كرافت يسكن شقة صغيرة من غرفتين ، منزلة كل الانزال ؛ واذ كان عائدا منذ برهة وجيزة ، فانه لم يكن لديه خادم . كانت حقيته مفتوحة ، غير أن أشياءه التى لم يرتبها بعد لا تزال مبشرة على الكراسى .

وعلى منضدة أمام الكتبة كان كيس سفر ، وصندوق صغير ، ومسدس ، النخ . كان كرافت غارقا فى أفكاره حين دخلنا ، كأنه نسيانا تاماً

يل لعله لم يلاحظ أنني لم أخاطبه بكلمة واحدة أثناء الطريق • ولم يلبث أن أخذ يبحث عن شيء ما ، ولكنه لمح امرأة على حين فجأة فتوقف وراح ينظر الى وجهه فيها محدقاً خلال دقيقة بكاملها • لاحظت هذا (وما أكثر ما تذكرته بعد ذلك !) ولكنني كنت حزينا مضطربا • لم أكن أملك قدرة على تركيز فكري • حتى لقد راودتني ، في لحظة من اللحظات ، رغبة مفاجئة في الانصراف ، في أن أدع كل شيء حيث هو ، الى الأبد • ما الذي كان يعينني في حقيقة الأمر ؟ ألسنت أصدع رأسي بهموم مصطنعة ؟ ألم أكن أبدد ، في ترهات سخيفة حقيرة ، بداعي الحساسية وحدها ، طاقة كنت محتاجاً اليها لتحقيق هدف معين رسمته لنفسي • ولكن أنني الى من جهة أخرى أن أصل الى تحقيق هذا الهدف أنا الذي أصبح عجزى عن القيام بأى عمل جدى واضح البدهة بعد الذي حدث عند درجاششف !

سألت كرافت فجأة :

– كرافت ، هل ستذهب اليهم بعد الآن ؟
 فالتفت نحوى ببطء ، كأنه لم يفهم سؤالى • وجلست •
 قال كرافت فجأة :

– سامحهم !

خيل الى بطيعة الحال أنه يسخر منى • ولكنني حدثت اليه فرأيت فى وجهه طيبة تبلغ من الغرابة بل تبلغ من الادهاش أنني ذهلت أنا نفسى من الجدل الظاهر فى رجائه أن « أسامحهم » • وتناول كرسياً وجلس قربى •
 – أعرف أنني قد لا أكون الا خليطاً من جميع أنواع حب الذات ، ولكنني لا أسأل أحدا أن يسامحنى •

– وممن عساك تطلب أن يسامحك !

قال ذلك هادئاً جداً • وكان يتكلم فى رفق لطيف وبطء شديد •

قلت :

- هبنى مذنباً فى حق نفسى •• اننى أحب أن أكون مذنباً فى حق نفسى •••• سلمحنى ، ياكرافت ، اذا أنت سمعتنى أقول هراءً سخيفاً فى هذه اللحظة • قل لى : أأنت عضو فى هذه الحلقة ، أنت أيضاً ؟ ذلك ما أردت أن أسألك عنه •

- ليسوا أشد حماقة ولا أرجح عقلا من الآخرين • انهم مجانيين . كسائر الناس •

- هل سائر الناس مجانيين ؟

سألته هذا السؤال وأنا التفت اليه مستطلعاً على غير ارادة منى •

- جميع الطيبين فى هذه الأيام مجانيين • الأغنياء والعجزة وحدهم مستخفون •••• ولكن فيم هذا كله؟

كان وهو يقول هذا الكلام ينظر فى الهواء ، يبدأ جملة ثم يقطعها • وقد لفت نظرى شئ من ضجر فى صوته بوجه خاص •

صحت أقول :

- وفاسين ، أهو منهم أيضاً ؟ ان فاسين يملك الذكاء ويملك فكرة أخلاقية •

- ليس هناك أفكار أخلاقية فى هذه الأيام • لقد اختفت الأفكار الأخلاقية بقتة ، اختفت جميعها بغير استثناء • حتى كأنه لم يكن ثمة أفكار أخلاقية فى يوم من الأيام •

- لم يكن هناك أفكار أخلاقية فى الماضى ؟

قال بملل واضح وسأم ظاهر :

- دعنا من هذا الموضوع !

تأثرت من هذا الجلد المر الأليم • وخجلت من نفسى فجاريته •

استأنف يقول من تلقاء نفسه بعد دقيقتين من صمت وهو لا يزال
ينظر فى الهواء :

- ان العصر الراهن هو عصر فقدان التسامى وفقدان الحساسية : هو
عصر الجهل ، والكسل ، والعجز عن العمل ، والحاجة الى كل ما هو جاهز
بها • ما من أحد يفكر اليوم قط • قليلون أولئك الذين يقدرون أن يصنعوا
لأنفسهم فكرة •

وانقطع عن الكلام مرةً أخرى وصمت لحظة • ولبت أصغى •

- انهم الآن يقطعون أشجار الغابات فى روسيا ، ويستفدون أرضها
ويحولونها مراعى وسهوباً • اذا قام رجل يملأ نفسه الأمل ويعمرها
الرجاء فغرس شجرة ، انفجر الناس من حوله ضاحكين : « أنت واثق
أنك ستراها تكبر وتثمر ؟ » • ومن جهة أخرى فان الذين يريدون الخير
يتناقشون فيما سيحدث بعد ألف سنة • ان الفكرة التى تولد الثبات
والاستقرار قد زالت • نحن جميعا كمن يقيم فى فندق ، متهيأ للرحيل
عن روسيا فى الغد • كل فرد يعيش كمن يريد أن يتخلص ••

- عفوك يا كرافت ! لقد قلت ان الناس يهتمون الآن بما سيحدث
بعد ألف سنة •• ولكن أليس بأسك •• من مستقبل روسيا •• همأ من
هذا النوع نفسه ؟

قال حائقاً وهو ينهض بسرعة :

- ذلك ••• ذلك أهم سؤال يمكن أن يخطر بالبال !

ثم قال فجأة بصوت آخر وهو ينظر الى مرتبكا :

— ها ... كدت أنسى • لقد جئت بك لأمر من الأمور ... فلا
تؤاخذني ، أرجوك ...

لكأنه يخرج من حلم • لقد كان كالحجلان • قال ذلك ثم تناول
رسالة من حقبة موضوعة على المنضدة ومدها الى •

— اليك ما كنت أريد أن أسلمك اياه • هي وثيقة على جانب من
خطورة الشأن •

قال ذلك مهتماً وقد بدا في وجهه الاحتفال بالأمر • لشد ما تعجبت ،
بعد ذلك بزمان طويل ، حين فكرت في الموضوع ، من هذه القدرة التي
كان يملكها (في ساعات كهذه الساعات الخطيرة عنده) على معالجة أمور
الآخرين بمثل هذا القدر من روح المودة ، وعلى الكلام فيها بمثل هذا
القدر من الهدوء والحزم •

— هي رسالة من ذلك الرجل ستوليف نفسه الذي أثارته وصيته ،
بعد موته ، الدعوى بين فرسيلوف والأمراء سوكولسكى • ان هذه الدعوى
'ينظر فيها الآن ، وأغلب الظن أن الغلبة فيها ستكون لفرسيلوف : فالقانون
يؤيده • ولكن في هذه الرسالة الخاصة ، التي كتبت منذ سنتين ، يعلن
الموصى نفسه ارادته الصادقة أو قل رغبته ، وهي تدعم الأمراء سوكولسكى
أكثر مما تدعم فرسيلوف • ويمكن القول في أقل تقدير ان النقاط التي
يستند اليها الأمراء سوكولسكى لانكار الوصية تجد في هذه الرسالة
ما يأتي مصداقاً لها ومؤيداً • لاشك في أن خصوم فرسيلوف مستعدون لأن
يعطوا كل شيء في سبيل الحصول على هذه الوثيقة ، رغم أن قيمتها القانونية
ليست قيمة مطلقة • ان الكسى نيكانوروفتش (أندرونيكوف) الذي اهتم
بقضية فرسيلوف كان يحتفظ بهذه الرسالة لديه ؛ ثم أعطاها قبل موته
وأوصاني أن « أحافظ عليها أشد المحافظة » • لعله كان يخشى على أوقافه
وهو يرى دنو أجله • لا أريد أن أقطع برأى في نيات الكسى فيكانوروفتش

بصد هذا الأمر • وأنا أعترف أنني أصبحت بعد وفاته متردداً تردداً شاقاً
أليماً : ماذا أصنع بهذه الوثيقة ؟ خاصةً والحكم فى القضية يوشك أن
يصدر ؟ غير أن ماريا ايفانوفنا التى يظهر أن الكسى فيكانوروفتش كان
يوليها فى حياته ثقة كبرى قد أخرجتني من الارتباك : فكتبت الى منذ
ثلاثة أسابيع تطلب مني جازمةً وقاطعة أن أسلمك هذه الرسالة ، لأنها
تعتمد (ذلك هو تعبيرها) أن ذلك يتفق ونية آندرونيكوف • فإليك الرسالة
اذن ، وانه ليسعدني أن أستطيع أخيراً أن ألقها اليك •

قلت وقد أربكني هذا النبأ الذى لم يكن فى الحسبان قط :

– وما عساي اصنع بهذه الرسالة ؟ ما هو السلوك الذى يجب أن
أسلكه ؟

– هذا متوقف عليك وحدك •

– مستحيل • لست حراً قط • لا بد أنك تقرنى على ذلك • ان
فرسيلوف ينتظر هذا الميراث على أحر من الجمر • وانك لتعلم أنه بدون
ضائع لا محالة ••• ثم اذا بوثيقة كهذه الوثيقة توجد على حين فجأة فتغير
الموقف !

– انها لا توجد الا هنا ، فى هذه الغرفة •

– فهل ••• ؟

ألقيت عليه هذا السؤال وأنا أنظر اليه بانتباه شديد •

– اذا لم تهتد بنفسك الى السلوك الذى ينبغي لك أن تسلكه ، فبماذا
عساي أنصحك ؟

– اتنى لا أستطيع أن أسلم الوثيقة الى الأمير سوكولسكى : والا
فضيت على جميع آمال فرسيلوف ؟ ثم ما عسى أن يكون موقفى منه عندئذ ؟
سيكون موقف الحائن ••• ذلك من جهة ، ومن جهة أخرى فأتنى اذا

سلمت الوثيقة الى فرسيلوف كنت أغرق في البؤس والشقاء أناساً أبرياء ؛
كما أن فرسيلوف سيجد نفسه عندئذ في مأزق لا مخرج منه : فاما أن
يتنازل عن الميراث ، واما أن يصبح لصاً •

- انك تضخم خطورة الأمر •

- قل لى أيضا : هل هذه الوثيقة حاسمة قاطعة ؟

- لا • لست من رجال القانون • ان محامى الخصم سيجد بطبيعة
الحال وسيلة لاستغلال الوثيقة وللإستفادة منها • ولكن الكسى نيكاتوروفتش
يقدر حقا أن هذه الرسالة لن يكون لها قيمة قانونية كبيرة ، وأن فرسيلوف
يمكن أن يربح الدعوى رغم كل شىء • المسألة أقرب الى أن تكون مسألة
ضمير ان صح التعبير •

فقاطعه أقول :

- هذا هو الأمر الهام خاصة • لهذا قلت ان فرسيلوف سيجد نفسه
فى مأزق لا مخرج منه •

- قد يتلف فرسيلوف الوثيقة ، فيكون عندئذ فى منجى من أى
خطر •

- أتملك من الأدلة الخاصة ما يجعلك ترى فيه هذا الرأى ،
ياكرافت ؟ ذلك ما كنت أريد أن أعرفه ، ومن أجل هذا انما ترانى
عندك الآن •

- أعتقد أن كل انسان يفعل ذلك •

- وأنت أيضا يمكن أن تفعله •

- أنا لست انتظر ميراثاً أرثه ، لهذا لا أدرى ما الذى قد أفعله •

قلت وأنا أدرس الرسالة فى جيبى :

- طيب • انتهينا • اسمع ياكرافت ! ان ماريا ايفانوفنا التى أوكد لك

أنها كشفت لى عن أشياء كثيرة ، قالت لى انك تستطيع ، وحدك ، أن تنبئى بحقيقة ما حدث فى مدينة « امس » منذ ثمانية عشر شهراً بين فرسيلوف وأسرة آخماكوف . لقد كنت أنتظرك كمن ينتظر الشمس تضىء له ما حوله . انك لا تعرف وضعى يا كرافت . أتوسل اليك أن تذكر لى الحقيقة كاملة . أريد أن أعرف حقيقة هذا الانسان ؛ أريد أن أعرف ذلك الآن ؛ أنا الآن فى حاجة الى ذلك أكثر من أى وقت آخر .

- يدهشنى أن ماريا ايفانوفنا لم تقصص عليك كل شيء . فلا بد أن المرحوم أندرونيكوف قد أظهرها على الأمر كله ، ولا شك فى أنها قد سمعت منه ما لم أسمع ، وأنها تعرف مالا أعرف .

- ان أندرونيكوف نفسه قد اختلط عليه الأمر : ذلك ما تقوله ماريا ايفانوفيا . تلك قضية ما أظن أن أحدا قادر على أن يفهما . الشيطان نفسه لن يستطيع ذلك . وأنا أعلم أنك كنت يومئذ فى « امس » .

- لم أشهد كل شيء ، وسأقص عليك ما أعرف . ولكن ترى هل يكفيك ذلك ويرضيك ؟

لن أعيد قصته نصاً ، بل سوف أوجز جوهرها .

منذ ثمانية عشر شهراً ، استطاع فرسيلوف ، الذى أصبح بواسطة الأمير العجوز سوكولسكى صديق أسرة أخماكوف (وكانوا أيامئذ جميعاً فى الخارج ، فى مدينة « امس ») أن يؤثر تأثيراً قوياً ، أول الأمر ، فى أخماكوف الجنرال ، الذى لم يكن قد طعن فى السن كثيراً بعد ، لكنه كان قد بدد فى القمار المهر الكبير الذى مهرته اياه زوجته ، كاترين نيقولايفنا ، بدده خلال ثلاث سنين من الزواج ، أصيب بعدها بنوبة قلبية نتيجة لاسرافه وافراطه . وقد شفى من هذه النوبة القلبية فسافر الى الخارج يقيم فى مدينة « امس » من أجل ابنة له من زواج أول . كانت ابنته هذه فتاة ممراساً فى نحو السابعة عشرة من عمرها ، مصابةً بالسل ، فانتة الجمال فيما يقال ، وكذلك جامحة الخيال . ولم تكن تملك مهراً . وكانوا يعوتلون فى هذا الأمر على الأمير العجوز ، كالعادة . ويقال ان كاترين نيقولايفنا كانت لابنة زوجها نعم الأم حناناً . ولكن الفتاة شغفت بفرسيلوف شغفاً خاصاً . وكان أيامئذ ينادى « بمالا أدرى من الحماسة » (على حد تعبير كرافت) ، ويدعو الى «مالا أدرى من حياة جديدة» ؛ وكان «مأخوذاً بحمية دينية قوية الى أبعد حدود القوة » ، على حد ذلك التعبير الغريب ، وربما الساهر ، الذى 'نقل الى' أن آندرونيكوف وصفه به . ويجب أن نذكر أن فرسيلوف سرعان ما أصبح يكرهه جميع الناس . حتى ان الجنرال نفسه أخذ يحاذره ويخشاه . ولم يكذب كرافت الاشاعة التى راجت تقول ان فرسيلوف قد استطاع أن يدخل فى روع زوج كاترين نيقولايفنا المريض أنها لا تخلو من عاطفة نحو الأمير سوكولسكى (الذى

كان قد ترك مدينة « امس » الى باريس) . فعل ذلك لا بكلام مباشر بل بتلميحات وإيحاءات وبأنواع من اللف والدوران (وهو في هذه الأساليب أستاذ بارع ، كما قال كرافت) . يجب أن أقول ان كرافت لم يكن يعدّه ولا كان يريد أن يعدّه انساناً نصاباً أو مرواغاً مختالاً بفطرته ، بل رجلاً تملكته حقاً فكرة عليا أو استولت عليه فكرة شاذة لا أكثر . وكنت أعرف ، على كل حال ، من مصدر آخر غير كرافت ، أن فرسيلوف الذى أثر ، أو الأمر ، تأثيراً كبيراً فى كاترين نيقولايفنا ، انتهى شيئاً فشيئاً الى قطع صلته بها ، أما حقيقة هذه اللعبة كلها ، فذلك ما لم أستطع أبداً أن أحصل من كرافت على تفسير له ، غير أن جميع من كانوا على بعض العلم بالأمر أكدوا أن الكره وقع بينهما . وحدث بعد ذلك حادث غريب . ان الفتاة المراض ، ابنة زوج نيقولايفنا ، افتتت بفرسيلوف ، أو أعجبت بصفة من صفاته ، أو ألهمت حماسها أحاديثه ، لا أدري . . . ولكن المعروف أن فرسيلوف أصبح ، خلال فترة من الزمن ، يقضى كل أيامه تقريباً حول هذه الفتاة . ثم اذا بالفتاة تصرح لأبيها ذات يوم على حين فجأة أنها تريد فرسيلوف زوجاً لها . وقع هذا فعلاً ، فقد أكدّه الجميع : أكدّه كرافت ، وآندرونيكوف ، وماريا ايفانوفنا ؟ حتى ان تاتيانا بافلونا ألمحت اليه ذات يوم بحضورى . وقيل أيضاً ان فرسيلوف لم يتمنّ هذا الزواج فحسب ، بل أصرّ عليه أيضاً ، وان الاتفاق بين هذين الانسانين اللذين يختلف كل منهما الآخر ، فأحدهما كهل متقدم فى السن والآخر فتاة فى ريعان الصبا ، كان اتفاقاً متبادلاً . لكن هذه الفكرة قد دعر لها الأب ، فعلى قدر ما كان ينفر من كاترين نيقولايفنا يوماً بعد يوم (وكان يحبها قبل ذلك حباً كبيراً) أصبح يزداد ولهاً بابنته وعبادةً لها ، وخاصة بعد النوبة التى أصيب بها . غير أن الخصم الأكبر الذى كان يعارض مثل هذا الزواج معارضةً عنيفةً انما هو كاترين نيقولايفنا . فقامت فى البيت صراعات

هائلة خفية لكنها مزعجة الى أبعد الحدود ، ونشبت فيه مشاجرات ومشاحنات وآلام وأحزان ، وشاعت فيه على وجه العموم أنواع لا نهاية لها من القذارات ... وأخذ الأب ينصاع آخر الأمر ، لما رأى من عناد وإصرار لدى ابنته المقتونة بفرسيلوف ، « المتحمسة » له على حد تعبير كرافت . ولكن كاترين نيقولايفنا ظلت نائرة متمردة يماً نفسها كره لا يوصف . وهنا انما بدأ ذلك الاشكال الذى لا يفهم منه أحد شيئاً . واليكم مع ذلك ، الافتراض الذى بناه كرافت على بعض الوقائع ، وما هو الا افتراض على كل حال :

الافتراض هو أن يكون فرسيلوف قد استطاع أن يدخل فى روع الفتاة ، بأسلوبه الرقيق المرفف الذى لا سبيل الى مقاومته أن كاترين نيقولايفنا انما ترفض الموافقة على هذا الزواج ، لأنها تحبه هو ، فالغيرة تعذبها منذ زمن طويل : انها تلاحقه ، وتدبر له المكائد ، حتى لقد صرحت له بحبها ، وانها الآن مستعدة لأن تحرقه حياً لأنه يحب امرأة غيرها . الخلاصة : شيء من هذا القليل . والأنكى من ذلك أنه لعله قد « أسمع » الأب ، زوج المرأة « الحائنة » أن الأمير لم يكن أكثر من تسلية . وفى روايات أخرى أن كاترين نيقولايفنا كانت تحب ابنة زوجها حب العادة ، وأنها أصبحت الآن ، بعد أن قيل لها عنها ما قيل ، فى حالة يرثى لها من الألم والعذاب ، ناهيك عن علاقاتها بزوجها المريض .

وهناك رواية أخرى أيضاً آلمنى كثيراً أن كرافت كان يصدقها تصديقاً كاملاً ، وكنت أصدقها أنا نفسى أيضاً (لأننى سمعت بها أيضاً) ، وهى أن فرسيلوف (ويقال ان أندرونيكوف قد علم هذا من كاترين نيقولايفنا نفسها) كان ، على خلاف ما تقوله الروايات السابقة ، قد عرض حبه على كاترين نيقولايفنا قبل ذلك ، أى قبل أن تنشأ هذه العواطف فى قلب الفتاة ؛ وأن كاترين نيقولايفنا التى كانت صديقه حتى لقد تحمست له زمناً ما ، ولكنها لم تكن تصدقه أبداً ، وكانت تعارضه دائماً ، قد

استقبلت منه هذا التصريح بيفض شديد ، وأثقلته سحرية مريرة وهزءاً لاذعاً ؛ ثم طردته من بيتها طرداً حاسماً ، لأنه اقترح عليها صراحة أن يتزوجها متنبئاً بأن زوجها سيموت وشيكاً بنوبة جديدة . لذلك شعرت كاترين نيقولايفنا فرسيلوف بكره خاص حين رأته بعد ذلك يسعى بمثل هذا الوضوح الظاهر الى خطبة ابنة زوجها . حين قصّت على ماريّا ايفانوفنا هذا كله فى موسكو ، كانت تصدق الروايتين كليهما اى كانت تصدق كل شيء ، قائلة ان ذلك كله يمكن ألا يتعارض ، وأن الأمر كان « جافاً فى كره » ، كان نوعاً من كبرياء غرامية جريئة لدى الطرفين ، النخ النخ ، أى كان ضرباً من اشكال عاطفى 'يحتقر صدره عن رجل جاد ، ولكن له تفسيره ، عدا أنه ممتزج بنميمة معيبة . ولكن ماريّا ايفانوفنا كانت ممثلة النفس بالروايات منذ طفولتها ، فهى تقرأ القصص ليلاً ونهاراً ، رغم ما تملكه من قوة الطبع وروعة الخلق . ومهما يكن من أمر فانه يخرج من هذا كله أن فرسيلوف رجل واضح الذكاء والكذب والكيد ، أنه انسان أسود النفس يبعث على الاشمئزاز ، لاسيما وأن الخاتمة كانت مأساة أليمة : فان الفتاة المسكينة التى ألهبها الحب قد سممت نفسها ، فيما يقال ، بفوسفور أعواد ثقاب . على أننى لا أدرى حتى الآن أكانت هذه الاشاعة صادقة أم لا ، ولكن ما حدث على كل حال هو أن جميع الوسائل التى استعملت فى انقاذ الفتاة لم تنفع ، فلم يدم مرضها الا خمسة عشر يوماً ، ثم لفظت أنفاسها . هكذا ظلت قصة الثقاب أمراً مشكوكاً فيه ، ولكن كرافت يعتقد بصحة الاشاعة لا يراوده فى صدقها أى شك . وما لبث أن مات والد الفتاة بعد ذلك ، من فرط حزنه عليها فيما قيل ، اذ وافته نوبة قلبية جديدة ، بعد ثلاثة أشهر . غير أن الأمير الفتى سوكولسكى الذى عاد من باريس الى امس بعد دفن الفتاة صفع فرسيلوف على مرأى من الناس فى حديقة عامة ، فلم يردّ فرسيلوف على الصفعة بأى تحد ، كأن شيئاً لم يحدث . وعندئذ انما أدار جميع الناس

له ظهورهم وأشاحوا عنه أبصارهم ، حتى فى بطرسبرج • ولئن احتفظ فرسيلوف بعد ذلك ببعض المعارف ، فلقد كان معارفه هؤلاء ينتمون الى بيئة أخرى غير تلك البيئة • أما أصدقائه من أبناء المجتمع الراقى فقد أصبحوا جميعاً يهتمونه ، مع أن قلة قليلة منهم قد اطلعت على جميع التفاصيل ، فى حين أن الآخرين لا يعرفون الا قصة موت الفتاة وحكاية الصفة • شخصان أو ثلاثة أشخاص فقط كانوا يملكون معلومات وافية على قدر الامكان • وكان المرحوم آندرونيكوف أوسعهم علماً بالأمور ، اذ كان بينه وبين أخماكوف علاقات أعمال منذ زمن طويل ، ولأنه كان على صلة بكاترين نيقولايفنا خاصة بسبب مناسبة من المناسبات • لكنه كم السر حتى عن أسرته ، ولم يفتح نفسه قليلاً الا لكرافت وماريا ايفانوفنا ، وذلك لضرورة أيضاً •

قال كرافت يختم كلامه :

— المهم أن ههنا الآن وثيقة تخشاها السيدة أخماكوفا خشيةً هائلة • واليكم ما أبلغنيه فى هذا الصدد :

ان كاترين نيقولايفنا قد ارتكبت بعض الطيش ، حينما كان أبوها الأمير العجوز يستشفى من نوبته فى الخارج ، فكتبت الى آندرونيكوف ، سرّاً ، (وكانت تمحضه ثقةً كاملة) رسالةً تسمى اليها كثيراً • وكان الأمير الذى يقضى فترة النقاهة قد أظهر ، فيما قيل ، ميلاً الى تبديد ماله ، حتى لكانه يرميه فى البحر رميةً : لقد أخذ يشتري فى الخارج أشياء لا فائدة منها البتة ، ولكنها غالية الثمن ، من لوحات وآيات وما أشبه ذلك ؛ وأخذ يقدم الهدايا والهبات مبالغ طائلة حتى لمؤسسات شتى من تلك البلاد • وأوشك أن يشتري من نبيل روسى ذهب ماله عقاراً مهجوراً تقوم حوله دعاوى كثيرة ، وذلك بشمن باهظ ، دون أن يرى العقار • وكان فوق هذا كله يفكر فى الزواج فعلاً •

فلهذه الأسباب كلها ، عمدت كاترين نيقولايفنا التي لم تترك أباهما خطوة واحدة أثناء مرضه ، الى كتابة رسالة الى آندرونيكوف ، من حيث هو رجل من رجال القانون ، ومن حيث هو صديق قديم ، تسأله هذا السؤال : « هل يجوز ، بحكم القانون ، أن يتم الحجز على أبيها ، أو أن يعطى نصحا قانونياً ؟ فإذا كان هذا في الامكان ، فما هي الوسيلة المثلى لتحقيقه دون فضيحة ، حتى لا يجد أحد مايقوله ، وحتى تراعى عواطف أبيها في الوقت نفسه ، الخ الخ . » . يقال ان آندرونيكوف قد ردّها الى الصواب فنصحها بالعدول عن الشروع في مثل هذا الأمر . حتى اذا شفى الأمير شفاءً كاملاً ، لم يشر هذا الموضوع بعد ذلك قط ، ولكن الرسالة ظلت محفوظة لدى آندرونيكوف . وقد مات الآن آندرونيكوف . فما لبثت كاترين نيقولايفنا أن فكرت في الرسالة : فلو اتفق أن عُثر على الرسالة بين أوراق المتوفى ، فوقعت الرسالة بين يدي الأمير العجوز ، فلا شك في أنه سيطردها الى الأبد ، وسيحرمها من الميراث ، وأنه لن يعطيها قرشاً واحداً ما ظل حياً . انه اذا عرف أن ابنته كانت لا تثق بسلامة عقله ، حتى أنها أرادت في ذات يوم أن تعلن أنه مجنون ، فقد ينقلب هذا الحمل الوديع الى وحش كاسر . وهي بعد ترملها قد أصبحت بسبب زوجها المقامر لا تملك أية ثروة ، ولا تموّل الا على أبيها ؛ وكان أملها كبيراً في أن تحصل منه على مهر جديد لا يقل عن مهرها الأول .

كان كرافت لا يعرف عن مصير هذه الرسالة شيئاً كثيراً . لكنه كان قد لاحظ أن آندرونيكوف كان « لا يمزق أبداً الأوراق التي قد تكون ذات فائدة في يوم من الأيام ، وأنه كان بالاضافة الى ذلك واسع الفكر ، لكنه واسع « الذمة » أيضاً . (لقد استغربت عندئذ هذا الاستقلال الخارق لدى كرافت الذي كان يحب آندرونيكوف ويحترمه) . ولكن كرافت كان مقتنعاً مع ذلك بأن الوثيقة التي قد تؤذى كاتبها لابد أنها وقت بين يدي فرسيلوف ، وذلك لما بينه وبين أرملة آندرونيكوف وبناته من صلة

حميمة : حتى لقد عَرف منذ ذلك الحين أنهم وضعن تحت تصرفه ، في كثير من المودة ، جميع أوراق المرحوم . وكان كرافت يعلم أيضاً أن كاترين نيقولايفنا لا تجهل أن الرسالة موجودة عند فرسيلوف ، وذلك ما كانت تخشاه ، لتقديرها أن فرسيلوف سيمضي فوراً الى الأمير العجوز ليظهره على الرسالة ، وأنها حين عادت من الخارج قد بحثت عن الرسالة في بطرسبرج ، فذهبت الى عائلة آندرونيكوف ، وأنها لا تزال تبحث عنها لأنها لا تزال تأمل رغم كل شيء ألا تكون الرسالة قد وصلت الى فرسيلوف ؟ وأنها لم تسافر الى موسكو الا لهذا الغرض ، وأنها تضرعت هنالك الى ماريا ايفانوفنا أن تنبش الأوراق التي لا تزال عندها . أما وجود ماريا ايفانوفنا ، وما كان بينها وبين المرحوم آندرونيكوف من صلات ، فقد علمته في الآونة الأخيرة حين عادت الى بطرسبرج .

سألته وفي ذهني فكرتي :

- وهل تعتقد أنها لم تجد شيئاً عند ماريا ايفانوفنا ؟
- اذا كانت ماريا ايفانوفنا لم تكشف لك عن شيء ، فمعنى ذلك أنها لم تجد شيئاً .

- أنت تقدّر اذن أن الرسالة عند فرسيلوف ؟

- هذا هو الأرجح . على كل حال ، لا أدري .

قال ذلك بضجر ظاهر .

فكففت عن سؤاله . وفيم السؤال ؟ ان الأمر الأساسي واضح ، رغم ذلك الاشكال الكريه . ان كل ما كنت أخشاه قد ثبت . قلت بحزن عميق وأنا أتناول قبعتي :

- لكأن ذلك كله حلم أو هذيان !

فسألني كرافت بعطف كبير واضح قرأته في وجهه :

- هل هذا الرجل عزيز جداً فى نفسك ؟

قلت :

- هذا ما كنت أوجسه : كنت أحس أننى لن أعرف لديك كل شيء . بقى أمل واحد هو أخماك وفا . لقد كنت أعول عليها كثيراً . قد أذهب اليها . وقد لا أذهب ...

فنظر الى كرافت حائراً مضطرباً .

- وداعاً يا كرافت ! فيم يتعلق المرء بأناس لا يريدونه ؟ أليس الأفضل أن يقطع بهم صلته ؟

فسألنى وقد أظلم وجهه وأطرق الى الأرض :

- وبعد ذلك ؟

- يعود المرء الى بيته ! يقطع كل صلة ، ويرجع الى بيته !

- الى أمريكا ؟

قلت مهتاجاً :

- الى أمريكا ؟ بل الى بيته ، الى بيته وحده . تلك هى « فكرتى » كلها .

فنظر الى كرافت نظرة استطلاع غريبة .

- وهل لك ملاذ كهذا الملاذ ، هل لك « هذا البيت » ؟

- نعم . الى اللقاء يا كرافت . أشكرك . ويؤسفنى أننى أزعجتك . لو كنت أتصور روسيا على نحو ما تتصورها أنت ، لما حفلت بشيء ولما همنى من الأمر شيء ولكن لسان حالى يقول : الى الشيطان فليذهب جميع الناس : امضوا فى سبيلكم ، كيدوا بعضكم لبعض ، كلوا بعضكم بعضاً ، فما عسى أن يعينى أنا هذا كله ؟

قال كرافت فجأة بعد أن شيعنى حتى الباب :

– ابق قليلاً أيضاً !

فدهشت بعض الدهشة ، وعدت أدراجى فجلست وجلس كرافت أمامى • تبادلنا بضع نظرات : ما زلت أرى هذا كله كأننى مازلت فيه • وأذكر أتنى كنت على شىء من دهشة •

قلت فجأة :

– ما يعجبني فيك يا كرافت هو أنك انسان مهذب !

– غير معقول ! ***

– يندر أن أستطيع أن أكون مهذباً ، رغم ما أبذل فى ذلك من جهد *** ولكن ربما كان من الأفضل للمرء أن يجرح شعور الآخرين ، فانه على الأقل يتخلص عندئذ من عذاب محبتهم •

– أية ساعة من ساعات اليوم تفضل ؟

واضح أنه سألنى هذا السؤال وكان قد أصبح لا يصفى الى ما أقول

– أية ساعة من ساعات اليوم أفضل ؟ لا أدري *** ولكننى

لا أحب ساعة غروب الشمس •

– حقاً ؟

قال ذلك متعجباً تعجباً خاصاً • ثم ما لبث أن عاد الى شروود فكره •

– أأنت مسافر الى مكان ما ؟

– نعم •

– قريباً ؟

– قريباً •

– هل لابد للمرء من مسدس ليذهب الى « فيلنا » ؟

سأله هذا السؤال دون أن يكون فى ذهنى أية فكرة مبيتة ، بل دون

أن يكون في ذهني أية فكرة البتة ؟ وانما راودني هذا السؤال لأنني لمحت
مسدساً ، وكنت لا أعرف ماذا أقول ! ... فالتفت يحدّق الى المسدس ،
وقال :

— لا .. الأمر .. هكذا .. عادة ..

— لو كان عندي مسدس لدبسته في مكان ما ، وافلتت عليه
بمفتاح . ان منظر المسدس يغري . أنا لا أؤمن بوباء الانتحارات . ولكن
المرء قد يمر بلحظات يستبد به فيها الاغراء اذا هو رأى هذا الشيء أمام
عينيه دائماً .

— لا تقل هذا الكلام !

قال ذلك وهو ينهض فجأة .

أضفت أقول وأنا أنهض أيضاً :

— ما حديثي عن نفسي . فلو وهبت لي ثلاثة أعصار اذا شئت ،
ما اكتفيت بها .

— عش طويلاً !

وكان هاتين الكلمتين قد افلتتا من لسانه افلاتاً .

وابتسم ابتسامة زاهلة ، واتجه رأساً نحو مخرج الغرفة اتجهاً يدعو
الى الاستغراب كأنما هو يرغبني على الانصراف ، دون أن يلاحظ طبعاً
ماذا كان يفعل . قلت وانا أضع قدمي على الفسحة أمام الباب :

— أتمنى لك كل أنواع السعادة يا كرافت .

فقال حازماً :

— هذا ما سوف نعرفه ..

— الى اللقاء .

— وهذا أيضاً ، سوف نعرفه .

انني أتذكر النظرة الأخيرة التي رمقني بها .

ذلكم هو اذن الرجل الذى خفق قلبى له ذلك العدد كله من
السنين ! وماذا كنت أنتظر من كرافت ؟ أية اكتشافات ؟

حين خرجت من منزل كرافت كان بى جوع رهيب . ان المساء
يهبط ، ولم أكن قد تناولت غذائى بعد .

وما هى الا لحظات حتى صرت فى « شارع بطرسبرجسكايا » ،
فدخلت مطعماً صغيراً على نية انفاق عشرين كوبكا أو خمسة وعشرين
على أكثر تقدير ، فما كان لى أن أبجح لنفسي انفاق أكثر من ذلك المبلغ فى
تلك اللحظة . طلبت حساءً ، ومازلت أذكر أنني بعد أن احتسيت
الحساء نظرت من النافذة . كان المطعم فى الداخل حافلاً بجمهور من
الطاعمين . رائحة شحم يحترق ، ومنشقات وسخة ، ودخان تبغ . جو
فاسد . وفوق رأسى ، هزار لايفنى ، قائم واجم ، يضرب بمنقاره
قاع قفصه . وفى صالة البلياردو ضجة وصخب . ولكننى بقيت جالساً
فى مكانى أفكر . ان غروب الشمس (لا أدري لماذا أدهش كرافت أن
يعرف أنني لا أحب ساعات غروب الشمس) يولد فى نفسى احساسات
جديدة لا أتوقعها ولا أرى لها مسوّغاً . لقد كنت دائماً أتمثل النظرة
الحنون التى تلقىها على أمى ، وأتمثل عينيها الجميلتين ، وأتمثل كيف
أصبحت منذ شهر كامل ترنو الى خجلى . لقد كنت شديد الفظاظة فى
المنزل ، وخاصةً معها . كان حقدى منصباً على فرسيلوف ، ولكننى لجبى
عن مخاطبته بفظاظة ، على عادتى اللئيمة ، كنت أعذبها هى . حتى لقد
كانت تخافنى : وما أكثر ما كانت ترنو الى بنظرة متوسلة ضارعة حين كان

يدخل آندره بتروفتش ، مخافة أن تصدر عنى حماقة ما ... شىء
اننى الآن ، فى هذا المطعم ، انما يخطر ببالى لأول مرة أن فرسيلو
يخاطبنى بصيغة المفرد ، وأنها كانت تخاطبنى هى بصيغة الجمع
سبق أن أدهشنى هذا قليلاً من قبل ، دون أن تشتمل هذه الده
شىء من الاكبار لها ، ولكننى أتنبه هنا للأمر تنبهاً خاصاً ، وها
خواطر غريبة تتلاحق فى ذهنى تلاحقاً سريعاً • لبثت ساكناً زمناً ط
الى أن انقضت فترة الفسق • وفكرت أيضاً فى أختى ...

لحظة حاسمة ! يجب على أن اتخذ قراراً مهما كلف الأمر
اذن عاجز عن اتخاذ قرار ؟ أية صعوبة فى القطيعة ، ولاسيما
الآخرون لا يريدونى ؟ أمى وأختى ؟ ولكننى لن أتركهما بأى -
الأحوال مهما يحدث •

نعم ... ان ظهور هذا الرجل فى وجودى ومضة من ال
فى طفولتى الأولى ، قد كان صدمة حاسمة هزت ضميرى • فلو
التقيت به عندئذ ، لكان عقلى غير ما هو الآن ، ولكانت طريقتى فى
غير ما هى الآن ، وكان مصيرى غير ما هو الآن ، رغم طبعى الذى
القدر ولم يكن فى وسعى أن أتجنبه •

وهنا إذا أدرك أن هذا الرجل لم يكن الا حلماً ، حلماً من
أولى سنى حياتى • أنا الذى تخيلته على هذه الصورة : ولكنه فى
مختلف عن هذه الصورة كل الاختلاف ، انه أخطأ كثيراً مما تص
خيالى • لقد جئت فى سبيل أن أجد انساناً شريفاً ، لا هذا الانس
ولكن لماذا فتنت به الى الأبد أثناء تلك اللحظة القصيرة التى رأيته
طفلاً ؟ يجب أن تزول كلمة « الى الأبد » هذه • فى يوم من الأيام
أتيت مناسبة ما ، سأقص عليك قصة ذلك اللقاء الأول : انه حكاية
لا استخرج منها أية نتيجة • ولكننى استخرجت منها يومئذ
ضخماً • بدأت بناء ذلك الأهرام تحت غطائى الذى كنت أندثر به ط

لحظة كنت أستطيع ، قبل أن يغمض النوم عيني ، أن أبكى وأن أحلم .
 بماذا كنت أحلم ؟ أنا نفسي أجهل ذلك . أكنت أفكر في تركهم اياي ؟
 أكنت أفكر في ألوان العذاب التي كنت عرضة لها ؟ ولكنني لم أعذب كثيرا
 خلال قرابة سنتين قضيتهما في المدرسة الداخلية ، مدرسة توشار التي
 حشرني فيها قبل أن يذهب الى غير رجعة . وبعد ذلك لم يعذبني أحد
 قط . بالعكس ، كنت أنا الذي أنظر الى رفاقي نظرة استعلاء ! ثم اتى
 لا أطيق أولئك اليتامى الذين يشكون حالهم ويصفون عذابهم . ليس في
 الدنيا منظر أشنع من منظر هؤلاء اليتامى أو أبناء الزنا وسائر أولئك
 الذين يذهم المجتمع ، وجميع أولئك الأوغاد الذين لا أشعر نحوهم بأية
 شفقة حين يهبون فجأة أمام الناس ويأخذون يصيحون ملء أفواههم
 استدراجاً للشفقة قائلين : « أنظروا كيف نعامل ! » . لو استطعت لجلدتهم
 جلداً ، هؤلاء اليتامى ! .. ما من أحد من هذه الجمهرة المنحطة يدرك أن
 الصمت أنبل عشر مرات من الشكوى والاستعطاف . اذا كنت تحترم
 نفسك ، يا من جئت الى هذه الحياة ثمرة حب ، فقد نلت ما تستحق . ذلك
 رأيي أنا .

غير أن الأمر المضحك ليس تلك الأحلام التي كنت استرسل فيها
 أيام طفولتي « تحت غطائي » ، بل مجيئي الى هنا من أجله ، من أجل
 ذلك الانسان الخيالي ، ناسياً جميع أهدافي الأساسية تقريبا . لقد جئت
 أساعده في التغلب على الأراجيف ، وأساعده في سحق أعدائه . ان
 الوثيقة التي كان يتكلم عنها كرافت ، أعني الرسالة التي كتبها تلك المرأة
 الى أندرونيكوف ، وتخشاها تلك الحشية كلها ، لأنها قد تحطم سعادتها
 وتغرقها في البؤس ، والتي تظن تلك المرأة أنها بين يدي فرسيلوف ، أقول
 ان تلك الرسالة ليست لدى فرسيلوف ، بل هي معي أنا ، خطتها في جيبى
 بنفسى ، وليس في الدنيا أحد يعرف ذلك . ولئن رأيت ماريا ايفانوفنا
 ذات الطبع الخيالي ، وهي التي كانت « تحفظ » الوثيقة ، أن تعهد بها

الىّ أنا ، لا الى أحد آخر ، فذلك ثمرة أفكارها وارادتها ، وليس علىّ أن أجد له تعليلاً . قد يتاح لى يوما أن أقص عليك هذا الأمر . لكننى وقد تسلمت على هذا النحو ارتجالاً ، لم يكن فى وسعى الا أن أشعر بحاجة المجيء الى بطرسبرج . وكنت أعول بطبيعة الحال أن أساعد هذا الرجل سرّاً ، دون أن أتفاخر ودون أن أتحمس ، ودون أن أنتظر منه لا أماديح ولا قبالات . وما كان ليخطر على بالى يوما أن أوجّه اليه أى لوم ! أكان هو المذنب حين افترقت به ، وحين صنع منه خيالى مثلاً أعلى ؟ ولعلنى لم أكن أحبه . ان فكره الشاذ ، وطبعه الغريب ، ومكائده ومغامراته ، ووجود أمى بقربه ، كل ذلك أصبح فيما يبدو غير قادر على الوقوف فى طريقى . يكفى أن دمتى الخيالية قد تحطمت ، ولعلنى أصبحت عاجزا عن حبه بعد الآن . فما الذى لا يزال يوقفنى ، ما الذى لا يزال يمسكنى ؟ ذلكم هو السؤال . ومهما يكن من أمر ، فالأحقق أنا ، ولا أحد غيرى .

ولكن لما كنت أحب فى غيرى الصراحة ، فسأكون صريحاً أنا أيضاً . يجب أن اعترف أن الوثيقة المخطئة فى جيبي لا توقظ فى نفسى رغبة جامحة فى أن أخفّ الى نجبته فحسب ؛ لقد أصبح هذا واضحاً أشدّ الوضوح فى ذهنى الآن، رغم أننى أحمر خجلًا حين أتصوره . ان خيال امرأة يتخاطر الآن فى رأسى ، امرأة متكبرة من المجتمع الراقى ، سأقابلها وجهاً لوجه . ان هذه المرأة ستحتقرنى ، وستضحك منى ضحكها من فار ، دون أن يدور فى خلدنا أننى سيد مصيرها . كانت هذه الفكرة تسكرنى حين كنت فى موسكو ، وكانت تسكرنى مزيدا من السكر حين كنت بالقطار فى طريقى الى هنا . لقد سبق أن اعترفت بهذا من قبل . نعم ، لقد كنت أكره هذه المرأة ، ولكننى أحبها منذ الآن كما يجب امرؤ ضحيته . هذا كله صحيح . هذا كله واقع . ولكن فيه صيبانية ما كنت لأتوقعها أبداً حتى من مخلوق مثلى . اننى أصف عواطفى فى ذلك

الوقت ، أغنى العواطف التي دارت في رأسي حين كنت جالساً في المطعم الصغير تحت الهزار ، فقررت أن أقطع صلتى بهم ، في ذلك المساء نفسه ، قراراً لا رجعة عنه . ان صورة لقائي الأخير بتلك المرأة قد جعل دم الشعور بالعار يصعد الى وجهي فجأة . ياله من لقاء مخجل ! يا له من شعور مخزٍ وغبي ، يبرهن خاصةً على انني امرؤ عاجز عن الفعل عجزاً ليس كمثل عجز ! قلت لنفسي ان هذا اللقاء يبرهن على انني عاجز عن الصمود حتى أمام أسخف المغريات ، مع أنني كنت قد صرحت لكرافت منذ قليل أن لي مكاناً في الشمس ، وأن لي مهمة خاصةً بي ، وأني لو هبت ثلاثة أعمار لكنت قليلة على . قلت ذلك باعتزاز وفخار . ولأن أكون قد هجرت فكرتي لأتدخل في شئون فرسيلوف ، فذلك ما قد يفتقر . أما أن أقفز يمنةً ويسرة كأرب مهور وأن أقحم نفسي في جميع أنواع الحماقات ، فذلك مني بلاهة محضة ما في ذلك شك . هل كانت بي حاجة الى الذهاب الى درجاشيف فأروح أطنب في الكلام وأطنب ، بينما كنت مقتنعاً منذ زمان طويل بأنني عاجز عن أن أتحدث في أي أمر من الأمور حديثاً متسقاً معقولاً ، وأن الخير كل الخير لي أن أصمت فما أقول شيئاً ؟ وهذا انسان مثل فاسين يلقتني درساً فيقول لي انه لا يزال أمامي « خمسون عاما من الحياة ، فما عليّ إذن أن أقلق » . اعتراض رائع ، أقر بذلك ، اعتراض يشرف صاحبه هذا الذي يملك ذكاً لا يماري فيه . . . رائع لأنه بين الاعتراضات أبسطها ، ولأن الأشياء البسيطة لا تفهم أبداً الا في النهاية ، بعد أن يكون المرء قد جرب جميع التعقيدات وجميع الحماقات . ولكنني كنت أعرف هذا الاعتراض من قبل أن يقول لي فاسين : كنت قد عانيت هذه الفكرة منذ ما يزيد على ثلاث سنين . أكثر من ذلك أنها بعض « فكرتي » أنا . ذلكم ما كنت أقوله . ذلكم ما كنت أقوله لنفسي وأنا في المطعم الصغير .

كنت أشعر باعياء شديد حين وصلت في المساء ، بعد الساعة السابعة ،

الى سيمينوفسكى ، مكدوداً من السير والتفكير • كان الظلام كاملاً • ولقد تغير الجو ، فهو الآن جاف ، غير أن ريحاً شديدة كانت قد هبت • هى ريح بطرسبرج القاسية الثاقبة • كنت أشعر بها فى ظهرى ، وكانت تثير من حولى رملًا وغباراً • كم من وجوه متعبة بين وجوه هؤلاء الناس المساكين الذين كانوا يسارغون عائدين الى بيوتهم من العمل أو من المكتب ••• كل الى ركنه ! كان كل منهم يحمل همه القاسى فى وجهه ••• وما من فكرة مشتركة واحدة تجمع هذا الجمهور بعضه الى بعض • ان كرافت على حق : كل انسان يسير فى جهة • والتقيت بصبى صغير ، هو من الصغر بحيث يستغرب المرء أن يراه فى مثل هذه الساعة وحيداً فى الشارع • لا بد أنه ضل طريقه • وهذه امرأة تقف لحظة لتسأله ، ولكنها لم تفهم • فأومأت بيدها بما يدل على أنها لا تستطيع له نفعاً ، ثم تابعت طريقها تاركة إياه فى الظلام • واقتربت من الصبى ، ولكنه خاف منى ، وهرب • حتى اذا وصلت الى الدار ، قررت ألا أذهب بعد اليوم الى فاسين قط • وشعرت ، وأنا أصعد السلم ، برغبة محمومة فى أن أجد أهلى وحدهم فى البيت ، من دون فرسيلوف ، حتى يكون لى من الوقت ما يتسع لأن أقول لأمى قبل وصوله بضع كلمات طيبة ، أو أن أقول بضع كلمات طيبة لأختى العزيزة التى أستطيع أن أزعم أنني لم أوجه اليها كلمة واحدة طوال هذا الشهر • وذلك ما كان : لم يكن فرسيلوف فى المنزل •

٤

بالمناسبة : ان علىّ وأنا أدخل في « مذكراتي » هذه « الشخصية الجديدة » (أعني فرسيلوف) أن أتكلم موجزاً عن خدماته في الدولة ، وهي خدمات تافهة على كل حال . لكنني أتكلم عنها ليفهم عني القارىء فهماً أكمل ، ولأنني أنا نفسي لا أعرف أين يمكنني أن أتحدث عنها في تسمية هذه القصة •

لقد كان فرسيلوف في الجامعة ، لكنه دخل بعد ذلك سلاح «الحرس» في فرقة من فرق الفرسان • وتزوج امرأة اسمها فاناريوتوفا ، وأحيل على التقاعد • وقام بعدة أسفار الى الخارج • وكان في الفترات التي تتخلل هذه الأسفار يعيش بموسكو متمتعاً بمباهج الحياة في المجتمع الراقي • حتى اذا ماتت زوجته مضى يعزل في الريف • وهناك انما حدثت له قصته مع أمي • ثم أقام مدةً طويلةً في مكان ما بالجنوب • فلما نشبت الحرب مع أوروبا عاد الى الخدمة في الجيش ، ولكنه لم يرسل الى القرم ولم يشارك في أن عمل • فلما انتهت الحرب أحيل على التقاعد ، وسافر الى الخارج ، حتى لقد سافر مصطحباً أمي ثم تركها في كونسبرج • وقد حكى لي المسكين مراراً ، بنوع من الرعب ، وهي تهز رأسها ، كيف أنها مكثت وحيدة وحدةً تامة مدة ستة أشهر ، مع ابنتها الصغيرة ، دون أن تعرف لغة البلاد ، حتى لكانها تعيش في غابة ، عدا أنها كانت بغير مال • وقد جاءتها تاتيانا بافلوفنا عندئذ ، فأخذتها الى مكان في اقليم « ينجنى -

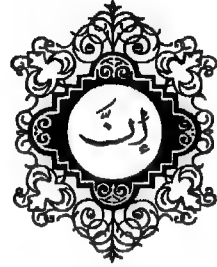
نوفجورود • ثم كان فرسيلوف فى اعداد أول جماعة من «وسطاء الصلح»، فقام بالمهام الموكولة اليه خير قيام فيما قبل • ولكنه لم يلبث أن ترك هذه المهام ، وراح يتعاطى فى بطرسبرج أعمالاً مدنية شتى خاصة • وقد قدر آندرونيكوف كفاءته قدراً عظيماً على الدوام • فكان يحترمه كثيراً، ولكنه كان يضيف الى ذلك قوله انه لا يفهم طبعه • ثم هجر فرسيلوف هذا النوع من الأعمال أيضاً ، ورجع الى الخارج ، فأقام هذه المرة مدةً طويلة استمرت عدة سنين • وبعد ذلك بدأت علاقاته الوثيقة جداً بالأمر العجوز سوكولسكى • وقد تقلبت أحواله المالية فى أثناء ذلك الوقت مرتين أو ثلاثاً : فتارةً يهبط الى الدرك الأسفل من الفقر والبؤس ، وتارةً يصعد الى ذروة الغنى والثراء •

آن الأوان ، وقد وصلت الى هذا الموضع من مذكراتى ، أن أتكلم عن « فكرتى » لأول مرة منذ أن نبتت هذه الفكرة فى نفسى • هأنا ذا أقرر أن أكتشف للقارئ عن فكرتى تلك التى ستضفى على قصتى مزيداً من الوضوح • ان القارئ والكاتب كليهما يكون عرضةً للارتباك والتشوش اذا أنا حاولت أن أشرح سلوكى دون أن أبدأ بتوضيح الأسباب التى قادتنى اليه وحضتنى عليه • ولكننى بهذا « الأسلوب من الاغفال » أقع من خراقتى فى عيوب « الحيل » التى يعمد اليها الروائي ، والتى سخرت منها من قبل • اننى اذ بادرت الى سرد قصتى ببطرسبرج مع كل ما فيها من أحداث مخزية لى ، أجد أن هذه المقدمة كانت ضرورة لا غنى عنها • فليست « الحيل » هى التى جعلتنى ألترم الصمت حتى الآن، وانما ألزمتنى به طبيعة الأشياء ، أى صعوبة القصة • اننى حتى فى هذا اليوم ، بعد كل ما جرى ، لا أزال أشعر بصعوبة لا سبيل الى تذليلها وأنا

أريد أن أحكى تلك « الفكرة » • ثم ان على طبعاً أن أعرضها في صورتها
 التي كانت عليها حينذاك ، أى كما نشأت في نفسى وتصورها عقلى ، لا في
 الصورة التي آلت اليها الآن ، وهذه صعوبة جديدة • هناك أمور يكاد
 يستحيل على المرء أن يرويها • وان أبسط الأفكار وأوضح الأفكار هي
 بعينها أعسرها على الفهم • لو أن كريستوف كولومب أراد قبل اكتشاف
 أمريكا أن يروى فكرته للآخرين لظلوا مدةً طويلة لا يفهمونه فيما
 أعتقد • وهم لم يفهموه فعلاً • اننى اذ أقول هذا الكلام لا أدعى
 مقارنة نفسى بكريستوف كولومب • وما على الذى يستخلص هذه النتيجة
 الا أن يشعر بخزى وعار ، لا أكثر !

الفصل الخامس

١



فكرتى هى أن أكون مثل روتشيلد • وانى أدعو
القارىء الى الهدوء والجد •

أكرر : ان فكرتى هى أن أكون مثل روتشيلد ،
هى أن أكون فى مثل غنى روتشيلد • لا أن أكون
غنياً فحسب ؛ وانما أن أكون مثل روتشيلد • أما غرضى من ذلك ودافعى
اليه والأهداف التى أسمى اليها ، فذلك كله ما سأعالجه فيما بعد •
وحسبى أن أبرهن الآن على أن تحقيق هدفى هذا مضمون ضمانته
رياضية •

المسألة بسيطة غاية البساطة ، يكمن سرها كله فى كلمتين : «العناد»
و « المثابرة » •

قد يقال لى : « نحن نعرف هذا » فما هو علينا بجديد • ففى ألمانيا
يردده كل « أب » على مسامع أبنائه • ومع ذلك بقى صاحبك روتشيلد
(المرحوم جيمس روتشيلد ، الباريسى ، الذى أتكلم عنه) فرداً واحداً ،
مع أن هناك ملايين من « الآباء » •

فاجيب :

– ترعمون أنكم تعرفون هذا • والحق أنكم لا تعرفون شيئاً البتة •
 نمة نقطة أنتم فيها على صواب مع ذلك : لئن قلت ان الأمر « بسيط غاية
 البساطة » ، فقد نسيت أن أضيف الى ذلك أنه أيضاً أصعب أمر • ان
 جميع الأديان وجميع المذاهب الاخلاقية في العالم ترتد الى ما يلي : « على
 المرء أن يحب الفضيلة وأن يتجنب الرذيلة » • هل هناك ما هو أبسط
 من هذا ؟ ألا فحاولوا اذن أن تحققوا فضيلة من الفضائل ، وأن تجتنبوا
 رذيلة واحدة من رذائلكم ! هيا حاولوا قليلاً ! ان الأمر كله يكمن هنا!
 لذلك كان أولئك « الآباء » الذين لا حصر لهم ، والذين تعاقبوا
 دهوراً لا نهاية لها، يمكنهم أن يرددوا على مسامع أولادهم هاتين الكلمتين
 اللتين يكمن فيهما السر كله ، ثم يبقى روتشيلد فرداً واحداً لا ثاني له •
 اذن : ليس الأمر كذلك تماماً ، و « الآباء » لا يرددون الفكرة اللازمة
 بعينها •

أما العناد والمثابرة فلا شك أبداً في أنهم سمعوا عنها أيضاً • ولكن
 ما أنا في حاجة اليه ليس هو العناد الذي يتكلم عنه « الآباء » ولا هو المثابرة
 التي يتكلم عنها « الآباء » •

ان كلمة « الأب » هذه وحدها – ولست أتكلم عن الألمان وحدهم –
 أعني أن يكون للفرد أسرة ، وأن ينفق كما ينفق الآخرون ، وأن تكون
 عليه التزامات كالتزاماتهم ، فذلك كله يحول بينك وبين أن تصبح روتشيلد،
 ويضطررك أن تبقى انساناً معتدلاً • أما أنا فأفهم أنني متى أصبحت روتشيلد
 أو متى رغبت في أن أصبح روتشيلد ، لا بطريقة « الآباء » الألمان ، بل
 على نحو جاد ، فأننى بذلك أخرج من المجتمع فوراً •

منذ بضع سنين قرأت في الجرائد أنه مات على ظهر مركب بخارى
 في نهر الفولجا شخصاد يرتدى أسملاً بالية وخرقاً ممزقة كان يطلب

الصدقات من الناس وكانت المنطقة كلها تعرفه • فبعد موته وجدت ثلاثة آلاف روبل مخططة في أظماره القذرة • وفي هذه الأيام الأخيرة قرأت قصةً جديدة عن شحاذ هو رجل من طبقة النبلاء كان يمضى من نزل الى نزل يمد يده مستعطياً • وقد اعتقل الرجل فوجد حاملاً قرابة خمسة آلاف روبل • من هنا نخرج بنتيجتين : الأولى هي أن « العناد » في الكنز، ولو كان كنز قروش ، يؤدي في النهاية الى ثمرات ضخمة (ولا شأن للزمن في هذا) • والثانية هي أن أبسط شكل من أشكال تحصيل الغنى مضمون النجاح بالبرهان الرياضى متى توفر شرط « المثابرة » •

ربما كان هناك رجال محترمون أذكاء متواضعون ثم هم لا يملكون ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف روبل (مهما يبدلوا من جهد ويحملوا من عناء) ، رغم حرصهم الشديد على أن يملكوا مبلغاً كهذا المبلغ • فلماذا ؟ الجواب واضح : هو أنه لا أحد من هؤلاء يقبل أن يصبح شحاذاً اذا كان ذلك هو السبيل الوحيد الى الانثاء ، مهما تكن رغبته فى الانثاء قوية • ولا أحد منهم يبلغ من العناد أنه اذا أصبح شحاذاً لا ينفق القروش الأولى التى يستعطيها للحصول على لقمة زائدة له أو لأسرته • فى حين أن على المرء اذا هو استعمل هذا الأسلوب فى جمع المال ، أعنى الاستجداء ، أن يتغذى بخبز وملح لا أكثر • أو هذا ما أتصوره أنا على الأقل • ولا شك فى أن هذا ما فعله ذاك الشحاذان اللذان ذكرتهما منذ قليل • فقد كانا يأكلان خبزاً يابساً وينامان فى العراء ومن المؤكد جداً انهما كانا لا ينويان أن يصبحا مثل روتشيلد : فانهما لم يكونا الا بخيلين من نوع هرباجون أو بليوشكين لا أكثر • ولا كذلك الادخار الواعى أو الكنز المقصود الذى يتخذ صورة أخرى هي أن يصبح صاحبه مثل روتشيلد • ان هذا الادخار لا يقتضى رغبة أقل أو ارادة أضعف مما يملكه ذاك الشحاذان من رغبة عنيفة و ارادة قوية • بل ما من « أب » يملك مثل تلك القوة • ان القوى متنوعة تنوعاً كبيراً فى هذا العالم ، ولاسيما قوى الارادة والرغبة •

شتان بين درجة الحرارة اللازمة لغليان الماء ، وبين درجة الحرارة اللازمة لاحمرار الحديد •

هذا منسك حقاً • هذه مآثر قديسين فعلاً • هذه عاطفة لا فكرة • لماذا ؟ فى سبيل ماذا ؟ أهو عمل أخلاقى أم هو شنوذ عجيب أن يرتدى المرء خرقاً ممزقة وأطماراً بالية ، وأن يظل حياته كلها يأكل خبزاً أسود ، بينما هو يحمل ثروة طائلة ؟ هذه مسائل سترد فيما بعد ، أما الآن فانما المهم أنه يمكن الوصول الى الهدف •

حين تخيلت « فكرتى » (وقوامها حرارة احمرار الحديد) أردت أن أمتحن نفسى : أنا خلقت للدير وللقداسة ؟ ومن أجل هذا الامتحان لبثت شهراً بكامله لا أطعم الا خبزاً مع ماء • كنت لا أحتاج الى أكثر من رطلين ونصف رطل من الخبز الأسود كل يوم • ولكى أستطيع تحقيق هذا التقشف اضطررت أن أخدع يقولوا سيميونوفتش الماكر وماريا ايفانوفنا التى كانت تريد لى الخير • ما كان أبلغ حزن ماريا ايفانوفنا وما كان أشد حيرة يقولوا سيميونوفتش المرهف حين أصررت على أن يحمل طعامى الى غرفتى فأكل هناك ! لقد صقع يقولوا سيميونوفتش حينذاك صعباً فكنت أصب الحساء من النافذة على نباتات القراص أو أرميها فى المراحيض ؟ وكنت أبعث اللحم الى الكلب من النافذة أو أصره بورقة فأضعها فى جيبى وأمضى بها الى خارج المنزل وأتخلص منها فى الشارع • واذ كانوا يعطوننى أقل من رطلين ونصف رطل من الخبز ، فقد كنت أشتري خبزاً فى السر • وصمدت على ذلك الشهر كله ، وان أكن قد أفسدت معدتى قليلاً فى أغلب الظن ، لكننى أخذت فى الشهر التالى أضيف الى الخبز حساءً ، وأشرب فى الصباح والمساء كاساً من الشاي • وأؤكد لكم أننى قضيت على هذا سنةً بأسرها فى صحة تامة واكتفاء كامل ، وكنت من الناحية النفسية فى أثناء ذلك مفتتاً أشد الافتتان ، وكنت فى حماسة مستمرة • فلما انقضت السنة وصرت على يقين من أننى أستطيع

احتمال أى صيام ، عدت آكل كما يأكل سائر الناس ، وأمضى أتعشى معهم • ثم لم تكفى تلك التجربة فكررتها مرة أخرى : كان يحق لى أن أتقاضى مصروفاً قدره خمسة روبلات فى الشهر ، عدا نفقات الإقامة الداخلية فى المدرسة ، وهى النفقات التى كان يدفعها نيقولا سيميونوفتش • فقررت ألا أنفق من هذا المبلغ الا نصفه • ان هذا امتحان صعب جداً • ولكنى بعد سنتين أو أكثر قليلاً كان فى جيبى حين وصلت الى بطرسبرج سبعون روبلاً عدا غيرها من المال ، ادخرتها من تلك التقتيرات • ان النتيجة التى خرجت بها من هذين الامتحانين تجربة فخمة هائلة : لقد علمت علم اليقين أتنى أملك « الارادة » اللازمة للوصول الى هدفى • تلکم هى « فكرتى ، كلها • أما كل ما عدا ذلك فأمر تافه •

مع ذلك فلننظر أيضاً في هذه الأمور التافهة !

لقد وصفت التجربتين اللتين قمت بهما • وأتم تعلمون أنني في بطرسبرج قد قمت بتجربة ثالثة : مضيت الى بيع بالمزاد العلني ، فربحت سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبكاً دفعة واحدة • ولم تكن هذه تجربة بمعنى التجربة طبعاً ، وإنما كانت نوعاً من اللعب وضرباً من الرياضة والتسلية والراحة : لقد خطر ببالي أن أختلس من المستقبل دقيقة قصيرة لأرى كيف عسانى أتصرف • والحق أنني منذ البداية بموسكو ، كنت قد أرجأت الشروع الحق في تنفيذ فكرتي الى اللحظة التي أصبح فيها حراً حرية تامة • كنت أدرك ادراكاً واضحاً أن علىّ قبل كل شيء ، مثلاً ، أن أفرغ من الليسيه (أما الجامعة فكنت قد ضحيت بها كما تعلمون) • ومما لا شك فيه أنني سافرت الى بطرسبرج شاعراً بغضب خفي شديد : فأننى ما ان خرجت من الليسيه وغدوت حراً أول مرة حتى رأيت فجأةً أن أمور فرسيلوف ستلهينى عن مشروعى الى أجل غير معلوم ! ولكننى رغم الغضب سافرت مطمئناً الى هدفى أكبر الاطمئنان •

ولا شك أنني كنت أجهل الحياة العملية ، لكننى كنت قد فكرت في المسألة ثلاث سنين متتالية ، فلم يساورنى أى ريب • قلبت الأمور على ألف وجه وأنا أتصور كيف أتصرف • تصورتى فى إحدى عاصمتينا على حين غرة كأننى هابط من السحب (لقد اخترت العواصم بدايةً لمشروعى ، ولا سيما بطرسبرج التي آثرتها بعد حساب) ، ورأيتى - رغم هبوطى من السحب - حراً حريةً كاملة ، فما أنا رهن بأحد ، ورأيتى موفور الصحة ، مع مائة روبل دستتها فى جيبي زاداً

أول ، اذ يستحيل على المرء أن يبدأ بأقل من مائة روبل ، والا كان يرجى
مرحلة النجاح الاولى مدةً طويلة جداً . وأنا كما تعلمون أملك ، عدا
المائة روبل ، الشجاعة والعناد والمثابرة ، والعزلة التامة ، والسر المكتوم .
ولا سيما العزلة : لشدتها كرهت العلاقات بالناس والارتباط بهم والاشتراك
معهم كرهاً فظيلاً الى آخر لحظة .

لقد عزمت امرى على أن أنفذ فكرتى وحيداً ، والا فلا ! ان الناس
عبء ثقيل على ، فلو أشركتهم فى فكرتى لاضطرب ذهنى ولأضر ذلك
بهدفى . ثم اتنى حتى هذا اليوم ، خلال حياتى كلها ، فى جميع أحلامي
عن علاقاتى بالناس كنت أدير أمورى تديراً ذكياً . ولكننى لا أكاد أترك
أنف الحلم وأشعر فى العمل حتى أتصرف تصرفاً أحقق . اتنى أعترف
بهذا مستاءً صادقاً . لطالما فضحت نفسى بأقوالى ، ولطالما أسرفت فى
التسرع . ومن أجل ذلك قررت أن ألغى البشر من مشروعى . الفائدة
التي أجنيتها من ذلك : الاستقلال ، هدوء البال ، وضوح الهدف .

رغم أن الأسعار ببطرسبرج فاحشة فقد اتخذت قراراً حاسماً بألا
أنفق أكثر من خمسة عشر روبلاً لطعامى ، وكنت أعلم أتنى سأنفذ
قرارى لا أحيد عنه . لقد درست مسألة الطعام هذه دراسة طويلة
مفصلة . قررت مثلاً أن أكل خبزاً وملحاً فى يومين متتالين ثم أنفق
فى اليوم الثالث ما أكون قد حققته من وفر . كان يبدو لى أن هذا أنفع
لصحتى من صيام متساو متصل لا أنفق خلاله الا خمسة عشر كوبكاً فى
اليوم . أما عن السكن فقد كنت فى حاجة الى ركن ، الى ركن لا أكثر ،
ركن أبيت فيه ليلاً ، أو آوى اليه أيام يكون الجو رديئاً . وقد قررت أن
أعيش فى الشارع ، وكنت مستعداً اذا اقتضى الأمر ذلك أن أبيت فى ملاجئ
الليل التي يعطى النائم فيها ، عدا القطاء ، قطعة خبز وكأس شاي . آآآ
لسوف أعرف كيف أخبئ مالى فى ركنى أو فى الملجأ فلا يسرقه أحد .
حتى انهم لن يحزروا شيئاً ، أنا أضمن لكم ذلك ! « أأسرق أنا ، أنا الذى

أمسك عن سرقة الآخرين ؟ : لقد سمعت هذه الكلمة الظريفة مرة في الشارع من فم مكار مرح • وأنا لا أحتفظ منها طبعاً إلا بروح الحذر والمكر ، فليس في نيتي أن أسرق أبداً • بل أكثر من ذلك أنني منذ كنت بموسكو ، وربما منذ اليوم الذي شهد ولادة « فكريتي » قد قررت أنني لن أكون دائماً برهون ، ولا مريباً : فذلك له اليهود وله الروس الذين لا يملكون ذكاء ولا أوتوا خلقاً • ان الاقراض والربا حطة •

وأما الملابس فقد قررت أن يكون لي رداءان ، واحد لكل الأوقات ، وواحد لائق • وكنت واثقا أنني متى ملكت هذا الرداء فسيDOM زمناً طويلاً • لقد قضيت سنتين ونصف سنة أعلم كيف ألبس ثيابي ، حتى لقد كشفت عن هذا السر : من أجل أن يبقى رداؤك جديداً على السوام ، وألا يبلى ، فعليك أن تنظفه بالفرشاة كلما استطعت الى ذلك سبيلاً ، خمس مرات أو ستاً في اليوم • فلا خوف على الصوف من الفرشاة ، أقول لك هذا عن علم مؤكد محقق • اذا نظرت الى ذرات الغبار بالمجهر وجدتھا حصى صغيرة ، أما الفرشاة فھما تكن قاسية ليست تختلف كثيراً عن الصوف • وقد تعلمت كذلك انتعال الحذاءين • اليك السر : يجب عليك أن تضع قدمك في حذر ، وأن تضع النعل كله دفعة واحدة ، وألا تضغط على إحدى الجهتين الا أقل ضغط ممكن • ذلك علم يمكن تحصيله في خمسة عشر يوماً ، ثم يتجرى كل شيء من تلقاء نفسه • بهذه الوسيلة تستطيع أن تطيل عمر الحذاءين ما يساوي ثلثه في الوسط • تلك تجربتي خلال سنتين •

بعد ذلك يأتي العمل نفسه •

اليك وسيلتي : انني أملك مائة روبل • وفي بطرسبرج مزادات كثيرة ، وتصفيات ، وحوانيت ، ومعوزون ، فيستحيل ألا يقع المرء على شيء من الأشياء يشتريه بثمان بخس ثم يستطيع أن يبيعه بسعر أعلى • لقد ربحت من بيع « ألبوم » سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبكاً ، وكان

رأس المال الذى دفعته روبلين وخمسة كوبكات • وقد حققت هذا الربح الضخم بدون مجازفة : قرأت فى عيني المشتري أنه لن يتراجع • صحيح أن هذه كانت مصادفة • لكننى انما أبحث عن مصادفات ، ومن أجل ذلك انما قررت أن أعيش فى الشارع • قد تكون هذه المصادفات نادرة جداً ، اننى أسلم بذلك • لكن هذا لا يغير قاعدتى الأساسية وهى ألا أجازف • وأما قاعدتى الثانية فهى أن أربح كل يوم أكثر من الحد الأدنى الذى أنفقه على تأمين معيشتى ، حتى لا ينقطع الادخار يوماً واحداً •

رب قائل يقول : لكن هذه أحلام • فأنت لا تعرف الشارع ، وقد تسرق منذ اليوم الأول • لقد فات القائل أننى أملك الارادة وقوة العزيمة ، وأن علم الشارع علم كسائر العلوم ، وأن تحصيل هذا العلم يكون بالاصرار والعناد ، والانتباه واليقظة ، والمقدرة والكفاءة • لقد كنت فى اللبسة بين الأوائل دائماً حتى فى الفلسفة ، وكنت قديراً فى الرياضيات • هل يجوز أن تظنوا علم الشارع تميعة من التائب ، فتنبأوا لى بالاخفاق حتماً ؟ ان الذين يقولون هذا الكلام هم دائماً أولئك الذين لم يعانوا تجربة ولا قاموا بعمل ولا شرعوا فى حياة ، وانما هم عاشوا فى عقوبة الكسبل • لسان حالهم يقول : « ان فلانا قد كسر أنفه ، فلا بد ان يكسر فلان الآخر أنفه حتماً » • لا لن أكسر أنفى • ان لى عزيمة قوية ، ولأتعلمنَّ بقليل من الانتباه أى شيء • هل يمكنكم أن تتخيلوا أن المرء يعجز بالاصرار المستمر والعناد المتصل والتفكير الدائب والتأمل الصبور والحساب الدقيق عن أن يحصل العلم اللازم لكسب عشرين كوبكاً زيادةً فى كل يوم ؟ لاسيما وأننى قررت ألا أسعى أبداً الى الحد الأقصى من الربح ، وأن أحتفظ دائماً بهدوء أعصابى وبرودة دمى • وفى المستقبل ، حين أملك ألف روبل أو ألفين سأترك السمسرة والبيع بطبيعة الحال • ولئن كنت لا أزال قليل العلم بأمور البورصة والأسهم والبنوك ، فانتى فى مقابل ذلك كنت أعلم ، كعلمى بأن $2 + 2 = 4$ ،

أنتى سأعرف جميع هذه البورصات وهذه البنوك وسأدرسها فى حينها كائى انسان آخر ، وأن هذا العلم سيسعى الى سعيأ متى آن الأوان . هل يحتاج المرء من أجل هذا الى كثير من الذكاء ؟ هل عليه أن يكون فى ذكاء سليمان الحكيم ؟ يكفى المرء أن يكون قوى العزيمة . أما العلم والحذق والمعرفة فذلك كله يأتى من تلقاء نفسه . وانما المهم ألا يكف المرء عن « أن يريد » .

ويجب خاصةً ألا يجازف ، وذلك لا يتيسر الا بقوة العزيمة . منذ مدة قصيرة ، بعد وصولى بقليل ، كان فى بطرسبرج اكتئاب بأسهم سكة حديدية . فالذين أمكنهم أن يكتسبوا جنوا ربحاً كبيراً ، اذ ارتفعت أسعار الأسهم فى وقت من الأوقات .

وهذا شخص متأخر أو بخيل يرى أسهماً بين يديّ على حين فجأة . فيعرض على أن أبيعهُ اياها بربح يساوى نسبةً مئوية من ثمنها . لسوف أبيعهُ الأسهم ، بل سوف أبيعهُ اياها حالاً . ولسوف يتحكم الناس على طبعاً ، اذ لو ترثت ثلثت ربحاً يقدر بعشرة أضعاف هذا الربح ! صحيح ! ولكن ربحى الآن أضمن ، لأننى أملكه فى جيبي ، أما ربحكم أتم فانه لا يزال فى علم الغيب ! فان قلتم ان هذا ليس هو السبيل الى جنى ربح كبير قلت : عفوكم ، ذلكم هو خطؤكم ، ذلكم هو خطأ جميع أمثال كوكوريف و بولياكوف وجوبونين . تعلموا هذه الحقيقة : ان الاستمرار والعناد فى الربح ، ولاسيما فى الجمع والكنز ، أقوى من أرباح مباحة ولو بلغت مائة ضعف !

قبل الثورة الفرنسية بقليل كان بباريس رجل اسمه « لاو » تخيل مشروعاً يستحق أن يعد عبقرى من ناحية المبدأ حقاً ، لكنه انتهى فى التطبيق الى فشل ذريع . لقد اهتزت باريس كلها حينذاك ، فكان الناس يتنافسون على شراء الأسهم متشاجرين بل متقاتلين . كان الفندق الذى يجرى فيه بيع الأسهم يبتلع أموال باريس كلها . ثم ضاق الفندق عن

استيعاب الوافدين للاكتتاب ، فكان الناس يحتشدون فى الشارع من جميع
 المهن وجميع الطبقات وجميع الأعمار، من البورجوازيين والنبلاء وأولادهم،
 ومن كوتيسات ومركزات ومومسات . فكان هؤلاء جميعاً كتلة واحدة
 حافقة تشبه أن تكون مجنونة كأنما عضها كلب مسعور . ان جميع المشاعر
 التى يحملها كثير من الناس عن نبالة دمائهم وعلو مراكزهم وسمو ألقابهم
 وحتى رفعة الشرف وحسن السمعة ، ان ذلك كله قد ديس بالأقدام .
 كان الناس يضحون بكل شيء (وحتى النساء) فى سبيل الحصول على عدد
 من الأسهم . وانتقل الاكتتاب أخيراً الى الشارع ، ولكن لم يكن ثمة مائدة
 يكتب عليها . وعندئذ انما عرضوا على رجل أحمق أن تتخذ حديثه طاولَةً
 للكتابة برمه . فقبل الأحمق العرض ، وفى وسعكم أن تتخللوا الأجر
 الذى طلبه ! وبعد قليل (بل بعد قليل جداً) أفلس المشروع : تهدم
 كل شيء ، ارسلت الفكرة كلها الى الجحيم ، وفقدت الأسهم كل قيمة !
 فمن ذا الذى جنى ربحاً فى هذه القضية كلها ؟ الأحمق ، الأحمق وحده ،
 لأنه لم يؤجر حديثه بأسهم بل بدنانير ذهبية ! أنا ذلك الأحمق ! أملك
 القدرة على ألا آكل ، وأن أجمع من توفير الكويكبات اثنين وسبعين روبلاً .
 وعلى أيضاً أن أصمد حين تعصف حمى بسائر الناس ، وأن أوتر مبلغاً
 مضموناً على مبلغ آخر أضخم منه لكنه غير مضمون ! أنا لست ضعيفاً الا فى
 الأشياء الصغيرة ، أما الأمور الكبيرة فلا ! كثيراً ما فانتنى قوة العزيمة فى
 الشئون الصغيرة ، حتى بعد ولادة « فكرتى » ، بسبب نفاذ الصبر . أما اذا
 كان الأمر خطيراً فلا تعوزنى قوة العزيمة أبداً . حين كانت أمى تقدم لى
 قبل الذهاب الى العمل قهوة فترت سخوتها ، فقد كنت أغضب ، وأقول لها
 كلاماً فظاً ، ومع ذلك فانتنى ذلك الشخص نفسه الذى عاش شهراً كاملاً
 لا يأكل الا خبزاً ولا يشرب الا ماء .

الخلاصة أنه ليس طبعياً ألا يعرف المرء كيف يربح ، وألا يفلح
 فى تعلم الربح . لا وليس طبعياً ألا يصبح المرء مليونيراً اذا هو واطب

على الادخار والجمع والكنز بغير انقطاع ، واذا ملك انتباهاً مستمراً وهدوءاً متصلاً ، واذا بذل جهداً دائماً للتوفير ، وطاقاً ما تنفك تزداد وتتسع • كيف ربح الشحاذ ثروته ان لم يكن قد ربحها بقوة العزيمة ، وشدة الحماسة ، واستمرار المثابرة • أنا لا أساويه ؟ « على كل حال ، قد لا أجنى شيئاً ، وقد لا يكون حسابي صحيحاً ، وقد أفلس وأنهار ... فلا ضير ... سأظل أسير الى أمام • أسير لأننى أريد أن أسير » • كذلك كنت أقول لنفسي بموسكو •

فان قلت ان هذا ليس فيه شيء من فكرة ، وليس فيه شيء جديد ، قلت لكم آخر مرة : بل ان فيه أفكاراً لا نهاية لها ، وان فيه جدة لا نهاية لها •

آ ... لقد أوجست جميع هذه الاعتراضات المبتذلة ، ولشد ما أكون انا نفسي مبتذلاً اذا أنا عرضت فكرتى ! ما الذى قلته أنا فى حقيقة الأمر ؟ اننى لم أشرح عشر معشار فكرتى • اننى أشعر أن كل ما قلته تافه ، فظ ، سطحي ، وربما كان أصغر من سنى ، ولكن هل يفسد عجز الكاتب قيمة الفكرة التى يعرضها ؟ ،

بقى أن أجيب عن الأسئلة التالية : « لماذا ؟ ما الهدف ؟ أهذا أمر طبيعي سليم أم لا ؟ » ، الخ الخ • وهى أسئلة وعدت بالاجابة عنها •
وهأنذا أبدد أوهام القارىء دفعة واحدة فأقول :

ان نفسى لا تضم أية رغبة فى الانتقام ، وأنا معافى من كل نزعة يبرونه ، وليس لحقد اليتيم ولا لشعور ابن الزنا أى شأن فى هذا • ان السيدة الرومانطيقية التى قد يخطر ببالها أن تتصفح مذكراتى هذه سوف تخفض أنفها خائبة الأمل • ان الهدف الذى أسمى اليه بفكرتى انما هو :
العزلة •

– ولكن ما حاجتك الى أن تكون صاحب مليارات حتى تعيش حياة عزلة ... ما شأن روتشيلد فى هذه القصة ؟

– ان له مكانه فيها • لأننى ، عدا العزلة ، فى حاجة الى القدرة •

اسمحوا لى بتمهيد : قد يدهش القارىء حتى من صراحتى فى الاعتراف ، فيتساءل بغير قليل من السذاجة كيف لم يحمرّ كاتب هذا الكلام خجلاً ؟ فأجيب بأننى لا أكتب للنشر ، وأنتى قد لا أقرأ الا بعد عشر سنين ، وذلك حين تكون الأمور قد تمت على الوجه الأكمل ، فلا يكون على أن أحمر خجلاً من نىء • فاذا كنت فى هذه المذكرات أخطب قارئاً ، فواضح أن ذلك ليس الا أسلوباً فى الكتابة لا أكثر • ان قارئى شخص من صنع خيالى •

لا ، لا ولادتى غير الشرعية التى كانوا يغيظونى بها كثيراً فى مدرسة

توشار ، ولا الحزن الذى عشته فى سنى طفولتى ، ولا أية رغبة فى الانتقام أو الاحتجاج ، لا شئ من ذلك كله كان له شأن فى ولادة فكرتى : لقد ولدت فكرتى من طبعى ولادة عادية . لم أكن قد بلغت الثانية عشرة من عمرى حين كان حضور الناس بل وجودهم يشغل على صدرى وتضيق به نفسى . وقد شق علىّ أحياناً فى لحظات صفائى ، أن لا أستطيع البوح للقرين منى بما يزخر به قلبى ، بل قل اننى كنت أستطيع ذلك ولكن لا أريده . كان شئ ما يصدنى . كنت شكاكاً ، نافرأ من صحة الناس ، متجهم النفس . ذلك ما كنت . وكنت عدا ذلك شديد الميل الى اتهام الآخرين . ولكننى سرعان ما أرتد الى نفسى أسألتها : « ألسنت أنا المخطئ ؟ » . وكثيراً ما كنت أدين نفسى ظلماً . فمن أجل أن أتقى آزمات الضمير هذه ، كنت أجهد أن اعتزل الناس . ثم ما الذى كان يمكن أن أجنيه من صحة رفاقى ؟ لقد كانوا جميعاً أقل ذكاءً منى ، لا أستشى منهم أحداً .

نعم ، كنت قاتم المزاج ، فلا أكف عن الانغلاق على نفسى ، ولا أكف عن الرغبة فى الانسحاب من المجتمع . ولعلنى كنت أستطيع أن أنفع الناس ، ولكننى كنت فى كثير من الأحيان لا أرى ما يدعونى الى أن أصنع لهم خيراً . ليس الناس أخياراً فأهتّم بهم . لماذا لا يأتون هم الى ؟ لماذا يكون علىّ أنا أن أقوم بالخطوة الأولى ؟ ذلك ما كنت أقوله لنفسى . اننى قادر على الاعتراف بالجميل ، وقد برهنت على ذلك بألف حماسة ارتكبتها . اننى أرد على البادرة الحسنة ببادرة أحسن . الصراحة آقابلها بالمودة . وقد سبب لى ذلك مذلات كثيرة . الشخص الوحيد الذى كان يفتح لى نفسه هو لاميير الذى طالما ضربنى ضرباً مبرحاً فى سنى طفولتى الأولى . ولكن الفضل فى صراحته انما كان يرجع الى غيائه .

هأنتم ترون تقريباً كيف كانت حالتى النفسية حين وصلت الى

بطرسبرج .

حين خرجت من عند درجاشيف (اى شيطان دفنى الى بيته ؟) ،
 ذهبت الى فاسين • وباندفاع مودة ، أزجيت له المديح • ولكن تلك المودة
 قد نقصت منذ ذلك المساء نفسه • لماذا ؟ لا شيء الا لأننى مدحته • فبدا لى
 اننى بذلك قد خفضت قدرى • مع ذلك ألا يرتفع قدر المرء حين يطرئ
 من تلقاء نفسه أحد يستحق هذا الاطراء ؟ ذلك كان رأيى ومع ذلك نقص
 حبنى لفاسين • هذا مثال تعمدت أن أسوقه والقارىء يعرفه • وأصبحت
 لا أفكر فى كرافت أيضاً الا وأشعر بمرارة • أما ذنبه فهو أنه شينى
 متلفاً حتى الباب • وهذا الشعور بالمرارة لم يتبدد حتى فى القد حين
 اتضح كل شيء ولم يبق هناك ما يمكن أن أؤاخذه عليه • اننى منذ
 أيام دراستى فى الليسيه كنت غضوباً • اذا تفوق على أحد رفاقى فى
 امتحان ، أو بزّنى فى تمارين الرياضة البدنية ، قاطعته فأصبحت لا أكلمه •
 لا لأننى أكرهه أو أغار من نجاحه ، بل لأن هذا طبيعى •

نعم ، لقد استولى على حلم القوة والعزلة طوال حياتى ، حتى فى
 سنٍ لو أتيح لأحد أثناءها أن يرى ما كان يدور فى رأسى من خواطر
 لضحك ضحكاً شديداً • لذلك أحب السرّ كثيراً • وكنت استرسل فى
 الأحلام استرسالاً لا يبقى لى وقتاً للحديث مع الناس • وقد استتج الناس
 من ذلك أننى متوحش ، وكان ذهولى يبعثهم على تأويلات أشد اغتالاً
 فى الخطأ أيضاً • ولكن خدى المتوردين كاتتا تبرهنان على نقيض ذلك •

وما كان أشد فرحى حين كنت أطمع نفسى تحت أغطيتى فى المساء ،
 فتهداً من حولى ضجة الحياة المشتركة ، وتأخذ أحلامى فى بناء العالم على
 ما يشاء لى هواى فى وحدة الليل ! ان حالة الاسترسال فى الحلم هذه قد
 لازمتنى الى أن اكتشفت « فكرتى » : فاذا بأحلامى تصبح معقولة بعد أن
 كانت فى صورة خيالية روائية •

انصهر كل شيء فى هدف واحد • الواقع أن تلك الأحلام لم تكن

حمقاء حتى قبل ذلك ، وان كانت كثيرة لا حصر لها ! ... وكان بينها
أحلام أفضلها على ما عداها . ولكن لا داعى الى الكلام عنها هنا .

القدرة ! قد يضحك بعض الناس حين يرون شخصاً مثلى « لاقية
له » يتطلع الى القدرة ، الى القوة . ولسوف يدهشون أكثر من ذلك أيضاً
اذا أنا قلت لهم اننى منذ طفولتى - أو نحو ذلك - لم أستطع فى يوم من
الأيام أن أتخيل نفسى الا فى المنزلة الأولى فى كل مكان وفى كل ظرف .
هذه سمة أخرى : ما زلت أتصف بهذه الصفة ، ولا أستغفر عنها أحداً .

هذه « فكرتى » - وهذه قوتها - : ان المال وحده يستطيع أن يقود
امراً الى المنزلة « الأولى » ، ولو كان تافهاً « لاقية له » . قد لا أكون
تافهاً . لكننى أعلم مثلاً ، من النظر فى المرأة ، أن مظهرى الخارجى يضرب
بى ، لأن وجهى عادى لا يتميز بشئ . أما لو كنت غنياً مثل روتشيلد ،
فمن ذا الذى كان يمكن أن يهتم بوجهى ؟ لو كنت غنياً مثل روتشيلد لكان
يكفى أن أصفر صفرة واحدة حتى تهرع الى ألوف النساء تعرض على
محاسنها . بل انى لمقتنع بأنها ستظننى فى النهاية جميلاً ، صادقات كل
الصدق . وقد أكون ذكياً . ولكن يكفى أن يكون جينى سبع بوصات
حتى يغلبنى جارى اذا كان له من البوصات ثمانيا . أما اذا كنت غنياً مثل
روتشيلد ، فان ذلك الحكيم الذى يبلغ جينه ثمانى بوصات سيكون شخصاً
هزيباً جداً ، حتى لقد لا يتيحون له أن يفتح فمه ! ... وقد أكون فكهاً
خفيف الظل . ولكن هذا تاليران ، وهذا بيرون . . . فاذا أنا أمحى أمامهما
فلا يبقى لى وجود . أما اذا كنت غنياً مثل روتشيلد ، فأين يكون بيرون ؟
بل أين يكون تاليران ؟ يختفيان . ان المال قوة طاغية ، ولكنها بمعنى من
المعاني تحقق نوعاً من المساواة : فهى تشوش السيطرة المتخترسة التى
للذكاء والجمال . ذلك ما خلصت اليه وقررتنه وأنا بموسكو .

قد لا يبدو لك هذا كله الا وقاحة واستهتاراً . وقد تظن أنه يهدف
الى تغليب التفاهة على الموهبة . صحيح . ولكن هذه الفكرة جسورة (وهى

بهذا نفسه لذينة) • أما اذا اعتقدت اننى أرغب فى القوة بهدف الانتقام أو الاضطهاد ، كنت تنسب الىّ - بغير حق - أن نفسى هى نفس أن انسان من الناس • اننى لمقتنع بأن أبرز الأفراد شأنًا فى جميع فئات النشاط الانسانى لابد أن يتصرفوا هذا التصرف الذى تنسبه الىّ ظلمًا اذا هم أوتوا ما أوتى روتشيلد من ثراء • أما أنا ففكرتى مختلفة عن هذا كل الاختلاف • اننى لا أخشى المال : ان المال لن يضطهدنى ولن يحملنى على اضطهاد أحد •

ما أنا فى حاجة الى مال ، أو قل ليس المال هو ما أنا فى حاجة اليه - حتى ولا القدرة • وانما أنا فى حاجة الى ما تتيح القوة للمرء أن يحصل عليه ، ولا يمكنه أن يحصل عليه الا بها : أعنى الشعور المعتزل الهادىء بالقوة ! ها قد تم اكتشاف التعبير عن الحرية التى يبحث عنها المفكرون • الحرية ! أخيراً كتبت هذه الكلمة الكبيرة ••• نعم ، ان الشعور المعتزل بالقوة جميلٌ فى ذاته ومسكر • اننى أملك القوة ، واننى هادىء البال • أن الرعود بين يدى جويتر ، ولكن جويتر هادىء • هل تسمع جويتر يردد أحيانا كثيرة ؟ رب أحقق يظن أن جويتر نائم • أحلّ محل جويتر رجلا من هؤلاء الأدباء أو امرأة من تلك القرويات ! لتسمعنّ الرعد عندئذ لا ينقطع قصفه ، ولتسدن أذنيك من هول الصواعق !

اننى أفكر فأقول لنفسى : متى ملكت القوة فلن أحتاج اليها • واننى لعلى ثقة باننى ، من تلقاء نفسى ، وبكامل رضائى ، سأحتل المنزلة الأخيرة عندئذ فى كل مكان • لو كنت روتشيلد ، لتجولت مرتدياً معطفاً مرقعاً ، حاملاً بيدى مظلة • ولن يؤذيني عندئذ أن يصدمنى أحد فى الشارع أو أن أركض فى الوحل حتى لا تدوسنى العربات • حسبى شعورى بأننى أنا روتشيلد حتى أكون فرحا فى تلك اللحظة • أعرف أن فى امكانى أن أصيب وجبة من طعام لا يصيب أحد مثله ، وجبة يهيئها لى أحسن طباطخ فى العالم : يكفينى أن أعرف هذا • وسوف أكل قطعة من خبز وشريحة

من الجمبون ، فأكون راضياً كل الرضى • وما زال هذا هو تفكيرى الى الآن •

لست أنا من يسعى عندئذ الى معايشة الارستقراطية ، بل الارستقراطيون هم الذين سيسعون عندئذ الىّ يشدون صحتى • لست أنا من سيجرى وراء النساء ، بل النساء هن اللواتى سيتهاقن علىّ تهافت الذباب ، ويقدمن الىّ كل ما تستطيع امرأة أن تقدمه • فأما « العاميات » منهن فسيجذبهن المال ، وأما من كان لهن فكر فسيجذبهن الىّ حب التعرف الى انسان غريب الأطوار متكبر مغلق على نفسه غير مكترث بشىء • وسوف ألاحظ هؤلاء وأولئك على السواء • ولقد أعطيهن مالا ، لكنى لن أقبل منهن شيئاً • وحب الاطلاع يولد الهوى : فلقد أوقف فى نفوسهن الهوى أيضاً • وأؤكد لكم أنهن لن يظفرن منى بشىء اللهم الا بعض الهدايا • ولن يورثنى هذا الا مزيداً من الدهشة والاستغراب :

« حسبى هذا الشعور .. »

ان الشيء الغريب هو أن هذه الصورة (وهى صحيحة على كل حال) قد أغرتنى وفنتتنى منذ كنت فى السابعة عشرة من عمرى • لا أتوى أن أضهد أحداً ولا أن أعذب أحداً • ولكننى أعلم أننى اذا أردت أن أضيع أحداً من الناس فلن يستطيع شىء أن يمننى من ذلك ، وأن الجميع سوف يعاونونى فى هذا جاهدين • وهنا أيضاً حسبى ذلك • بل اننى لن أقيم من أحد • لطالما أدهشنى أن جيمس روتشيلد قد قبل أن يحمل لقب « بارون » ! علام ؟ لماذا ؟ ما حاجته الى اللقب وهو بدوره تفوق على جميع الناس فى هذه الحياة الدنيا ؟ «أوه ! فى وسع ذلك الجنرال الوقح أن يهينى فى محطة تبديل الأحصنة التى كنا فيها معاً تنتظر الخيول • فلو عرف من أنا لركض يتولى بنفسه قرن خيول عربتى ، ولساعدنى على الصعود الى مركبتى المتواضعة ! لقد كتب أحدهم يقول ان رجلاً أجنبياً يحمل لقب كونت أو بارون كان فى قطار فيينا مع رجل من أصحاب البنوك فى تلك

المدينة فألبس قدميه بابوجيهما، وكان صاحب البنك من العامة بحيث ارتضى منه ذلك ! أوه ! وفى وسع تلك الحسنة الرهية (اقول الرهية لأن بين الحسنات من هنّ رهيئات !) فى وسع تلك الفتاة التى تنتمى الى الارستقراطية الفخمة الجليلة وتحمل لقباً من ألقاب الشرف ، اذا هى لقبتي عرضاً فى سفينة أو غير ذلك ، أن تنظر الى شزرا وأن تسمح بأنفها وأن تدهش باحتقار من هذا الرجل الصغير الوضع الهزيل الذى يحمل يده كتاباً ويتجراً أن يجلس بجانبها فى الدرجة الأولى ! ولكنها لو علمت من ذاك الذى كانت تجلس الى جانبه ! ولسوف تعلم ذلك ، سوف تعلمه فتأتى تجلس الى جانبى من تلقاء نفسها ، خاضعة خجلى ملاطفة ، ساعية الى نظرة ألقبها اليها ، فرحة بابتسامة أطمع بها عليها * * * اننى أتعمد ادخال هذه المشاهد قبل الأوان ، لأعبر عن فكرتى تعبيراً أوضح * ولكنها مشاهد شاحبة ، ولعلها مبتذلة * ان الواقع وحده يبرر كل شىء * .

رب قائل يقول ان حياة المرء على هذا النحو سخيضة : فلماذا لا يكون له قصر ، لماذا لا يكون له منزل مفتوح للناس ، لماذا لا يضم مجتمعات عدة ، ويكون له تأثير ونفوذ ، ولماذا لا يتزوج ؟ ولكن ما الذى سيصير اليه روتشيلد عندئذ ؟ سوف يكون كسائر الناس * سوف يزول كل ما فى « الفكرة » من فتنة وسحر * وسوف يزول كل ما تشمل عليه من قوة روحية أخلاقية * . لقد حفظت على ظهر القلب فى طفولتى ، الحوار الداخلى الذى دار بين « الفارس البخيل » الذى صورته بوشكين وبين نفسه * ان بوشكين لم ينتج ما هو أعلى من هذا الكلام بمقياس « الفكرة » * وأنا مازلت أحرص على هذه المعانى الى اليوم * .

وقد يقال لى باحتقار :

- ولكن مثلك الأعلى منحنط جداً : المال ! الثراء ! فأين مصلحة

المجتمع ، وأين الأعمال الانسانية ؟

ولكن هل تعرفون فى أى وجه من الوجوه سأستعمل ثرائى ؟ أين

النأى عن الأخلاق وأين الحطة فى أن تنزل هذه الملايين من برائن يهودية

قدرة ضارة الى يدى انسان معتزل ثابت عاقل يلقى على العالم نظرة ناقبة ؟
على أن أحلام المستقبل هذه ليست بوجه الاجمال الانوعاً من حكاية ،
ولعلنى أخطأت اذ دوتها ، ولعله كان يجدر أن تبقى فى رأسى لا تخرج
منه . وأنا أعلم أيضاً أن أحداً قد لا يقرأ هذه الأسطر . ولكن اذا قرأها
أحد ، فهل يقدّر أننى قد لا أحتمل ملايين روتشيلد ؟ نعم ، قد لا أستطيع
أن أحتملها ، لا لأنها يمكن أن تسحقنى ، بل بمعنى آخر هو نقيض هذا
المعنى تماماً . لطالما عانقت مراراً ، فى أحلامي ، اللحظة المستقبلية التى
سيكون فيها شعورى قد ارتوى ارتواء تاماً ، وأصبحت أرى أن القوة
لا تكفينى . لسوف أرد جميع تلك الملايين الى الناس حينذاك ، لا عن ضجر
ولا عن سأم بغير هدف ، بل لأن مطالبى تفوق هذا كثيراً : ألا فلتقسم
الانسانية ثروتى عندئذ كما تشاء ، ثم أرتد أنا الى العدم ! لقد أستحيل
يومذاك الى ذلك الشحاذ الذى مات فى السفينة ، مع فارق واحد هو
أنهم لن يجدوا شيئاً من مال خيط فى أسمالى البالية . شعورى وحده
بأننى كان بين يدى ملايين فرميتها فى الوحل ، سيكفينى غذاءً فى صحرائى .
اننى ما زلت مستعداً لأن أفكر هذا التفكير نفسه حتى اليوم . نعم ، ان
« فكرتى » هى « القلعة » التى يمكننى فى كل وقت وفى كل ظرف أن
أهرب اليها من جميع الناس ، ولو كذلك الشحاذ الذى مات فى المركب .
تلكم هى قصيدتى ! واعلموا اننى فى حاجة الى ارادنى السيئة « كاملة » ،
لا لشيء الا أن أبرهن « لنفسى » أننى أملك القدرة على العدول عنها .

ولابد من معترض يقول ان هذا الكلام شعر ، واننى لن أتخلى عن
ملايينى أبداً متى ملكتها ، واننى لن أستحيل يوماً الى الشحاذ ساراتوف .
والحق أننى قد لا أتخلى عن ملايينى فعلاً . وأنا لم أزد هنا على أن رسمت
لكم الخطوط العريضة من المثل الأعلى الذى يتصوره فكرى . ولكننى
أضيف الآن الى كلامى جاداً أننى اذا بلغت من كثر المال الى الرقم الذى
بلغته ثروة روتشيلد ، فلقد أستطيع فعلاً أن أرمى هذه الثروة فى وجه

المجتمع (أما قبل الوصول الى هذا الرقم فقد يكون من الصعب أن أفعل) .
وليس نصف الثروة هو ما سأهبه ، والا كان عملي عملاً مبتدلاً ، وكنت
أفقر نفسي الى النصف لا أكثر . وانما سأهب ثروتى كلها ، الى آخر
كوبك منها ، فبذلك أعنى نفسي الى الضعف ، أى أصبح أغنى من
روتشيلد ضعفين ! اذا لم تفهمونى فليس الذنب ذنبى . ولن أدخل هنا
فى شروح .

سوف يقول الناس جازمين : « هذا من الدروشة ، هذا شعر التفاهة
والعجز ، هذا انتصار الضعف والحطة ! » نعم ، أعترف لكم بأن هذا انتصار
الضعف والحطة ، ولكنه ليس انتصار العجز . لقد شعرت بفرح جنونى
حين تصورت نفسى ضعيفاً وتافهاً ، أقف أمام الناس فأقول لهم مبتسماً : أنتم
أمثال جاليلو وكوبرنيك ، وشارلمان ونابوليون ، وبوشكين وشكسبير ،
ومارشالات القتال والبلاط ، أما أنا فرجل بلا موهبة ولا نسب كما ترون ،
ولكننى مع هذا فوقكم ، لأنكم خاضعون لهذه الحقيقة من تلقاء أنفسكم .
اننى أعترف بأننى مضيت فى هذا التخيل الى أقصاه ، حتى تصورتنى بغير
تعليم . فبدا لى أن الأمر يكون أجمل اذا كان هذا الرجل جاهلاً جهلاً
بشعاً . وقد كان لهذا الحلم الذى يشتمل على مبالغة وغلو أثر فى نفسى منذ
ستى الأخيرة فى الليسيه . فانقطعت عن الدرس تعصباً فكان المثل الأعلى
يزداد جماله باتقادى الثقافة . وقد تغير رأى الآن فى هذه النقطة . فصرت
أعتقد أن التعليم لن يكون فيه ضرر .

يا سادتى ، هل يعقل أن يكون استقلال الفكر ، مهما يكن استقلالاً
محدوداً ، شاقاً على أنفسكم الى هذا الحد ؟ سعيدٌ مَنْ كان له مثل أعلى
للجمال ولو على خطأ . ولكننى مؤمن بصحة مثلى الأعلى . كل ما هنالك أننى
عرضته عرضاً أخرق ، ولم أحسن الافصاح عنه . ولاشك فى أننى
سأستطيع بعد عشر سنين أن أعرضه عرضاً أفضل . وابتظار ذلك
سأحتفظ بهذا كله للذكرى .

ها قد انتهيت من « فكرتى » • وإذا كنت قد وضعتها وضعا عاما
سطحيا فهذا ذنبى أنا لا ذنبها هى • ولقد سبق أن نبّهت الى أن أبسط
الأفكار هى أعسرها فهما • وأضيف الآن الى ذلك أنها أعسرها عرضاً •
لاسيما وأنتى حكيت « فكرتى » فى صورتها الأولى •

وعكس هذا صحيح أيضاً : ان الأفكار المسطحة السريعة يفهمها
الناس بسرعة خارقة ، ولا سيما الجمهور ، الشارع • وأكثر من ذلك أنها
تعد أعظم الأفكار وأكثرها عبقرية ، ولكنها لا تعد كذلك الا فى يوم
ظهورها • فالبضاعة الرخيصة الثمن لا تدوم طويلاً • ان الفهم السريع
دليل على عمية الشيء الذى فهم • ان فكرة بسمارك قد أصبحت عبقرية
على الفور ، وبسمارك نفسه رجل عبقرى ، ولكن هذه سرعة تدعو الى
الاشتباه : اننى انتظر بسمارك عشر سنين ، فأرى عندئذ ماذا يبقى من
فكرته ، بل ربما ماذا يبقى من السيد المستشار نفسه أيضاً • هذه ملاحظة
عرضية تماماً ، ولا شأن لها بالموضوع ، ومن الواضح أنتى لم أدخلها
على سبيل المقارنة ، وانما للذكرى أيضاً (هذا شرح أخص به القارئ
الكثيف ذهنه) •

والآن سأقص حكاييتين لأنتهى من فكرتى كيفما اتفق ، حتى لا تتركنا
بعد الآن فى المستقبل •

فى الصيف ، فى شهر تموز (يوليه) ، قبل سفرى الى بطرسبرج
بشهرين ، وكنت خالياً خلواً تاماً ، طلبت منى ماريا ايفانوفنا أن أذهب الى
بلدة ترويتسكى بوساد لأقوم بمهمة لها لدى عانس كانت تقيم هناك ، والمهمة
أنه من أن أعرض لها هنا بالتفصيل • فأتاء عودتى فى ذلك اليوم نفسه

لاحظت في حافلة القطار شاباً نحيفاً ، في وجهه شور ، يلبس ثياباً حسنة ، لكنه غير نظيف ، هو واحد من أولئك السمر الذي يضرب لونهم الى البرونز المتسخ . وكان الشاب يلفت النظر بأنه في كل محطة أو موقف كان ينزل من القطار ختماً ليشرب شيئاً من الفودكا . وفي خاتمة المسير كانت قد تحلقت حوله عصبة فرحة وان تكن عامية جداً . وكان أكثر أفراد هذه العصبة خماسةً رجلٌ من التجار كان هو أيضاً نملاً بعض الشيء ، وقد أعجب بما يملكه الشاب من قدرة على أن يشرب بغير انقطاع دون أن يسكر . وكان لا يقل عنه رضاءً وارتياحاً فتى غبىٌ غباء رهيباً ، كثير الكلام ، يرتدى ثياباً على الزى الأوروبي ، وتفوح منه رائحة كريهة فظيعة : انه خادم كما عرفت ذلك فيما بعد .

وقد انعقدت بينه وبين عاشق الفودكا الشاب صداقة ، فكان هو الذي يدعوه الى النزول عند كل موقف قائلاً : « آن الأوان ، هيا بنا ! » ، ثم ينزلان متماسكين متعاقبين . وقد أصبح الشاب بعد الشراب صامتاً لا يكاد يقول كلمة واحدة ، ولكن عدد المتحاذين الذين يتحلقون حوله ما ينفك يزداد . فكان يكتفى بالاصغاء اليهم ، ولكنه لا ينسى يقهقه ويريل ، ويرسل من حين الى حين أصواتاً من هذا النوع : « تور - تور - لو ! » ، يرسلها فجأة بغير توقع ، ويجرى حركة كاريكاتورية فيحمل اصبعه الى أنفه . وكان ذلك هو ما يبهج البائع والخدام وسائر الناس بهجة كبيرة ، فكانوا يضحكون ضحكاً مجلجلاً جلجلة خارقة بغير تخرج . انه ليستحيل عليك أحياناً أن تدرك لماذا يضحك الناس . واقربت أنا أيضاً . فلا أدري لماذا أعجبنى هذا الشاب . لعل ما أعجبنى فيه هو هذا الخروج الواضح على المواضعات الرسمية المألوفة المقبولة . والمهم على كل حال اننى لم ألحظ حماقته . لذلك سرعان ما أخذنا نتخاطب بصيغة المفرد من غير كلفة . فلما غادرت القطار علمت منه أنه سيأتى في المساء

بعد الساعة الثامنة الى شارع تفرسكوى • ان الشاب طالب ترك الجامعة •
وذهبت الى الموعد المضروب ، فاليكم اللعبة التى علمنى اياها :

تتجول معاً فى الشوارع ، وبعد قليل ، متى رأينا امرأة حسنة ليس حولها أحد ، أسرعنا نلتصق بها ؛ وبدون أن نقول لها كلمة واحدة ، نحدثي بها أنا من طرف وهو من طرف آخر ، ونأخذ نجرى بيننا حديثاً بذيئاً الى أبعد حدود البذاءة ، محتفظين بمظهر هادئ كل الهدوء ، كأننا لا نراها البتة • نسمى الأشياء بأسمائها ، جادين جداً لا يعكركه معكر ، كأن الأمر طبيعى الى أقصى درجة ؛ ومن أجل أن نأتى على أشبع الحقايات والدنابات ندخل فى تفاصيل لا يستطيع أقدر خيال فاسق أن يتخيلها (وكنت قد تعلمت هذه التفاصيل كلها فى المدارس طبعاً ، حتى قبل اللبسة ، ولكننى تعلمتها قولاً لا فعلاً) • فكانت المرأة تخاف ، وتغذ الخطى ، ولكننا نغذ الخطى مثلها ونستمر فى الحديث موغلين فيه مزيداً من الايقال • ولم يكن فى وسع ضحيتنا أن تفعل شيئاً بطبيعة الحال ، ولا يمكنها حتى أن تصرخ ، ولا شهود علينا ، ثم انها لو شكتنا لكان ذلك منها امراً مستهجنأ غريباً • سلخنا فى هذه التسلية ثمانية أيام • ولست أفهم كيف أمكننى أن أستطيعها • وما كنت أستطيعها فى الواقع •• وانما حدث هذا •• هكذا ! •• بدا لى الأمر فى البداية طريفاً خارجاً على المألوف وعلى المواضع المقررة المقبولة • وكنت عدا ذلك لا أطيق النساء • وقد أسررت فى ذات مرة الى الطالب أن جان جاك روسو ، فى كتابه « الاعترافات » ، قد روى أنه فى شبابه كان يحب أن يكشف عوراته عارية كل العرى ويلبث على هذا الوضع الى أن تمر نساء فتراها • فلم يجيبنى الطالب الا بأصواته « تور - تور - لو » • فلاحظت أنه جاهل جهلاً مطبقاً رهيباً ، وأنه لا يهتم بشيء ذى بال • ولم أكتشف عنده فكرة واحدة من تلك الفكر الأصيلة التى كنت أتوقع ان أجدها عنده • لم أقع لديه على أصالة بل على تكرار رتيب مرهق • فاصبح تعلقى به يقل • ثم

اتتهى كل شيء على نحو لم يكن فى الحسبان : ففى ليلة تكاثفت فيها الظلمات لاصقنا فتاة فى ريعان الصبا كانت تسير فى الشارع مسرعة وجلة • لعل عمرها ستة عشر عاماً أو يقل • ثيابها نظيفة جداً على بساطة • أغلب الظن أنها تعيش من عملها ، وربما كانت فى تلك الساعة عائدة الى البيت حيث تنتظرها أم عجوز هى أرملة فقيرة مثقلة بأعباء أسرة • ولكن لا داعى الى الانقياد للعواطف • ظلت الفتاة تسمع حديثنا بعض الوقت ، ثم غدت الخطى ، ثم مالت برأسها وغطت وجهها بحجابها خائفة مرتعشة • ثم اذا بها تتوقف على حين فجأة ، فتكشف عن وجهها الذى كان حلواً اذا صدقت ذاكرتى ، لكنه كان نحيلاً هزيلًا ، وصرخت تقول لنا وقد قدحت عيناها شرواً :

— حقيزان !

ولعلها كانت تهم أن تبكى ، ولكن حدث شيء آخر • فهامى ذى ترفع يدها الصغيرة الهزيلة مهتاجة ، وتهوى على وجه الطالب بصفعة 'سمع صوتها ، ولعلها لا تضارعها فى احكامها صفعة ! فقذفها الطالب بشتيمة وهم أن يهجم عليها ، لكننى أمسكتها فاستطاعت الفتاة أن تهرب ! فلما صرنا وحيدين تشاجرنا ، ونددت به مخربجاً كل ما كان قد تراكم فى نفسى أثناء ذلك الوقت ، وقلت له انه ليس الا امرءاً عاجزاً تافهاً ، وانه لم تساور ذهنه فى يوم من الأيام فكرة • فأجابنى بشتائم • • (وكنت قد ذكرت له مرة " انتى ابن زنا) ، ثم افترقنا وقد بصق كل منا احتقاراً ، ولم أره بعد ذلك قط • وقد شعرت فى تلك الليلة بغضب شديد • وكان غضبى فى الغد أقل • أما فى غداة غد فكنت قد نسيت كل شيء • وبعد ذلك كنت أتذكر تلك الفتاة من حين الى حين ، ولكننى أتذكرها مصادفةً ، وأتذكرها عرضاً • حتى اذا وصلت الى بطرسبرج بعد خمسة عشر يوماً تذكرت المشهد على حين بفتة • تذكرته فسرعان ما استولى على شعور بالعار بلغ من الشدة أن الدموع سالت على خدى فعلاً •

وظللت أعانى عذاباً شديداً طوال المساء ، وطوال الليل ، ومازلت أعانى شيئاً من هذا العذاب الى الآن . ولقد عجزت فى أول الأمر أن أفهم كيف أمكنتى أن أسقط الى ذلك الدرك الأسفل ، وأن أنسى الحوادث خاصة ، وأن لا أحمر منه خجلاً ، وأن لا تلتهمنى الندامة التهاماً . والآن فقط انما أدرك حقيقة الأمر . لقد كان الذنب ذنب « الفكرة » . ان النتيجة التى أخلص إليها هى أنه متى استقر فى ذهن المرء شئ ثابت ، دائم ، مستمر ، قوى ، يملأ عليه نفسه ، فان هذا المرء ينفصل فى الوقت ذاته عن العالم معتصماً بالعزلة ، وكل ما يحدث لا يزيد على أن ينزلق بعدئذ على صفحة نفسه انزلاقاً فلا يحدث فيها أثراً . حتى ادراكاته الحسية قد تصبح غير صحيحة . وهو عدا ذلك ، وخاصة ، لا يعدم أن يجد لنفسه عذراً فى كل وقت . لشد ما عذبت أسمى فى ذلك الأوان ! ما أكثر ما كنت أهجر أختى هجراً مخجلاً ! « ولكن لا ! ان لى « فكرتى » ، وكل ما عداها لا قيمة له ! » ذلك ما كنت أقوله لنفسى . وكان يحدث أن 'أهان ، بل أن أهان بقسوة : فكنت أمضى لا ألقى على شيء ، قائلاً 'لنفسى بعد ذلك : « هه ! ان لى « فكرتى » وهم لا يعرفون عنها شيئاً » . كانت « الفكرة » تعزىنى عن العار وعن التفاهة . ولكن جميع ذناتى كانت كأنها تحتمى تحت « الفكرة » أيضاً . كانت « الفكرة » تسهل على كل شئ ، ولكنها كانت تحجب عنى كل شئ كذلك . على أن فهم الظروف والأشياء فهماً يبلغ هذا المبلغ من الاضطراب والابهام لا يمكن الا أن يضر بالفكرة نفسها ، ناهيك عما عدا ذلك .

والآن ، اليكم القصة الثانية :

فى أول نيسان (أبريل) من السنة الماضية كانت ماريا ايفانوفنا تختفل بعيدها . وجاء فى المساء عدد من المدعوين ، عدد ليس بالكبير . وهذه آجرافينا تدخل على حين فجأة لاهثة لاهتاً شديداً ، فتعلن أن فى الدهليز أمام المطبخ وليداً متروكاً يصيح .. وأنها لا تدري ماذا تفعل .

فأهاج هذا النبأ جميع الحضور ، وهرعنا الى هناك فرأينا قفةً من قش ، ورأينا فى القفة بنتاً عمرها ثلاثة أسابيع أو أربعة كانت تبكى معولة . فتناولت القفة وحملتها الى المطبخ ، ورأيت فيها ورقةً مطوية نصفين قد كتب عليها ما يلى : « أيها المحسنون الأعزاء ، أنعموا بعطفكم الجميل على هذه البنت التى عمدت باسم آرينا . اتنا ، نحن وهى ، سوف نظل نرفع دموعنا الى السماء أبد الآبدين ، داعين لكم بالخير . وتمنى لكم عيداً سعيداً : أناس لا تعرفونهم » . وعندئذ انما أحزنتى يقولوا سيمينوفتش أشد الحزن ، وكنت أحترمه كثيراً . فلقد تجهم وجهه ، وقرر ارسال الطفلة الى « الاسعاف العام » فوراً . فتأملت أشد الألم . لقد كانت الأسرة تعيش عيشة ضيقة . ولكن لم يكن لها أولاد ، وكان يقولوا سيمينوفتش يغبط نفسه على هذا دائماً . أخرجت الصغيرة آرينا من القفة بحذر ، وأنهضتها من كفها . ففاحت منها رائحة حامضة قوية كالتي تفوح من مواليد أهملوا مدةً طويلة . وبعد أن ناقشت يقولوا سيمينوفتش برهة ، أعلنت له على حين فجأة أننى سوف أتكفل بالطفلة . فأخذ يعترض اعتراضات كثيرة ، بل أخذ يعترض اعتراضات فيها شئ من القسوة ، رغم رقة طبعه ، ثم ختم كلامه بمزاحة ، ولكنه أصر على رأيه بضرورة ارسال الطفلة الى « الاسعاف العام » . ومع ذلك جرى كل شئ كما أردت .

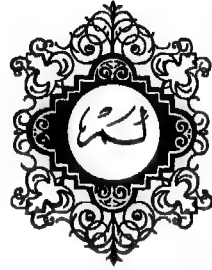
كان يسكن فى العمارة نفسها ، ولكن فى جناح آخر ، نجار فقير جداً ، مسنٌ وسكّير . وكانت زوجته ، وهى امرأة شابة قوية ، قد فقدت منذ مدة قصيرة ولداً لها رضيعاً ، وكان الولد وحيدها الذى لم تتجب غيره بعد ثمانى سنين من زواج عقيم ، وكان الولد بنتاً كذلك ، بل كان من المصادفات الغريبة ومن حسن الحظ أن اسم البنت المتوفاة كان آرينا أيضاً . أقول من حسن الحظ ، لأن هذه المرأة وقد عرفت بالنبأ بينما كنا نتناقش فى المطبخ ، أسرعت تجيء إلينا لترى ، فما ان عرفت أن الصغيرة اسمها آرينا حتى رق لها قلبها . وكان ثدياها لا يزالان يدران ،

فكشفت. عن صدرها وأخذت ترضع الطفلة • فجثوت عند قدميها وابتهلت اليها أن تأخذ البنت متعهداً بأن أدفع نفقات معيشتها كل شهر • فسألت هل يسمح لها زوجها بذلك • ولكنها أخذتها لتؤويها هذه الليلة على كل حال • حتى اذا كان الصبح سمح زوجها بحضانة الطفلة على أن يتقاضى ثمانية روبلات في الشهر • فنقدته على الفور نفقات شهر سلفاً • فمضى يشرب بها خمراً • وقد رضى يقولاً سيمينوفتش الذى كان لا يزال يتسم ابتسامة غريبة ، أن يكفلنى لدى الرجل متعهداً بأن لا أتخلف عن دفع المبلغ - وهو ثمانية روبلات - كل شهر • حتى لقد رفض أن أرهن لديه الستين روبلاً التى كانت معى • وكان يعرف على كل حال أن معى مالاً وكان يثق بى • فكان من شأن هذه البادرة اللطيفة منه أن محت ما حدث بيننا من فتور لحظة • ولم تقل ماريا ايفانوفنا شيئاً ، لكنها استغربت منى أن ارضى تحمل هذا الهم • وانى لأشكر لهما كثيراً ما أظهرهما كلاهما من رقة الذوق اذ لم يسمح أحد منهما لنفسه بأية مزحة فى حقى ، حتى لقد نظرا الى الأمر نظرة فيها كل ما يليق ويحسن من جد • وأصبحت أئب الى عند داريا روديفونوفنا كل يوم ثلاث مرات ؛ وبعد أسبوع نفحتها ثلاثة روبلات زيادة • ، على أن يكون هذا المبلغ لها هى ، بغير علم زوجها • وبثلاثة روبلات أخرى اشترت للطفلة غطاء وأقمطة • ولكن لم تمض عشرة أيام حتى مرضت الصغيرة آرينا • فاستدعيت لها الطبيب فوراً ، فوصف لها لا أدري أى دواء ، وقضينا الليلة كلها نعذب الطفلة المسكينه بهذا الدواء اللعين • وجاء الطبيب فى الغد فقال ان الأوان قد فات ، فلما أخذت أتضرع اليه ، وربما أخذت ألومه أيضاً قال مترفعاً : « أنا لست الرب » • كان اللسان الصغير والشفتان الصغيرتان والفم كله قد غطاها طلفح أبيض دقيق • وما أن جاء المساء حتى ماتت آرينا وهى تحددق الى بعينيها الواسعتين السوداوين كأنما كانت تدرك وهى فى تلك السن • لا أدري لماذا لم يخطر ببالي أن التقط للميتة

الصغيرة صورة فوتوغرافية • على كل حال • هل تصدقون أنني ما بكيت في ذلك المساء بكاءً ، وإنما طفقت أعول عويلاً ، وذلك أمر لم أسمح به لنفسي من قبل في يوم من الأيام قط ! حتى لقد اضطرت ماريا ايفانوفنا أن تعزيني • ومرةً أخرى لم يشتمل موقفها ولا موقف زوجها على أى شيء من سخرية • وقد تولى النجار بنفسه صنع التابوت الصغير • وزينته ماريا ايفانوفنا ببعض الدانتيل ، ووضعت فيه وسادة صغيرة لطيفة • واشترت أنا أزهاراً فنشرتها على الطفلة • وهكذا أخذت زهرتى الصغيرة المسكينة ، زهرة الحقول ، التي لا أستطيع الى اليوم أن أساها ، أصدقتم هذا أم لم تصدقوه • ولكن هذا الحادث الذي يكاد يكون مفاجئاً قد حملنى بعد مدة قصيرة على التفكير ، بل حملنى على التفكير جداً كل الجدة • صحيح أن آرينا لم تكلمنى مالاً كثيراً : فنفقات التابوت ، والدفن ، والطبيب ، والأزهار ، وأجر داريا روديفونوفنا ، لم تزد على ثلاثين روبلاً • وحين سافرت الى بطرسبرج استعدت هذا المبلغ توفيراً من الأربعين روبلاً التي أرسلها الى فرسيلوف للرحلة ، وريحاً من بيع عدد من الأشياء الصغيرة ، فبقى « رأسمالى » سليماً كأنه لم يمس • ولكننى قلت لنفسي : « اذا انحرفت انحرافات أخرى من هذا النوع ، فلن أمضى الى بعيد » • ان حكاية الطالب قد برهنت على أن « الفكرة » يمكن أن تشوش الادراكات الحسية وأن تذهل المرء عن النشاط الواقعى • أما حكاية آرينا فانها تبرهن على نقيض ذلك : تبرهن على أنه ما من « فكرة » تستطيع أن تبلغ من قن المرء (من فتى أنا على الأقل) حداً منعه من التوقف فجأةً أمام حادث محزن ، والتضحية بكل ما قام به خلال سنين من عمل فى سبيل « الفكرة » • ان التيجتين كلتيهما صحيحة •

الفصل السادس

١



تتحقق آمالي تحقّقاً كاملاً • كان فرسيلوف غائباً • ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت عند أمي ، وهي رغم كل شيء غريبة • فسرعان ما تبدد نصف ما كان يملأ نفسي من استعدادات حسنة كريمة • غريب أمرى : ما أسرعت الى التغير والتبدل في مثل هذه الظروف : تكفى ذرة غبار أو شعرة حتى يزول صفاء مزاجي ويحل محله الكدر • ومن سوء الحظ أن مشاعري السيئة أقل سرعة الى التبدد ، رغم أنني لست بالحقود • حين دخلت لاحظت أن أمي كانت قد أسرعت تقطع الحديث الذي يجري بينها وبين تاتيانا بافلوفنا والذي كان واضحاً أنه حديث حامٍ • وكانت أختي قد رجعت من عملها قبل وصولي بدقة واحدة ، ولما تعد الى الخروج من غرفتها بعد •

ان الشقة تضم ثلاث حجرات : الحجرة التي يلتئم فيها شمل الجميع كما جرت العادة ؛ والحجرة الوسطى أو الصالون وهي حجرة واسعة سعة كافية وتكاد تكون لائقة ، ففيها دواوين حمراء طرية - لكنها مهترئة بعض الاهتراء - (كان فرسيلوف لا يطبق الأعطية الواقية) ، وفيها بضع سجادات وعدة طاولات واسكملات لا فائدة منها ؛ ثم غرفة

فرسيلوف التى تقع على اليمين ، وهى غرفة صغيرة ضيقة ذات نافذة واحدة ، فيها مكتب حقير ألقى عليه عدة كتب مهجورة وأوراق منسية ، وأمام الطاولة مقعد رخو لا يقل عنها حقارة قد نفذ نابضه المكسور فانتصب فى الهواء ، وذلك ما كان يحمل فرسيلوف على التشكى والأين والتجديف . وفى تلك الغرفة نفسها انما جعل له سرير على ديوان رخو مهترى أيضاً . ولقد كان فرسيلوف يكره هذا المكتب ، وأظن أنه كان لا يستعمله أبداً ، وانما يؤثر أن يبقى فى الصالون ساعات كاملة بغير عمل . وعلى يسار الصالون توجد غرفة صغيرة مماثلة تماماً كانت تام فيها أمى وأختى . وسبيل الوصول الى الصالون دهليز يؤدى الى المطبخ الذى تسكن فيه الطباخة لوكيريا . فاذا كانت لوكيريا تعمل انتشرت رائحة فضلات طعام فى الشقة كلها . فكان يتفق لفرسيلوف فى بعض اللحظات أن يلعن حظه وحياته كلها بصوت عال بسبب روائح المطبخ هذه ، وكنت أنا من هذه الناحية على الأقل أوافقه كل الموافقة . اننى أكره هذه الروائح أنا أيضاً ، رغم أنها كانت لا تصل الى حينذاك ، فلقد كنت أسكن فى أعلى ، فى حجرة تحت السقف أصعد اليها على سلم شديد الصرير ، وعرورة فظيعة . وكان من طرائف هذه الحجرة التى أسكنها أن لها كوة صغيرة بيضوية الشكل ، وسقفاً واطناً الى حد رهيب ، وأن فيها ديواناً مغطى بقماش مشمع كانت لوكيريا تغطيه فى المساء بشرشف وتضع عليه مخدة . أما باقى الأثاث فهو شيان : طاولة من ألواح خشبية لا أكثر ، وكرسى خاسف من خيزران .

الحق أن الشقة كانت لا تزال تضم رغم ذلك بقايا شيء من رخاء زال الآن : ففى الصالون مثلاً يوجد مصباح جميل من الخزف ، وقد علفت بالحايط صورة رائعة لـ « مادونا » درسدن ، وأمام الصورة ، على الحائط الآخر ، صورة فوتوغرافية كبيرة جداً ، تمثل الأبواب البرونزية لكاتدرائية فلورنسة . وفى هذه الغرفة نفسها علفت فى ركن من

الأركان خزانة أرفف عليها أيقونات قديمة تملكها الأسرة : فاحدى هذه الأيقونات (وهى أيقونة جميع القديسين) كانت مكسوة بفضة مذهبة - وهذه هى الأيقونة التى كان يراد رهنها - والأيقونة الثانية (أيقونة العذراء) كانت مكسوة بمخمل مطرز بلألىء • وأمام هذه الصور كان يوجد مصباح يشعل فى عشيات الأعياد • ولقد كان واضحاً أن فرسيلوف لا يحفل بهذه الأيقونات من حيث دلالتها : فهو يكتفى بتقطيب حاجبيه محاولاً ضبط نفسه حين يرى نور المصباح تعكسه الزخرفات المذهبة ، متشكياً فى رفق من أن ذلك يضر بنظره ، لكنه كان لا يمنع أمى من اشعال المصباح •

ولقد كنت أدخل فى العادة متجههم الوجه ، موجهاً بصرى الى ركن من الأركان ، حتى دون أن أحيى • وكنت أعود الى البيت دائماً قبل هذه الساعة وكانوا يأتوننى بطعامى الى فوق • أما هذه المرة فأننى حين دخلت قلت لأمى فجأة : « يومك سعيد يا ماما ! » ، وذلك ما لم يكن يحدث أبداً من قبل • ولكننى بنوع من الحجل الزائف لم أستطع حتى فى هذه المرة أن أنظر اليها ، وجلست فى الزاوية المتقابلة من الغرفة • كنت متعباً جداً ، ولكننى كنت لا أفكر فى ذلك •

قالت تاتيانا بافلوفنا هامة :
 : قالت تاتيانا بافلوفنا هامة :

— هذا القليل الأدب لا يزال يدخل عليك دخولاً وقحاً كما كان يفعل من قبل •

وكانت تاتيانا بافلوفنا تبيح لنفسها أن تقول كلمات جارحة من هذا القبيل ، حتى لقد أصبح ذلك نوعاً من العادة بينى وبينها •

أجابت أمى تقول وكأنها قد طاش صوابها من تحيتى لها :

— يومك سعيد ! •••

وأضافت بما يشبه اضطراب الحجل :

– العشاء مهياً منذ مدة طويلة • آمل أن لا يكون الحساء قد برد •
أما الكستليات فسأمر بها فوراً •

وهمت أن تنهض مسرعة لتذهب الى المطبخ • فشعرت • ربما لأول
مرة منذ شهر • بخجل مفاجيء من رؤيتها تسارع الى خدمتي هذه
المسارعة كلها ، على حين أتى كنت الى ذلك اليوم أطلبها بذلك بنفسى
مطالبة •

قلت لها :

– أشكرك يا ماما ، لقد تعشيت • فلا تزعجى نفسك • وسأبقى
هنا •

– آ • • طبعاً • • ابقى !

– ولا تقلقى يا ماما ، فلن أقول لآندره بتروفتش بعد الآن كلمات
قظة •

كذلك أعلنت لها فجأة •

فهمت تانياًنا بألفوفنا تقول :

– الله الله • • • يالللبل والشهامة ! عزيزتى صونيا ، هل يعقل أن
تظلى تخاطبينه بصيغة الجمع ؟ من هو حتى يستحق هذا التكريم • • • من
أمه ؟ ثم ما هذا ؟ ما لي أراك مضطربة أمامه ؟ هذا مخجل !

قلت :

– سيسرنى أنا نفسى أن تخاطبينى بصيغة المفرد يا ماما !

فأسرعت أمى تقول :

– آ • • طيب • • اتفقنا • • ذلك أن • • ولكن لا فى جميع المرات •
ابتداءً من اليوم ، اتفقنا •

واحمرت احمراراً شديداً • ان وجهها فى بعض الأحيان

فتان •• وجه طيب •• لكنه ليس ساذجاً البتة •• وجه شاحب قليلاً •
هو وجه انسان مصاب بفقر الدم • خذاها نحيلتان جداً ، بل خاسفتان ؛
وقد أخذت تتراكم على وجهها غصون كثيرة ، ولكن الغصون لم تظهر
حول عينيها بعد • وهاتان العينان ، الواسعتان المفتحتان ، تلتمعان دائماً ببريق
ناعم هادئ جذبني منذ أول يوم • والشئ الذي كنت أحبه أيضاً هو أن
وجهها ليس فيه شئ من حزن أو مذلة • بالعكس : كان تعبير وجهها يمكن
أن يعد جذلاً لولا أنه متخوف غالباً بدون أى سبب على الإطلاق فى بعض
الأحيان • انها ترتاع حتى لقد ترتجف أحياناً لآمر تافه كل التفاهة ،
وإذا أصغت الى حديث جديد كانت تصفى مذعورة ، الى أن تقتنع اقتناعاً
تاماً بأن الأمور لا تزال تجري مجرى حسناً كالعادة • وكانت جملة « كل
شئ يجري مجرى حسناً » ترادف فى ذهنها أن « كل شئ لا يزال يجري
كما كان » • كل ما يهمها هو أن لا يحدث تغير ، كل ما يهمها هو أن
لا يقع جديد ، وان يكن هذا الجديد سعيداً ! ••• فى وسع المرء أن يتصور
أنها قد خوفت فى طفولتها تخويفاً رهيباً • وعدا العينين كنت أحب فيها
بيضوية وجهها أيضاً ، حتى لأظن أنها لو كانت وجنتها أقل عرضاً بقليل ،
لكان يمكن أن تعد جميلة ، لا فى شبابها فقط ، بل اليوم أيضاً • ان
عمرها لا يزيد على تسعة وثلاثين عاماً ، ولكن شعرها الكستناوى قد -خالطه
بياض كثير منذ الآن •

نظرت الى تاتيانا بافلوفنا باستياء قاطع وقالت لأمى :
- أترعدين هذا الارتعاد أمام ولد تافه من هذا النوع ؟ انك مضحكة
يا صوفيا ! لسوف تثيرين غضبى وحقنى !
- آه ••• تاتيانا بافلوفنا ، لماذا تقسين عليه هذه القسوة ؟ ولكنك
تمزحين ، أليس كذلك ؟

أضفت أمى هذا السؤال الأخير اذ لاحظت فى وجه تاتيانا بافلوفنا
نوعاً من التبسم • صحيح أن تقريرات تاتيانا لا يمكن أن يعبأ بها كثيراً ،

ولكنها كانت تبسم هذه المرة لأمي وحدها (ان كانت قد تبسمت) ، لأنها كانت تحب طيبة أمي جداً شديداً ، ولأنها لاحظت حتما ما بعثه خضوعي في نفس أمي من سعادة كبيرة في تلك اللحظة .

قلت مخاطباً تاتيانا بأفلوفنا :

– انك تهجمين على الناس هجوما فيه شيء من الخشونة ، وكان هجوميك عليّ أنا اليوم في غير محله يا تاتيانا بأفلوفنا . هجمت على وأنا أقول حين دخولي : « يومك سعيد يا ماما ! » . خطي سيء حقاً .

فسرعان ما انفجرت تقول :

– اسمعوا هذا الكلام ! انه يعد ذلك مأثرة منه ! هل يجب علينا اذن أن نركع أمامك لأنك كنت مهذباً مرة في حياتك ؟ بل هل كنت مهذباً بالفعل ؟ لماذا تنظر الى ركن الغرفة حين تدخل ؟ أتظن أنني لا أعرف مدى ما تشعربه من غيظ تجاهها ؟ وكان في وسعك أن تحيني أنا أيضاً . لقد كنت أتولى تقييطك ، وأنا عرابتك !

ولم أتنازل فأرد عليها طبعاً . ودخلت أختي في تلك اللحظة ، فقلت لها فوراً :

– رأيت اليوم فاسين يا ليزا . وقد سألتني عنك ؟ هل تعرفينه ؟ فأجابتنى ببساطة كبيرة وهي تجلس الى جانبي وتلقي على نظرة لطيفة :

– نعم ، منذ لوغا ، في السنة الماضية .

لا أدري لماذا كان يبدو لي أنها ستنفجر حين أكلمها عن فاسين .

ان أختي شقراء ، شقراء شقرة زاهية . شعرها ليس كشعر أبي ولا كشعر أمي . ولكن عينيها تكادان تكونان عيني أمي ، وكذلك وجهها

اليضوى • أنفها مستقيم صغير منسق • وهناك خاصة أخرى : ان في وجهها بقع حمرة ، وذلك ما لا تجده في وجه أمى • من فرسيلوف ليس فيها شيء ، ربما باستثناء القامة المشوكة الحلوة ، وشيء من فتنة في المشية لا أدرى ما هي ! أما أنا فليس بينى وبينها أى شبه : بل نحن نقيضان •

أضفت ليزا تقول :

— عرفتهم ثلاثة أشهر •

— هل عن فاسين تقولين عرفتهم ؟ يجب أن تقولى عرفته لا عرفتهم ؟ اغفرى لى أنتى أصحح لك خطأك ، ولكن يؤلنى أن يكون أمر تعليمك قد أهمل كل هذا الاهمال •

فاتفجرت تاتيانا بافلوفنا قائلة :

— عيب عليك أن تبدى هذه الملاحظة بحضور أمك • ثم ان هذا غير صحيح • ان ليزا لم يهمل أمر تعليمها أبداً •
فقلت بلهجة جازمة :

— أنا ما عنيت بهذا أمى • اعلمى يا ماما أن رأيى فى ليزا كرايى فيك • لقد جعلت منها رائة من روائح الطيبة والنبل ، فهى تذكّر حتما بما كنت عليه أنت فى الماضى ، وبما لا تزالين عليه ، وبما سبتظلين عليه الى الأبد ... وانما أنا عنيت بكلامى ذلك الطلاب الخارجى الاجتماعى الذى أعرف أنه تافه ولكنه ضرورى •

وتابعت كلامى مخاطباً أختى :

— اننى ليسوئنى أن يسمعك فرسيلوف قائلة عن فاسين « هم » بدلاً من « هو » ، ثم لا يصحح لك خطأك من شدة تعاليه علينا وقلة اكترائه بنا • ذلك هو ما يحقنى •

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول وهى ترشقنى بنظرة صاعقة :

- انظروا الى هذا الدب يتصدى لتعليم غيره الآداب ! حذار ياسيد
أن تقول بعد اليوم « فرسيلوف » بحضورى أنا • فلن أطيق ذلك !
- ماما ، قبضت اليوم أجرى خمسين روبلاً • فخذوها ، أرجوك •
هى ذى !

قلت هذا لأمى وتقدمت منها ماداً إليها المال ، فسرعان ما ظهر عليها
الارتياح ، ثم قالت وكأنها تخشى حتى أن تمسه بيدها :
- ولكن ... ولكنى لا أدرى كيف آخذ هذا المال !
فلم أفهم • وقلت :

- ولكن يا ماما اذا كنتما تعدانى ابناً وأخاً ، فعندئذ ...
- آه ... اننى مذنب فى حقك يا آرКАДى • هناك أشياء يجب أن
أعترف لك بها ، ولكننى شديدة الخوف منك ...
قالت ذلك وهى تبسم ابتسامة خجلى ضارعة • فلم أفهم أيضاً
وقاطعتها قائلاً :

- بالمناسبة ، هل تعلمين يا أمى أن القضاء قد فصل اليوم فى قضية
أندره بتروفتش وآل سوكولسكى ؟
فهتفت من الذعر تقول وهى تعقد ذراعيها على صدرها ، وتلك حركة
مألوفة فيها :

- نعم أعلم •
وارتعشت تاتيانا بافلوفنا ارتعاشاً شديداً ، وقلت تسأل :
- اليوم ؟ مستحيل • لو أن الحكم قد صدر لأعلمنى بذلك •
ثم أضافت وهى تلتفت الى أمى :
- هل أبلغك أنت ؟

- لا ، لم يكلمنى اليوم • ولكنى خائفة خوفاً شديداً منذ أسبوع
كامل ••• ألا فليخسر القضية على شرط أن تتخلص من هذا الأمر
ويجربى كل شيء كما كان يجربى •

فهتفت أسأل أمى :

- اذن لم يبلغك أنت أيضاً ؟ يا له من رجل عجيب ! هذا مثال على
شدة تعاليه وقلة اكترائه • ألم أقل لكم ذلك منذ قليل ؟

وانبرت تاتيانا بافلوفنا تسأل :

- ولكن ماذا كان الحكم ؟ ماذا كان الحكم ؟ هلا قلت أخيراً !

- ولكن ها هو ذا بنفسه قد وصل ، فلعله يطلعنا على ما حدث •

كذلك أعلنت ' اذ سمعت وقع خطاه فى الدهليز ، وأسرعت أجلس
بقرب ليزا من جديد ، فقالت لى ليزا هامة :

- أخى ، ناشدتك الله •• ارحم ماما ••• اصبر على آندره

بتروفتش •

- سأصبر • على هذه النية انما عدت •

وشددت على يدها • فرشقتى ليزا بنظرة ليس فيها اطمئنان • وكانت

على حق •

دخل فرسيلوف راضياً عن نفسه مسروراً بها ، حتى انه لم يجد أن من الضروري أن يخفى ذلك . وقد اعتاد في الآونة الأخيرة على كل حال أن يكشف عن نفسه وأن يظهر على حقيقته بدون أى كلفة أو تحرج لا في لحظات اعتكار مزاجه فحسب ، بل في نوبات مرجه أيضاً ، وذلك أمر يتهيء كل انسان أكثر ما يتهيء . وكان يعلم مع ذلك حق العلم أننا نستطيع في مثل هذه الحالات أن نفهم كل شيء حتى أدق التفاصيل . لقد أصبح يهمل هندامه اهمالاً شديداً في هذه السنة الأخيرة ، كما لاحظت ذلك تاتيانا بافلوفنا : صحيح أنه يرتدى دائماً ملابس لائقة، ولكنها ملابس عتيقة بغير أناقة . أصبح مستعداً لأن يلبس قميصاً واحداً مدة عشرة أيام ، وكان هذا يحزن أمي حزناً شديداً ، ولكنه يُعدُّ في المنزل تضحية منه وبطولة ، وكانت تلك الجمهرة كلها من النساء المخلصات يرين فيه مائزة ومكرمة . ان قبعاته رخوة سوداء عريضة الحافات دائماً . وكان اذا خلع قبعته نزلت على جبينه خصلة من شعره الذي كان شديد الكثافة والفزارة وانما يخالطه بياض كثير . وكنت أنا أحب أن أنظر الى شعره حين يخلع قبعته .

— يومكم سعيد . أرى الشمل ملتثماً فليس أحد غائباً . وحتى هذا أراه معكم . لقد سمعت صوته وأنا في المدخل . لا شك أنه كان يقول فيَّ سوءاً ، أليس كذلك ؟

كان اذا مزح في حقى يدل بذلك على أنه رائق المزاج . ولم أجب طبعاً . وعادت لوكيريا وهي تحمل كيساً ممتلئاً بمشتروبات ووضعت على الطاولة .

- انتصرت يا تاتيانا بافلوفنا ! ربحت الدعوى ولن يجرؤ الأمراء
سوكولسكى أن يلجئوا الى محكمة النقض والابرام • أصبحت القضية فى
الجيب ! ولقد وجدت من يقرضى ألف روبل حالاً • صوفيا ، اتركى
شغلك هذا ، لا تعبى عينك • ليزا ، أنت عائدة من العمل ؟
فأجابت ليزا وقد لاح فى وجهها الحنان :

- نعم يا بابا •

لقد كانت ليزا تسميه بابا • أما أنا فلم أستطع أن أذعن لهذا فى يوم
من الأيام •

- أنت تعبانة ؟

- نعم •

- اتركى هذا العمل ، لا تذهبى اليه غداً ، اهجرىه هجرأ تاماً •

- ولكن ترك العمل سيضايقنى مضايقة أكبر •

- أرجوك ... اننى أكره النساء اللواتى يعملن يا تاتيانا بافلوفنا •

- وكيف تعيش بغير عمل ؟ امرأة لا تعمل ! ...

- أعرف ، أعرف ... هذا الكلام كله حسن ، وأنا موافق عليه
سلفاً • ولكن ما أعنيه انما ينصرف خاصة الى أشغال الخياطة والتطريز
وما الى ذلك مما تقوم به السيدات ... وهذا يرجع الى احساس من
أحاسيس الطفولة هو من ألمها فى نفسى ، بل قولوا هو من أكثرها ايغالا
فى الخطأ • فى ذكرياتى الغامضة عن العهد الذى كانت سنى فيه خمسة
أعوام أو ستة ما أزال أرى فى أكثر الأحيان ، شئ من الاشمزاز طبعاً ،
مجمعاً من النساء أشبه بمجمع كرادكة قد جلسن الى مائدة مستديرة عابسات
الوجه متجهومات الهيئة ، وأرى مقصات وأقمشة و « بترونات » وصور
موضة ، وأرى هذه النساء كلها تناقش وتجادل ، هازة رءوسها بوقار
وبطء وهى تقيس وتحسب وتتهيا للقص • ان جميع تلك الوجوه الأنيسة

التي تجني كثيرا قد أصبحت لا أستطيع الاقتراب منها على حين فجأة • وإذا ارتكبت أى عمل من أعمال العفرتة التي يقوم بها الأطفال ، طردت على الفور • حتى أمى المسكينة تمسكنى من يدي وتكف عن الاستجابة لصراخى وتبرمى لكنها كلها أعين وآذان أمام الشغل الذي هى منصرفة اليه ، فكأنها تتأمل طائراً من الجنة • فتلك القسوة فى الوجوه الذكية ، وتلك الرصانة فى الهيئة قبل القص ، لا تزال تؤلنى الى الآن حين أفكر فيها • تاتيانا بافلوفنا ، انك تحبين الحياطة حباً شديداً ! أما أنا فأنتى أوتر للمرأة أن لا تعمل شيئاً البتة ، مهما يكن هذا ارسقراطياً • لا يذهبن بك الظن الى أنتى أعنيك أنت يا صوفيا ••• ولكن علام العمل ؟ ليست المرأة فى حاجة الى العمل من أجل أن تكون قوة كبرى • ثم انك يا صوفيا تعرفين هذا أيضاً • ما رأيك يا آركادى ماكاروفتش ؟ لا شك فى أنك ستعترض ، أليس كذلك ؟

أجبت قائلاً :

— لا ، أبداً • هذا تعبير رائع : المرأة قوة كبرى • ولكننى لا أرى لماذا تربط بين هذا الأمر وبين الأشغال التي تقوم بها السيدات ! ثم انك تعرف بنفسك أنه يستحيل على المرء أن يعيش بدون عمل اذا كان لا يملك مالاً •

— كفى الآن !

قل هذا والتفت الى أمى التي كانت مشرقة الوجه أيما اشراق ، على حين أنها ارتعدت حين اتجه الى بالكلام •

واصل كلامه فقال :

— فى الآونة الأولى على الأقل ، لا أريد أن أرى شغلاً هذا ! لنفسى انما أطلب منكم هذا • أما أنت يا آركادى ، فلا بد أن تكون اشتراكياً بعض الشيء ، من حيث أنك شاب من هذا العصر • ولكن هل تصدق

يا صديقي أن الذين يحبون الفراغ أكثر من سائر الناس انما هم أبناء الشعب هؤلاء ، أبناء هذا الشعب الذي لا يكف عن العمل •

— لعلمهم يحبون الراحة ، لا الفراغ

— بل الفراغ ، الكسل المطلق ، ذلك هو مثلهم الأعلى ! لقد عرفت واحداً من هؤلاء الذين لا يكفون عن العمل ، ولم يكن من أبناء الشعب على كل حال ، وكان رجلاً مثقفاً يحسن التفكير • فصدفتني اذا قلت لك انه كان يحلم بالفراغ الكامل والبطالة التامة كل يوم تقريباً ، ويجد في هذا الحلم لذة عظيمة ومتعة كبيرة • حتى لقد كان يمضي بهذا المثل الأعلى الى تخوم المطلق ان صبح التمييز ، الى الاستقلال الذي لا حدود له ، الى الحرية المستمرة في الانقياد للحلم والتأمل خالياً من كل عمل • وقد لازمه هذا الى اليوم الذي تحطم فيه تحطماً من العمل ، حتى صار يستحيل على أحد أن يقفه ثانية على قدميه ، ومات في المستشفى • فاستخلصت من ذلك جاداً كل الجد أن فكرة مباحج العمل انما اخترعها أناس عاطلون عن العمل ، أناس فضلاء طبعاً • هذه فكرة من « افكار جنيف » في نهاية القرن الماضي • آ • • • تاتيانا ايفانوفنا ، لقد قصصت من الجريدة أمس الأول اعلاناً • اليك الاعلان • •

قال ذلك مخاطباً تاتيانا بافلوفنا وأخرج من جيب صدирته قطعة من ورق • وتابع كلامه فقال :

— هذا واحد من أولئك « الطلبة » الأبديين الذين يعرفون اللغات القديمة والرياضيات ويعلنون عن استعدادهم للسفر الى الأرياف ، للذهاب الى شونة ، للرحيل الى أى مكان • اسمعوا هذا الكلام : « معلمة تحضر التلاميذ لدخول جميع مؤسسات التعليم (هل تسمعون ؟ جميع مؤسسات التعليم) ، وتمطى دروساً في الحساب » • هو سطر واحد ، لكنه كلاسيكى • انها تحضر لجميع مؤسسات التعليم : يبدو للمرء أن الحساب داخل في هذا • ولكن لا • انها تذكر الحساب على حدة • ذلك هو الجوع

حقاً ، تلك هي آخر درجة من درجات البؤس . ان هذه الحرقاة هي التي تؤثر في نفسى : طبعاً ، هي لم تكن معلمة في يوم من الأيام ، وهي عاجزة عن تعليم أى شيء . ولكن لا سبيل : يجب أن تحمل الى الجريدة آخر روبل تملكه ، وأن تعلن أنها تحضر لجميع مؤسسات التعليم ، وأنها عدا ذلك تعطى دروساً في الحساب . « في العالم كله وفي أماكن أخرى » (بالايطالية) .

هتفت تاتيانا بافلوفنا تقول :

— آندره بتروفتش ، يجب أن تساعدنا . أين تقيم ؟

— هو ! ما أكثرهم !

ودس العنوان ثانية في جيبه . ثم استأنف كلامه فقال :

— في هذه الصرة هدايا لك يا ليزا ، ولك أنت يا تاتيانا بافلوفنا . أنا وصوفيا لا نحب الحلويات . ولك أنت أيضاً يا فتى ! اخترت كل شيء بنفسى من عند ايلسياف و باليه . لقد طالما «متاً جوعاً» ، كما تقول لوكيريا (ملاحظة : لم يمت أحد من الجوع عندنا في يوم من الأيام) . هنا غناب وسكاكر و تفاح وفطيرة بالفراولة . بل لقد اشتريت خمرة رائعة . واشتريت بندقاً كذلك . غريب بقاء ولعى بالبندق من الطفولة حتى الآن يا تاتيانا بافلوفنا . وليزا مثلى . هي أيضاً تحب قضم البندق حباً شديداً كسنباج صغير . ذكريات لذيذة يا تاتيانا بافلوفنا : اننى أرى نفسى في بعض الأحيان طفلاً أتجول في الغابة وأقطف بندقاً . الفصل يوشك أن يكون خريفاً ، ولكن الأيام مضيئة ، والجو بارد أحياناً ، وأوغل في أعماق الغابة ، وأطوف في أبعد أرجائها ، وأتسم رائحة أوراق الشجر العطرة . اننى أرى في نظرتك شيئاً لطيفاً محبباً يا أركادى ماكاروفتش !

— أنا أيضاً قضيت في الريف أولى سننى طفولتى .

— كيف ؟ يخيّل الى عكس ذلك... يخيّل الى أنك عشت بموسكو،
اللهم الا أن أكون مخطئاً .

فقلت تاتيانا بافلوفنا مؤيدة :

— عند آل آندرونيكوف ، كان يعيش بموسكو ، حين وصلت
أنت اليها . لكنه قبل ذلك كان عند المرحومة عمك بربارا ستيبانوفنا
فى الريف .

— خذى يا صوفيا ، اليك هذا المال ، أمسكه ! لقد وعدت بخمسة
آلاف فى غضون بضعة أيام .

— ألم يبق للأمرء أى أمل ؟

— إطلاقاً يا تاتيانا بافلوفنا .

— لقد أحييتك دائماً يا آندره بتروفتش ، وأحييت جميع ذويك ؛
كنت صديقة الأسرة دائماً . ولكنى مهما أكن غريبة عن الأمراء ومهما
يكونوا غرباء عني ، أظل أشفق عليهم . أحلف لك . لا تزعل يا آندره
بتروفتش !

— لا أتوى أن أقاسمهم يا تاتيانا بافلوفنا .

— أنت تعرف رأيى يا آندره بتروفتش . لقد كان يمكن أن يتنازلوا
عن الدعوى لو أنك عرضت عليك الاقتسام منذ البداية . أما الآن فقد
فات الأوان طبعاً . وما أقوله أنا انما أبنيه على اعتقادي بأن المتوفى ما كان
يمكن أن ينسأهم فى وصيته .

— ما كان يمكن أن ينسأهم طبعاً ، بل أذهب الى أبعد من ذلك
فأقول ما كان يمكن الا أن يورثهم كل شيء . ما كان يمكن أن ينسى
أحداً الا أنا لو أنه طبق القواعد وحرر الوصية كما يجب . ولكن القانون
معى الآن . انتهى الأمر . فلا أستطيع أن أقاسم ، ولا أريد أن أقاسم يا تاتيانا
بافلوفنا . لقد 'بت' فى القضية .

قال هذه الكلمات فى غضب وضيق ، وذلك شىء كان يندر أن يبيحه
لنفسه • فصمتت تاتيانا بأفلوفنا • وخفضت أُمى عينها على شىء من الحزن:
كان فرسيلوف يعلم أنها تؤيد كلام تاتيانا بأفلوفنا •

حدثت نفسى قائلاً لها : « هذه صفقة مدنية امس » • وفكرت أيضاً فى
الوثيقة التى أسلمنى إياها كرافت والتى كانت معنى فى جيبي ، وفكرت
فى المصير القاسى الذى ستؤول إليه لو وقعت فى يديه • وأحسست فجأة
بأننى ما زلت أحمل هذه القضية كلها على ظهري • فكان من شأن هذا
الاحساس ، بالإضافة الى سائر ما عداه ، أن أشعل نيران غضبى •

— آر كادى ، أريد أن تكون ملابسك أحسن مما هى الآن يا صديقى •
ما هى الآن رديئة طبعاً • ولكن لعلك ستسمح لى فى المستقبل أن أوصى
بك خياطاً فرنسياً حاذقاً صاحب ذوق رفيع •
فانبريت أقول بخشونة :

— أطلب منك أن لا تعرض علىّ عرضاً كهذا فى يوم من الأيام •
لماذا ؟

— لست أرى فى هذا شيئاً من المذلة طبعاً ، ولكننا لسنا على وفاق
تام ، بل لعلنا على خلاف شديد • وفى الأيام القريبة ••• بل غداً •••
سأقطع عن الذهاب الى الأمير ، لأننى لا أرى أن لى عنده عملاً أقوم به •
— ولكن ••• أليس عملاً أن ترافقه فى نزهة أو أن تمكث الى
جانبه ؟

— هذه أفكار فيها اذلال •

— لست أفهم • ثم ، اذا كنت حساساً الى هذا الحد ، فما عليك الا
أن لا تأخذ منه مالا ، مع استمرارك فى البقاء معه • لسوف تعززه حزناً
شديداً اذا انقطعت عنه • انه متعلق بك تعلقاً قويا منذ الآن • صدقنى! •••
على كل حال ، لك ما تشاء •••

كان واضحاً أنه مستاء •

تقول ان فى امكانى أن لا آخذ منه مالا • ولكننى فى هذا اليوم ارتكبت بسببك عملاً دينياً : لم تكن قد نهيتنى فطالبتك اليوم بمرتب الشهر •

— معنى هذا أنك أردت ذلك • أعترف لك بأننى لم أكن أظن أنك ستفعل • آ • • • ما أحذقكم جميعاً فى هذا الزمان رغم كل شيء • لم يبق شباب يا تاتيانا بافلوفنا •

كان شديد المرارة ، وكنت أنا كذلك • قلت :
— كان على أن أصفى حسابى معك • • • أنت الذى اضطررتنى •
والآن لا أدري ماذا أعمل •

— بالمناسبة يا صوفيا : ردى الستين روبلاً الى آرКАДى على الفور •
وأنت يا صديقى لا تغضب من هذا السداد السريع • انتى أحزر من النظر فى وجهك أن فى رأسك مشروعا ما ، وأنت فى حاجة الى رأس مال • • أو شيء من هذا القليل •

— لا أدري عمَّ يعبر وجهى ، ولكننى لم أكن أتوقع أن تحدثك أمى عن ذلك المبلغ بعد أن رجوتها أن لا تفعل •

ونظرت الى أمى ، وكانت عينى تقدحان شرراً • لا أستطيع أن أصف مدى ما كان يضطرم فى نفسى من غضب •

— آركَاشا ، بنى • سامحنى ، ناشدتك الله • لم أستطع أن أمنع نفسى من أن أحكى له • •

وقال فرسيلوف متجهاً الى :

— لا تؤاخذها يا صديقى على أنها كشفت لى عن أسرارك • ثم ان نيتها كانت حسنة : لقد أرادت الأم أن تباهى بعواطف ابنها • ولكن

صدقني اذا قلت لك انني كنت أستطيع أن أحزر أنك رأساً على بدون أن
تحكى لي أمك شيئاً • ان جميع أسرارك مكتوبة على وجهك النزيه •
ان له « فكرته » يا تاتيانا بافلوفنا ، كما سبق أن قلت لك ذلك •
أتممت كلامي ساخطاً أقول :

— دع وجهي النزيه • انني أعرف أنك تقرأ أفكار الناس في كثير
من الأحيان ، رغم أنك في حالات أخرى لاترى ما هو أبعد من طرف
أنفك • لقد أدهشني نفاذ بصيرتك دائماً • طيب ، ليكن • ان لي
« فكرتي » • واضح أنك انما استعملت هذا التعبير مصادفة ، ولكنني
لا أخشى من الاعتراف بأن لي « فكرتي » • نعم ، لي « فكرتي » • لست
أشعر من ذلك لا بخوف ولا بخجل •

— لا تشعر بخجل خاصة !

— ومع ذلك لن أكشف لك عن « فكرتي » هذه في يوم
من الأيام •

— معنى هذا أنك لا تعدني جديراً بأن تكشف لي عنها • ولكن
لا جدوى يا صديقي ! انني أعرف جوهر فكرتك منذ الآن • هي على
كل حال :

« انسحب الى الصحراء »

يا تاتيانا بافلوفنا ، ان رأيي أنا هو أنه يريد أن يصبح روتشيلد ،
أو شيئاً من هذا القليل ، وأن يمضي معتصماً بعظمته • ولسوف يمن علينا
أنا وأنت بمرتب يكفل لنا معيشتنا • قد لا يهب لي أنا شيئاً ، ولكن من
المحقق أنه سيمر بنا كما يمر شهاب • سيكون كالقمر الطالع : ما ان
يظهر حتى يختفي •

ارتعشت في قرارة نفسي • لاشك أن هذا مصادفة • انه لا يعرف
شيئاً ، وهو يتكلم عن شيء آخر تماماً ، رغم أنه ذكر اسم روتشيلد •

ولكن كيف استطاع أن يحدد عواطفى هذا التحديد الدقيق كله : أنفصل عنهم ، وأنزوى ؟ لقد حزر كل شيء • وهو يريد أن يلطخ بسخريته ما فى الأمر من عنصر المأساة • لقد كان غاضباً غاضباً شديداً • ليس فى ذلك شك •

قلت وأنا أحاول أن أضحك وأن أقلب كل شيء الى مزاح :
- اغفرى لى ما أظهرت من اندفاع وغضب منذ قليل يا ماما •
واضح أن آندره بتروفش قد أوتى موهبة النفاذ الى أسرار الناس ،
فلا حيلة لنا فى الأمر ، ولا نستطيع أن نخفى عنه أنفسنا •

- أحسن شيء يا عزيزى أنك ضحكت • لا تستطيع أن تصور مدى ما تسببه ضحكة جميلة على المرء من سحر وفتنة ، حتى من الناحية الجنسية • أقول هذا جاداً كل الجد يا تاتيانا بافلوفنا ، ان هيئته تتم دائماً عن أن فى رأسه أمراً يبلغ من الخطورة أنه يشعر هو نفسه بخجل منه •
- أرجوك جاداً يا آندره بتروفش أن تكون أكثر تحفظاً •

- انك على حق يا صديقى • ولكن كان لابد لى أن أقول هذا مرة حتى انتهى منه ولا أعود اليه • انك لم ترجع من موسكو الا لتور • ذلك ما نعلمه حتى الآن عن سبب مجيئك • وأما أنك جئت متتوياً أن تدهشنا بعمل يبهز الأبصار ، فذلك أمتنع حتى عن الإشارة اليه ، لأنه أمر طبيعى جداً • ثم انك منذ أن وصلت قبل شهر لا تكف عن الاستهزاء بنا والسخرية منا • وأنت مع ذلك رجل ذكى ، ففى وسعك أن تدع هذا الضحك وهذا التهكم لأولئك الذين لا يملكون الا هذه الوسيلة انتقاماً لتفاهتهم • انك مغلق دائماً ، مع أن مظهرك لائق وخديك المتوردتين تشهدان بأن فى وسعك أن تنظر الى جميع الناس وجهاً لوجه ببراءة تامة • انه سوادوى يا تاتيانا بافلوفنا • لا أستطيع أن أفهم لماذا هم جميعاً سوداويون فى هذا الزمان !

- اذا كنت تجهل حتى أين نشأت وريت ، فأنتى لك أن تعرف
لماذا أنا سوداوى ؟

- ذلك هو السر كله : أنت غاضب لأننى نسيت أين نشأت
وريت !

- لا ، أبداً . لا تنسب الى حماقة كهذه الحماسة . يا ماما ، ان
آندره بتروفتش قد هنأتى منذ لحظة بأننى ضحكت . فلنضحك اذن .
علام نبقى متجهمين هذا التجهم ؟ هل تحبون أن أقص عليكم حكايات
مضحكة عنى ؟ لاسيما وأن آندره بتروفتش لا يعرف شيئاً عن مغامرات
حياتى ؟

كنت أغلى وأفور . كنت أعلم أننا لن نلتقى بعد الآن جميعاً كما
نلتقى اليوم ، وأنتى متى خرجت من هذا المنزل فلن أعود اليه أبداً .
لذلك لم أستطع فى عشية ذلك كله أن أضبط نفسى . وقد حرص هو
نفسه على الوصول الى هذه النتيجة . قال وهو يلقى على نظرة ثاقبة :

- هذا لطيف ممتع ، بشرط أن يكون مضحكاً حقاً ! لقد توحشت
قليلاً يا صديقى فى ذلك المكان الذى نشأت وريت فيه . على أنك
ما تزال لائقاً رغم كل شيء . انه اليوم فاتن يا تاتيانا بافلوفنا ، ولقد أحسنت
جداً اذ فضضت هذه الصرة .

ولكن تاتيانا بافلوفنا قطبت حاجبيها ، حتى انها لم تلتفت واستمرت
تفص الصرة وترتب الهدايا فى أطباق . وبقيت أمى حائرة مضطربة ،
وكانت تدرك وتوجس أن الأمور تجرى مجرى سيئاً . ومرة أخرى
لكزتنى أختى بكوعها .

بدأت أتكلّم بهيئة طليقة فقلت :

- أريد أن أحكى لكم ببساطة كيف لقي أب ابنه العزيز أول مرة •
وقد حدث هذا فى ذلك المكان نفسه « الذى نشأت وربيت فيه » •
- ولكن ألا ترى يا صاحبى أن هذا سيكون مملاًّ باعثاً على
الضجر ؟ أنت تعلم أن « جميع فنون القصص ... » (بالفرنسية) •
فقاطعت قائلاً :

- لا تقطب حاجيك يا آندره بتروفتش • ليس ما سأحكىه هو
ما تظن •• أبداً ! ان غايتى هى أن أضحككم جميعاً •
فقال بصوت اصطنع له طلاقة كاذبة :

- سسمع الله منك يا عزيزى • أنا أعرف أنك تحبنا جميعاً ،
وأنتك •• لا تريد أن تعكر علينا صفو سهرتنا •
- لاشك أنك من وجهى انما حزرت أثنى أجبكم ؟
- نعم ، من وجهك قليلاً ••

- وأنا حزرت من وجه تاتيانا بافلوفنا ، منذ مدة طويلة ، أنها
مغرمة بى • لا ترشقينى بنظرات قاسية هذه القسوة كلها يا تاتيانا بافلوفنا !
الضحك أفضل ! الضحك أفضل !

فالتفت تاتيانا بافلوفنا الىّ بحركة مباغته ، وتأملتني ببصر نافذ مدة
نصف دقيقة ، ثم قالت وهى تهددنى بإصبعها :
- حذار !

وكانت تبلغ من الجذ في تهديدها أن ذلك لا يمكن أن يكون
مردة الى مزحتي الحمقاء ، وانما هو نوع من الانذار فكأنها تقول :
« أترك تريد أن تبدأ ؟ » •

- آندره بتروفتش ، أنت لا تتذكر اذن كيف التقينا في الحياة
أول مرة ؟

- أحلف لك اننى نسيت ، واستغفرك عن هذا صادقاً • كل
ما أتذكره أن ذلك حدث في زمان بعيد جداً •• ولست أدري الآن أين
تم اللقاء ••

- وأنت يا ماما ، هل تتذكرين متى كنت في الريف ، في القرية
التي ربيت فيها حتى السنة السادسة أو السابعة من عمري ؟ أأقمت في
تلك القرية فعلاً ، أم أنتى في الحلم انما بدا لى أنتى رأيتك هناك أول
مرة ؟ انتى منذ مدة طويلة أحب أن ألقى عليك هذا السؤال ، ولكننى
كنت أراجع دائماً • وقد حان الوقت الآن •

- كيف لا أتذكر يا صغيرى آرКАДى ! طبعاً أتذكر ! لقد جئت
أزور بربارا ستيانوفنا ثلاث مرات ؛ مرة حين كانت سنك لا تكاد تبلغ
عاماً واحداً ؛ ومرة حين كنت فى نحو السنة الرابعة من العمر ؛ ومرة
حين كنت قد تجاوزت العاشرة •

- ها •• نعم ! لقد ظلمت أريد أن ألقى عليك هذا السؤال طول
هذه المدة !

احمرت أنى احمراراً شديداً من سيل الذكريات المبالغ هذا ،
وسألتى بعاطفة حنون :

- هل يمكن حقاً يا صغيرى آركَادى أن تتذكر زيارات أمك بعد
انقضاء هذه المدة كلها ؟

— لا أتذكر شيئاً ، ولا أعرف شيئاً ، غير أنني قد بقي لي من وجهك شيء في قرارة قلبي طول حياتي ، وبقي لي عدا ذلك أنني عرفت أنك أُمي . تلك القرية كلها إنما أراها اليوم كحلم من الأحلام . بربارا ستيانوفنا ، أتذكرها قليلاً لأن خَدَّيها كانتا دائماً معصوبتين . وحول المنزل ما زلت أرى أشجاراً كبيرة أظن أنها كانت أشجار زيزفون ، وأرى في بعض الأيام شمساً قوية تدخل من النوافذ المفتوحة ، وأرى مساكب أزهار وممر أشجار ، وأراك أنت يا ماما ، لكنني لا أراك رؤية واضحة إلا في لحظة واحدة هي لحظة تناول في كنيسة القرية التي حملتني فيها بين ذراعيك لأتناول القربان وأقبل الكأس . كان ذلك في الصيف ، واجتازت القبة حملته من نافذة إلى أخرى .

قالت أُمي :

— رياه ! ما أصدق هذه الذكريات ! وعقدت أُمي ذراعيها على صدرها . وتابعت تقول :

— انني أتذكرها ، تلك الحمامة . وقد تحركت أنت في لحظة التناول نفسها وصحت تقول : « الحمامة ، الحمامة ! » .

— ان وجهك ، أو شيئاً منه هو تعبير فيه ، قد بلغ من عمق الرسوخ في ذاكرتي أنني منذ خمس سنين عرفتك بموسكو فوراً وعرفت أنك أُمي ، رغم أن أحداً لم يذكر لي ذلك . ثم سحبت من منزل آل أندرونيكوف بعد لقائي الأول بأندره بتروفتش . كنت قد مكثت عندهم زمناً طويلاً في هدوء ومرح ، خمس سنين . انني أتذكر أدق التفاصيل من بيتهم الذي يقع في أحد مباني الدولة ، وأتذكر جميع تلك السيدات والأنسبات اللواتي هرمن اليوم هرماً شديداً ، أتذكر البيت زاخراً ، وأتذكر أندرونيكوف نفسه الذي كان يتولى بنفسه شراء المثونة من المدينة ، وجلب الدواجن والأسماك والخنازير الرضيعة ، وكان ينوب على المائدة مناب زوجته التي تصطحب الكبرياء فيسكب لنا الحساء

بنفسه • وكنا نتندر على هذا دائماً ، وكان هو بيننا أول المتدربين • هناك
انما علمتني الفتيات اللغة الفرنسية ، ولكنني كنت أحب حكايات كرييلوف
خاصة ، فحفظت منها عدداً كبيراً على ظهر القلب ، وكنت أشهد
آندرونيكوف واحدة في كل يوم : كنت أدخل مكتبه الصغير رأساً ، سواء
أكان منهمكاً في عمل أم لا • وبسبب حكاية من تلك الحكايات انما
تعارفنا يا آندره بتروفتش •• أرى أنك بدأت تتذكر •

- حقاً •• أتذكر بعض التذكر يا عزيزي •• ماذا أنشدتني
حينذاك ؟ أحكاية من حكايات كرييلوف أم جزءاً من مسرحية « كثير
من الفكر ضرر » ؟ ما أقوى ذاكرتك على كل حال ! ••

- لا فضل لي في تذكر هذه الأشياء : لقد ظلت ماثلة في فكري
على الدوام •

- عظيم ، عظيم ، يا صديقي ! حديثك يشوقني •

حتى لقد ابتسم • وبعده ابتسمت أمي وأختي • لقد عادت
الطمأنينة ، الا الى تاتيانا بافلوفنا التي كانت جالسة في ركن بعد أن
رتبت الهدايا على الطاولة ، فقد ظلت ترشقني بنظرة شذراء • وتابعت
كلامي فقلت :

- فاليكم القصة : في ذات صباح ، جاءت صديقة طفولتي ،
تاتيانا بافلوفنا ، التي كانت تنجس في حياتي على حين غرة دائماً ، جاءت
تأخذني من عند آل آندرونيكوف • أركبوني عربة ، وأودعوني في
منزل فخم من منازل الأسياد • كنت قد نزلت عند فاناريوتوفا يا آندره
بتروفتش ، في المنزل الذي كان خالياً حينذاك ، وكانت قد اشترته منك
في الماضي • كانت هي مسافرة في الخارج • وكنت ما أزال ألبس
بلوزات • فألبسوني هناك رداء لطيفاً أزرق وملابس داخلية ناعمة
رقيقة ، دفعة واحدة • وقضت تاتيانا بافلوفنا النهار كله محتفية بي ،

واشتريت لى أشياء كثيرة جداً • وأخذت أطوف فى الغرف الحالية ، وأنظر الى نفسى فى جميع المرايا • حتى اذا كان صباح الغد ، فى نحو الساعة العاشرة ، بينما كنت ألتجول فى أرجاء البيت ، رأيتى - لا أدرى كيف - أدخل مكتبك مصادفة • وكنت قد رأيتك بالأمس ، لحظة وصولى الى هذا المنزل ، ولكننى لم أرك الا عابراً ، وذلك على السلم • كنت أنت نازلاً لتركب العربى ذاهباً لا أدرى الى أين • كنت فى ذلك الوقت وحيداً بموسكو ، بعد غياب طويل جداً ، وكنت لا تريد أن تمكث الا وقتاً قصيراً ، فكنت تطلب فى كل مكان ، فلا تكاد تبقى فى البيت أبداً • فلما صادفتنا أنا و تاتيانا بافلوفنا ، لم تزد على أن قلت : « ها ! » ، حتى دون أن تتوقف •

قال فرسيلوف مخاطباً تاتيانا بافلوفنا :

- انه يصف الواقعة بحب •

فأشاحت تاتيانا بافلوفنا وجهها دون أن تجيب •

- انى لأصورك الآن كما كنت فى ذلك الحين جميلاً مزدهراً • ما أكثر ما دب اليك الهرم وما نالك من دمامة أثناء هذه السنين التسع ، اغفر لى صراحتى • ولقد كنت آنذاك فى السابعة والثلاثين على كل حال ، ولكننى كنت لا أتعب من النظر اليك • ما كان أجمل شعرك ! كان غزيراً ، أسود ، لامعاً ، لا تخالطه شعرة واحدة بيضاء • أما شارباك وعارضاك فكأنهما من حسن الاتقان قد صنعها صانع جواهر • لا أجد تعبيراً أفضل من هذا التعبير • وكان وجهك شاحباً كائياً ، لا شحوب المرض كشحوبه الآن ، بل • • بل كشحوب وجه ابنتك أنا أندريفنا التى شرفت برؤيتها منذ قليل • وكان فى عينيك حدة وحرارة وحلقة • وكانت أسنانك لامعة ، خاصة حين تضحك • ذلك أنك انفجرت تضحك حين نظرت الى عند دخولى مكتبك • لم أكن أحسن تمييز الأشياء فى ذلك الأوان • فأبهجت ابتسامتك قلبى • كنت ترتدى فى ذلك الصباح سرة

من مخمل كحلي وتثدر بوشاح أخضر ، وتلبس قميصاً مزداناً بتخاريم
من آلانسون • وكنت واقفاً أمام المرأة ، ممسكاً بكتاب في يدك ، منهمكاً
في استظهار وانشاد أقوال تشاتسكي ، ولا سيما صيحته الأخيرة :

عربتي ، عربتي

هتف فرسيلوف يقول :

ـ آ • ما أصدق ما يذكر ! كنت قد رضيت ، رغم قصر اقامتي
بموسكو ، أن أمثل دور تشاتسكي عند ألكسندرا بتروفنا فيتوفتوفا ، على
مسرحها الخاص ، بسبب مرض ييلايكو •

هتف تاتيانا بافلوفنا تسأله :

ـ ماذا ؟ أنسيت اذن ؟

ـ لقد ذكرّني • الواقع أن تلك الإقامة القصيرة بموسكو لعلها
كانت أجمل أيام حياتي ! كنا جميعاً في عز الشباب آنذاك •• كنا نتنظر
كل شيء بحرارة شديدة • وقد التقيت في موسكو عندئذ بعدد كبير
من •• ولكن أكمل يا عزيزي ، أكمل ، لقد أحسنت ايما احسان هذه
المرة اذ دخلت في التفاصيل ••

ـ وكنت واقفاً أنظر اليك • فإذا أنا أصبح فجأة : « آ ••• رائع !
هذا هو تشاتسكي الحقيقي » ، فسرعان ما التفتّ وسألتني : « أأنت تعرف
تشاتسكي ؟ » ثم جلست على الديوان ، وأقبلت على قهوتك رائق المزاج
جذلاً أشد الجذل • فذكرت لك حينذاك أن الجميع في منزل آل
آندرونيكوف يقرأون كثيراً ، وأن الآسات يحفظن شعراً كثيراً على ظهر
القلب ، وأنهن يمثلن فيما بينهن مشاهد من مسرحيات جزيبيدوف ، وأنا
طوال الأسبوع الماضي كنا نقرأ معاً في المساء بصوت عال « أقاصيص
صياد » ، وأنتي أحب خاصة حكايات كريلوف وأحفظها على ظهر القلب ،
فدعوتني أن أشدك شيئاً ، فأنشدتك على حكايته « الخطية الصعبة » :

خطيبة تحلم في خطيبها

فهمت فرسيلوف من جديد :

- نعم ، نعم ، الآن تذكرت كل شيء ! ولكنني أتذكرك أنت أيضاً
يا صاحبي . كنت في ذلك الحين فتى لطيفاً ظريفاً ، كنت فتى صغيراً
لذيذاً . يميناً لقد فقدت كثيراً أثناء هذه السنين التسع .

عندئذ ضحكت تاتيانا بافلوفنا نفسها . لقد كان واضحاً أن أندره
بتروفتش كان يمزح ويشأر لنفسه مما قلته له أنا . وابتهج الجميع . لقد
أحسن الرد على الغمز بمثله . وتابعت أنا سرد ذكرياتي فقلت :

- وفيما كنت أنا أنشد كنت أنت تبسم . ولكن ان أنشدت نصف
الحكاية حتى استوقفتني وقرعت الجرس وأمرت الخادم الذي دخل في تلك
اللحظة بأن يدعو تاتيانا بافلوفنا . فسرعان ما جاءت تاتيانا بافلوفنا وقد
بلغت هيئتها من التعبير عن شدة الفرح أنني بعد أن كنت رأيته بالأمس لم
أكد أتعرفها اليوم . وبحضور تاتيانا بافلوفنا أعدت انشاد « الخطيبة الصعبة » ،
ونجحت في انشادها نجاحاً باهراً . فابتسمت لي تاتيانا بافلوفنا ، حتى انك
انت يا أندره بتروفتش قد هتفت تقول لي : « مرحى ! » . وأضفت
تقول بحرارة : « ان انشاد حكاية « الزيز والنملة » انشاداً حسناً أمر
يستطيعه كل فتى ذكي في سني . فلا يستغرب المرء حسن انشاده ، أما
انشاد حكاية « الخطيبة الصعبة » فشأنه شأن آخر : خطيبة تحلم في
خطيبها ... لا اثم في هذا ولا تثريب ... اسمعي كيف يشد هذا
الشطر : « لا اثم في هذا ولا تثريب ! » . الخلاصة أنك تحمست كثيراً .
وقد أخذت تكلم تاتيانا بافلوفنا عندئذ باللغة الفرنسية . فسرعان ما قطبت
حاجبيها وأخذت تواجهك باعراضات ، حتى لقد كانت تبدى اعتراضاتها
بحرارة شديدة . ولكن لما كان يستحيل على أحد أن يعارض أندره
بروفتش اذا هو أراد شيئاً ، فقد أسرع تاتيانا بافلوفنا تقطعني الى بيتها .
وهناك غسل وجهي ويدي مرة أخرى ، وغُيرت ملابسي الداخلية

ودُهنّت بالعطر ، حتى لقد جُعِدَ لى شعرى • حتى اذا جاء المساء ارتدت تاتيانا بافلوفنا هى نفسها ثياباً فضمة ، ثياباً أفخم مما كان يمكن أن أظن ، وركبنا عربة ، وأخذت لأول مرة فى حياتى الى المسرح ، فشهدت عرضاً قام به هواة عند فيتوفتوفا : شموع ، تماثيل ، سيدات ، عسكريون ، جنرالات • آتسات ، الستارة ، صفوف الكراسى ، النخ ••• تلك كلها أشياء لم يسبق أن رأيت مثلها فى حياتى • وقد اختارت تاتيانا بافلوفنا مكاناً متواضعاً فى صف من الصفوف الأخيرة وأجلستنى بقربها • وكان هناك أطفال غيرى طبعاً ، ولكننى كنت لا أنظر الى شىء ، وانما انتظر بدء التمثيل خافق القلب • حتى اذا ظهرت انت على المسرح يا أندره بتروفتش ، بلغت أنا من الحماسة حداً سالت معه دموعى • لا أدرى لماذا يا أندره بتروفتش • لماذا دموع الحماسة تلك ؟ ذلك أمر ظل يبدو لى غريباً كلما تذكرته خلال هذه السنين التسع ! وأخذت أتابع المسرحية منهار القلب • كل ما فهمته طبعاً هو « أنها » خاتته ، وأن أناساً أغنياء لا يستحقون حتى أن يلمسوا أصبعاً فى قدمها كانوا يسخرون منه • وحين كان يخطب فى حفلة الرقص كنت ادرك أنه رجلٌ أذل وأهين ، وأنه يقرّع جميع أولئك الأفراد ، ولكنه رجل كبير ، كبير جداً • لا شك أن ما كنت قد تعلمته عند آل آندرونيكوف ساعدنى على الفهم ، ولكن تمثيلك ساعدنى أيضاً يا أندره بتروفتش • كنت أرى مسرحاً لأول مرة ! وفى لحظة الانصراف ، حين صرخ تشاتسكى نادياً : « عربتى ، عربتى ! » (ولقد صرخت صرخة مدهشة !) وثبتت عن كرسيى وطفقت أصفق مع كل من كانوا فى الصالة ، وصحت أقول بكل ما أملك من قوة : مرحى !

أتذكر أيضاً أننى أحسست فى تلك اللحظة نفسها بما يشبه أن يكون وخزة دبوس « تحت الظهر قليلاً » • ان تاتيانا بافلوفنا هى التى قرصتني غاضبة غصباً شديداً ، ولكننى لم أول ذلك انتباهاً ! حتى اذا انتهى التمثيل قادتنى تاتيانا بافلوفنا الى البيت ، قائلة لى : « لا يمكن أن تبقى

فنهضر حفلة الرقص ، رغم اننى سأحرم بسبيك من حضورها ، ، وقد ظلت تؤنسينى طول الطريق يا تاتيانا بافلوفنا ونحن فى العربى • وهذيت أنا الى آخر الليل • وفى الساعة العاشرة من الغد وجدتتى أفق أمام مكتبك • ولكن الباب كان مغلقا : كنت تستقبل بعض الناس ، و تعالج بعض الأعمال • ثم غبت فجأة طول النهار ولم تعد الا فى الليل ، فلم أرك بعد ذلك أبداً ! أما ما الذى كنت أريد أن أقوله لك ، فقد نسيته ، بل كنت لا أعرفه حتى فى ذلك الوقت ، ولكننى كنت احترق شوقاً الى رؤيتك فى اسرع وقت • لقد سافرت فى صباح غد منذ الساعة الثامنة الى سربوخوف : كنت قد بعث أرضك فى تولا منذ مدة قصيرة لترد الى دائيتك ديونهم ، أو لترضيهم بدفع جزء منها على الأقل ، ولكن كانت قد بقيت لك من أرضك قطعة لا بأس بها ، ومن أجل ذلك انما جئت عندئذ الى موسكو التى كنت لا تستطيع أن تظهر فيها حتى ذلك الحين خوفاً من أولئك الدائنين وكان ذلك الرجل الفظ الغليظ سربو خوف هو الوحيد بين سائر الدائنين الذى لم يرض أن يقبض نصف الدين بدلاً عن تمامه • ولم ترض تاتيانا بافلوفنا حتى أن تجيب عن أسئلتى ، وكانت لا تزيد على أن تقول لى : « اطمئن • سأذهب بك بعد غد الى مدرسة داخلية • حَضِر نفسك • خذ دفاترك • رتب كتبك • وتعلم كيف ترتب حقيقتك بنفسك • انك لم تخلق لتعيش عيشة أمير يا سيد » ، الخ الخ • أكثر ما صدعت أذنى بهذا الكلام فى تلك الأيام الثلاثة يا تاتيانا بافلوفنا ! واقتدتنى فعلاً الى مدرسة توشار الداخلية ، أنا الفر البرىء ، أنا المغمرم بك يا أندره بتروفتش • صحيح أن ذلك اللقاء لم يكن الا مصادفة شاذة ، ولكن صدقنى اذا قلت لك اننى بعد ستة أشهر كنت ما أزال أريد أن أهرب من عند توشار وأن أذهب اليك •

قال فرسيلوف موقفاً كلامه :

— لقد قصصت فأبدعت ، فأيقظت جميع ذكرياتى ! غير أن ما يخطف

اتباهي خاصة فيما قصصته انما هو غناء بعض التفاصيل الغريبة ، فيما يتعلق بدیونی مثلاً • فمن أين عرفت هذه التفاصيل ، ناهيك عن انها غير لائقة ؟

— هذه التفاصيل ؟ من أين عرفتھا ؟ اننى أعود فأكرر لك اننى خلال هذه السنين التسع لم يشغلنى شئ كما شغلنى الاهتمام بجمع تفاصيل عنك •

— اعتراف عجيب ، وشاغل عجيب !

وأدار لى ظهره ، مضطجعا على مقعده نصف اضطجاع ، وفتح فمه بتأؤب خفيف لا أدري أهو تعمدہ تعمداً أم لا •

— هل تريد أن أحكى لكم كيف أردت أن أهرب من عند توشار ؟

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول :

— امنعه يا آندره بتروفتش ! اردعه ! اطرده من هنا !

فأجابها فرسيلوف بجذ :

— لا يا تاتيانا بافلوفنا ! لا شك أن فى ذهن آركادى مشروعاً • فيجب

أن تتيح له اكمال كلامه قطعاً • فليستمر ! ليقصص ما يريد أن يقصه فتخلص ! وذلك هو كل ما يرغب فيه على كل حال ••• أن يتخلص الى الأبد • هيا يا عزيزى ، ابدأ قصتك الجديدة • وأنا انما أصفها بأنها جديدة من باب التجوز ، لأننى أعرف نهايتها منذ الآن ، ثقی بهذا •

٤

- أردت أن أفر من المدرسة هارباً اليكم ، الأمر بسيط • ثانيًا
بافلونا ، تذكرين أن توشار ، بعد دخولي المدرسة بخمسة عشر يوماً ،
بعث اليك برسالة • لا ؟ لقد أطلعتني ماريا ايفانوفنا على هذه الرسالة
فيما بعد ، وكانت بين أوراق أندرونيكوف أيضاً • لقد ارتأى توشار
فجأة أن المبلغ الذي كان قد طلبه ضئيل جداً ، فكتب يقول لك « بوقار ،
انه يربى في مدرسته الداخلية أمراء وأولاد أعضاء في مجلس الشيوخ ،
ويرى أنه لا يليق بمؤسسته أن تحتفظ بتلميذ أصله كأصلي ، اللهم الا
أن يدفع له أجر اضافي •

- « يا عزيزى » ، فى وسعك أن ...

فقاطعها قائلاً :

- ليس هذا بشيء ذى بال : لكننى أريد أن أقول كلمة عن
توشار • لقد أجبتّه من الريف يا ثانيًا بافلونا ، بعد خمسة عشر يوماً ،
بأنك ترفضين طلبه رفضاً قاطعاً • اتنى ما زلت أراه فى خيالى داخلاً على
الصف وقد احمر وجهه احمراراً شديداً • انه فرمى قصير القامة مدور
الجسم ، فى نحو الخامسة والأربعين من العمر ، جاء من باريس رأساً فى
الواقع ، وكان من قبل اسكافياً ، ولكنه استقر بموسكو منذ زمن بعيد
مدرساً للغة الفرنسية يحمل لقب أستاذ ، بل يحمل كذلك رتباً كان يعتز
بها أعظم الاعتزاز • هو رجل جاهل فظ حقاً • ولقد كنا فى مدرسته
الداخلية ستة لا أكثر • وكان بين هؤلاء التلاميذ واحد هو ابن اخت عضو
فى مجلس الشيوخ من موسكو • وكنا نعيش فى مدرسته عيشة أسرة ،
تحت اشراف زوجته فى أكثر الأحيان ، وهى امرأة متكلفة متصنعة كانت

ابنة موظف روسي لا 'يعرف من هو • وكنت في خلال تلك الأيام الخمس عشرة أتكبر على رفاقي تكبراً شديداً ، واتباهي بسترتي الزرقاء وأعزز بأبي آندره بتروفتش ، فاذا سألوني لماذا أسمى دولجوروكي ولا أسمى فرسيلوف ، لم اضطرب من السؤال البتة ، لأنني كنت أجهل أنا نفسي سبب ذلك •

صرخت تاتيانا بافلوفنا تقول بلهجة فيها ما يشبه التهديد :

— آندره بتروفتش !

ولا كذلك أمي ، فكانت تصغي الى كلامي لا تغيب عنها منه كلمة واحدة ، وترغب رغبة واضحة في اتمامه •

قال فرسيلوف من بين أسنانه :

— انني ... أتذكر توشار « هذا » فعلاً • وكان قد 'زكّى لي كثيراً ...

واصلت حديثي قائلاً :

— دخل توشار « هذا » حاملاً الرسالة بيده ، وتقدم من الطاولة المصنوعة من خشب السنديان ، التي كنا نحن الستة جالسين اليها منهمكين في تعلم درس نسيت الآن ما هو ، فأمسك كفتي امساکاً قوياً ، وأنهضني ، وأمرني بأن آخذ دفاتري ، قائلاً لي « مكانك ليس هنا » • ودلني على غريفة صغيرة تقع على يسار حجرة المدخل ، وتوجد فيها طاولة حقيرة مع كرسي من خيزران وديوان مغطى بقماش مشمع ، تماماً كالغريفة التي أعيش فيها الآن تحت السقف • فذهبت الى هناك مدهوشاً ومحمراً احمراراً شديداً • اتيت لم أعمل قبل اليوم بمثل هذه الغلظة والفظاظة • وبعد نصف ساعة ، حين غادر توشار الصف ، مضيت أبادل رفاقي النظرات والضحك • وكانوا هم يضحكون عليّ ساخرين ، ولكني أنا لم يخطر

بإلى شىء من ذلك ، وظننت أننا نضحك معاً لما يمسلاً نفوسنا من فرح وجذل . وفى تلك اللحظة انبجس توشار . فأمسك خصلة من شعري ، وجرنى الى خارج الصف قائلاً لى : « اياك أن تخالط بعد اليوم هؤلاء الأولاد الذين يتمون الى أسر كريمة . انك أنت حقير المنبت . ما أنت الا نوع من خادم ! » . ولطم خدى المدورة الحمراء لطمة آلمتى ايلاماً شديداً . وأعجبته اللطمة فكررها ثانية فثالثة . فلبثت ساعة كاملة أبكى بكاء شديداً وقد دفنت رأسى فى يدى . لا بد أن شيئاً لا أتوصل الى ادراكه قد حدث . لم أفهم كيف يستطيع انسان غير شرير مثل توشار ، وهو رجل أجنبى ، حتى انه كان يتهيج أعظم الابتهاج لتحرير الفلاحين الروس ، كيف يستطيع أن يضرب طفلاً ساذجاً مثلى . الحق اننى فى قرارة نفسى كنت مندهشاً لا أكثر . لم أشعر بأننى أهنت . كنت لا أحس بعد بأننى أهان . خيل الى أننى قد ارتكبت غلطة من الغلطات ، وأننى بعد هذا القصص سؤفقر لى كل شىء ، فنغدو جميعاً مرحين من جديد ، ونمضى نلعب فى فناء المدرسة ، ونستأنف حياة حلوة .

قال فرسيلوف وهو يتسم ابتسامة فيها اهمال انسان اعتراه السأم :

— ليتنى عرفت هذه الأمور يا صاحبنى . . . ان توشار هذا رجل وغد حقاً ! على كل حال ، أنا لم أفقد أمل فى أن تسترد شجاعتك ، فتغفر لنا أخيراً جميع هذه الأشياء ونستأنف حياة سليمة .

وأتبع ذلك بشاؤب قوى . فهتفت أقول محتاراً :

— ولكننى لا أتهم أحداً ، لا أتهم أحداً قط ، بل لا اشتكى حتى من توشار . ثم انه لم يضربنى الا مدة شهرين . أذكر أننى كنت أريد دائماً أن أهدي غضبه ، فكنت ارتمى على يديه لأقبلهما ، وكنت أقبلهما ذارفاً كل ما فى عيني من دموع . وكان رفاقى يسخرون منى ويحقروننى لأن توشار كان يستعملنى فى بعض الأحيان خادماً ، فأمرنى أن أجيئه

بملاسه حين كان يرتدى ثيابه • وهنا سُحِذت صفات الخادم فى نفسى
 بالعزيزة ، فكنت أبذل كل ما أملك من طاقة لارضائه ، دون أن أشعر
 بأى شئ من المهانة ، لأننى كنت لا أزال عاجزاً عن فهم الأمر ، بل اننى
 لیدهشنى حتى هذا اليوم كيف لم أدرك أننى كنت دون كافة رفاقى
 كثيراً ، فلا شك أن رفاقى قد شرحوا لى بعض الأمور ، لأننا فى مدرسة
 راقية • على أن توشار قد أصبح فى النهاية لا يلطم خدى بل يضرب
 اليتى • حتى انه بعد ستة أشهر أخذ يلاطفنى من حين الى حين • ولكننى
 كنت واثقاً بأنه لا بد أن يضربنى مرة فى الشهر ، ليدكرنى بأن على أن
 أبقى فى مكاني لا أتجاوزہ • ولم ألبث أن أرجعت الى سائر الأولاد ،
 وسُمح لى بأن ألعب معهم ، ولكن توشار لم يستطع مرة واحدة خلال
 هذه المدة كلها – وهى ستان ونصف سنة – أن ينسى ما بنى وبينهم من
 فرق فى الظروف الاجتماعية • ويغلب على ظنى أنه ان كان لم يفته أن
 يستعملنى خادماً له على الدوام ، ولو بغير مبالغة ، فانما كان يفعل ذلك
 ليدكرنى بما بنى وبين رفاقى من فرق فى الظروف الاجتماعية • ثم
 هربت • أقصد فكرت فى الهروب بعد انقضاء خمسة أشهر على ذنبك
 الشهرين الأولين • لقد كنت بطيئاً فى عزم أمرى على اتخاذ قرار دائماً •
 وكنت حين أرقد فى فراشى وأخفى نفسى تحت غطائى ، لا ألبث أن أحلم
 بك فوراً يا أندره بتروقتش ، بك وحدك • لا أدري لماذا كان يحدث
 ذلك • حتى لقد كنت أراك فى المنام • وكنت أحلم خاصة بأنك ستجى،
 فجأة ذات يوم ، فاذا أنا ارتمنى بين ذراعيك ، فتتسلنى من هذا المكان ،
 وتأخذنى الى عندك ، الى مكتبك • وأحلم بأننا لا نزال نضحك فى المسرح،
 النخ ، وأننا – وهذا هو الشئ الأساسى – لن نفترق بعدئذ أبداً • فكانت
 هذه الأحلام تلهب نفسى • وفى الغداة ، حين أستيقظ من النوم ، يستأنف
 الصبية سخرياتهم ويعودون الى احتقارهم • وقد بدا لأحدهم يوماً أن
 يضربنى وأن يجبرنى على الباسه حذاءيه ، ووصفنى بكل التعوت ،

وحرص حرصاً خاصاً على افهامي أصلى ، فأفرح ذلك السامعين فرحاً عظيماً • حتى اذا وصل توشار أحسست في داخل نفسي بشيء لا يطاق • أدركت أنني هنا لن 'يغفر لي أبداً في يوم من الأيام • آه • • • بدأت شيئاً فشيئاً أفهم الأمر الذي لن يغفر لي ، وأعرف ما هي جريمتي ! وهكذا قررت أن أهرب • حلمت بالهرب مدة شهرين ، واتخذت قرارى أخيراً •

كان ذلك في شهر أيلول (سبتمبر) • ان يوم السبت يناسبني : فرفاقي ينصرفون لقضاء عطلة الأحد ولا يعودون الا في صباح يوم الاثنين • حذمت من أمتعتي ما لا غنى لي عنه في صرة • وكان كل ما معي من مال روبلين • كنت أريد أن أنتظر حلول الغسق • قلت لنفسي : « متى حل الغسق هبطت على السلم ، وخرجت ثم انصرفت قدماً • » • الى أين ؟ كنت أعرف أن أندرونيكوف قد سافر الى بطرسبرج ، فقررت أن أعرف منزل فاناريوتوفا في شارع آربات • وحدثت نفسي قائلاً : « سوف أقضي الليل في أى مكان ، متجولاً أو جالساً على دكة ، حتى اذا طلع الصبح سألت أحداً في فناء الدار : أين هو آندره بتروفش الآن ، واذا لم يكن بموسكو ففي أية مدينة هو أو في أى بلد من البلاد ؟ وسيرضون أن يذكروا لي المكان فأمشي • ومن حين الى حين أسأل أحداً عن الاتجاه الذي يجب أن أسير فيه • فأمشي ، وأمشي • وأظل أمشي • وأقضي الليل في أى مكان تحت الأدغال ، ولا أأكل الا خبزاً ، فيكفيني الروبلان مدة طويلة • • ولكن استحال عليّ في يوم السبت أن أهرب • فكان يجب أن أنتظر الى يوم الأحد • وشاءت المصادفة بما يشبه العمد أن يغيب توشار وامراته • ولم يبق في البيت الا آجاتي وأنا • فانتظرت حلول الليل مضطرباً اضطراباً رهيباً • كنت جالساً - ما زلت أتذكر ذلك - أمام نافذة صفّتا ، انظر الى الشارع الأغبر ، وبيوته الخشبية الصغيرة ، والمارة القلائل • كان توشار يقيم في آخر العالم • ومن نوافذنا كان يرى

باب المدينة • قلت لنفسى : « ليتهُ هو الباب الذى يجب أن أخرج منه » وكانت الشمس تغرب محمرة احمراراً رائعاً ، وكان الهواء بارداً ، وكانت تهب ريح قارصة تثير الغبار ؛ كهذا اليوم تماماً • وعمّ الظلام أخيراً؛ فوقفت أمام الأيقونة ، وصليت ، لكننى صليت مسرعاً ، مسرعاً كل الاسراع ، لأننى كنت استعجل الهرب حالاً • وتناولت صرتى ، ونزلت سائراً على رؤوس الأصابع ، فكانت درجاته تصر ، وكنت أشعر بخوف رهيب من أن تسمعنى آجائى فى المطبخ • وكان المفتاح على الباب ، ففتحت ، فسرعان ما أحرق بي الظلام الدامس كشىء مجهول خطر لا حدود له ، وأطارت الريح طاقتى • أصبحت فى خارج الدار • ودوى على الرصيف الآخر صراخ أجش أبج هو صراخ سكير كان يطلق الشتائم تلو الشتائم • فتوقفت ، ونظرت ، ثم اذا بي أعود أدراجى على مهل ، ثم أصدت السلم فى رفق ؛ وفى رفق أخذت أخلع ملاسى بعد أن وضعت صرتى على الأرض ، ثم رقدت على بطنى بدون دموع أذرفها وبغير فكرة واحدة تخطر ببالى • ومنذ تلك اللحظة أنما أخذت أفكر يا آندره بتروفتش ! نعم ، منذ اللحظة التى أدركت فيها أننى لست خادماً فحسب ، بل جباناً رعديداً أيضاً ! عندئذ انما بدأ تطورى الحقيقى المطرد •

هنا ضاحت تاتيانا بأفولونا تقول وهى تشب عن مكها فجأة وثوباً لم يكن فى حسابنى قط :

– وعندئذ انما بدأت أنا أعرف ما أنت فى واقع الأمر ! انك لم تكن خادماً فى ذلك الأوان فحسب ، بل مازلت خادماً الى الآن : ان نفسك نفس خادم ! ما الذى كان يمكن أن يمنع آندره بتروفتش من أن يعهد بك الى اسكافى يعلمك حرفة الاحذية ؟ كان سيحس اليك لو علمك حرفة ! من ذا الذى يمكن أن يطالبه بأكثر من هذا ؟ ان أباك ، ماكار ايفانوفتش كان يرجو ان لا نخرجك من ظرفك الاجتماعى حتى لقد كان

يطالب بهذا مطالبة ويكاد يصر عليه اصراراً • لا ، لا ، انك لا تحسن تقدير صنيع آندره بتروفتش اذ أوصلك الى الجامعة • انك بفضلها انما تتمتع الآن بحقوق الطبقات العليا • انظروا : كان الصبيان يسخرون منه ويناكذونه ، فحلف لينتمن من الانسانية بأسرها ••• ما أنت الا نذل ! •••

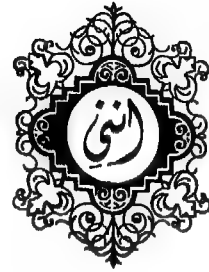
يجب أن أعترف أن غصبة تاتيانا بافلوفنا قد سحقتني • فنهضت عن مكاني ونظرت لحظة وأنا لا أجد ما أجيها به •
وقلت أخيراً وأنا التفت الى فرسيلوف عامداً بعد تفكير :

— ان ما قالته تاتيانا بافلوفنا الآن شيء جديد حقاً • ان فرسيلوف قد تفضل فلم يجعلني اسكافيا • فيا لي من خادم حقاً ، لأن هذا لم يرضني ، وانما طالبت ، فوق آلائه ونعمه ، طالبت به هو ، طالبت بفريسلوف نفسه ، طالبت به كله كاملاً غير منقوص ! حتى حقوق الطبقات العليا لم ترقق قلبي • ذلك أنني أردت أباً • فهل يمكن أن يكون امرؤ خادماً أكثر من هذا ؟ يا أمي ، ما تزال ماثلة في ضميري ، منذ ثمانية أعوام حتى الآن ، تلك اللحظة التي جئني فيها وحيدة الى عند توشار ، وتلك الطريقة التي استقبلتك بها • ولكن ليس هذا أو ان الحديث عن هذا الأمر • ان تاتيانا بافلوفنا لا تسمح به • فالى الغد يا أمي ، فلعلنا سنلتقي مرة أخرى • ويا تاتيانا بافلوفنا ، وما عساك قائلة لك انني مازلت خادماً فلا أستطيع أن أقبل أن يكون لرجل امرأة ، فاذا هو يتزوج امرأة أخرى ؟ تلك مغامرة كادت تقع لآندره بتروفتش في « امس » • يا أمي ، اذا كنت لا تريد البقاء مع زوج قد يتزوج امرأة أخرى في الغد ، فاذكرى أن لك ابناً يعد بأن يكون ابناً يحترم أمه الى الأبد ، اذكرى هذا ثم تنصرف ، ولكن يجب الاختيار « فاما أنا واما هو » فمن تختارين ؟ انني لا أطلب جواباً على الفور • فأنا أعرف أن هذه أسئلة لا يستطيع المرء أن يجيب عنها حالاً •••

لم أستطع أن أكمل كلامي ، لأنني اندفعت اندفاعاً شديداً وطاش
صوابي • اصفرت أُمي اصفراراً قوياً ، وخانها صوتها فلم تستطع أن
تطبق : عجزت عن أن تقول كلمة واحدة • وانبرت تاتيانا تلفظ صاخبةً ،
حتى انني لم أستطع أن أميز ما كانت تقوله ، بل لقد لطمتني على كففي
بقبضة يدها مرتين • لكنني أتذكر أنها أعولت تقول « ان أقوالى مدروسة
محسوبة ، قد هيأتها نفس وضعية معقدة » • وكان فرسيلوف جالساً
لا يتحرك ، وكان جاداً لا يتسم • وصعدت الى حجرتي تحت السقف •
وكانت النظرة الوحيدة التي شيعتني هي نظرة الاستنكار من أختي التي
كانت تهز رأسها وقد لاحت في وجهها القسوة •

الفصل السابع

١



أُصِف جميع هذه المشاهد دون مراعاة أو مداراة
 لنفسى ، وذلك حتى يكون كل شيء واضحاً ،
 ذكريات كان أو انطباعات • حين صعدت الى
 حجرتى كنت أجهل جهلاً مطلقاً هل يجب علىَّ
 أن أحمر خجلاً أو أن أشمخ انتظارا لأننى قمت بواجبى • ولو كنت
 ذا تجربة أوسع لأدركت أن أى شك حول مثل هذا الأمر يجب أن يفسر
 تفسيراً سيئاً • على أن هناك طرفاً أخسر حيرتى : اننى لا أعرف
 ما الذى كان يمكن أن يهيجنى ، ولكن واقع الحال هو أننى كنت أحس
 بفرح جنونى ، رغم شكوكى ورغم شعورى بأننى قد أخفقت منذ قليل
 اخفاقاً ذريعاً حين كنت تحت • حتى الشنائم المقدعة التى رمتنى بها تائبان
 بافلوفنا كانت تبدو لى باعثة على الضحك ، وكانت لا تحقننى البتة • أغلب
 الظن أن مرد ذلك الى أننى قد حطمت أغلالى على كل حال ، وشعرت
 بحريتى أول مرة •

وكنْتُ أحس أيضاً أننى أفسدت مصالحى : ما عساي أفعل الآن
 بالوثيقة التى تتعلق بالميراث ؟ وكان فى هذا السؤال مزيد من الاضطراب •

لسوف يظنون حتماً أنني أردت الانتقام من فرسيلوف • ولكنني منذ أن كنت تحت ، كنت قررت - أثناء المناقشات - أن أرجع في هذه المسألة حكمي يفصل فيها ، وأن أختار فاسين حكماً ، أو أن أختار أحداً غيره إذا لم يمكن أن اختاره هو ، وكنت منذ ذلك الوقت أعرف من ذا الذي سأختاره • لقد حدثت نفسي قائلاً : سأذهب يوماً الى فاسين ، أذهب اليه الوحيدة ؛ ثم ، ثم أغيب عن أبصار الناس قاطبةً ، زمناً طويلاً ، أشهراً عدة ، أغيب حتى عن فاسين ، بل أغيب خاصةً عن فاسين ، وقد أرى أمي وأختي وحدهما من حين الى حين • ذلك كله كان مضطرباً مشوشاً • وكنت أحس أن شيئاً ما قد عمل ، ولكنه لم يعمل كما ينبغي أن يعمل • • وكنت مغتبطاً • أكرر : كنت رغم كل شيء سعيداً •

وقررت عندئذ أن أنام قبل أوان نومي في العادة ، متوقفاً أن يكون عليّ أن أسير في الغد مسافات طويلة • لقد اتخذت قرارات عقدت النية على تنفيذها بطريقة أو بأخرى ، عدا استئجار مسكن والانتقال اليه • ولكن السهرة لم تختتم دون أن يحدث شيء لم يكن في الحسبان ، فهذا هو فرسيلوف يفلح في أن يدهشني الى أبعد حدود الدهشة • كان لا يجيء الى حجرتي أبداً ، أبداً • ولكن ما ان انقضت ساعة واحدة حتى سمعت وقع خطاه على السلم ، وسمعت يناديني طالباً أن أنير له الطريق • فتناولت شمعة ، ومددت اليه احدي يدي فأمسكها ، وساعدته على التسلق الى •

- « شكراً » (بالفرنسية) يا صديقي • انني لم أصعد الى هنا مرة واحدة ، حتى يوم استأجرت البيت • كنت أقدر ما عسى يكون هذا المكان • ومع ذلك لم أتوقع أبداً أن يكون حجرة كلب كهذه التي أرى •

ووقف فرسيلوف في وسط حجرتي ينظر فيما حوله مستطعماً مستغرباً ، وقال :

— هذا تابوت ، تابوت حقيقى !

والحق أن حجرتى كان بينهما وبين جوف التابوت شبه ، حتى لقد أعجبت بدقة تشبيهه اياها بالتابوت • انها غريفة ضيقة طويلة • وفى مستوى كفى ، لا أعلى منه ، تبدأ الزاوية التى تشكل من التقاء جدارها بسقفها الذى كنت أستطيع أن ألمسه براحة كفى • وقد وقف فرسيلوف فى أول الأمر منحنيًا خشية أن يصطدم رأسه بالسقف • ولكن رأسه لم يصطدم بالسقف ؟ فجلس بهدوء على ديوانى الذى كان قد أسمى سريراً • أما أنا فلم أجلس ، وانما كنت أنظر اليه مندهشاً أعمق الاندهاش • قال :

— ان أملك لا تدرى هل يجب عليها أن تأخذ المال الذى عرضته عليها نفقات لاقامتك عندنا هذا الشهر • والحق أن هذا التابوت الذى تقيم فيه لا يستحق أن تدفع عنه أجراً ، بل لعلنا أن نكون نحن المدينين لك ! اننى لم أجيء الى هنا مرة واحدة • • وانه ليصعب على أن أتخيل أن يعيش انسان فى هذا المكان •

— لقد تعودت هذه السكنى • ولكن الشيء الذى لا يمكننى أن أتعوده هو أن أراك عندى بعد الذى حدث تحت • •

— حقاً لقد كنت شديداً الفظاظه تحت ! • • ولكن لى ، أنا أيضاً ، غايات خاصة سأشرحها لك ، وان يكن وجودى هنا ، فى حقيقة الأمر ، ليس بالشيء الحارق • وحتى ما حدث تحت ليس شاذاً فى الواقع ، وانما هو من طبيعة الأشياء • ولكن هناك نقطة تفصيلية أرجوك أن توضحها لى : هل ما رويته تحت ، وما ألقيته على مسامعنا بذلك الاحتفال والاهتمام هو كل ما كان فى نيتك أن تكشف لنا عنه أو أن تفضى الينا به ؟ أليس عندك شيء آخر ؟

— ذلك كل شيء • أو فلنفرض أنه كل شيء •

- هو اذن قليل يا صديقي • ان دخولك في الموضوع ، وأسلوبك في دعوتنا الى الضحك ، ورجبتك الشديدة في الكلام ، كل ذلك جعلني أتوقع أن يتمخض عن أكثر مما تمخض عنه •

- ولكن فيم يهملك هذا ؟

- يهمني لأنه يفقد الاحساس بالاعتدال • علام كل هذا اللفظ والصخب ؟ أتقضى شهراً كاملاً في صمت وتحضير من أجل أن تتمخض فجأة عن •• لا شيء •! ••

- كان في نيتي أن أحكي أكثر مما حكيت ، ولكنني خجلت حتى مما قلته • ما كل شيء يمكن أن يحكى بكلام • هناك أمور يحسن بالمرء أن يسكت عنها فلا يجيء على ذكرها أبداً • لقد قلت ما فيه الكفاية • ثم انك قد فهمت •

- ويعذبك في بعض الأحيان أن فكرك لا تسعه قوالب الألفاظ ؟ يا صديقي ، هذا العذاب لم يوهب الا لصفوة مختارة من الناس • أما الغبي الأحمق فهو راض دائماً عما يقول ؛ وهو عدا ذلك يقول دائماً أكثر مما يجب أن يقول • أولئك أشخاص يحبون الزيادة •

- مثلما كنت أنا تحت ، أليس كذلك ؟ أنا أيضاً قلت أكثر مما كان يجب أن أقول • طالبت « بفرسيلوف كله » • هذا كثير جداً • لست في حاجة الى فرسيلوف •

- أرى يا صديقي أنك تريد أن تتدارك ما فاتك من وقت • انك نادم • ولما كان الندم يعني عندنا أن يتهجم المرء فوراً على أحد ، فقد عزمت أمرك على أن لا تخطئ مرة أخرى • لقد جئت اليك قبل الأوان ، فما تزال نارك مستعرة لم تنطفئ • ثم انك لا تتحمل النقد • ولكن اجلس ، أرجوك • أريد أن أبلغك شيئاً • شكراً ، أحسنت ! ان ما قلته لأملك لحظة انصرفك يدل دلالة واضحة على أن من الأفضل أن نفترق على كل

حال • وقد جئتُ لأنصحك بأن تفارقنا في هدوء كامل وبغير فضيحة ، حتى لا تُحزن أمك مزيداً من الحزن وحتى لا تروّعها مزيداً من الترويع • ان مجرد صعودي اليك الآن قد خفف عنها وأحسن اليها : انها مقتنعة بأننا سنستطيع أن نتصالح ، وبأن كل شيء سيظل يجري كما كان يجري • وأعتقد أننا اذا استطعنا ، أنا وأنت ، أن نضحك ضحكاً صاخباً ، مرةً أو مرتين ، سوف نزرع الفرح في قلوبهما الولجين ، كليهما • ان قلوبهما بسيطان ، ولكنهما زاخران بالحب والصدق والبراءة • فلماذا لا نفرحهما قليلاً اذا استطعنا الى ذلك سبيلاً ؟ هذه هى النقطة الأولى • واليك النقطة الثانية : هل من المحتم أن نفرق ونحن نكر أسناننا ، ونحترق ظمأً الى الانتقام ، ونصب اللعنات ، وما الى ذلك ! صحيح أننا لن نتعاق ، ولكن من الممكن أن نفرق ونحن تبادل الاحترام ان صح التعبير ، أليس كذلك ؟

— هذا كله سخافات ! أعدك بأن أنصرف دونما فضيحة ؟ ويكفى ذلك ! أيقظك أمر أمي ؟ يخيل الىّ مع ذلك أن طمأنينة أمي لا تهلك كثيراً • هذا منك كلام لا أكثر !
— ألا تصدقنى ؟

— انك تكلمنى كما يكلمّ طفل حقاً •

— يا صديقى ، أنا مستعد لأن استغفرك عن هذا ألف مرة ، وأن استغفرك أيضاً عن كل ما تنسبه الىّ ، عن سنى طفولتك ، وهلم جراً • ولكن ما عسى ينتج عن ذلك « يا ولدى العزيز » ؟ أظن أنك أذكى من أن تضع نفسك فى مثل هذا الوضع النبى ؟ دعك من أنتى لا أفهم فى الواقع طبيعة المآخذ التى تأخذها علىّ فهماً واضحاً ، ولكننى أسألك : ما الذى تهمنى به ؟ بأنك لم تُسَمَّ عند ولادتك باسم فرسيلوف ؟ ليس هذا ما تهمنى به ؟ انك تضحك وقد لاح فى وجهك اختقار ، ولوحت بيدك تحمى بها نفسك • أليس ذلك هو ما تهمنى به ؟

— لا ، صدقي • صدق أنني لا أرى أى شرف فى أن يكون
اسمى فرسيلوف •

— دعنا من الشرف • ثم ، ألا يجب أن يكون جوابك ديموقراطياً ؟
ما الذى تتهمنى به اذن ؟

— لقد نطقت تاتيانا بافلوفنا منذ ساعة بكل ما كنت أريد أن أعرفه
ولم أتوصل الى فهمه حتى ذلك الحين : أنك لم تشأ أن تجعلنى اسكافياً ،
وأن علىّ اذن أن أشكر لك جميلك • اننى لا أدرك أين هو عقوبى
ونكرانى الجميل ، حتى بعد أن ألقى على هذا الدرس • ألا يمكن أن
يكون دمك المتطرس هو الذى يتحدث فىّ الآن يا آندره بتروفتش ؟

— لا أظن ذلك • يجب عليك أن تسلم ، عدا هذا ، أن جميع
هجماتك التى أردت لها أن تسقط علىّ أنا منذ قليل ، لم ترد على أن
آلتها وعذبتها ، هى • ويخيل الى مع ذلك أنك لست أنت من يحق له
أن يدينها • وما هو ذنبها فى حقك ؟ بالمناسبة : اشرح لى هذه النقطة
أيضاً يا صديقى : لأى سبب وعلى أية نية أذعت فى المدرسة وفى الليسيه
وطوال حياتك وحتى لأى انسان تلقاه (لقد ذكر لى هذا) أنك ابن زنا ؟
لقد علمت أنك تتلذذ باذاعة هذا • وما ذلك منك فى الواقع الا غباوة
ونميمة دنيئة : أنت دوجوروكى ، الابن الشرعى لماكار ايفافتش
دوجوروكى ، الشخص المحترم ، المتميز ذكاءً وخلقاً • واذا كنت قد
أصبت حظاً من تعليم عال ، فانما يرجع الفضل فى ذلك الى فرسيلوف ،
مولاك سابقاً • ولكن ما الذى نتج عن تصرفك ؟ انك بما أذعته من أنك
ابن زنا — وتلك نميمة — انما فضحت أمك ، ولطختها بالوحل فى نظر
كل انسان • وذلك يا صديقى ليس من النبل فى شئ ، لاسيما وأن أمك
ليست هى الآئمة : ان لأملك خلقاً هو الصفاء الكامل والطهارة التامة •
واذا لم تُسم باسم فرسيلوف ، فلسبب وحيد هو أن زوجها ما يزال
موجوداً •

- كفى ! انسى أوافقك كل الموافقة ، وأنق بذكائك ثقة تبلغ من القوة أننى أأمل أن تكف عن هذه التقريرات التى ما أظن الا أنها طالت كثيراً . أنت رجل تهوى الاعتدال . . . وهناك اعتدال فى كل شىء ، حتى فى هذا الحب المفاجئ لأمى . فدعنا من هذا وقل لى : اذا كنت قد قررت أن تجيء الىّ وأن تقضى عندى ربع ساعة أو نصف ساعة (وأنا ما زلت لا أعرف لماذا جئت ، ولكن لتسلم بانك جئت لادخال الطمأنينة والسكينة الى قلب أمى ، ، واذا كنت عدا ذلك تجد لذة كبيرة فى الحديث معى رغم كل ما جرى تحت ، فحدثنى اذن عن أبى ، عن ما كار ايفانوف ، حدثنى عن هذا الجواب . منك أنت انما أريد أن أسمع شيئاً عنه . اننى اتوى منذ مدة طويلة أن أطلب منك هذا . وأحب كذلك ، ونحن نفترق - ربما الى أمد طويل - أن أحصل منك على جواب عن هذا السؤال الآخر : هل يعقل أن لا تكون قد استطعت خلال هذه السنين العشرين أن تؤثر فى أوهام أمى ، وكذلك الآن فى أوهام أختى ، فتبدد الظلمات الأولى التى تخيم على بيتهن القديمة ؟ لست أتكلم عن طهارتها طبعاً ، فانها كانت دائماً أسمى منك كثيراً فى مجال الأخلاق ، معذرة . . . ولكن ما هى الاجثة سامية . أما الحياة فهى لفرسيلوف وحده . وكل ما عداه ممن حوله ، كل ما له ارتباط به ، انما هو أشبه بنبات . . . نبات يشرفه أن يغذيه بطاقاته وبما فيه من عصارة الحياة . غير أنها كانت هى أيضاً حية فى الماضى ، أليس كذلك ؟ فقل لى : هل وجدت فيها ما تجبه ؟ هل كانت امرأة ؟

- يا صديقى ، اذا أردت أن تعرف ذلك ، فاعلم أنها لم تكن امرأة فى يوم من الأيام . . .

قال ذلك وهو يعجد وجهه ذلك التجعيد القديم الذى احفظ ذكره والذى كان يخفى أشد الخلق ، أقصد ذلك التجعيد الذى يوهم المرء أنه ازاء انسان يملك طيبة صادقة أشد الصدق ، مع أن نفسه لا تشمل

في الواقع الا على سخرية واستهزاء ، حتى لقد كان يتفق لى فى بعض الأحيان أن لا أفهم من هيئته شيئاً • وعاد يقول :

— لا ، لم تكن امرأة فى يوم من الأيام • ما من امرأة روسية بامرأة •

— هل البولندية أو الفرنسية هي المرأة ؟ أم أن الايطالية ، الايطالية المشبوبة ، هي التي تأسر لب روسى متحضر من الطبقة العليا مثل فرسيلوف ؟

— هذا ما كان ينقصني ! كان ينقصني أن ألقى هنا واحداً من المتعصين للسلافية !

وانفجر فرسيلوف ضاحكاً •

اننى أتذكر ما رواه كلمة كلمة • حتى لقد كان يتحدث راضياً مسروراً • وكان واضحاً لى أنه لم ينجى الى ليرثر معى أو ليطمئن أمى ، وانما جاء ميتاً نيات أخرى •

بدأ فرسيلوف ثرثرته المصطنعة فقال :

- لقد عشنا أنا وأمك هذه السنين العشرين كلها فى صمت • وكل ما جرى بيننا انما جرى فى صمت أيضاً • فالسمة الرئيسية التى تتسم بها هذه العلاقة التى دامت عشرين عاماً هى الصمت • حتى أننى أظن أننا لم نتشاجر مرة واحدة • صحيح أننى تقييت كثيراً ، فكنت أتركها وحيدة ، لكننى كنت أعود فى النهاية دائماً • « اننا نمود دائماً » ، هذه أبرز صفة يتصف بها الرجال ، وهى من عظمتهم • فلو كان الزواج رهناً بالنساء وحدهن لما استمر زواج • والسمة التى تتميز بها أمك انما هى الطوعية والمذلة ، الخضوع والاذعان ، التسليم والرضى ، ولكنها تتصف أيضاً بالصلابة والثبات والقوة ، القوة الحقيقية • أحب أن تلاحظ أنها بين النساء اللواتى لقيتهن خيرهن جميعاً • ان لها قوة ، أشهد بذلك : لقد رأيت كيف دعمتها هذه القوة • فمتى كان الأمر قناعات (لا قناعات حقيقية فهذه ليس محل بحث ، بل ما يمكن أن يسمى عندها قناعات) ومتى كان الأمر تبعاً لذلك أمر شئ تعده مقداساً ، كانت مستعدة لأن تواجه جميع الصعاب وأن تتحمل جميع أنواع العذاب كما يتحملها شهداء • فانظر بنفسك : أنا أشبه جلاداً يعذب الناس ؟ ذلك هو السبب الذى حملنى على الصمت فى جميع الأحيان تقريباً ، وليس السبب هو أن الصمت أسهل • ولست نادماً على ذلك ، أعترف لك • فهذه الطريقة جرى كل شئ بيننا من تلقاء نفسه على نحو انسانى رحب • حتى اننى لا أسب لنفسى فى هذا أى فضل • يجب أن أقول لك فى هذه المناسبة اننى أميل قليلاً الى أن أظن أنها لم تؤمن بعواطفى الانسانية فى يوم من الأيام ، وأنها لذلك ارتعشت من الخوف دائماً • ولكنها رغم ارتعاشها من

الخوف لم تلزم نفسها بتحصيل أية ثقافة • هؤلاء أناس يحسنون تصريف أمورهم أكثر منا • انهم على وجه الاجمال يعرفون كيف يدبرون شئونهم الصغيرة خيراً مما نعرف ذلك نحن • انهم يستطيعون أن يواصلوا الحياة على ما يشاءون في أكثر الظروف مناقضة لطبيعتهم ، وأن يبقوا في تلك الظروف ما هم فلا يتغيروا • أما نحن فلا نملك هذه البراعة التي يملكون •

- من هؤلاء الذين تعنيهم ؟ اننى لا أفهم عنك فهماً واضحاً •

- الشعب يا صديقى • الذين أعنيهم هم الشعب • لقد برهن الشعب على قوته الحية الكبيرة خلال التاريخ ، لا جسيماً فحسب ، بل سياسياً كذلك • ولكن لنرجع الينا : أستطيع أن أقول ان أمك لم تكن دائمة الصمت • انها تتكلم أحياناً ، ولكنها تتكلم بطريقة تجعلك تدرك ادراكاً واضحاً أنك قد أضعت وقتك سدى فيما سقته اليها من أحاديث ولو كنت قد سلخت من عمرك خمس سنين في اعداد هذه الأحاديث شيئاً بعد شيء • وما أعجب الاعتراضات التي تواجهك بها ولم تخطر لك ببال ! لاحظ مرة أخرى أننى لا أصفها بالغباء البتة • بالعكس : ان في هذا نوعاً من ذكاء ، بل ان فيه ذكاء فذاً • ولكن لملك لن تعترف لها بهذا الذكاء !

- لم لا ؟ ان ما لا أصدقه هو أن تؤمن أنت حقاً بأنها ذكية ، وأن لا تكون في ذلك مرائياً •

- صحيح ؟ أنت تعدنى حرباء ؟ يا صديقى ، اننى أسرف في مداراتك ، كولدى المدلل • ولكن لنقف عند هذا الحد في هذه المرة !

- حدثنى عن أبى • قل لى الحقيقة ان استطعت •

- ماكار ايفانوفتش ؟ نعم ، ان ماكار ايفانوفتش هو كما تعلم قن خادم أحبب فيما يقال أن يصبح ذا شهرة ••

- أراهن على أنك في هذه اللحظة تفار منه !

- بالعكس يا صديقي ، بالعكس . واذا شئت أن تعرف الحقيقة فاعلم اننى مرتاح أشد الارتياح الى أن لك مزاجاً معقداً هذا التعقيد كله . أحلف لك اننى أعانى الآن ندامة قوية عميقة ، وأننى فى هذا اليوم نفسه ، بل فى هذه اللحظة التى تمر ، أحس - ربما للمرة الألف - بالأسف فى غير طائل لما حدث منذ عشرين سنة . شهد الله أن كل ما حدث قد حدث حدوداً إنسانياً فيما يخصنى أنا ، على الأقل بحسب الفكرة التى كانت قائمة فى ذهنى عن فضيلة الانصاف بالروح الانسانية . آه . . . لشد ما كنا نحترق فى ذلك الحين شوقاً الى فعل الخير وخدمة المجتمع والفكرة ، ولشد ما كنا ندين الألقاب والرتب ، وأميازاتنا الموروثة ، وتملك الأبطال ، وحتى بنك تسليف الفقراء ، فى رأى بعضنا على الأقل . أحلف لك . كان عدداً قليلاً ، ولكننا كنا نحسن الكلام ، بل كنا فى بعض الأحيان نحسن العمل أيضاً ، أوكد لك .

- أيام كنت تنتحب على الكتف مثلاً ؟

- يا صديقي ، اننى أوافقك سلفاً على كل شيء . بالناسبة : حكاية الكتف هذه ، أنا الذى رويتها لك ، فأنت اذن فى هذه اللحظة تسىء . استغلال صديقى وثقتى . لاحظ أن الانتحاب على الكتف لا يضعنى فى وضع سىء الى الحد الذى يبدو لأول وهلة ، ولا سيما اذا رددته الى زمانه . لقد كنا عندئذ مبتدئين فى نزعتنا الانسانية . صحيح أن ذلك كان منى تصنعاً وتكلفاً . ولكننى كنت أجهل حينذاك أننى لم أكن صادقاً . انظر الى نفسك مثلاً : أنت طبعى دائماً فى الحياة العملية ؟

- حين كنا تحت ، منذ قليل ، أسرفت فى العاطفية بعض الاسراف ، وما ان رجعت الى هنا حتى احمر وجهى خجلاً اذ تصورت أنك قد تظن أننى فعلت ذلك عامداً . صحيح أن المرء يمثل فى بعض الأحيان ، مهما يكن صادقاً . ولكننى أحلف لك أننى كنت اليوم ، تحت ، طبعياً بغير تصنع البتة .

– حسن ما تقوله • لقد أجدت التعبير : « ان المرء يمثل في بعض الأحيان ، مهما يكن صادقاً » • فذلك بعينه هو ما جرى لى أنا : لقد اتجبت صادقاً رغم أننى كنت أمتل تمثيلاً • وأوافقك : كان فى امكان ماكارا ايفانوفتشس أن يعد الاتحاب على كفه زيادة فى السخرية ، لو كان أذكى قليلاً • ولكن استقامته أساءت عندئذ إلى نفاذ بصره • والشئ الذى أجعله هو : أخذته بى شفقة حينئذ أم لا • أذكر اننى كنت أحترق شوقاً الى أن يرئى لحالى ...

قاطعة قائلاً :

– والآن اذ تقول هذا الكلام انما أنت تسخر • انك على وجه الاجمال ، فى جميع ما قلته لى خلال هذه المدة كلها ، طوال هذا الشهر كله انما كنت تسخر • لماذا كنت تتصرف معى دائماً هذا التصرف حين تكلمنى ؟

أجاب يقول بهدوء ورفق :

– أتظن ذلك ؟ انك شديد الحساسية السريع التأذى • اذا كنت أضحك فلست أضحك منك أو على الأقل لست أضحك منك وحدك ، فاطمئن • لكننى فى هذه اللحظة لا أضحك • لنعد الى ما كنا فيه • لقد عملت حينذاك كل ما كان فى وسعى أن أعمله ، وصدقنى اذا قلت لك اننى لم أعمل ما عملت فى سبيل مصلحتى • لقد كنا نحن ، أعنى معشر الممتازين فى ذلك الزمان ، عاجزين عن العمل لمنفعتنا بالقياس الى أبناء الشعب • بالعكس : كنا نسيء الى أنفسنا أكبر الاساءة ، وأظن أن هذا بعينه هو ما كنا نعد « المصلحة العليا التى هى مصلحتنا » بأسمى معانى هذه الكلمة طبعاً • ان المثقف فى هذا الزمان أشد تعلقاً بالمنفعة وسعياً اليها من جيلنا • لنعد الى حديثنا : شرحت لماكارا ايفانوفتشس كل شئ ، بصراحة خارقة ، حتى قبل ارتكاب الخطيئة • اننى أسلم اليوم بأن كثيراً من تلك

الأشياء لم يكن فى حاجة الى شرح ، ولا سيما بمثل تلك الصراحة . فلو أقصرت فى الشرح لكان ذلك أقرب الى الأدب والتهذيب ، ناهيك عن العاطفة الانسانية . ولكن أين للمرء أن يكبح جماح نفسه حين يريد أن يغامر فيقوم أثناء الرقص بخطوة جميلة بعد أن يكون سكرُ الرقص قد أخذ منه كل مأخذ ! لعل هذا ما كانت تقتضيه ضرورات الجمال والخير : اننى لم أجد جواباً عن هذا السؤال بعد . على كل حال ، هذه مشكلة أعمق من أن يتناولها حديث سطحي كالحديث الذى يدور بيننا الآن . لكننى أحلف لك اننى ما زلت أموت خجلاً من هذه الذكرى فى بعض الاحين . عرضت عليه ثلاثة آلاف روبل . كان صامتاً . وكنت وحدى أتكلم . تصورت أنه خائف منى ، أى خائف مما للسيد من حقوق على العبد ، فبدلت أقصى جهدى لأشجعه . اننى أتذكر هذا . حضضته على أن يفصح عن جميع رغباته دون أن يخشى شيئاً ، بل حضضته على أن ينتقد ما شاء أن ينتقد . وعلى سبيل الضمان قطعت له عهداً على نفسه أنه اذا رفض شروطى ، أى الثلاثة آلاف روبل واعتاقه (هو وامراته طبعاً) ورحيله (بدون امرأته طبعاً) ما عليه الا أن يعلن ذلك صراحةً حتى أعتقه فوراً ، وأرد اليه امرأته ، وأهديهما كليهما هذه الثلاثة آلاف روبل نفسها ، فلا يكون عليهما هما أن يرحلا عندئذ ، وانما أرحل أنا الى ايطاليا لوضحث هذا فاننى ما كنت سأصطحب « الأنسة » سابويكوف الى ايطاليا ، ثقب بهذا . كنت فى ذلك الحين أظهر من أن أفعل ذلك . وقد أدرك ماكار هذا حق الادراك أننى سأفعل ما أقول . ولكنه بقى صامتاً لا يتكلم ، ثم لم يتحرك الا حين أردت أن أرتمى على كتفه مرة ثالثة ، فإذا هو يتقهقر ، ويسجى يده بشارة تنم عن قلة الاكتراث ، ويخرج حتى بغير تخرج ، فأدهشنى منه ذلك ، أؤكد لك . ونظرت الى نفسى عندئذ فى مرآة عرضاً ، وهذه ذكرى لن أنساها فى يوم من الأيام . نستطيع أن

نقول عامةً انهم حين يصمتون فلا ينطقون ، يكون الأمر أُرهب ما يكون •
ولقد كان مآكار قاتم المزاج ، فكان لا يوحى الىَّ بالثقة ، حتى اننى كنت
اذا دخل علىَّ أشعر بذعر هائل : ان فى هذه البيئة أفراداً ، أفراداً كثيرين ،
تتجسد فيهم الوقاحة ان صبح التعبير • وهذا أحق أن يُخشى من الطعنات •
فما أكثر ما جازفت وعرضت نفسى للخطر ! فلو أن « أوريا » القروى هذا
قد أخذ يزعم ويقذف الشتائم ، فما عسى كان يحدث لى أنا « داود »
الصغير ، وما عسى كنت أستطيع أن أفعل ؟ ذلك هو السبب فى اننى
عرضت الثلاثة آلاف روبل منذ البداية مدفوعاً الى ذلك بغريزتى • ولكننى
أخطأت الظن لحسن الحظ : فلقد كان مآكار ايقانوفتش هذا شيئاً آخر
مختلفاً كل الاختلاف •••

- قل لى : هل كانت الخطيئة قد وقعت ؟ لكأنك قلت منذ لحظة انك
استدعيت الزوج قبل حدوث الخطيئة •
- أعنى ••• أقصد •••

- اذن كانت الخطيئة قد وقعت • وقلت منذ لحظة انك أخطأت الظن
فيه ، وانه كان مختلفاً كل الاختلاف عما صوّر لك خيالك ••• فماذا
كان ؟

- ماذا كان ؟ آه ••• اننى لا أزال أجهل ما هو • لكنه انسان
مختلف كل الاختلاف ، بل انسان لائق جداً ، هل تتصور ؟ اننى أخلص
الى هذه النتيجة لان احساسى بارتكاب ذنب فى حقه قد تضاعف مشى
وثلاث • لقد قبل الرحيل منذ الغداة ، بدون كلام طبعاً ، وبدون أن يغفل
شيئاً من التعويضات التى عرضتها عليه •
- أخذ المال ؟

- كيف لا ؟ حتى لقد أدهشنى فى هذه الناحية يا صديقى • لم
أكن أحمل ثلاثة آلاف روبل طبعاً • فأخرجت من جيبى سبعمائة وقدمتها
اليه دفعةً أولى • فهل تعرف ماذا فعل ؟ طلب منى سنداً قيمته ألفان

وثلاثمائة روبل ، واشترط أن يحرر السند لأمر تاجر . وبعد ذلك بستين تسليح بهذا السند وطالبني بالمال مع فوائده عن طريق المحاكم ، فأدهشني مرة أخرى ، لا سيما وأنه كان يجول جامعا صدقات لبناء كنيسة ، وما يزال يجول منذ عشرين سنة الى الآن . اننى لا أفهم : ما حاجة جوال مثله الى ذلك المبلغ كله لنفسه ؟ ... ان المال شئ يرغب فيه من يعيش في المجتمع ... وأنا كنت قد عرضت عليه ذلك المبلغ صادقا ، أو قل في ابان الحرارة الأولى والاندفاع الملهب ، أما بعد ذلك ، بعد تراكم جميع تلك الدقائق ، فقد كان طبعيا أن أثوب الى رشدى ... وكنت أظن أنه سيعفينى ... أو قل سيعفينا أنا وهى ، أو أنه سيمهلنا بعض الوقت على الأقل . ولكنه لم يقبل حتى أن يمهلنا ...

(يجب أن أسوق هنا ملاحظة لا غنى عنها : كان يكفى أن يموت فرسيلوف حتى تبقى أمى فى أواخر أيامها بغير قرش واحد . ولكن الثلاثة آلاف روبل التى بقيت كاملة غير منقوصة حتى لقد ضاعفتها الفوائد المتراكمة قد أوصى بها ماكار ايفانوف لأمى فى السنة الماضية . كان قد حقيقة فرسيلوف منذ ذلك الحين) .

— قلت يوماً ان ماكار ايفانوفتش أقام عندكم عدة مرات ، وأنه كان ينزل دائماً الى شقة أمى ...

— نعم يا صديقى ، وأعترف لك أننى كنت فى البداية أخشى تلك الزيارات كثيراً . ولقد جاء طوال هذه المدة ، أى خلال هذه العشرين سنة ، ست مرات أو سبعا لا أكثر . فكنت فى الزيارات الأولى أخشى إذا اتفق أن كنت بالمنزل . حتى اننى فى أول الأمر كنت لا أفهم : ما معنى هذا ؟ لماذا يجبى ؟ ولكننى بعدئذ ، بدا لى من بعض العلام أن ذلك لم يكن منه غباء الى الحد الذى صوره لى خيالى . ثم ثار حب الاطلاع فى نفسى عرضاً ، فمضيت أراه ، فخرجت من ذلك بانطباع طريف ، أؤكد لك . كانت تلك زيارته الثالثة أو الرابعة ، وكنت قد عينت منذ برهة

وجيزة وسيط صلح ، وصرفت همى ، كما ينبغي أن أفعل ، الى دراسة روسيا . فعرفت منه أشياء لا حصر لها . وعدا ذلك وجدت فيه ما لم أكن أتوقع أن أجده البتة : وجدت نفساً طيبة ومزاجاً متساوياً ، حتى لقد وجدت فيه ما يشبه أن يكون جذلاً ، فكان هذا أدعى الى دهشتي من كل ما عداه . لم يشر الى « الأمر » أيسر اشارة (« هل تفهم » ؟) . ورأيت يتقن فن الكلام بلغة واضحة وعبارات رائعة ، أى لم أفهم فى أحاديثه على تلك الجمل المزوقة المشوشة التى يلاحظها المرء فى حديث الأقبان الخدم والتى أعترف لك بأننى لا أطيقها ولا أتحملها رغم جميع آرائى الديمقراطية ، ولم أفهم فى أحاديثه على تلك الألفاظ التى يتعمد بعض كتاب المسرح الرواية أن يستعملوها فيما يكتبون بدعوى أنها « روسية ضمنية » ، وبدعوى أنهم « روس صادقون » . لا ولا رأيت يتكلم فى الدين الا قليلاً جداً ، ما لم تسأله ، حتى لقد رأيت يروى أقاصيص فكهة ظريفة عن الأديرة وحياة الرهبان اذا كنت تهتم بسماعها . ولكننى وجدت فيه خاصة ، ذلك الاحترام ، احترام المرء لنفسه على تواضع وبغير تبجح ، ذلك الاحترام الذى أرى أنه الشرط الذى لا بد منه للمساواة القصوى ، بل أرى أنه يستحيل على المرء بدونه أن يبلغ التفوق . فهذه القدرة على عدم التأذى انما يستطيع المرء أن يتحكم بنفسه فيملك حسن اللهجة ، وبها انما يتجلى الانسان الذى يحترم نفسه حقاً أية كانت كاله ، وأياً كان قدره . ولسوف ترى اذا عشت أن ملكة احترام النفس هذه ، مهما تكن الظروف ، ملكة نادرة كندرة الكرامة الصادقة والوقار الحق . غير أن الشيء الذى خطف بصرى وأثار انتباهى أكثر من كل ما عداه بعد ذلك ، بعد ذلك لا فى البداية ، هو أن ماكار هذا على جانب عظيم جداً من المهابة ، وأؤكد أيضاً أنه على جانب عظيم جداً من الوسامة والجمال . صحيح أنه شيخ ، ولكنه .

« ملوح الوجه ، فارح الطول ، معشوق القوام »

بسيط المظهر ، جليل الطلعة • حتى لقد ادهشني أن صوفيا المسكينة
فضلتني عليه • كان عندئذ في الخمسين من عمره ، ولكن هذا لا ينفي أنه
كان رجلاً قوياً جسوراً ، واني كنت بالقياس اليه شاباً قسيماً متحذلقاً • على
انتي أتذكر أن شيب شعره كان شديداً ، فلا بد أنه كان شاباً حين تزوجها
فلعل هذا ان يكون قد أثر فيها •

ان هذا الرجل فرسيلوف يتصف بما يتصف به أبناء المجتمع الراقى
من تلك العادة الكريهة الباعثة على الاستمزاز • فبعد أن قال أشياء فيها
كثير من الذكاء وكثير من الانصاف (حين لم يستطع أن يفعل غير ذلك) ،
اذا هو يسف هذا الاسفاف عامداً فيسوق ملاحظة حمقاء غبية من نوع
هذه الملاحظة عن بياض شعر ماكارايفانوفتش وعن أثر ذلك في أمي •
لقد فعل ذلك عامداً ، ربما دون أن يدرك هو نفسه لماذا فعله • انها عادة
من عادات أبناء المجتمع الراقى • ولو سمعته لاعتقدت أنه يتكلم جاداً
كل الجد ، ولكنه في قرارة نفسه انما كان يسخر أو يضحك •

٣

لا أدري لماذا اعتراني حنق شديد رهيب على حين فجأة. اتى أمتعض
الآن امتعاضاً كبيراً كلما تذكرت بعض ثورات غضبي أثناء ذلك الحديث •
نهضت عن كرسي بقتة وقلت له :

- اسمع • لقد زعمت أنك انما جئت الى خاصة من أجل أن تظن
أنى أننا تصالحنا • وقد انقضى من الوقت ما يكفى لايهامها بذلك • فهلا
تركتنى وحيداً ؟

فاحمر قليلاً ونهض قائلاً :

- يا عزيزى ، انك تصرف معى بغير كلفة ولا حرج • الى اللقاء •
لا تُفرض الصداقة فرضاً • لكننى أبيع لنفسي أن ألقى عليك هذا
السؤال : هل تريد أن تترك الأمير فعلاً ؟

- آه • آه ••• كنت أعلم أنك تبيت نيات معينة •••

- أى تظن أننى جئت لأحضك على البقاء مع الأمير لأن لى فى ذلك
منفعة • ولكن ألا تعتقد أيضاً يا صديقى أننى استدعيتك من موسكو لأننى
أجنى من ذلك فائدة ما ؟ ألا ما أشد حساسيتك وما أسرع تأذيك !
بالعكس : هذا كله لحيرك أنت • اننى أتمنى ، حتى اليوم وقد تحسنت
أحوالى المالية ، أن تبيع لنا ، أنا وأهلك ، أن نمد اليك يد المعونة •••
- أنا لا أجبك يا فرسيلوف •••

- تنادىنى باسم « فرسيلوف » أيضاً ؟ ••• بالمناسبة : يؤسفنى أشد
الأسف أننى لم أستطع أن أترك لك هذا الاسم • وذلك هو كل ذنبى
اجمالياً ، اذا كان ثمة ذنب ، أليس كذلك ؟ ولكننى أكرر لك اننى لم
يكن فى وسعنى أن أتزوج امرأة متزوجة ، فكر فى الأمر بنفسك !
- لعل هذا هو السبب فى أنك أردت أن تتزوج امرأة لا زوج لها ،

هـ ؟

فطاف بوجهه تقبض خفيف قصير وقال :

- تقصد مدينة « امس » • اسمع يا آرКАДى ! لقد أبحت لنفسك غضباً من هذا النوع منذ ساعة مشيراً الىّ باصبعك أمام أمك • فاعلم أن هذا هو الأمر الذى تخطيء فيه أكبر الخطأ ؟ انك عن هذه الحكاية مع المرحومة ليديا آخماكوفا لا تعرف شيئاً البتة • لا ولا تعرف أن أمك قد ساهمت فيها مساهمة كبيرة ، رغم أنها لم تكن معى هناك • اذا كنت قد رأيت فى حياتى امرأة تحظى بالفضيلة ، فانما وقع لى هذا فى ذلك الوقت حين نظرت الى وجه أمك • ولكن كفى • هذا كله لا يزال سرّاً ، وأنت تتكلم عما تجهل ، وتعتمد فى كلامك على افوايل •••

- لقد قال الأمير ، فى هذا اليوم ، انك من عشاق القتيات الصغار

اللواتى لا خبرة لهن •

- الأمير قال هذا ؟

- نعم • اسمع : هل تريد أن أقول لك ، على وجه الدقة ، السبب الذى حضك على المجيء الى ؟ لقد ظللت أَسْأَل طول الوقت عن سر هذه الزيارة ، وهأنذا أكتشفه أخيراً •

كان فرسيلوف قد همّ أن ينصرف ، ولكنه وقف فجأة والتفت الى

منتبهاً • قلت :

- لقد أفلت من لسانى منذ ساعة أن الرسالة التى بعثها توشار الى تاتيانا بافلوفنا ، والتى وقعت بين أوراق أندرونيكوف ، صارت بعد موته الى يدي ماريا ايفانوفنا بموسكو • وقد رأيت حين قلت هذا الكلام ، رأيت فى وجهك نوعاً من التقبض • فلما رأيت الآن ذلك التقبض نفسه يلم بوجهك مرةً أخرى أدركت حقيقة الأمر : لقد راودتك هذه الفكرة حين كنا تحت : اذا عثر عند ماريا ايفانوفنا على رسالة كانت بين أوراق أندرونيكوف ، أفلا يمكن أن يعثر عندها على الرسالة الأخرى أيضاً ؟

لا شك أن آندرونيكوف قد ترك رسائل تبلغ مبلغاً كبيراً من خطورة
الغشّان وشدة الحاجة إليها ، أليس كذلك ؟

- ففى رأيك اذن أنتى انما جئتك لاستدراجك الى الكلام ؟

- نعم •

فاصفر وجهه اصفراراً شديداً •

هذه الفكرة ليست من عندك • انتى أشم رائحة المرأة وراء أقوالك
الزائخة بالكرامية وظنونك الملائى بالشر •

- المرأة ؟ هذه المرأة قد رأيتهأ أنا فى هذا اليوم نفسه • ولعلك من
أجل أن تتجسس عليها انما تريد أن تبقينى عند الأمير ؟

- أرى أنك ستوغل فى طريقك الجديد ايغالا بعيداً جداً • أتكون
هذه هى « فكرتك » ؟ أكمل يا صديقى أكمل ، انك تملك من مواهب
التجسس ما لا سبيل الى جحوده ! حين يؤتى المرء موهبة من المواهب فيجب
عليه أن ينميها •

وتوقف فرسيلوف عن الكلام ليسترد أنفاسه •

- حذار يا فرسيلوف ! لا تجعلنى عدوك !

- يا صديقى ، لا أحد فى مثل هذه الحالة يفصح عن كل أفكاره ،
وانما هو يحتفظ بها لنفسه • والآن هات ضوءاً ، أرجوك • مهما تكن
عدوى ، فما أظن أنك تمنى لى أن تقطع رقبتى على سلّمك •
نم أضاف يقول وهو ينزل :

- هه ! ما رأيك يا صديقى فى أنتى ، طوال هذا الشهر ، كنت
أحسبك فتى طيباً ؟ ألا انك تبلغ من شدة الرغبة فى الحياة ، والظلمة الى
الحياة أنك لو وهبت ثلاثة أعمار لما اكتفيت بها ! هذا مكتوب على وجهك •
وأمثالك أكثرهم طيبون • لقد أخطأ ظنى فيك •

ليس فى طاقتى أن أصف شدة انقباض صدرى حين خلوت الى
نفسى : لكأنتى قد قطعت قطعة من لحمى • أما لماذا ثارت ثائرتى فجأة ،
ولماذا أغلظت له الاهانة والابذاء الى هذا الحد عامداً ، فذلك سؤال لا أعرف
له الآن جواباً ، ولا عرفت له جواباً فى ذلك الحين • ولشدهما اصفر وجهه !
ألم يكن ذلك الاصفرار تعبيراً عن العاطفة أصفاه وأصدقها ، وعن الحزن
أعمقه وأقواه ، لا تعبيراً عن الغضب والاساءة ؟ لقد بدا لى دائماً أنه فى
كثير من اللحظات كان يحبنى ، فلماذا ، لماذا لا أصدق اليوم هذا ، لاسيما
وأن أموراً كثيرة قد اتضحت بعد ذلك ؟

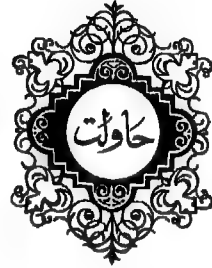
ولكننى قد ثارت ثائرتى فجأة ، فطرده ، ربما لاننى افترضت ذلك
الافتراض الذى ساورنى بغته اوهو أنه جاء الىّ أملأً أن يعرف ألا يزال
عند ماريـا ايفانوفنا رسائل أخرى من أوراق آندرونيكوف ؟ أما أنه كان
مضطراً أن يبحث عن تلك الرسائل وأنه بحث عنها فعلاً ، فذلك ما كنت
أعرفه • ولكن لعلنى فى تلك الدقيقة بعينها قد أخطأت الظن كثيراً • ومن
يدرى ؟ لعلنى أنا الذى جعلته ، بخطأ ظنى ، يفطن الى ماريـا ايفانوفنا بعد
ذلك ، وأوحيت اليه أنها قد يكون عندها رسائل !

واليكم فى النهاية هذا الشيء الغريب الآخر : مرةً أخرى ردد
ما يجول فى خاطرى كلمةً كلمةً (عن الاعمار الثلاثة) ، وذلك ما كنت
قد عبرت عنه لكرافت بهذه الألفاظ نفسها • صحيح أن توارد الحواطر
بالفاظها مصادفة • ولكن كيف عرف جوهر طبيعتى ؟ ما هذه البصيرة
النافذة ؟ ما هذا الحدس الصدق ؟ ولكن اذا فهم شيئاً من الأشياء فهما يبلغ
هذا المبلغ من القوة ، فلماذا لا يفهم الشيء الآخر ؟ هل يستطيع المرء أن

يصدق أنه كان لا يتظاهر تظاهراً ، بل كان عاجزاً بالفعل عن أن يدرك أن ما كنت في حاجة إليه ليس هو نبالة محتد فرسيلوف ، وأن ما كنت لا أستطيع أن أغفره له ليس هو مولدى من زنا ، وأنتى على مدى حياتى كلها انما كنت في حاجة الى فرسيلوف ، فرسيلوف نفسه ، فرسيلوف كله ، فرسيلوف الأب ، وأن هذه الفكرة قد خالطت دمي ؟ هل يمكن لرجل أوتى هذا الفكر المرفف أن يكون ضيق النظرة فاسد الرأى الى هذا الحد ؟ واذا لم يكن كذلك ، فعلا يغيظنى ، وعلام يتظاهر ؟

الفصل الثامن

١



في الصباح التالي أن استيقظ في أبكر وقت ممكن • وكانت العادة في بيتنا أن ننهض في نحو الساعة الثامنة ، أقصد أمي وأختي ؛ أما فرسيلوف فقد كان ثوم الضحي فلا ينهض الا في التاسعة والنصف • وكانت أمي تأتيني بالقهوة في الثامنة والنصف تماماً • لكنني في هذه المرة لم أنتظر القهوة ، واختفيت من البيت في الساعة الثامنة • وكنت منذ العشية قد وضعت لنهارى خطة عمل عامة • ولكنني رغم عزمي المشبوب على وضع هذه الخطة موضع التنفيذ فوراً ، كنت أبس أن نفسي زاخرة بأنواع من التردد ازاء نقاط هامة من هذه الخطة • لذلك قضيت الليل كله نصف نائم ، حتى لا أكاد أهدى ، ووافقتي أحلام كثيرة ، فلا أستطيع أن أقول اني تمت حقاً • ومع ذلك نهضت منتعشاً مرتاحاً كما لم أكن منتعشاً ولا مرتاحاً في أى وقت مضى • وكانت أمي هي التي أحب أن أتناهى لقاءها خاصة • فاني معها لا أستطيع أن أتكلم الا في موضوع معين ، فكنت أخشى أن أتحوّل عن أهدافي بتأثير شعور جديد لا يكون في حساباتي •

كان الصباح بارداً ، وكان يتموج على الطبيعة كلهما ضباب رطب أبيض . لا أدري لماذا تعجبنى دائماً أصبح بطرسبرج التي تصج بالحركة رغم مظهرها الدميم ، ولماذا يفتتن كثيراً منظر هذه الجمهرة من الناس الأنانيين المهمومين المنصرفين الى أعمالهم مسرعين في الساعة السابعة من البكور . واني لأحب خاصة أن أتجه الى أحد في الطريق فأسأله عن شيء متعجلاً ، أو أن يتجه الى أحد بسؤال : ان السؤال والجواب مقتضبان دائماً ، واضحيان ، جليان ، ينطق بهما السائل والمجيب دون أن يقفا ، ويتبادلانهما بما يشبه الصداقة في جميع الأحيان . هذه لحظة من النهار يكون المرء فيها مستعداً للإجابة أحسن استعداد . ان ساكن بطرسبرج يكون في الظهر وفي المساء أقل استعداداً لتبادل الكلام . حتى انه يكون متأهباً للتأنيب والتقريع ، أو للسخرية والاستهزاء ، لأيسر الأسباب . ولا كذلك في البكور قبل العمل ، فهذا وقت الرصانة والجد . لاحظت ذلك .

اتجهت الى بطرسبرجسكايا ستورونا من جديد . واذا كان على أن أعود حتماً الى فوتاكا ظهراً للقاء في بيته (لأن فاسين انما يكون بالبيت ظهراً في أغلب الأحيان) ، فقد حشيت الخطى دون أن أتوقف في أى مكان ، رغم ما كنت أشعر به من رغبة قوية شديدة في ابتلاع فنان من القهوة هنا أو هناك . ذلك أنني كان يجب على أن أفاجئ ايفيم زفيارييف في بيته قطعاً قبل أن يخرج ؛ فاتجهت اليه ، وكدت أن أصل بعد فوات الأوان ، اذ كان قد فرغ من احتساء قهوته وتأهب للخروج .

— ما الذي يجي بك الى كثيراً ؟

بهذا استقبلني دون أن يتحرك من مكانه . قلت له :

— سأشرح لك .

ان بدايات النهار ، ومنها بدايات النهار في بطرسبرج ، تحدث في

الطبيعة الانسانية أثراً يشبه تبدد السكر . هناك أحلام ملتبهة تراود المرء في الليل ، حتى اذا طلع النور وهبَّ البَرْد ، وتبخرت تبخراً كاملاً . وقد اتفق لى أن تذكرت في الصباح بعض أحلام الليل التي لم أكد أفرغ منها أو حتى بعض أفعاله ، فاذا أنا أنظر إليها نظرة فيها لوم واشمئزاز . ولكن يجب أن أذكر مع ذلك ، عابراً ، أن أصباح بطرسبرج ، حتى أكثرها خلواً من الشعر ، هي عندى بين أصباح سائر الكرة الأرضية ، أروعها وأشدها إثارةً للخيال . هذا رأيي أنا أو قل هو شعورى أنا ، ولكننى أصر عليه . وفى نظرى أن الحلم الوحشى الذى يراه هرمان فى قصة « البنت البستونية » (وهو شخصية رائعة ، غير عادية ، تمثل نموذج الشخص البطرسبرجى ، ونموذج العهد البطرسبرجى !) ينبغى له ، فى صباح من أصباح بطرسبرج هذه ، المتعفة الرطبة المضبة ، أن يقوى مزيداً من القوة . مائة مرة تراءت لى من خلال الضباب هذه الرؤيا العجيبة ، ولكن الثابتة : « حين سينقشع هذا الضباب ويرتفع ، ألن يحمل معه كل هذه المدينة المتعفة الدبقة ؟ وهذه المدينة ، ألن تصعد مع هذا الضباب وتزول كالدخان ، ولا يبقى فى مكانها الا المستنقع الفنلندى القديم ، ويبقى فى وسط المستنقع - من أجل الجمال ان شئتم - هذا التمثال البرونزى ، تمثال الفارس المتطى صهوة حصانه المنهوك ؟ لست أستطيع على كل حال أن أعبر عن جميع مشاعرى ، ما دام هذا كله خيالا ، وما دام كله شعراً فى آخر الأمر ، أى سخافات ! ومع ذلك فأننى كثيراً ما ألقى على نفسى ولا أزال ألقى على نفسى سؤالاً هو فى هذه المرة سؤال جنون مطبق : « ها هم أولاء جميعاً يركضون ويسرعون . فمن يدرى ؟ ألا يمكن أن لا يكون هذا كله الا حلماً . أن يمكن أن لا يكون ههنا انسان واحد حقيقى ، وفعل واحد واقعى ، فيكفى أن يستيقظ شخص فجأة ، أعنى الشخص الذى يرى هذا الحلم ، حتى يتبدد كل شيء ؟ » . ولكن هأنذا تأيت عن موضوعي .

أقولها سلفاً : ان فى حياة كل نسان مشايع وأحلاماً تبلغ من الشذوذ والغرابه ، فيما يبدو ، أن المرء يستطيع من أول نظرة ودون تعرض للخطأ أن يعدها جنوناً . وان جنوناً من هذا النوع هو ما كنت أحمله فى ذلك الصباح الى زياريف ، الى زياريف لأتنبى ليس لى أحد غيره ببطرسبرج يمكن أن أتجه اليه فى هذه المرة . والحق أننى لو كنت أملك حرية الاختيار لكان ايفيم آخر من أستطيع أن أعرض له اقتراحى .

وحين جلست أمامه أحسست أن الهديان والحمى مجسدين قد جلسا أمام الاعتدال والاسفاف مشخصين . ولكن بينما كنت أنا مؤيداً بالفكرة والعاطفة الصحيحة ، كان هو لا يؤيده شىء الا هذه النتيجة العملية : ذلك لا يعمل ! الخلاصة : أوضحت له أننى ليس لى ببطرسبرج أحد أستطيع أن اتخذه شاهداً غيره ، فى قضية شرف تبلغ مبلغاً كبيراً من الخطورة ، وأنه رفيق قديم وأنه ليس له حق فى أن يرفض ، وأننى أريد أن أدعو الى المبارزة ضابطاً من الحرس برتبة ليوتان هو الأمير سوكولسكى ، لأنه منذ أكثر من سنة قد صفع أبى فرسيلوف بمدينة « امس » . يجب أن أذكر أن ايفيم كان على علم بجميع تفاصيل حياتى العائلية ، وعلاقائى بفرسيلوف ، وكان يعرف كل ما أعرفه أنا نفسى عن حياة فرسيلوف . كنت قد أفضيت اليه بهذا كله مراراً ، باستثناء بعض الأسرار طبعاً . وقد أصغى الى كلامى جالساً على عادته ، مشعناً كمصفور فى قفص ، صامتاً رصيناً متعاطفاً مع شعره الأشقر المنفوش . وكانت ابتسامه جامدة ساخرة قد ارتسمت على شفتيه لا تبارحهما . وكانت هذه الابتسامه مؤذية ، لا سيما وأنها ليست مقصودة ، وإنما هى مرسمه على شفتيه بغير ارادة منه . كان واضحاً أنه فى تلك اللحظة كان يحس بأنه يتفوق على تفوقاً كبيراً فى الذكاء والارادة على السواء ، تفوقاً حقيقياً واقعياً . حتى لقد تراءى لى أنه يحتقرنى بسبب ما حدث أمس عند درجانشيف . فلا بد أن يكون الأمر كذلك : ان ايفيم هو الجمهور ، ان

ايقيم هو الشارع ، والشارع لا ينحني الا للنجاح دائماً •
قال يسألني :

– وفرسيلوف ، ألا يعرف عن الأمر شيئاً ؟

– طبعاً لا يعرف •

– فبأي حق تتدخل في شئونه ؟ ثم ... ما الذي تريد أن تبرهن عليه بهذا العمل ؟

كنت أعرف هذه الاعتراضات ، فأوضحت له فوراً أن الأمر ليس سخيفاً الى الحد الذي يتصوره • فأولاً : سأبرهن لذلك الوقح الذي هو أمير أنه لا يزال يوجد رجال يفهمون الشرف حتى بين أبناء طبقتنا • وثانياً : سأخزي فرسيلوف وألقنه درساً • وثالثاً – وذلك هو الشيء الأساسي : سوف يرى فرسيلوف ، ولو كان على حق في أنه – لانتعاعات قائمة في نفسه – لم يدعُ الأمير الى المباراة بل تحمّل الصغعة ، سوف يرى على الأقل أن هناك مخلوقاً قادراً على أن يشعر بالاهانة التي ألحقت بفرسيلوف كشعوره باهانة 'ألحقت به هو ، ومستعداً لأن يضحي بحياته في سبيله ... مع أنه ينفصل عنه الى الأبد •

– على مهلك ... لا تصرخ ... ان عمتي لا تحب هذا • قل لي من فضلك : أليس بين فرسيلوف وبين هذا الأمير سوكولسكي نفسه دعوى ينظر فيها القضاء بشأن ميراث ؟ انها اذن لوسيلة طريفة جديدة من أجل كسب الدعوى بقتل الخصم في مباراة •

فأوضحت له أنه ليس الا غيباً ووقحاً وأنه اذا كانت إبتسامته الساخرة تسع لحظة بعد لحظة ، فما هذا الا دليل على صلف نفسه وقلة عقله ، وانه لا يستطيع أن يفترض أن هذه الاعتبارات الخاصة بالدعوى التي ينظر فيها القضاء لم تخطر ببالي منذ البداية ، وان هذه الاعتبارات لا يمكن أن تشرف بوجودها الا رأسه الخاوي • ثم عرضت له أن القضاء قد فصل في الدعوى ، وأن فرسيلوف قد كسبها ، وأن

اندعوى لا تستهدف الأمير سوكولسكى بل الأمراء سوكولسكى ، فاذا مات منهم واحد بقى الآخرون ، ولكن يحسن طبعاً تأجيل التحدى الى ما بعد انقضاء المهلة القانونية لرفع الدعوى الى محكمة النقض (رغم أن الأمراء سوكولسكى لا ينتوون رفعها الى محكمة النقض) ، وانما يحسن ذلك من باب التقيد بالمواضعات المألوفة ، حتى اذا انقضت المهلة القانونية قامت المباراة ، ولقد جئت وأنا أعلم أن المباراة لن تتم اليوم ، ولكننى فى حاجة الى اتخاذ احتياطاتى ، لأننى ليس لى أحد أتأخذه شاهداً لى ولا أعرف احداً ، فاذا رفض ايفيم أن يكون ذلك الشاهد ، كان لى من الوقت ما يتسع للبحث عن شخص غيره على الأقل . فلهمنا السبب انما جئت .

— ما كان عليك الا أن تجيء بعد انقضاء المهلة القانونية ، بدلاً من أن تقطع عشرة فراسخ بدون طائل .

قال ذلك ونهض وتناول كسكيتته . فسأله :

— أأكون شاهدى اذن ؟

— لا ، طبعاً لا ...

— لماذا ؟

— أولاً للسبب التالى : اذا وافقت الآن على أن أكون شاهداً لك فى المستقبل ، فسوف تجيء الى هنا كل يوم طوال مدة المهلة القضائية . وثانياً لأن هذا كله سخافات لا أكثر . أنظن أننى أرضى أن أدمر مستقبل من أجلك ؟ وماذا لو سألتى الأمير : « من أرسلك ؟ » فقلت له : — « دوجوروكى » ، فقال لى : — « وما شأن دوجوروكى بفرسيلوف ؟ » . قد يكون على عندئذ أن أشرح له أصلك ، أليس كذلك ؟ لسوف يفطس اذن من فرط الضحك !

— فما عليك عندئذ الا أن تلطمه على خطمه !

— سخف !

- أتخاف وأنت القوى ؟ لقد كنت أقوانا جميعاً في اللسيه .
- أخاف . طبعاً أخاف . ثم ان الأمير سيرفض أن يبارزك .
- ان المرء يبارز ندّاً له .
- أنا أيضاً بثقافتى سيد . ان لى امتيازات . اننى ند له . واذا كان أحدنا لا يرقى الى مستوى الآخر فهو الذى ليس لا يرقى الى مستوى .
- لا ، لا ، أنت صغير جداً !
- صغير ؟ كيف ؟
- هكذا ! نحن كلانا صغير ، وهو كبير .
- غبى ! اننى بحكم القانون أستطيع أن أتزوج منذ سنة .
- تزوج ما شئت أن تتزوج . ولكن هذا لا ينفى أنك فتى غر
- لم يشب عن الطوق بعد .
- أدركت أنه يريد أن يسخر منى . ولقد كان فى وسعى طبعاً أن أستغنى عن رواية هذا الجزء الغبى من قصتى ، بل لعله كان يستحسن أن يغيب هذا الجزء فى المجهول . أضف الى ذلك أنه منفر بما يتصف به من تفاهة وقلة فائدة ، رغم أنه كانت له نتائج خطيرة .
- ولكن من أجل أن أعاقب نفسى مزيداً من العقاب ، سأروى الخاتمة . فبعد أن أدركت أن ايفيم يسخر منى ، أبحث لنفسى أن أضربه على عظم كتفه الأيمن بقبضة يدي اليمنى . فأمسكنى عندئذ من المنكين ، وأدارنى الى جهة الشارع ، وبرهن لى فعلاً على أنه كان أقوانا جميعاً فى اللسيه .

لا شك أن القارىء سيتخيل أننى حين تركت ايفيم كنت معتكر المزاج غاضباً ، ولكن القارىء سيخطئ إذا هو تخيل ذلك . فلقد كنت أدرك أن الحادث هو مما يقع بين تلاميذ مدرسة ، بين تلاميذ ليسيه ، وأنه لايمس جوهر القضية . وقد شربت قهوة فى جزيرة فاسيلي متمعداً أن أتجنب مطعم الأمس فى بطرسبرجسكايا ستورونا : فان هذا المطعم وهزاره يشيران الآن فى نفسى كرهاً مضاعفاً . ان بى صفة غريبة : هى أننى يمكن أن أكره الأماكن والأشياء ككرهى للأشخاص تماماً . كذلك أحب فى بطرسبرج أماكن معينة سعيدة ، أعنى أماكن سعدت فيها يوماً . ومن أعجب الأمور أننى أدخر تلك الأماكن السعيدة ، أى أتعمد أن أغيب عنها زمناً طويلاً ، لأذهب إليها فيما بعد ، حين أكون وحيداً وحدة تامة ، وحين أكون شقياً شقاء شديداً ، فأضئ الى هناك نشداناً للعزاء واحياءً للذكرى . وفيما كنت أشرب القهوة ، أثبتت بينى وبين نفسى على ايفيم وقدورت فيه ما يتصف به من حسن الادراك . نعم ، انه يملك من الحس العملئ أكثر مما أملك ، ولكن هل هو فى قلب الواقع أكثر منى ؟ ان الواقعية التى لاثرى ما هو أبعد من الأنف أشد خطراً من الخيال الجامح المجنون ، لأنها عمياء . ولكنى مع نثائى على ايفيم (الذى لا شك أنه كان فى تلك اللحظة مقتنماً بأتنى أغمره بالثلاثم مطوقاً فى الشوارع) ، لم أتدخل عن شئ من اقتناعائى كما لم أتدخل عن شئ منها الى هذا اليوم . لقد رأيت أناساً ما ان ينصب عليهم سطل من ماء بارد حتى يجحدوا لا أعمالهم فحسب ، بل أفكارهم أيضاً ، وحتى يضحكوا مما كانوا منذ ساعة واحدة يعدونه مقدساً ! ما أسهل ذلك عليهم ! لعل ايفيم كان على حق أكثر منى حتى فى جوهر الأمر ، ولعلنى أشد الأغبياء غباءً ، ولعلنى كنت غير صادق ، ولكن

هذا لا ينبغي أن فى قرارة المسألة نقطة كنت فيها أنا أيضاً على حق ، وأن
عندى أنا أيضاً شيئاً صحيحاً عجّز الناس عن فهمه خاصة فلم يدركوه فى
يوم من الأيام •

وصلت الى بيت فاسين فى الزاوية التى يلتقى فيها فوتاكا وجسر
سان سيمون عند تمام الظهر تقريباً ، ولكنه لم يكن فى البيت • لأنه يعمل
فى جزيرة فاسيلي ، ولا يعود الا فى موافيت معينة ، ومن هذه المواقيت
ساعة الظهر فى جميع الأيام تقريباً • واذ كان ذلك اليوم عيداً نسيت
الآن ما هو ، فقد كنت أقدر أن أجده حتماً • فلما لم أجده وطنت نفسى
على انتظاره رغم أننى أجيئه أول مرة •

اليكم كيف فكرت فى الأمر : ان الرسالة التى أملكها والتى تتعلق
بالميراث تثير مسألة ضمير • فاذا احتكمت الى فاسين كنت أعلن له بذلك
أننى أحترمه احتراماً عميقاً فلا بد أن يرضيه هذا ارضاء كبيراً •
صحيح أن أمر هذه الرسالة كان يشغل بالى حقاً وأننى كنت مقتنعاً
اقتناعاً شديداً بضرورة الاحتكام الى أحد • ولكن أظن أننى كنت
أستطيع ، حتى منذ تلك اللحظة ، أن أخرج من هذه الصعوبة دون
الاستعانة بشخص غريب • وكنت أعرف خاصة ، أنا نفسى ، أنه يكفى
أن أسلم الرسالة الى فرسيلوف ، يداً بيد ، ثم فليفعل بها ما يشاء ! ذلك
كان الحل • أما أن أنصب نفسى قاضياً أعلى فى قضية من هذا النوع ، فذلك
أمر غير لائق البتة • وحين أسلم الرسالة ، يداً بيد ، دون أن أقول
شيئاً ، فأضع نفسى فى خارج القضية ، فان كل ما يحدث عندئذ يكون لى
كسباً وربحاً ، هذا عدا أننى اذ أفعل ذلك أعلو على فرسيلوف علواً
واضحاً ، لأن تنازلى وحده ، من جهتى ، عن منافع الميراث (لأن جزءاً
من الميراث كان سيؤول الىّ ، بصفتى ابن فرسيلوف ، فى الحال أو فى
المستقبل ، يهب لى حقاً معنوية فى الحكم على سلوك فرسيلوف فى المستقبل •
وما من أحد كان يستطيع أن يأخذ علىّ أننى دمرت الأمراء ، لأن

الوثيقة التي أملكها ليس لها أى قيمة قضائية حاسمة • هذا كله فكرت فيه وقتله لنفسى بوضوح فى غرفة فاسين الحالية ، حتى لقد خطر ببالي فجأة اننى انما جئت الى فاسين راغباً فى أن أعرف منه السلوك الذى يجب علىَّ أن أسلكه ، لشيء إلا أن أبرهن له فى هذه المناسبة على أننى أنبل الناس وأزهدهم بالمنفعة ، فبذلك أتقم لنفسى من مذلة الأمس •

وشعرت باشمزاز كبير • ولكننى لم أنصرف بل بقيت ، رغم علمى بأن هذا الاشمزاز سيزداد دقيقة بعد دقيقة •

يجب أن أذكر أولاً أننى كرهت غرفة فاسين كرهاً شديداً • من حقهم أن يقولوا : « أرنى غرفتك فأقول لك من أنت ! » كان فاسين يستأجر غرفة مفروشة عند مستأجرين فقراء يتخذون من التأجير مهنة ، وكان فى البيت مستأجرون آخرون • اننى أعرفها ••• هذه الحجرات الضيقة التى لا تكاد تكون مفروشة ، والتى تطمع مع ذلك فى أن تبدو مريحة مترفة • ان فيها - بالضرورة - ديواناً رخواً مشترى من « سوق العتيق » ، ديواناً يخشى المرء تحريكه ، وحوضاً ، وسريراً من حديد وراء حاجز • لا بد أن فاسين كان أحسن المستأجرين وأكثرهم ضماناً : ان لكل مؤجرة مستأجراً مفضلاً تحمل له الامتان والشكر حتماً • فغرفته ترتب ترتباً أفضل ، وتكنس كنساً أحسن ، وفوق ديوانه توضع صورة من الصور ، وتحت طاولته تفرش سجادة نحيلة • والناس الذين يحبون هذا النوع من النظافة التى تفوح منها رائحة العفن ويحبون - خاصة - هذا النوع من العناية والاحترام من جانب المؤجرين ، يكونون هم أنفسهم محل شبهة • ولقد كنت مقتنعاً بأن لقب « أحسن المستأجرين » كان يتملق فاسين • ولا أدري لماذا أخذ الحق يجتاح نفسى شيئاً فشيئاً من رؤية هاتين الطاولتين المزدهمتين بالكتب • كانت الكتب والأوراق والمحبرة ، كان ذلك كله مرتباً يبعث على أشد الاشمزاز والنفور • انه ذلك الترتيب الذى يوافق المثل الأعلى لفلسفة الجمال عند مؤجرة

ألمانية وخادمتها • ان الكتب كثيرة • وهى كتب حقاً ، لا جرائد ولا مجلات ، ولا بد أنه كان يقرأها • وأغلب الظن أنه حين يقرأ أو يكتب ، يصطنع هيئة تعبر عن أشد الوفاق والجد ، وأعظم الاهتمام والانشغال • أما أنا فلا أدري لماذا أفضل أن تكون الكتب فوضى ، فهذا على الأقل ينبىء بأن المرء يعمل بدون اغترار وتبجح • صحيح أن فاسين هذا مهذب مع الزائرين الى أقصى حد ، ولكن كل حركة من حركاته كأنها تقول : « يسرنى أن أقضى معك ساعة من الزمن ، ولكنى ، متى انصرفت أنت ، سأعود أنا الى ما كنت فيه من أمور ذات شأن • » • وصحيح أن المرء يستطيع أن يجرى معه حديثاً شائقاً جداً ، وأن يتعلم منه شيئاً ، ولكن كل اشارة من اشاراتهِ تكاد تنطق عنه قائلة : « سنتحدث معاً ، وسأسوفك كثيراً ، حتى اذا انصرفت أنت عدت أنا الى ما هو شائق حقاً • • • • » • ومع ذلك لم أنصرف بل بقيت • وقد أصبحت الآن على يقين كامل من أنني لست فى حاجة الى نصائحه •

مكثت ساعة بل تزيد ، جالسا أمام النافذة ، على أحد الكرسيين المصنوعين من خيزران ، اللذين كانا هناك • وكان مما يزيد حنقى أن الوقت يمضى ، وأن على أن أجد مسكناً قبل المساء • وتمنيت أن أتناول كتاباً عسى أن أبدد الضجر ، ولكننى لم أفعل : فلقد كانت فكرة التسلية وحدها تضاعف اشمزازى • ان صحتاً مطلقاً يخيم منذ أكثر من ساعة • ولكن هاذا أميز فجأة ، على مقربة منى ، وراء الباب الذى يسده ديوان ، بدون أن أريد ذلك ، وعلى نحو تدريجى ، همساً ما ينفك يقوى شيئاً بعد شيء • هما صوتا امرأتين ، يسمعهما المرء واضحين ، ولكن يستحيل عليه أن يميز الكلام • ولكننى من فرط ضجرى حاولت أن أميز ما تقوله المرأتان • كان واضحاً أنهما تتكلمان بحرارة ، واندفاع ، وأن حديثهما لا يدور على ترهات • ان أحد الصوتين يتضرع ويتوسل ، وان الصوت الثانى يجيب نافذ الصبر رافضاً معارضاً • لا شك أن المرأتين مستأجرتان

آخرين . وسرعان ما تسرب الى الملل ، وألفت أذناى هذه الأصوات ، فكننت أصغى ، ولكننى أصغى كالآلة بلا ارادة ، حتى لقد كنت فى بعض الأحيان أنسى نسياناً تاماً أننى أصغى ، ثم اذا بحادث خارق يقع على حين بقتة : لكأن أحداً قد نط من على كرسيه بكلتا ساقيه ، أو اندفع فجأة وأخذ يقرع الأرض بقدميه . ثم 'سمع أنين' ، ثم سمعت صرخة ، بل قل سمع زئير كزئير وحش غاضب لا يهمه أن يسمعه غرباء أو أن لا يسموه . فوثبت الى الباب ففتحتة ، وفتح فى الوقت نفسه باب آخر فى نهاية الممر (وقد علمت فيما بعد أنه باب المؤجرة) ، وخرج من الباب رأسان غريان مستطلعان . فسرعان ما انقطع الصراخ ، ولكن الباب الذى يجاور بابى فتح فجأة ، وخرجت منه - فيما بدا لى - امرأة شابة وكت هاربة ونزلت السلم بسرعة . وقد أرادت امرأة أخرى مسنة أن تصدها عن الهرب ولكنها لم تفلح فى ذلك ، فلم تزد على أن أخذت تناديهما فى أنين وشكاة :

- أوليا ! أوليا ! الى أين تركضين ؟ آه ! ...

لكنها وقد أبصرت بابنا المفتوحين اسرعت ترد بابها دون أن تغلقه ، وانما تركته مشقوقاً لتسمع ما يحدث على السلم ، الى أن غاب وقع خطى أوليا الهاربة غيباً تاماً .

رجعت الى نافذتى . وعاد الهدوء يخيم . حادث لا قيمة له ، بل لعله سخي ف وكففت عن التفكير فيه .

بعد ذلك بربع ساعة دوى فى الدهليز ، أمام باب فاسين ، صوت رنان طلق هو صوت رجل . وأمسكت يدى بقبضة الباب وشقته ، فاستطعت أن أبصر فى الدهليز رجلاً طويلاً القامة لا بد أنه لمحنى أيضاً ، بل لا بد أنه كان يتفرس فى ، ولكنه لم يدخل بعد ، وظل يكلم المؤجرة من آخر الدهليز ويده على قبضة الباب . فكانت المؤجرة ترد عليه بصوت نحيل منم جذل ، وكان فى وسع المرء أن يدرك من هذا الصوت وحده أن

المرأة تعترف هذا الزائر معرفة قوية وأنها تحترمه وتقدره قدراً كبيراً ، سواء من حيث هو زائر يحظى بثقتها ، ومن حيث هو انسان مرح لطيف . وكان الرجل المرح يصيح ويمزح ، ولكن الكلام كله يدور على أن فاسين ليس في غرفته ، وأنه لن يعثر عليه أبداً ، وأن هذا لا يحدث لغيره قط ، وأنه سينتظر كما انتظر في المرة السابقة ، وكان هذا كله يبدو للمؤجرة أمراً يبلغ غاية الفكاهة . وأخيراً دخل الزائر فاتحاً الباب على سبعة كلها .

انه رجل حسن الهندام ، يرتدى ثياب « سيد » كما يقال ، ولكن ليس في هيئته ما ينم عن أنه « سيد » ، رغم رغبته الواضحة في الظهور بهذا المظهر . وكان طلقاً غير متحرج ، بل قل كان وقحاً على السجية ، وهذا أقل كراهية الى النفس من رجل وقح درس نفسه مدة طويلة أمام مرآة . وكان شعره الكستناوى الذى خطه الشيب قليلاً ، وحاجباه الأسودان ، ولحيته الكبيرة ، وعينه الواسعتان ، كان ذلك كله لا يهب له طابعاً خاصاً ، بل يسبغ عليه لا أدري أى نوع من الشبه بجميع الناس . ان رجلاً مثله يضحك ، ويهم أن يضحك في كل لحظة ، ولكنك لاتشعر في صحبته بشيء من المرح أبداً . ومن الهزل ينتقل بسرعة الى الوقار ، ومن الوقار الى المرح ، أو الى غمزات بالأعين ، ولكن هذا كله يتعاقب فوضى وبغير علة ظاهرة . على كل حال ، لا داعى الى وصفه منذ الآن . لقد عرفت هذا السيد مزيداً من المعرفة فيما بعد ، لذلك رسمت له هنا ملامح أدق كثيراً من الملامح التى كان يمكننى أن أرسمها له لحظة فتح الباب ودخل الغرفة . فعلت ذلك على غير ارادة منى . ومع هذا يصعب على حتى هذا اليوم أن أقول عنه أى شيء محدد دقيق معين ، لأن الطابع الرئيسى الذى يطبع أمثاله هو أنهم أناس غير مكتملين ، أناس مبغضون ، أناس غير محددين .

ما ان جلس حتى خطر ببالى فجأة أنه لابد أن يكون زوج أم

فاسين ، وهو رجل يقال له السيد ستيلكوف ، سبق أن سمعت عنه شيئاً ، ولكننى سمعت ما سمعته عرضاً فيستحيل علىَّ أن أتذكر ما هو : كل ما أتذكره هو أن ما سمعته لم يكن خيراً • كنت أعلم أن فاسين اليتيم قد لبث مدة طويلة فى كنفه ، ولكنه تحرر من سلطانه منذ سنين كثيرة ، وأن أهدافهما ومصالحهما متعارضة ، وأنهما يعيشان الآن منفصلين فى كل أمر من الأمور • وقد تذكرت أيضاً أن ستيلكوف هذا يملك بعض الثراء ، بل أنه رجل نصاب ، أى انتنى لعلنى كنت قد عرفت عنه أشياء فيها مزيد من التفاصيل ، لكننى نسيتهما •

شملنى بنظيره دون أن يحينى • ووضع قبعته العالية على الطاولة أمام الديوان ، وأبعد الطاولة بقدمه بدفعة قوية ، وجلس على الديوان الذى لم أجزؤ أنا أن أجلس عليه ، بل قل تهاوى عليه تهاوياً بلغ من الثقل أننى سمعت الديوان يقرقع تحته ، وترك ساقيه تتدليان ، ثم رفع طرف قدمه اليمنى التى تتعل حذاء لناعاً وأخذ يتأمل الحذاء • ولكنه لم يلبث أن التفت الىَّ وفاسنى بعينه الواسعتين الجامدتين قليلاً • وقال وهو يهز لى رأسه هزاً خفيفاً :

— لن أراه اذن قط !

فلم أجب بكلمة •

— ليس سليماً • له آراء فى كل أمر • قادم من بطرسبرجسكاياستورونا !
سألته :

— أأنت قادم من بطرسبرجسكاياستورونا ؟

— بل أنا الذى أسألك هذا السؤال •

— أنا ... أنا قادم من هناك فعلاً ، ولكن كيف عرفت ذلك ؟ •

— كيف ؟ هم ...

• وغمز بعينه • ولكنه لم يتنازل فيفضل بالاجابة •

قلت :

- أنا لا أقيم فى بطرسبرجسكيا ستورونا ، ولكننى قادم منها ،
فمنها انما جئت الى هنا •

وظل يتسّم صامتاً ، وكانت ابتسامته تصطنع طابع الخطورة ، فكرهتها
كرهاً شديداً : ان فيه شيئاً مماً فى البلهاء •
وقال أخيراً :

- عند السيد درجاشيف ؟

- ماذا عند السيد درجاشيف ؟

• وحملت

فنظر الىّ وقد لاح فى هيئته معنى الانتصار • قلت :

- أنا لا أعرف درجاشيف !

- همّ •••

قلت :

- كما تشاء •

وأصبح الآن كريهاً الى نفسى مقيتاً •

- همّ •• نعم •• لا ! •• اسمح لى • هب أنك تشتري شيئاً من
دكان وأن مشترياً ثانياً يشتري شيئاً آخر من دكان آخر مجاور ، فما هو
هذا الشيء الآخر فى رأيك ؟ هو مال عند بائع يسمونه مرابياً •• ذلك
أن المال هو أيضاً شيء ، وأن المرابى هو أيضاً تاجر •• هل تتابع كلامى ؟
- أظن •

- ويمر مشتري ثالث فيقول مشيراً الى أحد الدكانين « هذا حسن »

ويقول مشيراً الى الدكان الآخر « هذا غير حسن » ، فما عسى يكون رأيي
فى هذا المشتري ؟

— ما يدرينى أنا !

— لا ، اسمح لى • لقد ضربت مثلاً • لابد للانسان من أن يضرب
أمثلة • هب أنتى أتجول فى شارع نفسكى ، فلاحظت على الرصيف المقابل
فى الجهة الأخرى من الشارع رجلاً آخر أحب أن أعرف طبعه •
ثم وصلنا كلانا الى شارع مورسكيا حيث « المخزن الانجليزى » ، فلاحظنا
متجولاً ثالثاً داسته عربية • اتبه الآن انتباهاً قوياً : ان شخصاً رابعاً يمر
فيريد أن يعرف طباعنا نحن الثلاثة جميعاً ومنا الرجل الذى داسته العربية •
أقصد يريد أن يعرف طباعنا من حيث الروح العملية والميل الى الأمور
الجدية • • هل تتابع كلامى ؟

— معذرة • انتى أتابع ، ولكن بصعوبة شديدة •

— نعم ، هذا ما قدرته • فسأغير الموضوع • هب أنتى فى مدينة من
مدن المياه المعدنية بألمانيا ، كما سبق أن ذهبت الى هناك مراراً كثيرة •
ليس مهماً أن أعين اسم المدينة • وأتجول فأرى انجليزاً • ولكن ها نحن
أولاء جميعاً ، بعد شهرين ، وقد انتهى الموسم ، نلتقى فى الجبال ، ونمضى
تسلق معاً ، متوكئين على عصى مدببة الأطراف ، فنصعد تارةً فى جبل
وتارةً فى جبل آخر • لا قيمة لسؤالك عن الجبل أى جبل هو ؟ يستوى
أن يكون هو هذا الجبل وأن يكون ذاك • ولكن هب أنتى عند المنعطف ،
أى فى خاتمة الشوط ، هناك حيث يقطر الرهبان خمرتهم ، التقيت بواحد
من سكان الجبل وقف جامداً معتزلاً ينظر فى صمت ، فأردت أن أعرف
مدى ما يتصف به من روح الجد : فما رأيك ؟ هل أستطيع أن أتجبه
بالكلام الى الانجليز الذين أسير معهم بعد أن لم أستطع فى مدينة المياه أن
أجرى أى حديث بينى وبينهم ؟

- ما يدرينى ! معذرة • انتى أجد فى متابعة كلامك عناءً كبيراً •

- كبيراً ؟

- نعم ، انك تتعبينى •

- هم ••

وطرف بعينه وحرك يده بإشارة لا شك أنها كانت تعبر عن معنى الانتصار والظفر • ثم استل من جيبه بوقار كبير وهدوء شديد ، جريدة لابد أنه اشتراها منذ برهة قصيرة ، ففصها وأخذ يقرأ فى الصفحة الأخيرة منها ، كأنه يريد أن يدعى فى راحة تامة • ولبت خمس دقائق لا يرفع الى بصره •

- لم تنزل أسعار أسهم « برست جريف » ، هه ؟ انها لا تزال فى ارتفاع ! ما أكثر الأسهم التى تدهورت أسعارها •

قال ذلك وهو ينظر الى مهتماً أبلغ الاهتمام • قلت :

- مازلت لا أعرف عن شئون البورصة كثيراً •

- أأنت تستكر ؟

- أستكر ماذا ؟

- المال •

- لا أستكر المال •• ولكنى أرى أن منزلة الفكرة قبل منزلة

المال •

- أى •• معذرة •• هب أن رجلاً هو رأسمالى كما يقال ••

- الفكرة أولاً ، والمال بعد ذلك • فبدون فكرة عليا ينهار المجتمع

رغم كل ما يملكه من مال •

لا أدري حقاً لماذا تحمست • ونظر الى بشىء من الغباء ، كرجل

أصبح لا يعرف كيف يخرج من المأزق ، ثم تهلتت أساريه فجأة ،
وارتسمت على شفثيه ابتسامة جذلة مأكرة وقال :

— وفرسيلوف ، هه ؟ حظى بالغبنة ، هه ؟ حكموا له أمس ،
هه ؟

فرايت فجأة ، وعلى دهشة كبيرة منى ، أنه يعرف من أنا منذ
مدة طويلة ، وأنه ربما كان يعرف أشياء كثيرة أيضاً . ولكننى لا أفهم
لماذا احمر وجهى فوراً ، وشخصت ببصرى اليه شخصاً غيباً أبله فلا
أشبح عنه لحظة . فكان واضحاً أنه انتصر ، وكان ينظر الى فرحاً كأنه
قبض على بحيلة مأكرة ، وأمسكنى متلبساً بالجرم . ثم رفع حاجبيه وقال :

— لا ! اسألنى أنا عن السيد فرسيلوف ! ماذا قلت لك منذ هنيهة عن
الحد فى الأمور ؟ منذ سنة ونصف كان فى وسعه أن يتم صفقة كبيرة
بواسطة ذلك الطفل ، ولكن ضربته لم تصب هدفها ، ودق عنقه ..

— بواسطة أى طفل ؟

— بواسطة طفل لا يزال رضيعاً ، وهو ينفق على حضائته سرّاً .
ولكنه لن يجنى من ذلك شيئاً ، لأن ..

— أى طفل رضيع ؟ ما هو الموضوع ؟

— هو ولده طبعاً ، هو ولد له من « الأنسة » ليديا آخماكوفا ..
« فتاة فتانة كانت تلاطفى » ، فوسفور أعود الثقاب ، هه ؟

— ما هذه السخافات ؟ انه لم يولد له ولد من آخماكوفا أبداً !

— غريب أمرك ! أين كنت أنا اذن ؟ يخيل الى مع ذلك أنتى
طبيب ومولد . ان اسمى ستيلكوف . ألا تعرفنى ؟ صحيح أنتى فى ذلك
الحين كنت قد انقطعت عن ممارسة مهنة التوليد منذ مدة طويلة . ولكننى
كنت أستطيع أن أسدى بنصيحة عملية فى حالة عملية .

— أنت مولد •• هل ولدت آخما كوكفا ؟

— لا ، لم أولدها أبداً • وإنما كان هناك ، فى الضاحية ، طيب اسمه جراتس ، مقل بأعباء أسرة ، أعطى نصف دينار ، وهو المبلغ الذى 'يدفع هناك للأطباء ، ثم انه عدا ذلك لم يكن قد استدعا أحد • المهم أنه ذهب وناب منابى • فأنا الذى أوصيت به لتزداد الظلمات كثافة • هل تتابع كلامى ؟ أنا من جهتى لم أزد على أن أسديت بنصيحة جواباً عن سؤال من فرسيلوف ، من آندره پتروفتش فرسيلوف ، سؤال التمس فرسيلوف جوابه منى سرأ ، ولكن فرسيلوف فضل أن يطارد أرنيين فى آن واحد • كنت أصغى الى كلامه مندهشاً أعمق الاندهاش •

— والمثل يقول عندنا ، بل عند الشعب : « من طارد أرنيين لم يستطع أن يصطاد أيّاً منهما » • وأنا أقول : ان الاستثناءات اذا تكررت أصبحت هى القاعدة العامة • لقد طارد أرنباً ثانياً ، أو قل بالروسية الفصيحة طارد سيدة ثانية ، فلم يظفر بأية نتيجة ! طير فى اليد خير من عشرة طيور على الشجرة • انه يتردد حيث يجب الإسراع • فرسيلوف ! ألا انه « نبي للنساء » ، كما وصفه أمامى الأمير الشاب سوكولسكى فأحسن الوصف أيما احسان • لا ، انك لتعجبني حقاً ! اذا أردت أن تعرف أشياء كثيرة عن فرسيلوف ، فتمال اسألنى أنا !

كان واضحاً أنه معجب بقمى الذى تدور من فرط الدهشة ! اننى لم أسمع عن هذا الطفل الرضيع قبل ذلك أبداً • وفى تلك اللحظة قرع باب غرفة الجارتين ، ودخل الى غرفتهما شخص مسرع •

— فرسيلوف يسكن فى سيمينوفسكى بولك ، شارع موجايسك ، عمارة لتفينوفا ، رقم ١٧ ؛ أنا قادمة من مكتب العناوين !
بذلك صاح صوت امرأة غاضبة • وكانت كل كلمة من كلماتها

مسموعة • فقطب ستيلكوف حاجيه ، ورفع أصبعه أعلى من رأسه
وقال :

– نحن نتكلم عنه هنا ، وها هو ذا يظهر •• تلك هى الاستثناءات
التي تتكرر ! صدق المثل : أذكر الديب وحضر القضيب ••
ونفض عن مكانه بوثة فجلس على الديوان ووضع أذنه على الباب
الذي كان يسده هذا الديوان •

دهشت دهشة شديدة • لقد أدركت أن تلك الصرخة لابد أنها
صادرة عن المرأة الشابة التي هربت منذ قليل مهتاجةً احتياجاً كبيراً •
ولكن ما شأن فرسيلوف هنا ؟ وعاد الصراخ الذى سمعته منذ قليل يدوى
مسعوراً • انه صراخ اسنان قد جن غضباً لأنه 'يمنع عنه شيء ما ، أو يصد
عن فعل شيء ما • وكان الفرق الوحيد هو أن الصرخات أو الاعوالات قد
دامت الآن مدةً أطول • كان ثمة صراع ، وكلمات عجلى سريعة :
« لا أريد ، لا أريد » ، « ردوه هذا ، ردوه هذا ، حالا » ، أو شيئاً من
هذا القيل لا أستطيع أن أتذكره تذكرًا دقيقاً • وكما حدث من قبل ،
ونب أحد الى الباب فجأةً ففتحه ، واندفعت المراتان فى الدهليز تحاول
احدهما أن تصد الأخرى عن الهروب ، كما وقع منذ قليل • فاذا بصاحبنا
ستيلكوف الذى كان قد نزل الى أسفل الديوان وراح يصغى متلذذاً ،
إذا به يشب الى الباب دفعة واحدة ويخرج الى الدهليز متجهاً الى المراتين •
واقربت أنا أيضاً من الباب بطبيعة الحال • ولكن ظهور ستيلكوف فى
الدهليز كان له أثر كأثر سطل من ماء بارد : فما ان رآته الجارتان حتى
أسرعتا تغيان فى غرفتهما ، وتغلقتان بابها فيقرقع • وقد هم ستيلكوف
أن يركض وراءهما ، لكنه توقف رافعاً أصبعه مبتسماً مفكراً • فرأيت
فى ابتسامته هذه المرة شيئاً فيه أقصى الحب والشر واللؤم • حتى اذا أبصر
المؤجرة واقفة أمام بابها من جديد ، أسرع اليها سائراً على رءوس
الأصابع ، ولبت يهامسها مدة دقيقتين ، فكان واضحاً أنه حصل منها على

بعض المعلومات ، ثم قفل راجعاً الى الغرفة بخطى فيها اختيال وثبات ، وتناول من على الطاولة قبعته العالية ونظر الى وجهه فى المرأة ، ورتب شعره ، ومضى الى باب الجارتين حتى دون أن ينظر الى ، فظل يتنصت عليهما دقيقة ، وقد ألصق بالباب أذنه وراح يرسل الى المؤجرة عند الطرف الآخر من الدهليز غمزات تحمل معنى الانتصار ، فكانت المؤجرة تهدده باصبعها وتهز رأسها كأنها تقول : « آآآ يا للعفريت .. يا للعفريت ! » . ثم هاهو ذا ينقر على بابهما بسلاميات يده وقد لاح فى وجهه عزم يخالطه ترقق وتلطف . وها هو ذا صوت من الداخل يسأل :

— من ؟

— هل يؤذن لى بالدخول ، لأمر بالغ الخطورة ؟

كذلك أجاب ستييلكوف بصوت عال فيه وقار ورسانة . فلم يفتح الباب بسرعة ، ولكنه فتح مع ذلك ، فتح فى أول الأمر قليلاً أو قل شق شقاً ، غير أن ستييلكوف أمسك قبضته امسكاً قوياً ، فلا يستطيع أخذ أن يعيد اغلاقه . وبدأت المحادثة ، فكان ستييلكوف يتكلم بصوت عال ، وما ينفك يحاول أن يدخل الغرفة . لا أتذكر الكلمات التى قالها ، ولكن حديثه كان يدور على فرسيلوف ، وكان يذكر أنه يستطيع أن يجيء بأخبار ، وأن يزود بايضاحات ، وكان يردد : « لا ، أسألانى أنا ، أسألانى أنا » . وهلم جراً . ولم يلبث أن 'أدخل بسرعة . فرجعت الى ديوانى ، وأخذت أنصت ، لكننى لم أستطع أن أميز كل شيء ، وانما كنت أسمع اسم فرسيلوف يتردد كثيراً . وحزرت من نبرة الصوت أن ستييلكوف قد سيطر على الحديث ، فهو الآن لا يتكلم مخاتلاً بلف ودوران ، بل يجرى كلامه طلقاً حاسم اللهجة ، كحديثه معى منذ قليل ، فزارة يسأل قائلاً : « هل تتابعان ما أقول ؟ » ، وتارة يقول آمراً : « دعانى أوغل مزيداً من الايغال الآن ! » وما الى ذلك . ولكن لابد أنه كان لطيفاً غاية اللطافة مع

المرأتين • وقد جلجلت ضحكة منذ الآن مرتين ، وأغلب الظن أنه كان ضحكا في غير محله ، لأنتى كنت أسمع ، عدا صوته وأعلى من صوته أحيانا ، صوتى المرأتين اللذين لا يعبران عن أى ابتهاج ، ولا سيما صوت المرأة الشابة الذى أطلق الصرخات قبل ذلك • كانت هذه المرأة الشابة تتكلم كثيراً ، بلهجة عصبية ، وسرعة ظاهرة ، من أجل أن تتهم وتشكى وتطالب بالعدل حتماً • ولكن ستيلكوف لا يبقى هادئاً : فيها هو ذا يرفع صوته أكثر فأكثر ، ويزداد ضحكه لحظة بعد لحظة • ان أشخاصاً من نوعه لا يحسنون الاصغاء الى الآخرين • ولم ألبث أن نزلت عن الديوان ، اذ بدا لى أن من العيب أن أُنصت ، ورجعت الى مكانى السابق أمام النافذة على كرسى الحيزران • وكنت مقتنئاً بأن فاسين لا يضرر لهذا السيد أى اعتبار ، ولكن لو أفصحت له عن رأيى ، لهبَّ يدافع عنه برصانة ووقار ، ولأخذ يلقننى درساً فيقول : « هذا رجل على ، انه واحد من رجال الأعمال هؤلاء المحدثين الذين يستحيل أن نحكم عليهم من وجهة نظرنا العامة المجردة » • وانى لأتذكر من جهة أخرى أننى كنت فى تلك اللحظة محطم النفس وكان قلبى يخفق خفقاناً قوياً وكنت أنتظر أن يقع حادث ما • وانقضت عشر دقائق ، فاذا أنا أسمع فجأة ، فى وسط ضحكة فظيمة ، وثوباً أحدياً عن كرسيه ، كما حدث منذ برهة ، وأسمع المرأتين تصرخان ، وأسمع وثوب ستيلكوف أيضاً ، وألاحظ أنه أصبح يتكلم بلهجة أخرى ، كأنه يحاول أن يبرر نفسه ، كأنه يضرع الى المرأتين أن تتكرما فتسمعا كلامه الى نهايته ••• ولكنهما لم تصغيا اليه • ودوت صرخات : « أخرج من هنا ! ما أنت الا وغد ! ما أنت الا وقح ! » • كان واضحاً اذن أنه يطرد • وقد فتحت باب غرفتى فى اللحظة التى خرج فيها ستيلكوف الى الدهليز من عند الجارتين مدفوعاً بأيديهما دفعاً • فلما رآنى يصرخ مشيراً الى قائلأ لهما :

— هذا ابن فرسيلوف !

وأضاف :

- لم تريد أن تصدقاني ... فأنظرا اذن ! هذا هو ابنه بنفسه ، هذا هو بعينه !

وقبض على يدي قبضاً قوياً ، دون أن يضيف الى ما قاله شيئاً .

كانت المرأة الشابة في الدهليز . وكانت المرأة المسنة في شق الباب على مسافة خطوة منها . أتذكر أن الفتاة المسكينة لم تكن دميعة : انما في نحو العشرين من العمر ، ولكنها نحيلة هزيلة مريضة الهيئة ، يضرب لونها الى الحمرة ، وتشبهه أختي بعض الشبه وجهاً ، وتلك سمة خطفت بصرى ، ونقشت في ذاكرتي . ولكن ليزا ما اجتاحتها في يوم من الأيام - ولا أمكن أن تجتاحها في يوم من الأيام - نوبة غضب شبيهة بنوبة الغضب التي تهز الانسانية التي تقف أمامي الآن . كانت شففاها بيضاوين ، وكانت عيناها الشهاباوان قدحان شرراً ، وكانت ترتعش من شدة الخلق من قمة رأسها الى أخمص قدميها . أذكر أيضاً أنني أنا نفسي كنت في وضع يبلغ غاية الغباء والحزى ، فأننى لم أجِد كلمة أقولها ، بجزيرة هذا الرجل الفظ الوقح .

- هبه ابنه ! ما قيمة ذلك ؟ واذا كان في صحبتك فلا بد أن يكون وغداً حقيراً مثلك .
والتفتت الى " فقلت لي :

- اذا كنت ابن فرسيلوف فأبلغ أبك عنى أنه سافل ، منحط ، وأننى لست في حاجة الى ماله ... خذ ... خذ ... خذ ... ردّ الى هذا المال فوراً .

واستلت من جيبيها عدة أوراق نقدية . ولكن المرأة المسنة (وهى أمها كما عرفت ذلك فيما بعد) أمسكت ذراعها وقالت لها :
- ولكن قد لا يكون كلامه صحيحاً يا أوليا ! قد لا يكون هذا ابنه !

فألقت عليها أوليا نظرة سريعة ، وفكرت ، وتفكرت فيّ باحتقار ،
وعادت تدخل غرفتها ، ولكنها قبل أن تغلق الباب ، وقفت على العتبة ،
وشملت ستيلاكوف بنظرها مرة أخرى وقالت له :

— اخرج من هنا !

حتى لقد قرعت بقدمها الأرض ! ثم خبطت الباب فأغلقتة ، وسمع
صوت اقفاله من الداخل بالمفتاح . وكان ستيلاكوف ما يزال قابضاً على
كتفي ، فرفع أصبعه وقد تمدد فمه بإبتسامة طويلة تتم عن تفكير ، ثم حدق
إلى نظرة سائلة مستفهمة ، فججمجت أقول له .

— أرى سلوكك معي سخيلاً ومعيباً .

ولكنه كان لا يصغى الى كلامي ، ورغم أنه لم يحول بصره عني .
وتتم يقول حالماً الهيئة :

— هذا ما ينبغي أن يد ر . . . س !

— ولكن كيف تجرأت أن تقحني في هذه الأمور ؟ من هذه ؟
من هذه المرأة ؟ لقد أمسكت كتفي وجررتني . ما هذا الفعل ؟

— أوه ! امرأة فقدت بكارتها « الاستثناء الذي يتكرر كثيراً » . هل
تتبع كلامي ؟

وغرز أصبعه في صدري . فقلت وأنا أدفع أصبعه :

— دعني ! شيطان يأخذك !

ولكنه أخذ يضحك فجأة ، أخذ يضحك ضحكاً هادئاً رفيعاً جذلاً .
وأخيراً وضع قبعة على رأسه ، ثم قال وقد تغيرت سخته واربذ وجهه
وتقطب حاجباه :

- يجب نصح المؤجرة • عليها أن تطردهما من الشقة، وأن تطردهما بأقصى سرعة ، والا ... سوف ترى ! احفظ ما أقوله لك ، سوف ترى ...

وظهر عليه الابتهاج ، وقال يسألني :

- أنتظر جريشا ؟

فأجبت به بجزم :

- لا ، لن انتظره •

- طيب • سيان !

وبدون أن يضيف حرفاً واحداً ، أدار ظهره وخرج ، وأخذ يهبط السلم حتى دون أن يلقي نظرة على المؤجرة التي كان يبدو عليها أنها تنتظر منه ايضاحات وأنباء • وتناولت قبعتي أنا أيضاً ، وأسرعت أنزل بعد أن رجوت المؤجرة أن تبلغ فاسين أن دولجوروكى جاء اليه •

أضعت وقتى • فهأنذا أبادر الى البحث عن مسكن منذ خرجت • كنت ذاهلاً • وظللت أطوف فى الشوارع عدة ساعات • ودخلت خمسة بيوت مفروشة أو ستة ، لكننى واثق بأننى مررت بنحو عشرين بيتاً دون أن ألاحظها • ما كنت لأتصور أن العثور على مسكن أمر يبلغ هذا المبلغ من الصعوبة • لذلك ضاق صدرى ضيقاً شديداً • ان جميع الغرف التى رأيتها تشبه غرفة فاسين ، بل هى أسوأ منها ، وكراؤها مع ذلك باهظ جداً ، أو هو فوق طاقتى المالية • ولم أكن فى حاجة الى أكثر من ركن أضطجع فيه • فكنت اذا أفصحت عن هذا أجاب فى احتقار بأن علىّ اذن أن أتجه الى أناس ممن • « يؤجرون أركاناً » • زد على ذلك أن جميع البيوت التى رأيتها كانت تزدحم بمستأجرين شاذين يكفى أن أنظر الى سحنهم حتى أحس أننى لا أستطيع أن أساكنهم ، بل أننى مستعد لأن أدفع مالاً من أجل ألا أعيش بجوارهم • ففى أحد البيوت مثلاً رأيت أناساً بغير رندنجوت ، يبلغ عددهم عشرة أشخاص ، يرتدون صديرة ، وقد تشعثت لحاهم ، وظهر عليهم الفضول ، وليس فى سلوكهم أى تخرج ، قد احتشدوا فى غرفة ضيقة شديدة الضيق وراحوا يلعبون بالورق ويشربون البيرة • وقد عرضت علىّ فى ذلك البيت غرفة الى جانب تلك الغرفة • وفى بيت آخر انهمرت علىّ أسئلة المؤجرين فكنت أنا الذى أجيب عن الأسئلة ، وبلغت اجاباتى من الغباء أنهم كانوا ينظرون الىّ دهشين • وفى بيت ثالث ثارت ثائرتى وغضبت • ولا داعى الى وصف هذه التفاصيل التافهة على كل حال • وانما أردت أن أقول اننى وقد تعبت تعباً شديداً ، أصبت شيئاً من طعام فى نزل حين هبط المساء وكاد الظلام أن يخيم • وانتهيت الى اتخاذ قرار حاسم هو أن أذهب وحدى وبنفسى الى

فرسيلوف ، فأسلمه الرسالة الخاصة بالميراث (دون أى شرح أو تعليق) ، ثم أصدد الى فوق فأخذ أمتعتى فأملأ بها حقيتى وصرة ، وأمضى الى فندق آيت لىلى فيه . كنت أعلم أن فى آخر شارع أوبلوخوف ، بقرب « قوس النصر » فنادق يستطيع المرء أن يكترى فيها لنفسه غرفة مستقلة بثلاثين كوبكاً . فقررت أن أبذل هذه التضحية فى تلك الليلة حتى لا أبقى عند فرسيلوف مدة أطول . ولكنى حين مررت أمام « معهد التكنولوجيا » ، خطر ببالي فجأة أن أدخل على تاتيانا بافلوفا التى تسكن فى شقة أمام المعهد . وكانت حجتى التى عللت بها نفسى للدخول على تاتيانا بافلوفا هى هذه الرسالة نفسها التى تتعلق بالميراث ، ولكن رغبتي هذه التى لا تقاوم انما كانت لها أسباب أخرى الآن ، وهى أسباب أعجز اليوم عن وصفها : كان قد حدث فى فكرى خلط عجيب بين « الطفل الرضيع » و « الاستثناءات التى تصبح قاعدة عامة » ، وما الى ذلك . ترى أكنت أريد أن أروى شيئاً ، أم كنت أريد أن أصطنع أوضاعاً ، أم كنت أريد أن أشاجر تاتيانا بافلوفا ، أم كنت أريد أن أبكى ؟ لست أدري ، ولكنى صعدت سلم تاتيانا بافلوفا . لم أكن قد زرتها الى مرة واحدة قبل اليوم ، فى بداية اقامتى بموسكو ، وذلك لأثقل اليها رسالة من أمى لا أذكر الآن ما هى ، ولكنى أذكر أننى دخلت على تاتيانا بافلوفا ونقلت اليها الرسالة وانصرفت بعد دقيقة ، فلا أنا جلست ولا هى منعتنى من الانصراف .

فرعت الجرس . فسرعان ما فتحت لى الطباخة الباب ، وأدخلتنى صامتة لا تتكلم . ان هذه التفاصيل ضرورية جداً من أجل أن نفهم كيف أمكن وقوع ذلك الحادث الحارق الجنونى الذى كان له شأن خطير فى كل ما تبعه من أحداث . ولتبدأ بالكلام على الطباخة . انها فندلية سيئة الطبع فطساء الأنف أظن أنها كانت تكره مولاتها تاتيانا بافلوفا ولكن تاتيانا بافلوفا كانت لا تستطيع أن تنفصل منها ، وكانت تتعلق بها تعلقاً شديداً كعشق العوانس بكلاهما ذات الأنوف الرطبة ، أو بقططها الغافية

دائماً . كانت الفلندية تتقلب بين حالتين : فهي إما متأففة متدمرة ،
واما صامته في اثر شجار تظل خرساء لا تنطق بحرق واحد خلال
أسابيع بكاملها عقاباً لمولاتها . ولا شك أن مجيئى قد صادف يوماً من
أيام الصمت هذه ، لأننى حين سألتها : « هل السيدة فى البيت ؟ » -
وقد ألفتى سؤالى واضحاً كل الوضوح فيما أتذكر - لم تجبني
بكلمة ، ورجعت الى مطبخها دون أن تفتح فيها . واذ ظننت عندئذ
أن السيدة فى البيت ، دخلت غرفة الاستقبال ، ولكننى لم أجد أحداً ،
فاتنظرت ، ظناً منى أن تاتيانا بافلوفنا لن تلبث أن تخرج من غرفها ، والا
فهل كان للطباخة أن تدخلنى ؟ ولبثت واقفاً مدة دقيقتين أو ثلاث . وكان
الظلام يخيم ، وكانت شقة تاتيانا متجهمة فى ذاتها من كثرة ما يتبدل فيها
من ستائر وقماش هنا وهناك . ولنقل الآن كلمتين عن هذه الشقة الكريهة
من أجل أن يتصور القارئ هذا المكان الذى وقع فيه الحادث . ان تاتيانا
بافلوفنا ، بسبب طبعها المستبد العنيد ، وبسبب ما تتصف به من حب
الظهور بمظهر السادة النبلاء ، لم تستطع أن تكتفى بغرفة مفروشة ،
فستأجرت هذا السكن الذى يحاكى شقة ، لا لشيء الا أن تعيش فيه
مستقلة وأن تكون سيدة بيتها . والحق أن الغرفتين اللتين تتألف منهما
هذه الشقة أشبه بقفصين من أقفاص عصافير الكنارى ، قد التصق أحدهما
بالآخر ، وكان كل منهما أصغر من أخيه . وهما تقعان فى الطابق الثانى ،
وتطلان على فناء العمارة . انك حين تدخل هذه الشقة يطالملك فى أول
الأمر ممر صغير ممطوط ، لا يزيد عرضه على متر ، ثم ترى قفصى
عصافير الكنارى على يسارك ، فإذا نظرت الى أمام ، عند آخر الممر ،
أبصرت مدخل مطبخ صغير . ان الأربعة عشر متراً مربعاً من الهواء ،
التي لا بد منها للإنسان حتى يعيش اثنتى عشرة ساعة ، قد تكون متوفرة
فى هذا البيت ، ولكن لا شك أنه لا يتوفر فيه من الهواء أكثر من ذلك .
الغرفتان واطئتان الى حد مخيف ، والأبشع من هذا أن النوافذ والأبواب

والسقف والجدران والأثاث ، أن كل ذلك كان مكسوّاً أو مغطى بقماش من قطن ، قماش فرنسي جميل مشجر ، لذلك تبدو الغرفة أضيق من واقعها مرتين ، حتى لكأنها جوف عربية . ولقد كان المرء يستطيع في الغرفة التي كنت أنتظر فيها أن يتحرك ملتقاً إذا أراد ، رغم أن المكان مزدحم بالأثاث ، ولم يكن الأثاث رديئاً : ففي الغرفة أنواع شتى من الطاولات الصغيرة المصنوعة من خشب مرصع مزدان بالبرونز ، وفيها أنواع من العلب ، ومنضدة لأدوات الزينة رائعة الجمال بل واسعة الثراء . أما الغرفة الصغيرة الأخرى التي كنت أتوقع أن تخرج منها تاتيانا بافلوفا ، وهي غرفة النوم التي تفصلها عن الأولى ستارة ، فليس فيها إلا سرير كما عرفت ذلك من بعد . إن هذه التفاصيل كلها ضرورية لفهم الحماقة التي ارتكبتها .

انتظرت لا يساورني أى شك . وإنى لذلك إذا بالجرس يرن . وسمعت الطباخة تجبّاز المر بغير تعجل ، وتدخل عدداً من الزوائد صامتة ، كما فعلت معي منذ قليل . هما سيدتان تتكلمان كلتاها بصوت عال . ولكن ما كان أشد دهشتي حين تعرفت صوت احدهما فعرفت أنها تاتيانا بافلوفا ، وتعرفت صوت الثانية فعرفت أنها المرأة التي لم أكن متهيئاً لأن ألقاها الآن أبداً ، ولا سيما في هذا المكان ! لا شك في أنها هي ، « امرأة الأمس » ! فما العمل ؟ اننى لا ألقى هذا السؤال على القارئ . وإنما أنا أتخيل تلك الدقيقة لنفسى ، وما زلت الى اليوم عاجزاً عاجزاً مطلقاً عن أن أفسر لنفسى كيف ارتيمت فجأة وراء الستارة ، فصرت في غرفة نوم تاتيانا بافلوفا ! المهم اننى اختبأت ، وما كدت أتب تلك الوئمة التي اخفتني عن الأنظار حتى دخلت السيدتان . لماذا لم أهبّ الى لقائهما بدلاً من أن أختبيء ! لا أدري . لقد حدث هذا كله مصادفة ، على غير وعى منى ، وعلى غير ارادة .

ولطوت عند السرير ، فلم ألبث أن لاحظت أن للغرفة باباً يفضى

الى المطبخ ، أى مخرجاً يمكن اللجوء اليه والهروب منه اذا وقع مكروه !
ولكن يا للهول ! لقد كان الباب مقفلاً بالمفتاح ، ولم يكن المفتاح بالقفل .
فهالكت على السرير يائساً مكروباً . ولقد كان واضحاً لى أنتى سأستسمع
الآن الى حديثهما ، وأدركت منذ الجمل الأولى ، منذ الأصوات الأولى ، أن
حديث المرأتين سرى جداً . وخرج جداً . أوه ! لا شك أن الرجل النيل
الشريف المستقيم يجب عليه ، حتى فى مثل تلك اللحظة ، أن يخرج
ويقول بصوت عال : « أنا هنا ، انتظرا ! » ، وأن يخرج مهما يكن وضعه
عندئذ مضحكاً . ولكننى لم أنهض ولم أخرج . وخفت أحقر خوف .

قالت تاتيانا بافلوفنا متوسلة ضارعة :

— كاترين نيقولايفنا ، عزيزتى ، هدئى نفسك ، أرجوك ، ان هذا
الاضطراب ليس من طبيعتى . حيثما تكونى يكن الفرح ، فما بالك فجأة...
أمل أن تظلى واثقة بى . أنت تعرفين مدى اخلاصى لك وتعرفين
أن هذا الاخلاص لك يساوى على الأقل اخلاصى لأندره بتروفتش الذى
لا أكتمه وفائى له الى الأبد . صدقنى اذن ! أحلف لك بشرفى انه لا يملك
هذه الوثيقة ، وربما كان لا يملكها أحد على الاطلاق . ثم انه لا يقدر
على هذا النوع من المكائد ، فليس حسناً منك أن تضعيه فى موضع
شبهة . أنتما كلاكما تخيلتما هذه العداوة

— الوثيقة موجودة . وهو لا يتورع عن شئ . أسس دخلت ، فكان
اول شخص لقيته هو « ذلك الجاسوس الصغير » الذى فرضه على الأمير !
— دعيك من هذا الكلام . « ذلك الجاسوس الصغير » أولاً ، ماهو
جاسوس . أنا الذى إلححت على وضعه عند الأمير . ولولا ذلك لفقد
عقله فى موسكو أو مات جوعاً . أو هذه هى على الأقل المعلومات التى
تلقيناها من هناك . ثم ان هذا الصبى الفظ ليس أكثر من أبله . فكيف
يمكن أن يتخذ جاسوساً ؟

– هو أبله ، نعم ، ولكن ذلك لا ينفى أن يصبح وغداً • لقد كنت معتكرة المزاج بالأمس ، ولولا ذلك لقطست من الضحك : اصفر وجهه ، وتقدم مسرعاً ، وراح يسلم متلطفاً ، وأخذ يرطن بالفرنسية • ومع ذلك كانت ماريا ايفانوفنا تحدثني عنه حديثها عن عبقرى ! ان تلك الرسالة لم 'تتلف' ، وهى بين أيدي خطرة ، استتجت ذلك من هيئة ماريا ايفانوفنا •

– عزيزتى الجميلة ! ألم تقولى أنت نفسك ان ماريا ايفانوفنا ليس عندها شيء ؟

– هى تزعم ذلك • ولكنها تكذب بل هى حاذقة فى الكذب ! قبل رحلتى الى موسكو كان لا يزال يساورنى أمل فى ألا تكون قد بقيت أية ورقة ؟ أما هنا ، هنا •••

– ولكن يقال يا عزيزتى انها انسانة طيبة جداً عاقلة جداً ، وان المرحوم كان يقدرها أكثر من سائر بنات أخوته وأخواته • أنا لا أعرفها طبعاً ، ولكن كان يجب عليك أن تغاليلها قليلاً يا عزيزتى الجميلة ! ليس صعباً عليك أن تقتنيها : اننى – أنا العجوز – مفرمة بك ، مولهة بحبك ، حتى لأكاد أقبلك ••• فهل كان يعز عليك أن تغويها ؟

– غازلتها يا تاتيانا بافلوفنا • حاولت • حتى انها سرت بذلك سروراً كبيراً • لكنها ماكرة • انها هى أيضاً ماكرة • لا ، لا • هذه شخصية غريبة ، شخصية موسكوبية ! تصورى أنها نصحتنى بأن ألتجئ هنا الى رجل اسمه كرافت ، كان مساعد أندرونيكوف ، فلعله يعرف شيئاً ! وأنا أعرف من هو كرافت هذا ، بل اننى أذكره قليلاً • ولكن ما ان كلمتنى عن كرافت حتى أيقنت فوراً أنها لا تجهل شيئاً ، بل تعرف كل شيء ، وانما هى تكذب •••

– ولكن لماذا تكذب ؟ على كل حال ، يمكن التماس معلومات من

كرافت ! ان هذا الألماني ليس بالرجل الثرثار ، وهو شريف جداً فيما أذكر . ولكن لا بد من سؤاله ، وأظن أنه ترك بطرسبرج ...

- رجع أمس . اننى قادمة من عنده ... وهذا بعينه هو السبب فى أنك تريتنى على هذه الحال من التخوف والارتعاش الشديد . كنت أريد أن أسألك يا ملاكى تاتيانا بافلوفنا ، ما دمت تعرفين جميع الناس ، أما من وسيلة الى البحث بين أوراقه ؟ لا بد أنه ترك أوراقاً . فمن الذى تؤول اليه هذه الأوراق ؟ ذلك أنها قد تقع بين أيدي خطرة . لقد جئت أسألك أن تسدى الى بنصيحة .

- أى أوراق تعين ؟ ألم تقولى انك قادمة من عند كرافت ؟
كذلك قالت تاتيانا بافلوفنا التى لم تفهم من سؤالها شيئاً . فأجابت ،
كأترين نيقولايفنا :

- نعم نعم ، اننى قادمة من عنده . ولكنه انتحر ! مساء أمس .
فقفزت من على السرير . لقد استطعت أن أبقى لاطياً ساكناً حين سمعتها تصفنى بأننى جاسوس وبأننى أبله . وكنت كلما أوغلنا فى حديثهما مزيداً من الايغال ، أحس احساساً أقوى بأننى لا أستطيع أن أظهر لهما ، فليس ذلك لائقاً . كنت قد عزمت فى قرارة نفسى ، بعد أن كف قلبى عن خفقانه الشديد ، أن أنتظر الى اللحظة التى تشيع فيها تاتيانا زائرتها (هذا اذا واتانى الحظ فلم تحتج الى دخول غرفتها قبل ذلك) فمتى انصرفت أخمأكوفا كنت مستعداً لأن أظهر فأخوض معركة مع تاتيانا بافلوفنا ! ... أما الآن وقد علمت باتتجار كرافت فقد قفزت واعترائنى نوع من التشنج ، وأصبحت عاجزاً عن التفكير فى أى شيء ، عاجزاً عن التبصر بعواقب الأمور ، فاذا أنا أرفع الستارة وأجدنى واقفاً أمامهما . ولم تكن حلقة الظلام قد اشتدت بعد ، فكان يمكنهما أن تريانى شاحباً مرتعشاً .
فهاهما تصرخان . وكيف لا تصرخان ؟

تمت أقول ملتفتاً الى آخماكوبا :

- كرافت ؟ انتحر ؟ أمس ؟ عند غروب الشمس ؟

فأعولت تاتيانا بافلوفا تسألني وقد غرزت أصابعها في كفتي :

- أين كنت ؟ من أين خرجت ؟ كنت تتجسس علينا ؟ كنت

تتصت على حديثنا ؟

وقالت كاترين نيقولايفنا وهي تنهض عن الديوان وتشير الى

باصبعها :

- ماذا قلت لك عنه ؟

فقاطعتها صارخاً وقد استبد به غضب مسمور :

- هذه كلها أكاذيب ! هذه كلها حماقات وسخافات ! لقد وصفتني

من لحظة بأنني جاسوس • فاعلمي اذن أنه لا شيء يستحق من المرء عناء

أن يتجسس ، بل لا شيء يستحق منه عناء أن يعيش في هذه الحياة الدنيا

مع أناس من أمثالكم ! ان الأخيار ينتهون الى الانتحار • لقد انتحر كرافت

في سبيل الفكرة • من أجل هيكوب • ولكن أنني لك أن تعرفي شيئاً

عن هيكوب ؟ ... لقد حكم على الانسان هنا أن يحيا في وسط مكائكم ،

وأن يتخبط في احوال أكاذيبكم وأخاديعكم ودسائسكم المستترة

الحفيه ... كفى !

صرخت تاتيانا بافلوفا قائلة :

- اضعيه ! اضعيه !

ولكن كاترين نيقولايفنا ظلت تنظر الى (أذكر هذا كله بأدق

تفاصيله) دون ان تحول بصرها عن لحظة واحدة ، ودون أن تتحرك من

مكانها قيد شعرة ، فما كان من تاتيانا بافلوفا الا أن هبت واقفة تريد ان

تولى تنفيذ النصيحة بنفسها • فرأيتني أرفع يدي بغير ارادة مني لأحمي

وجهي من صفعتها • فإذا هي تتصور من هذه الحركة التي قمت بها أنني
أهددها • فصرخت تقول لي :

- هيا ! اضرب ، اضرب ! فبهرن على أنك بمحتك خادم • أنت
الآقوى ، فلماذا تتخرج من نساء مسكينات ؟

فصرخت أقول :

- كفى تخرصاً ، كفى ! ما رفعت يدي على امرأة في يوم من
الأيام ! لكنك سفهة يا تاتيانا بافلوفنا • ولقد كنت تحقريني دائماً • علام
احترام الناس ؟ وأنت يا كاترين تقولايقنا ، أراك تضحكين • فلا شك
أنك تضحكين من هيتي : نعم ، ان الله لم يهب لي وجهاً كوجوه مرافيك •
لكنني لا أشعر أمامك بهوان ومذلة • بل القيص هو الصحيح : فأنا
أحس بأنني أعلى منك • ولا قيمة للتعاير على كل حال ، فانما المهم أنني
لم أرتكب ذنباً • لقد جئت الى هنا عرضاً ياتاتيانا بافلوفنا • والمذنب الوحيد
انما هو طباحتك الفنلندية ، بل قولي ان الذنب انما يقع على تملكك الشديد
بها • لماذا لم تجبني حين سألتها عنك ، لماذا أدخلتني الى هنا رأساً ؟ ولعلكما
تدركان أنني ما كنت لأستطيع أن أخرج من غرفة امرأة على حين فجأة • •
دفعه واحدة • • هكذا • • والا كان ذلك أمراً عجيباً شاذاً • • لذلك
آثرت • • أن أسمع شتائمكما على أن أظهر لكما • أما تزالين تضحكين
يا كاترين تقولايقنا ؟

صاحت تاتيانا بافلوفنا قائلة وهي تكاد تدفني دفعا :

- اخرج من هنا ، اخرج من هنا ! لا تأبهني لأكاذيبه يا كاترين
نقولايقنا • سبق أن قلت لك انه وُصف لي من هناك بأنه مجنون •

- مجنون ؟ من هناك ؟ من وصفني بأنني منجون ؟ ولكن لا خير ،
كفى هذا ! يا كاترين تقولايقنا ، أحلف لك بكل ما أقدس ، أن هذا

الحديث الذى سمعته سيظل مكتوماً لا أبوح به لأحد • هل ذنبى أننى
اكتشفت أسراركم ؟ واعلمى خاصةً أننى تارك أباك منذ القد • فتستطيعين
أن تطمئنى وأن تهدئى بالآء فيما يتعلق بالوثيقة التى تبحثين عنها •

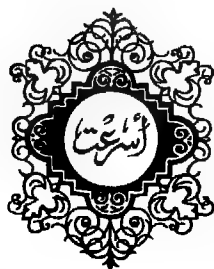
- ماذا ؟ أى وثيقة تعنى ؟

اضطربت كاترين نيقولايفنا اضطراباً بلغ من القوة أن لونها شحب
شحباً شديداً • أو هذا ما بدا لى أنا • فأدركت أننى قلت أكثر مما كان
ينبغى أن أقول •

وخرجت مسرعاً • وشيئتانى بنظراتهما صامتتين • وكنت أقرأ فى
وجهيهما دهشة قصوى • الخلاصة أننى ألقى لغزاً •

الفصل التاسع

١



أعود الى البيت • ومن أشد العجب أننى كنت راضياً عن نفسى مقتبلاً بها • صحيح أن المرء لا يكلم النساء بهذه اللهجة ، ولا سيما مثل هذه النساء ، بل قل مثل هذه المرأة ، (ذلك أننى لا أدخل تاتيانا بافلوفنا فى حسابى) • لعله لا يجوز لرجل أن يقول لامرأة من هذا النوع : « أنا لا أعاب بكائك ودسائسك ! » • ولكننى قلت ذلك ، وهذا بعينه هو ما كان يجعلنى راضياً مقتبلاً • كنت موقناً على الأقل أننى اذ خاطبتها بهذه اللهجة قد بددت كل ما كنت فيه من وضع مضحك ، ناهيك عما عدا ذلك • غير أن وقتى لم يتسع للتفكير فى هذا كله زمناً طويلاً : ذلك أن كرافت كان يملأ جوانب نفسى كلها • لا أقصد أن اتحارره كان يؤلمنى ويعذبنى كثيراً ، وإنما أقصد أن نفسى قد اهترت للنبا اهتزازاً قوياً واضطربت اضطراباً شديداً • وحتى اللذة العادية التى يشعر بها الناس حين يرون مصيبة تنزل بغيرهم ، كأن تكسر ساق أحد أو يبلطخ شرفه أو يموت له عزيز أو ما الى ذلك ، حتى هذه اللذة العادية لم أشعر بها ، وإنما اجتاحتنى شعور آخر ، شعور قوى الى أقصى حدود القوة ، شعور بالحزن أو شعور بالحسرة • لا أدرى • • ولكنه شعور

يبلغ غاية القوة والحسن • وعن هذا أيضاً كنت راضياً وبهذا أيضاً كنت مقتبلاً • أمر عجيب : ما أكثر الأفكار الغريبة عما أنت فيه ، التي يمكن أن تتدفق وتتلاحق في ذهنك حين يهزك نبأ ضخم كان ينبغي له في الظاهر أن يخفق سائر المشاعر وأن يعثر جميع الحواطر التي لا تمت اليه بصلة ، ولا سيما الحواطر التي لا قيمة لها ولا خطورة • ومع ذلك فإن هذه المشاعر والحواطر هي التي عرضت لي وملأت نفسي • ما أزال أذكر أنني قد اجتاحتني هزة عصبية قوية ، شيئاً بعد شيء ، دامت عدة دقائق ، بل دامت طول الوقت الذي قضيته في البيت متحدثاً مع فرسيلوف •

وقد جرى هذا الحديث مع فرسيلوف في ظروف خاصة غير مألوفة • سبق أن قلت أننا نقيم في جناح بفناء عمارة وهذا المسكن رقمه ١٣ ؛ فقبل أن أصل الى بوابة المبنى سمعت امرأة تسأل بصوت عال ، وقد نفذ صبرها واشتد ضيقها : « أين يقع المسكن رقم ١٣ ؟ » • انها سيدة فتحت باب ذكّان صغير مجاور • ولكن أحداً لم يجب عن سؤالها ، بل لعلمهم طردوها ، لأنني رأيتها تهبط الدرجات غاضبةً مكروبةً يائسةً ، وصرخت تقول وهي تخطئ الأرض بقدمها :

— فأين البواب إذن ؟

وكنت قد تعرفت هذا الصوت منذ مدة • فقلت وأنا أتقدم منها :

— أنا ذاهب الى المسكن ١٣ ؛ عمن تسألين ؟

— انني أبحث عن البواب منذ ساعة • سألت جميع الناس ، وصعدت

جميع السلالم •

— ان المسكن الذي تسألين عنه يقع في فناء العمارة • ألم تعرفيني ؟

ولكنها كانت قد تعرفتني • وواصلت كلامي فقلت :

— تريدان أن ترى فرسيلوف ؟ لك معه شأن ، ولى أنا معه شأن

أيضاً • انني آت اليه لأودعه الى الأبد • فيها بنا •

- أأنت ابنه ؟

- لا قيمة لهذا • هينى ابنه ، رغم أن اسمى دولجوروكى • أنا ولد غير شرعى • ان لهذا السيد عدداً كبيراً من الأولاد غير الشرعيين • ورب ابن شرعى يترك منزل أبيه اذا أوجب عليه الضمير والشرف ذلك • جاء هذا حتى فى التوراة • ثم انه قد نال ميراثاً فلا أريد أن أقاسمه هذا الميراث • أريد أن أكتفى بكدّ يمينى • ومن كان كريم القلب ضحى حتى بحياته اذا لزم ذلك • لقد انتحر كرافت فى سبيل الفكرة ! تصورى ! كرافت الشباب الذى كانت تعقد عليه آمال كبار ! حتى فى التوراة جاء أن على الأولاد أن يتركوا آباءهم وأن يبنوا لأنفسهم أعشاشاً •• حين تجرّفك الفكرة •• حين يكون له فكرة •• آه •• ان الفكرة هى الأمر الرئيسى •• كل شىء قائم فى الفكرة ••

واصلت هذه الثرثرة بعض الوقت الى أن بلغنا بيتنا • لاشك أن القارئ لاحظ أنى لا أراعى نفسى ولا أدارى نفسى ، وانما أصفها بما هى • اننى أريد أن أتعلم قول الحق •

كان فرسيلوف باليت • دخلت دون أن أترك معطفى • وكذلك فعلت هى • كانت ثيابها خفيفة جداً : فستان قائم اللون تتحرك فى أعلام قطعة من قماش لا أدرى ما هى ، ولكنها وضعت هنالك لتكون بمثابة ياقة أو خمار ؟ وطاقيّة عتيقة مجرودة تنطى الرأس وهيئات أن تجمله •

حين دخلنا الصالة كانت أمى فى مكانها المألوف مكبةً على شغلها ، وخرجت أختى من غرفتها لتنظر ، ووقفت عند العتبة • وكان فرسيلوف على عادته ، لا يعمل شيئاً ، فنهض يستقبلنا •• وحدّق الى بنظرة قاسية مستفهمة ، فأسرعت أقول لأطمئنه وأنا أتنحى :

- أنا لا شأن لى فى الأمر • لقد التقيت بها أمام الباب ، وكانت تسأل عنك ، فلا يدلها أحد • لكن لى أنا أيضاً قضية سوف يسرنى أن أشرحها لك بعد قليل ••

ولكن فرسيلوف ظل يتأملنى مستطعماً •

وبدأت الفتاة تتكلم وقد نفذ صبرها فقالت :

- هل تسمح ؟

فالتفت فرسيلوف اليها • فأردفت تقول :

- لقد فكرت طويلاً فى السبب الذى دعاك الى أن تترك لى هذا

المال بالأمس ، فانتهيت الى • • الخلاصة : اليك مالك فخذ •

وأطلقت صرخةً كما فعلت من قبل ، وألقت على الطاولة حزمة من

الأوراق المالية • واستطردت تقول :

- اضطرت أن أذهب الى مكتب العناوين لأعرف أين تسكن ،

ولولا ذلك لجئت قبل الآن •

ثم أضافت وهى تلتفت فجأة الى أمى التى شجب لونها شحوباً

شديداً :

- اسمعى انت • اننى لا أريد أن أهينك • فوجهك يدل على أنك

سيده شريفة ، وربما كانت هذه الفتاة ابنتك • لا أدري أأنت زوجته

أم لا • ولكن اعلمى أن هذا الرجل يقص من الصحف الاعلانات التى

تنشرها المربيات والمعلمات بآخر ما يملكن من قروش ، ويطوف على

هؤلاء المسكينات سعيّاً الى منافع غير شريفة مغرياً اياهن بالمال • لا أدري

كيف أمكنتنى أن أقبل ماله أمس ! كانت هيئته تدل على استقامة وصدق •

قف مكانك ! لا تقل كلمة واحدة ! أنت رجل دنىء يا سيد ! وجهك

شريف النيات فاننى لا أريد مالك ! آه • • ما أشد سرورى بأن أفضحك

وأخزيك أمام نساك ! لعنة الله عليك !

وهربت مسرعه • ولكنها عند العتبة التفتت ، لا لشيء الا أن تصرخ

قائلة :

– يقال انك نلت ميراثاً !

ثم اخفت كما يخفى ظل • يجب أن أذكر مرة أخرى أنها كانت بشدة غضبها كجنية • شدة فرسيلوف شدها عميقاً • ولبت في مكانه. حالماً ، وكأنه يفكر في شيء ما • ثم التفت الى فجأة وسألني :

– ألا تعرفها البتة ؟

– رأيتهما هذا الصباح مصادفةً في بيت فاسين • كانت تضطرب في الدهليز وتطلق الصرخات وترسل اليك اللعنات • ولكننا لم ندخل في حديث ، ولا أعرف عنها شيئاً • وقد التقيت بها الآن أمام الباب • لا بد أنها معلمة الأسس ، « تلك التي تعطى دروساً في الحساب » •

– هي نفسها • مرةً في حياتي قمت بعمل حسن ، و •• وأنت ماذا جاء بك ؟

فأجبهته بقولي :

– اليك رسالة • لا داعي الى أن أشفعها بايضاحات • انها من كرافت • وقد تلقاها كرافت من المرحوم آندرونيكوف • اقرأها فينيرك مضمونها • ولكنني أضيف أن أحداً في العالم لا يعرف الآن بوجود هذه الرسالة سوى ، لأن كرافت الذي أعطانيها أمس قد انتحر فوراً بعد زيارتي له •

فيما كنت أتكلم لاهثاً متعجلاً ، تناول هو الرسالة ، فجعلها في يده اليسرى ، وتابع النظر الى باتباه • وحين أبلغته نبأ انتحار كرافت أنعمت النظر في وجهه لأرى ما أحدثه النبأ في نفسه • فما رأيكم اذا قلت لكم ان النبأ لم يحدث في نفسه أي أثر ؟ حتى حاجباه لم يرتفعا ! بالعكس : حين رأيته أتوقف عن الكلام استل نظارته التي تركز على الأنف ويتدلى منها شريط أسود (وكان لا يفارق هذه النظارة أبداً) وقرب الرسالة من

شمعة ، وأخذ يقرأها بعد أن ألقى نظرة على التوقيع الذي يذيلها • ليس
فى وسعى أن أصف لكم عمق الجرح الذى أصابنى به كبريائه وقلة
إحساسه • لابد أنه يعرف كرافت معرفة قوية • وهذا نبأ خارق على كل
حال ! ولقد كنت أتمنى طبعاً أن أحدث فى نفسه أثراً • انتظرت
نصف دقيقة ، واذ كنت أعرف أن الرسالة طويلة ، فقد أدت له ظهري
وانصرفت • كانت حقيتي مهياة منذ مدة طويلة ، ولم يبق علىّ إلا أن
أجمل بعض أمتى فى صرة • وخطرت ببالي أُمى : لم أكن قد اقتربت
منها • وبعد عشر دقائق كنت قد تهيأت تهيؤاً تاماً ، وهممت أن أمضى
باحثاً عن عربة ، فإذا بأختى تدخل علىّ فى حجرتى تحت السقف •

- خذ • ان ماما ترسل اليك الستين روبلاً التى أعطيتها إياها ،
وترجوك مرة أخرى أن تغفر لها أنها حدثت آندره بتروفتش فى الأمر •
ثم اليك عشرين روبلاً أخرى • فقد دفعت بالأس نفقات اقامتك خمسين
روبلاً ، وماما تقول انها لا يحق لها أن تأخذ منك الا ثلاثين ، لأنها لم
تنفق عليك أكثر من ذلك ، فهى ترد اليك العشرين روبلاً الزائدة •
- شكراً ، لكننى أرجو أن يكون ما قالته حقاً • استودعك الله
يا أختى • أنا راحل •

- الى أين ؟

- الى الفندق مؤقتاً ، حتى لا أقضى فى هذا البيت يوماً آخر فوق
ما قضيت فيه من أيام • قولى لماما اننى أحبها •

- هى تعرف أنك تحبها • وهى تعرف أيضاً أنك تحب آندره
بتروفتش • كيف لم تخجل من الاثنيان بتلك الفتاة المسكينة ؟
- أنا لم أت بها ، أحلف لك • وانما لقيتها أمام الباب •
- بل أنت الذى أتيت بها •
- أؤكد لك ••

- فكر جيداً ، واسأل نفسك ، تجد أنك أنت أيضاً كنت سيئاً
فى ...

- كل ما هنالك اننى سررت جداً باخزاء فرسيلوف • تصويرى
أن له ولداً رضيعاً من ليديا آخماكوكا •• ولكن لماذا أقول لك هذا
الكلام ؟

- هو ؟ له ولد رضيع ؟ خطأ •• ليس الولد منه • من ذا الذى
قصّ عليك هذه الأكثوبة ؟
- ما أدراك أنت ؟

- ما أدراى أنا ؟ أنا التى ربيت هذا الولد فى لوغا • اسمع
يا أخى : ألاحظ منذ مدة طويلة أنك ، بدون أن تعرف شيئاً ، تهين
آندره بتروفتش ، وبذلك نفسه تهين ماما أيضاً •

- طيب • اذا كان هو على حق ، فأنا على خطأ • ولكن هذا لا ينفى
أننى أحبك كثيراً • لماذا تحمرين يا أختى ؟ طيب طيب • هانت ذى
تزدادين احمراراً • على كل حال ، سوف أطلب مبارزة ذلك الأمير
الصغير ، انتقاماً للصفعة التى كالهها لفرسيلوف بمدينة « امس » • واذا
كان فرسيلوف غير مخطئ فى حق آخماكوكا ، فيكون هذا أولى ••

- ما هذا الذى تقوله يا أخى ؟ ألا فكرت قليلاً ؟

- من حسن الحظ أن الدعوى قد فصل القضاء فيها • هانت ذى
الآن تصفرين •

ابتسمت ليزا ابتسامة صفراء من خلال ذعرها وقالت :

- ولكن الأمير لن يبارزك •

- عندئذ سأخزيه على رموس الأشهاد • ما بك يا ليزا ؟

لقد بلغت ليزا من صفرة الضعف والوهن أنها أصبحت لا تستطيع
أن تثبت على قدميها ، فإذا هي تنهالك على الديوان •

— ليزا !

هكذا نادتها أمها من تحت •

فاستجبت ليزا قوتها ونهضت ، وابتسمت لى ابتسامة رقيقة زاخرة
بالحنان ، وقالت :

— أخى ، دع هذه السخافات ، أو فانتظر حتى تعرف من الأمر
أكثر مما تعرف الآن • ان ما تعرفه قليل جداً •

— لسوف أتذكر يا ليزا أنك شجيت حين علمت أنني سأبارز
الأمير •

— نعم نعم ، تذكر هذا !

وابتسمت مرةً أخرى مودعة ، ونزلت •

ناديت حوذاً ، ونقلت أمتعتي بمعاوته • لم يعترضنى فى البيت
أحد ، ولا استوقفنى أحد • ولم أودع ماما حتى لا ألقى فرسيلوف • وفيما
أنا أركب العرببة ، برقت فى خاطرى فكرة سريفة ، فإذا أنا أقول
للحوذى :

— فوتتانكا ، جسر سان سيمون !

وأعود الى عند فاسين •

قدرت أن فاسين لابد أن يكون مطلعاً على نبأ انتحار كرافت ، وأنه أعرف مني كثيراً بالأمر . وذلك ما وقع . فسرعان ما روى لي فاسين جميع التفاصيل ملياً رغبتي ولكن بغير حرارة . فاستتجت من ذلك أنه متعب ، وكان ذلك حقاً . لقد ذهب في الصباح الى كرافت . وكان كرافت قد أطلق على نفسه رصاصة مسدس (ذلك المسدس نفسه !) بالأسس ، منذ هبط المساء ، كما يستخرج ذلك من يومياته . ان الكلمات الأخيرة التي دونها في يومياته انما كتبها قبل انتحاره بلحظات ، وفيها يذكر أنه يكتب في العتمة تقريباً وأنه لا يكاد يميز الأحرف ، ولكنه لا يريد أن يشغل شمعة ، مخافة أن يخلف وراءه حريقاً ، ثم هو يضيف الى ذلك في السطر الأخير قوله هذا الغريب : « أما أن أشعل الشمعة لأطفئها قبل إطلاق الرصاص مع اطفاء حياتي ، فذلك ما لا أريده » . وكان كرافت قد بدأ كتابة هذه اليوميات أمس الأول ، فور عودته الى بطرسبرج ، قبل زيارته درجاشيف .

وكان بعد انصرافي يدوّن شيئاً كل ربع ساعة ، أما مرات التدوين الثلاث أو الأربع الأخيرة فلم يكن يفصل بين الواحدة والأخرى منها الا خمس دقائق . ولقد أدهشني أشد الدهشة أن فاسين ، وقد أصبحت هذه اليوميات تحت بصره منذ مدة طويلة (اذ أعطيها ليقراها) لم يحاول أن ينسخها ، لاسيما وأنها لا تملأ أكثر من ورقة واحدة ، وأن جميع التدوينات قصيرة ، « ولاسيما في الصفحة الأخيرة ! » . وذكر لي فاسين مبتسماً أنه يتذكر كل ما ورد في اليوميات ، وأن كلامها فوضي لا ينظمه ناظم وانما هي تسجيل لكل ما كان يخطر ببال المنتحر . وقد هممت

آن أجيبه بأن قيمتها انما تكمن فى هذا نفسه ، ولكننى أمسكت عن الكلام ،
وآثرت أن ألح على أن يتذكر شيئاً مما قرأ • فتذكر بضعة أسطر فعلاً •
كان كرافت قد كتبها قبل اطلاق الرصاص على نفسه بنحو ساعة ، وفيها
يقول انه « يشعر بقشعريرة » وانه « تمنى أن يشرب كأساً من الحمرة
طلباً للدفع ، ولكنه تصور أن شرب الحمرة سيزيد غزارة الدم المسفوح ،
فامتنع عن الشرب » • قال فاسين ان كل ما كتبه هو من هذا النوع تقريباً •

هتفت أقول :

— أفهذا ما تسميه سخافات ؟

— متى تكلمت عن سخافات ؟ كل ما هنالك اننى لم أنسخ البوميات •
وأنا أرى انها عادية وان لم تكن مسخيفة ، أو قل انها طبيعية ، أى هى
ما لا بد أن يحدث فى مثل هذه الحالة ••

— ولكن الأفكار الأخيرة ، الأفكار الأخيرة ••

— الأفكار الأخيرة تكون فى بعض الأحيان تافهة تفاهة عجيبة •
أعرف منتجراً تشكى فى يومياته من أنه لم تزره فى مثل هذه الساعة
الخطيرة آية « فكرة عليا » : فلا شيء إلا أفكار جوفاء تافهة •

— وهل القشعريرة فكرة جوفاء أيضاً ؟

— أتقصد القشعريرة أم غزارة الدم المسفوح ؟ انه لأمر معروف
جداً أن كثيراً من الذين يقدرون على التفكير فى موتهم الوشيك ، سواء
أكان موتهم بارادتهم أم كان بغير ارادتهم ، يهتمون فى كثير من الأحيان
بحسن حالة جثمانهم • وبهذه الروح انما كان كرافت يخشى انسكاب
دم غزير ••

جميعت أقول :

— لا أدرى هل هذه واقعة معروفة •• وهل هذا الذى تقول.

صحيح ، ولكن يدهشنى أن ترى فى الأمر كله شيئاً طبيعياً الى هذا الحد •
ان كرافت كان منذ وقت قصير يتكلم ويتحرك ويجلس بيننا • فهل يعقل
أن لا تأخذك به أية شفقة ؟

- بل تأخذنى به شفقة طبعاً • ولكن هذه قضية أخرى • ثم ان
كرافت نفسه ، على كل حال ، قد صور موته فى صورة استنتاج منطقى •
وقد تبين أن كل ما قيل عنه بالأمس عند درجاشيف صحيح • لقد ترك
دفترأ ضخماً ضمنه نتائج علمية تذهب الى أن الروس جنس من الطبقة
الثانية ، وأقام نتائجه على علم الهيئة ودراسة الجمعية ، بل على الرياضيات
أيضاً ، واستخلص من ذلك أن المرء اذا كان روسياً فلا داعى الى أن
يحيا • فالشيء الذى يتميز به موت كرافت ، اذا شئت أن تجد له صفة
تميزه ، ليس أنه استنتج هذه النتائج ، ففى وسع المرء أن يستخلص
من النتائج المنطقية ما يشاء ، وانما هو أن يتحرر تدعيماً لهذه النتائج •
ذلك هو الشيء النادر الذى لا يحدث كل يوم •

- يجب أن تكبر قوة ارادته على الأقل •

قال فاسين متهرباً :

- وربما كان يجب أن تكبر شيئاً آخر ••

ولكن كان واضحاً أن ما يدور فى خلد فاسين انما هو غباء كرافت
وضعف عقله • فكان ذلك يثير حنقى • قلت :

- بالأمس تحدثت أنت نفسك عن العواطف يا فاسين •

- ولست اليوم أنكرها • لكننى ازاء عنف الأمر الذى وقع لا أملك
الا أن أجد فيه من فحش الخطأ ما يجعل حكمى قاسياً يطرد من نفسى
حتى الشعور بالشفقة •

- لقد أدركت من النظر فى عينيك أنك ستقول سوءاً فى حق

كرافت • ومن أجل أن لا أسمع ما ستقوله ، قررت أن لا أسألك رأيك •
ولكنك أفصحت عن رأيك من تلقاء نفسك ، فلا يسعني الا أن أوافق
برغم ارادتي على رأى رجل له ما لك من قوة الحجة • ولكننى مستاء منك
يا فاسين • اننى آسف على كرافت •
- أرى أننا نغالى قليلاً •••

فقاطعته قائلاً :

- نعم ، نعم ••• ولكن من الم مطمئن على الأقل أن الأحياء الذين
يحكمون على المتوفى يستطيعون دائماً فى مثل هذه الحالة أن يقولوا
لأنفسهم : « مهما يكن المنتحر جديراً بالشفقة والتسامح ، فما نزال نحن
أحياء ، فلا داعى أن نسرف فى الحزن • • »

- طبعاً ••• من هذه الناحية كلامك صحيح • ولكن •• ولكن
أظن أنك فيما قلته الآن كنت مازحاً • طريفة نكتتك • اسمع • لقد اعتدت
أن أشرب الشاي فى مثل هذه الساعة فسأمر لنفسى بشاي • وستشاركنى
طبعاً •

قال ذلك ثم خرج وهو يشمل بعصره حقيبتى وصرتى •

والحق اننى أردت أن أسخر منه انتقاماً لكرافت • فقلت ما قلته على
نحو ما استطعت • ولكن أغرب ما فى الأمر أنه فى البداية قد أخذ جملى
مأخذ الجد : « ما نزال نحن أحياء » • ومع ذلك ، ومهما يكن من أمر ،
فقد كان أقرب منى الى الحق والصواب ، حتى فى موضوع العاطفة •
اعترفت بذلك لنفسى دون أى امتعاض • ولكننى أحسست أننى لا أحبه
فلما صار الشاي أمامنا أعلنت له أننى أريد أن يستضيفنى هذه
الليلة ، فإذا كان ذلك مستحيلاً فما عليه الا أن يصارحنى ، فأذهب الى
الفندق • ثم بسطت له الأسباب التى تدفعنى الى طلب هذه الضيافة ، ذاكراً

أننى على شقاق مع فرسيلوف ، ولكن دون أن أدخل فى التفاصيل •
فأصغى الى فاسين باتباه ، غير أنه لم يظهر عليه شئ من انفعال • وكان
يقتصر على الاجابة عن أسئلتى ، ولكن اجاباته كانت لا تخلو من افاضة ،
وكانت لهجته لا تخلو من لطف ومودة • ولم أقل كلمة واحدة عن
الرسالة التى جئت الى بيته فى الصباح لأسأله النصيح فى أمرها • وانما
ذكرت أن زيارتى السابقة لم يكن لها من غرض غير الزيارة • اننى بعد
الذى قطعته على نفسى لفرسيلوف ، وهو أن لا يعرف أحد عن هذه
الرسالة شيئاً سوى ، قد أصبحت أعقد أنه ليس من حقى أن أجىء على
ذكرها لأحد أبداً • وكان يزعمجنى كثيراً من جهة أخرى أن أكلم فاسين
فى بعض الأمور ، أقول فى بعض الأمور لا فى جميع الامور ، حتى لقد
أفلحت فى اثاره اهتمامه حين قصصت عليه المشاهد التى وقعت فى الدهليز
وفى غرفة الجلوتين ، واختتمت فى بيت فرسيلوف • فكان ينصت الى
باتباه شديد ، ولا سيما حين كان الحديث يتناول ستيلكوف • حتى انه
استعادنى الكلام مرتين ، ثم شرد فكره حين أتيت على ذكر الأسئلة التى
ألهاها ستيلكوف عن درجاتشيف • على أنه انفجر فى النهاية ضاحكاً •
فبدا الى فجأة فى تلك اللحظة أنه لا شئ ولا أحد يمكن أن يربك فاسين
فى يوم من الأيام • وانى لأذكر أن هذه الفكرة قد عرضت لذهنى فى
صورة تشرفه كثيراً • وقلت اختتم حديثى عندئذ :

— لم أستطع أن استخلص شيئاً مما قاله السيد ستيلكوف ، فانه ينطق
بكلام مبهم متعرب ، وان معانيه يجرى بعضها وراء بعض متلاحقاً فلا
تتماسك ...

فسرعان ما ظهر الجد فى هيئة فاسين • وقال :

— صحيح أنه لم توهب له ملكة الكلام ، ولكن يتفق له أن يبدى
ملاحظات تبلغ غاية الصحة والصواب فى وهلة واحدة • ثم ان أمثال

هذا الرجل أناس عمليون ، أو قل انهم رجال عمل لا رجال فكر • فيجب أن نحكم عليهم بهذا المقياس •

وذلك بعينه ما كنت قد أدركته من قبل •
قلت :

— ومع ذلك أحدث عند جارتيك فضيحة رهيبة ، فلا يستطيع أحد أن يتبأ بما كان يمكن أن ينتهى اليه هذا كله •

وعن هاتين الجارتين أسرّ الى فاسين أنهما هنا منذ ثلاثة أسابيع تقريباً ، وأنهما قادمتان من الأقاليم ، وأنهما تشغلان غرفة صغيرة جداً ، وأن جميع الدلائل تشير الى أنهما فقيرتان فقراً مدقعاً ، وأنهما تنتظران هنا شيئاً ما • كان لا يعرف أن الفتاة نشرت اعلاناً فى الجريدة تذكر فيه أنها معلمة ، ولكنه علم أن فرسيلوف زارهما • وقد وقعت الزيارة فى غيبته ، غير أن المؤجرة ذكرت لها • وكانت الجارتان لا تجالطان أحداً ، ولا تلقيان حتى المؤجرة • وقد لاحظ فاسين فى الأيام الأخيرة أن لدى الجارتين مشكلات لا تجد سبيلها الى الحل فعلاً ، ولكن لم يسبق أن وقعت عندهما مشاهد كالمشاهد التى وقعت اليوم • اتنى أتذكر حديثنا عن الجارتين بسبب الأحداث التى تلت ذلك • وكان يخيم فى غرفتهما آتذ صمت كصمت الموت • وقد ظهر على فاسين اهتمام شديد حين ذكرت له أن ستيلكوف رأى أن عليه أن يكلم المؤجرة عن هاتين الجارتين ، وأنه ردد مرتين قوله « سترى ، سترى » : وأضاف فاسين يقول : « سوف ترى أن هذه الفكرة لم تساوره لغير سبب • ان له فى بعض الأمور نظرة حادة صائبة • »

— أعتقد اذن بأن من الواجب أن تنصح المؤجرة بطردهما من البيت ؟

— لا ، ليست المسألة مسألة طردهما من البيت • ولكننى أخشى أن

تقع قصة • على كل حال ، فإن جميع هذه القصص لا بد تنتهي أخيراً على نحو من الأنحاء ... دعنا من هذا !

وامتنع فاسين امتناعاً قاطعاً عن ابداء رأيه في زيارة فرسيلوف للجارتين •

– كل شيء ممكن • أحسَّ الرجل بأن في جيبه مالا • • ومن الجائز مع ذلك أن لا يكون قد أراد الا اعطاء صدقة ، فهذه أمور هي من تقاليدهم ، بل لعلها قائمة في طبيعته وميوله •

فلما ذكرت له أقاويل ستيلكوف عن « الطفل الرضيع » ، قال فاسين بلهجة جادة خاصة (مازلت أسمعها) :

– هنا يخطئ ستيلكوف كل الخطأ • ان ستيلكوف يبالغ أحياناً في الاعتماد على حسه العملي والركون اليه ، وقد يتسرع في استخلاص النتائج بمنطقة الذي كثيراً ما يكون صادقاً نافذاً • قرب حادث واحد تختلف دلالاته اختلافاً شديداً باختلاف الأشخاص ، فيخضع للمنطق ويمكن التنبؤ به تارة ، ويتخذ صوراً خارقة ليست في الحسبان تارة أخرى • وذلك ماوقع : فان ستيلكوف وقد عرف جزءاً من القضية استنتج أن الطفل ولد فرسيلوف ، والحق أنه ليس من فرسيلوف •

واللحقت على فاسين مستزيداً من المعرفة ، فما كان أشد دهشتي حين علمت أن الولد من الأمير سيرجى سوكولسكى • ان ليديا أخما كوما ، بسبب مرضها أو بسبب طبيعتها الخالية الشاذة ، كانت تتصرف في بعض الأحيان تصرف مجنونة • لقد تولعت بحب الأمير قبل وصول فرسيلوف ، ولم « يجد الأمير حرجاً في قبول حبها » برهة قصيرة ، تساجرا بعدها كما يعرف العارفون ، فطردت ليديا الأمير ، ويبدو أن الأمير ابتهج بهذا الطرد وسر به سروراً كبيراً • كانت ليديا فتاة عجيبة الأطوار (كذلك أضاف سافين) : ومن الجائز جداً أنها لم تكن سليمة العقل في يوم من

الأيام • ولكن الأمير حين سافر الى باريس كان يجهل كل الجهل أنه ترك ضحيته حبلى ، وظل يجهل ذلك الى النهاية ، أى الى حين عودته • وفى أثناء ذلك أصبح فرسيلوف صديق ليدا ، فعرض عليها الزواج ، خاصة بسبب حبها الذى كان ظاهراً (ولكن لم يفتنوا اليه حتى النهاية تقريباً) • وكانت ليدا قد تولت بحب فرسيلوف فطار لبها فرحاً بعرضه ، « ولم تر فى هذا العرض تضحية فحسب » ، مع تقديرها للتضحية فى الوقت نفسه • وولد الطفل (بنتاً) قبل الأوان بشهر أو ستة أسابيع ، فعهد به الى مرضعة بمكان فى ألمانيا ، ثم استرده فرسيلوف ، وهو يعيش الآن فى روسيا ، ربما ببطرسبرج •

— وما حكاية أعواد الكبريت الفوسفورية ؟
قال فاسين :

— لا أعرف عن هذا شيئاً البتة • وقد ماتت ليدا آخماكوفاً بعد الولادة بخمسة عشر يوماً • ما ظروف موتها ؟ لا أدري • وقد علم الأمير بوجود الطفل منذ عاد من باريس ، ويبدو أنه فى الوهلة الأولى لم يصدق أن الطفل منه • • • ومن جهة أخرى جهدت جميع الأطراف فى إبقاء القصة سرّاً لا يفشو بين الناس • وما تزال الى اليوم محفوفة بالغموض •
هتفت أقول مستاء :

— ولكن ما هذا الأمير ؟ أهكذا 'تعامل فتاة مريضة ؟

— لم يكن مرضها فى ذلك الحين قد تفاقم • ثم انها هى التى طردته • صحيح أنه ربما كان قد أسرع يستفيد من هذا الطرد ، فلم يلبث أن رحل على الفور •

— أتهرب سلوك رجل نذل مثله ؟

— لا • ولكننى لا أصفه بأنه نذل • ان فى الأمر شيئاً آخر غير النذالة • على كل حال ، هذه مسألة عادية مألوقة • انه لا ينفرد بهذا السلوك من دون سائر الناس •

- قل لى يا فاسين : هل عرفته من قرب ؟ انتى أحب كثيراً أن اعتمد على رأيك بسب ظروف يفسنى جداً •

ولكن فاسين أجاب هنا بكثير من التحفظ • انه يعرف الأمير ، ولكنه لم يشأ أن يقول كلمة واحدة عن ظروف تعرفه اليه • وقد أسرَّ الى بعد ذلك أن طبع الأمير يجيز له أن يكون متسامحاً فى الحكم عليه • « ان نفسه تزخر بميول خيرة ، وهو انسان يمكن التأثير فيه ، لكنه لا يملك لا من العقل ولا من الازادة ما يمكنه من السيطرة على رغباته وشهواته • وهو رجل لا ثقافة له ، لكنه مهووس بالتثقل والتشرد بين أفكار وأمور لا قدرة له على فهمها • من ذلك أنه يصدع أذنك بأقوال من هذا النوع : « أنا أمير ، أنا سليل زوريك • ولكن لماذا لا أكون مساعد اسكافى اذا احتجت الى أن أجنى رزقى وكنت عاجزاً عن عمل شىء آخر ؟ سوف يقرأ الناس على لافتة دكانى حيثذ : « الأمير فلان ، حذاء » ، هل ثمة ما هو أنبل من هذا ؟ » • انه يقول هذا الكلام مستعداً لتنفيذه ، وذلك هو الأمر الخطير • أضاف فاسين هذه الجملة ، وأردف : ولكنه لا يقول هذا الكلام عن اقتناع ، وانما يقوله عن خفة عقل وسرعة تأثر • ثم تأتى الندامة بعد ذلك حتماً ، فيكون على أتم الاستعداد للانتقال الى النقيض تماماً • وهكذا تجرى حياته كلها • ان فى عصرنا أناساً كثيرين يجدون أنفسهم محصورين فى طريق مسدودة ، لا لشيء الا لأنهم ولدوا فى عصرنا •

بذلك ختم فاسين كلامه • فشرذ ذهنى ووجمت حالماً مفكراً • ثم سألت فاسين :

- هل صحيح أنه طرد فى الماضى من الجيش ؟

- لا أدري أطرده أم لا • ولكننى أعلم أنه ترك الجيش بعد بعض المضايقات • لملك لا تجهل أنه فى الحريف الماضى ، وقد أحيسل الى التقاعد ، قد قضى شهرين أو ثلاثة أشهر فى لوغا ؟

.. أنا... أعلم أنك كنت حينذاك فى لوجا •

- نعم ، كنت فى لوجا أيضاً بعض الوقت • وكان الأمير يعرف
كذلك الزايت ما كاروفنا ؟

هتفت أقول :

- صحيح ؟ كنت أجهل هذا • اننى لم أكلّم أختى الا قليلاً • ولكن
هل استقبلته أمى فى بيتها ؟

- لا • هذه معرفة قديمة تمت فى لقاء بيت ثالث •

- نعم • ثم ، ماذا قالت لى أختى عن ذلك الطفل ؟ هل كان الطفل
فى لوجا أيضاً ؟

- بعض الوقت •

- وأين هو الآن ؟

- لا بد أن يكون بيطرسبرج •

صحت أقول مضطرباً أشد الاضطراب :

- لن أصدق أبداً أن تكون أمى قد شاركت أية مشاركة فى هذه
الألاعيب من قصة ليديا كلها !

فقال فاسين وهو يتسّم ابتسامة تسامح :

- فى هذه القصة ، التى لا أحاول أن أحلل عقدها على كل حال ،
لا أرى أن دور فرسيلوف يشتمل على شيء يستحق أن يلام عليه لوماً
شديداً فى حقيقة الأمر •

وأظن أن فاسين كان قد سئم من الحديث معى ، ولكنه لا يريد أن
يظهر سأمه •

وهتفت أقول مرة أخرى :

– لن أصدق أبداً ، أبداً ، ان امرأة يمكن أن تتنازل عن زوجها
لامرأة أخرى ! لا ، هذا شيء لن أصدقه أبداً ! ... أحلف أن أمي لم
تشارك أية مشاركة في هذا الأمر .

– يخيل الى مع ذلك أنها لم تعارضه .

– لو كنت في مكانها لثرت وعارضت ، من باب العزة والشم على
الأقل .

قال فاسين يختم كلامه :

– لا أريد من جهتي أن أقطع بحكم في هذا الموضوع .

والواقع أن فاسين ، رغم ذكائه كله ، كان لا يفهم في شئون النساء
شيئاً ، فكانت دائرة كبيرة من الأفكار والحوادث ، غريبة عنه مجهولة لديه .
وصمت . وكان فاسين يعمل مؤقتاً في شركة مساهمة ، وكنت أعلم أنه
يحمل شيئاً من عمله الى بيته . فلما ألححت في اللقاء الاسئلة عليه ، أعلن
لي أن هناك حسابات يجب عليه أن ينجزها ، فرجوته رجاء حاراً أن
لا يشعر من وجودي بحرج ، وأن يشرع في انجاز عمله . وأظن أن
ذلك قد سره . ولكنه قبل أن يجلس الى مكتبه أراد أن يهنيء لي سريراً
على الديوان . وكان قد عرض عليّ أن أنام على سريريه هو ، ولكنتني
رفضت ، وأظن أن هذا أيضاً قد سره . واستعزنا من المؤجرة مخدة
وغطاء . وكان فاسين مهذباً ولطيفاً الى أقصى حد ، لكنني كنت أشعر بشيء
من الضيق حين أراه يتكلف هذا العناء من أجلي . أذكر أنني قبل ثلاثة
أسابيع ، حين اتفق لي عرضاً أن بت ليلة عند ايفيم في بترسبرجسكاي
ستورونا ، كنت أكثر ارتياحاً . انه هو أيضاً قد أعد لي سريرى على الديوان
بغير علم عمته ، مقترضاً – لا أدري لماذا – أنها ستستاء اذا علمت أن رفاقاً
له يجيئون اليه للمبيت عنده . لقد ضحكنا كثيراً ، واتخذنا من قميص
شرشفاً تغطي به الديوان ، ولفنا معطفاً فجعلاه مخدة . وأذكر أن

زفارييف ، بعد أن أتممنا هذا العمل كله ، ربت على الديوان براحة يده
قائلاً بعاطفة :

— « ستنام كملك صغير » (بالفرنسية) •

فكان من شأن هذا المرح الغبي ، وهذه الجملة الفرنسية التي لاتناسبه
أكثر مما يناسب البقرة أن تلبس مريلة ، كان من شأن ذلك أن قضيت
عند هذا المهرج ليلة بديعة • أما عند فاسين فما كان أشد ارتياحاً حين
رأيتهم يجلس أخيراً الى مكتبه ويدير لى ظهره •

اضطجعت على الديوان ، وطفقت أفكر في أمور كثيرة وأنا أنظر الى
ظهره •

كان نمة أشياء كثيرة تبعث على التفكير . وكانت نفسى مضطربة ، فلا شىء فيها مكتمل . صحيح أن بعض الاحساسات أبرز من بعض ، ولكن ما من احساس بينها كان يجزئى وراءه جرأ تالماً ، وذلك من فرط وفرتها وغزارتها . كان كل شىء يبرق برقاً ان صح التعبير ، بغير ترابط ولا تماسك ، وكنت أنا نفسى لا أريد أن أثلبت على شىء ، ولا أن أقيم أى نظام . حتى ذكرى كرافت تراجعت شيئاً فشيئاً ، فأصبحت فى المقام الثانى من اهتمامى . ان ما يث الاضطراب فى نفسى أكثر من كل ما عداه انما هو حالتى الشخصية . انبى الآن قد « قطعت صلتى » بها هى ذى حقيقتى ، وهأنذا بعيد عن البيت ، وهأنذا أبدأ حياة جديدة . لكأن كل ما سبق أن عقدت النة عليه وهيات له الأسباب انما كان قبل الآن لهواً وضحكاً ، ثم اذا بكل شىء « ينقلب الآن الى واقع على حين فجأة » على حين غرة خاصة . « فكانت هذه الفكرة تشجعنى ، وكانت تبهجنى رغم الاضطراب الذى كنت أحسه لأسباب شتى . ولكن ... ولكن كان نمة احساسات اخرى . وكان بينها احساس يتمنى أن يتقدمها جميعاً وأن يستولى على نفسى كلها . ومن غريب الأمر أن هذا الاحساس كان هو أيضاً يشجعنى ، ويدفعنى الى فرح شديد . ومع ذلك كان هذا الاحساس قد بدأ بخوف : لقد خفت منذ مدة طويلة ، طويلة جداً ، أن أكون قد أسرفت فى الكلام عن موضوع الوثيقة مع آخما كوكفا ، بدافع الحماسة والمفاجأة . قلت أحدث نفسى : « نعم » ، لقد قلت أكثر مما كان يجب أن أقول ، فلا بد أنهما حزرتا شيئاً . ياللمصيبة ! لا شك فى أنهما لن تدعيا لى راحة اذا ساورتها شبهة . ولكن لعلهما لن تعثرا على ... سوف اتوارى عن الأنظار ! ولكن ماذا اذا لاحقتانى ؟ ... ، فاذا أنا أتذكر ، بغير قليل من التلذذ ، ما وقع لى مع

كأترين نيقولايضا كاملاً لا ينقصه شيء من التفاصيل • فأرى نظرتها التي كانت جريئة ولكنها كانت كذلك مدهوشة أشد الدهش ، وأرى كيف تركتها مشدوهة مضطربة مشوشة ؟ « ليست عيناها سوداوين سواداً خالكا مع ذلك ••• وانما السواد الحالك في الأهداب وحدها ••• فهذا ما يضي على العينين مظهر السواد الشديد ••• » •

أذكر أن هذه الذكرى قد أثارَت في نفسي استمزازاً قوياً على حين فجأة ، استمزازاً وتقززاً منها ومنى على السواء • فأخذت أكيل لنفسي أنواعاً من اللوم ، وحاولت أن أصرف فكري الى شيء آخر • وخطر ببالي هذا السؤال فجأة : « لماذا لم يساورني أى استياء من فرسيلوف بسبب حكايته تلك مع الجارة ؟ » • كنت من جهتي مقتنعاً اقتناعاً قوياً بأنه مثل دور العاشق الولهان ، وانه لم يجيء إلا نشداناً للتسليه ، ولكن ذلك لم يثر غضبي فى الواقع • حتى لقد بدا لى أنه يستحيل على المرء أن يتصوره فى غير هذا الصورة • ولئن سرنى أنه أخزى ، فأننى ما اتهمته ولا أدته قط • وانما كان الشيء الذى يهمنى هو نظرة الكراهية تلك التى ألقاها علىّ حين دخلت عليه مع الجارة • لقد قلت محدثاً نفسى خافق القلب : « ها قد أخذنى أخيراً مأخذ الجدل ! » • آه ••• هل كان يمكن أن اغتبط لكراهيته هذا الإغتياب كله لولا أن كنت أحبه ؟ •••

وغفوت فى النهاية ، ثم نمت نوماً كاملاً • وفيما يشبه الحلم ، رأيت فاسين - وقد أنهى عمله - يرتب كل شيء بعناية ، ويلقى على ديوانى نظرة ثابتة ، ثم يخلع ملابسه ويطفىء الشمعة • كان الوقت قد جاوز منتصف الليل •

٤

بعد ساعتين ، استيقظت منتفضاً وجلست على ديوانى • كان ينبعث وراء الباب فى غرفة الجارتين صراخ رهيب واتحاط وبكاء وعويل • وكان ياب غرفتنا نحن مفتوحاً على مداه ، وكان الدهليز مضاءً ، وكان فيه أناس يصيحون ويركضون • فأردت أن أنادى فاسين ، لكننى سرعان ما أدركت أنه لم يكن فى سريره • ولم أعرف أين يمكننى أن ألتمس أعواد ثقاب فتناولت ملابسى تلمساً ، وارتديتها فى الظلام • لكأن المؤجرة وجميع المستأجرين كانوا على موعد فى غرفة الجارتين • ان العويل يصدر عن صوت واحد اجمالاً ، هو صوت الجارة المسنة ، أما صوت الفتاة الذى سمعته أمس وما أزال أتذكره تذكرأ واضحاً كل الوضوح ، فقد كان صامتاً صمتاً مطلقاً • هذه هى الملاحظة الأولى التى برقت فى خاطرى • وما ان انتهيت من ارتداء ملابسى حتى دخل فاسين مسرعاً ، فتناول أعواد الثقاب فى لحظة واحدة بيد تعرف المكان ، وأثار الغرفة • وكان يلبس قميصاً وثوباً للمنزل وخفين ، فسرعان ما أخذ يرتدى ثيابه •

هتفت أسأله :

— ماذا حدث ؟

فقال بما يشبه الغضب :

— قصة مزعجة مربكة ! ان الجارة الشابة التى حدثتى عنها بالأمس قد شنت نفسها فى غرفتها •

فانطلقت من صدرى صرخة • لن أستطيع أن أصف الألم الشديد الذى اعترانى ! وهرعنا الى الدهليز • أعترف أننى لم أجرؤ أن أدخل غرفة الجارتين • ولم أر الفتاة المسكينة التى شنت نفسها الا فيما بعد •

بل لم أنظر اليها الا من بعيد • كانت مغطاة بشرف برز تحته نعلًا
 حذاءها الضيقان • لم أنظر الى وجهها • كانت الأم في حالة فظيعة
 مخيفة • وكانت معها المؤجرة التي لم ألاحظ فيها كثيراً من الارتياح •
 وكان المستأجرون قد تجمعوا في غرفة المأسة • ولم يكن عددهم كثيراً :
 بحار عجوز دائم التذمر متشدد في مطالبه • لكنه اليوم هادئ كل الهدوء
 وعجوزان - زوج وامراته - قدما بالأمس من اقليم « تغير » • وهما
 شخصان محترمان من رتبة معينة • لن أصف بقية تلك الليلة • ولا الذهاب
 والاياب • ولا الزيارات الرسمية • لقد ظللت الى مطلع الصبح ارتعش
 ارتعاشاً صغيراً سريعاً من شدة الاضطراب • ورأيت أن من واجبي أن
 لا أرقد • رغم أنني لا أقدم أية معونة ولا أقوم بأن عمل مفيد • وكانت
 وجوه الجميع تعبر عن نقطة شديدة على كل حال • بل كانت تعبر عن همة
 ونشاط • وقد خرج فاسين من البيت للقيام باجراءات رسمية في أغلب
 الظن • وبرهنت المؤجرة على أنها في هذه الأحوال امرأة ذات شهامة •
 وأنها خير مما ظننت فيها • وقد أفتتها (وذلك أمر شعرت منه بفخر)
 بأنه لا يجوز أن تترك الأم وحيدة مع جثمان ابنتها • وبأن عليها أن تنقلها
 الى غرفتها حتى الغد على الأقل • فسرعان ما وافقت على رأيي • ورغم أن
 الأم أخذت تتخبط وتبكي رافضة أن تترك جثمان ابنتها • فقد رضيت أن
 تذهب الى غرفة المؤجرة أخيراً • ولم تلبث المؤجرة أن سارعت تأمر باشعال
 السماور • وتفرق المستأجرون بعد ذلك ذاهبين الى غرفهم وأقفلوا
 أبوابهم بالمفاتيح • ولكنني لم أشأ أن أرقد بحال من الأحوال • وظللت عند
 المؤجرة طول الليل • فسرت المؤجرة بأن يكون في غرفتها شخص آخر •
 وأن يكون هذا الشخص عادلاً ذلك قادراً على أن يحذنها في الأمر • وكان
 السماور نعم الجليس • ان السماور في روسيا ضرورة لازمة في جميع
 الكوارث والنوازل • ولاسيما ما كان منها فظيلاً مفاجئاً شاذاً ••
 فحتى الأم شربت فنجانين من الشاي • ولكن بعد أنواع من التوسل

والتضرع طبعاً ، حتى لكأنتما أجبرناهما على الشرب اجباراً • والحق انى
لم أر فى حياتى كرباً أقسى من كرب هذه الأم ولا يأساً أوضح من
يأسها • وقد طاب لها بعد الانتحاب الشديد والصراخ المسعور أن تأخذ فى
الكلام عما جرى لابنتها ، فأصغيت الى قصتها بنهم قوى • ان بين النساء
الذين نزلت بهم المصائب ، ولا سيما النساء منهم ، أناساً يجب عليك فى مثل
هذه الحالة أن أن تدعهم يتكلمون ما شاعوا أن يتكلموا • هذه نفوس
حرثتها أنواع الشقاء والمحن والأحزان حرثاً ان صح التعبير ، فلا شىء
يدهشها بعد ذلك ، ولو كان كوارث مفاجئة ، ولا شىء ينسبها قاعدة من
قواعد فن الكياسة والتماس المودة والشفقة ، ولو كان منظر جثمان أعز
مخلوق لديها • ولست أحكم على هؤلاء الناس • فليس مصدر هذا عندهم
أثانية عامة ولا تربية فيجة • بل لعل فى هذه القلوب من صفاء الذهب
ما ليس فى قلوب أبطال لهم من التبل أعظم مظهر • ولكن التعود الطويل
على المذلة ، وغريزة البقاء ، واستمرار ما يعانون من القلق والخوف
والاضطهاد ، قد غلبهم على أمرهم أخيراً • فمن هذه الناحية كانت المتحجرة
المسكينة لا تشبه أمها • ولكنهما متشابهتان فى ملامح الوجه تشابهاً تاماً ،
وان تكن الفتاة جميلة حقاً • ان الأم لم تطعن فى السن ، فهى فى نحو
الخمسين من عمرها • وكانت شقراء هى أيضاً ، ولكن عينيها غائرتان
وخديها خاسفان وأسنانها كبيرة صفراء متفاوتة • وكل ما فيها يمت الى
الاصفرار بصلته : فجلد الوجه واليدين أشبه بالرق • وفستانها القائم قد
اصفر من فرط قدمه • وظفر الابهام من اليد اليمنى كان مدهوناً بشمع
اصفر لا أدرى لماذا !

ولقد كانت القصة التى روتها مشوشة فى بعض الأحيان ، فلا ترابط
بين أجزائها • وسوف أروى لكم الآن ما فهمته وما أتذكره •

لقد جاءتا من موسكو . وهى أرملة منذ مدة طويلة ، ولكنها أرملة « مستشار » . كان زوجها موظفاً ، ولم يترك لها شيئاً ، « الا مائتى روبل هى راتب المعاش ، ولكن ما قيمة مائتى روبل ؟ » . ومع ذلك ربت أوليا ، وأرسلتها الى الليسيه . . « وما كان ألعها فى الدراسة ، ما كان ألعها ! لقد نالت عند تخرجها من المدرسة مدالية فضية . . » (هنا ذرفت المرأة دموعاً غزيرة بطبيعة الحال) . وكان زوجها قد خسر عند تاجر من بطرسبرج مبلغاً يساوى قرابة أربعة آلاف روبل . وفجأة استرد التاجر ثراه . « لدى أوراق ، وقابلت محامياً ، ف قيل لى : طالبى بالدين ، وستقبضين المبلغ حتماً . . » ففعلت ذلك ، فأخذ التاجر يوافق . ف قيل لى : اذهبنى اليه بتفلسك . فحزمتنا أمتعتنا ، أنا وأوليا ، وجئنا الى بطرسبرج ، ونحن فيها منذ شهر . وكنا نملك قليلاً من المال . واستأجرنا هذه الغرفة لأنها أصغر الغرف ، ولكنها فى بيت شريف . لاحظنا هذا بأعيننا ، وهو الشيء الهام فى نظرنا : فأتنا ونحن امرأتان بغير خبرة يمكن أن يسيء إلينا الناس وأن ينالونا بأذى . ودفعنا لك أجرة شهر سلفاً . ولكن المعيشة فى بطرسبرج باهظة التكاليف . ورفض التاجر أن يدفع لنا حقناً . قال : « أنا لا أعرفكما ولا أريد أن أعرفكما » ، وكانت الأوراق التى بيدى غير كافية . أدركت ذلك بنفسى . ونصحونى بأن استشير محامياً شهيراً . كان المحامى الذى نصحونى باستشارته استاذاً . لم يكن محامياً عادياً بل كان من رجال التشريع ، فلا بد أن يقول لى ما الذى يجب على أن أعمله . ذهبت اليه حاملة له آخر ما نملك ، خمسة عشر روبلاً . لم يصغ الى كلامى ثلاث دقائق . وقاطعنى يقول « فهمت ، فهمت . أعرف . اذا أراد التاجر أن يدفع دفع ، واذا لم يشأ أن يدفع فلن يدفع . واذا أقمت

دعوى ، فقد 'يحكم عليك بدفع النفقات • فالأفضل أن تحلى المسألة معه صلحاً « ، حتى لقد زج فى كلامه آيات من الانجيل مازحاً متهمكاً : « كن مصالِحاً لحصمك ما دمت معه فى الطريق ، قبل أن تخسر آخر فلس » • وشيعنى ضاحكاً • هكذا ضيعت خمسة عشر روبلاً ! رجعت الى أوليا • وجلست كل منا أمام الأخرى • وكنت أبكى • • أما هى فانها لم تبك • بل بقيت ساكنة ، شامخة ، مثالة • وهكذا كان شأنها طول حياتها • لا « آه » ولا « أوه » ! لا تذرف دموعاً • وتظل عينها قاسيتين • وكنت اذا رأيته على هذه الحال تسرى فى ظهري رعدة • صدقنى اذا أردت أن تصدق : كنت أخاف منها ، أخاف منها حقاً ، منذ مدة طويلة • وكنت أشتى فى بعض الأحيان أن أتشكى ، ولكننى لا أجرو أن أتشكى أمامها • عدت الى التاجر مرة أخيرة ، وذرفت دموعاً غزيرة • فلم يزد على أن قال لى : « طيب » ، حتى دون أن يصفى الى كلامى • يجب أن أذكر لكما أننا كنا لا تنوى أن نمكث مدة طويلة هذا الطول كله ، لذلك نفذ كل ما كان معنا • رهننت جميع أثوابى واحداً بعد واحد ، فكنا نعيش مما نقترض • ونفدت ثيابنا كلها • فأعطيتى آخر قميص عندها • وذرفت دموعاً مريرة • وقرعت بقدمها الأرض من شدة غضبها ، وهرعت تذهب الى التاجر بنفسها • انه رجل أرمل • فكلّمها هكذا : « تعالى غداً غد فى الساعة الخامسة ، فقد يكون عندي ما أقوله لك » • فرجعت الى البيت فرحة جذلى • وأبلغتني ما قاله لها : « سيكون عندي ما أقوله لك » • فسررت أنا أيضاً • ولكن شعرت فى الوقت نفسه بثقل يجثم على صدرى • قلت لنفسى : سوف يحدث شيء ! ولكن هل كنت أجرو أن أفاتحها بما يساورنى ؟ وفى غداة الغد رجعت من عند التاجر شاحبة شحوباً شديداً ، مرتعشة ارتعاشاً قوياً ، وارتمت على السرير • ففهمت كل شيء ، ولم أجرو حتى أن أسألها عما حدث • هل يمكنك أن تصدق ما وقع ؟ لقد أخرج لها هذا اللص الحقيير خمسة عشر روبلاً ، وقال : « اذا وجدتك

عذراء زدت المبلغ أربعين روبلاً . . . قال لها هذا ، فى وجهها ، دون خجل . فما كان منها الا أن هجمت عليه - فيما روت لى - ولكنه دفعها عنه برجله ، ومضى الى غرفة أخرى أقفل عليه بابها بالفتاح . وامى لأعترف لكما صديقة أننا كنا مع ذلك لا نكاد نملك ما نقف به . وأخذنا صديرة مبطنة بجلد أرنب فبعناها . ثم ذهب الى الجريدة ، ونشرت اعلاناً تقول فيه : أحضّر لجميع العلوم ، وللحساب . وقالت لى : « سأقبل أن يدفع لى ثلاثون كوبكاً » . وأصبحت فى النهاية ، أنا أمها ، ارتاع حين أراها . أمسيت لا تقول لى شيئاً ، بل تبقى جالسة على النافذة ساعات بكاملها . تنظر الى سطح المنزل المقابل ، ثم تصرخ قائلة على حين فجأة : « لسوف أعمل غسالة ، أو أعمل حفارة اذا لزم الأمر » . تقول ذلك ثم تفرع الأرض بقدمها . ذلك أننا ليس لنا أحد يمكن أن نلتجئ اليه . ما المصير الذى ينتظرنا ؟ وكنت ما أزال أخاف أن أتحدث معها . ونامت مرة فى وضع النهار ، ثم اذا هى تستيقظ فجأة فتفتح عينيها وتنظر الى . . . وكنت أنا جالسة على الصندوق ، أنظر اليها أيضاً . فاذا هى تنهض دون ان تقول شيئاً ، وتدنو منى ، فتقبلنى بقوة ، بقوة ، ثم تفقد كلتا الصبر ، فتأخذ نيكى ، ونظف متعاقبين لا تترك احداً الاخرى . لم يحدث لها هذا فى حياتها الا تلك المرة . وفيما نحن كذلك دخلت علينا خادمتك ناستاسيا وقالت : « هناك سيده تسأل عنكم » . حدث هذا منذ أربعة أيام . ودخلت تلك السيدة : انها ترتدى ثياباً حسنة ، وتتكلم الروسى ، ولكن بلكنة ألمانية . قالت : « هل أعلنت فى الجريدة أنك تعطين دورساً ؟ » ، فاحتفينا بها ، وأجلسناها ، وكانت تضحك بلطف ومودة . وأضافت تقول : « لست أجدى من أجلى أنا ، بل من أجل ابنة أخى التى لها أولاد صغار . فعلى الينا اذا شئت ، وستفاهم » . وأعطت عنوانها : شارع كذا ، عمارة كذا ، شقة كذا . ان العمارة تقع قرب جسر فوزنسكى . وانصرفت . ذهبت أوليا الى العنوان .

بل سعت اليه في ذلك اليوم نفسه . ثم اذا هي تعود بعد ساعتين مصابة بنوبة عصبية رهيبة . وقد روت لى ما حدث لها فيما بعد فقالت : سألت البواب : « أين الشقة رقم كذا ؟ » ، فظفر الى البواب وقال : « ما حاجتك الى هذه الشقة ؟ » . وكان في لهجته غرابة شديدة ، حتى لتراود المرء رغبة من سماع هذه اللهجة وحدها . ولكن أوليا قوية الكبرياء ، نافذة الصبر ، فلا تستطيع أن تطبق الأسئلة الكثيرة والكلمات الفظة . فقال لها البواب مشيراً باصبعه الى السلم : « طيب . هي ذى الشقة فاذهبى اليها » . وأدار لها ظهره ، وعاد الى حجرته . فهل تتصورون ما الذى حدث ؟ دخلت أوليا الشقة ، وسألت ، فسرعان ما هرعت نساء من جميع الجهات تقول لها : « ادخلى ، ادخلى ! » ، وقد هرعن جميعاً ضاحكات ، مبهرجات ، مخضبات الوجوه بالأصباغ والمساحيق ؛ نساء ساقطات يبعثن على القفز ، أهدقن بها وجردنها جراً ، وكان هناك من يعزف على البيانو . قالت لى أوليا : « أردت أن أهرب ، ولكنهن لم يتركننى » . فخافت ، وخارت ساقاها فلا تكادان تحملانها . والنساء ما يزلن ممسكات بها ، يكلمنها بلطف ورقة ، ويشجعنها . وفتحن زجاجة من خمرة بورتو 'يردن أن يسقينها احتفاءً بها وتكريماً لها . فاتفقت وأخذت ترشقهن بالشتائم مرتشئة مرددة : « اتركننى ، اتركننى » . وهجمت على الباب فأمسكنها ، فأخذت تعول . وعندئذ وثبتت الأخرى ، تلك التى جاءت الينا ، فصفت أوليا صفتين ، ودفعتها الى الخارج وهى تقول لها : « أنت لا تستحقين يا قاذورة ، أنت غير جديرة بسكنى بيت لائق ! » وهتفت امرأة ثانية قائلة لها وهى تهبط على السلم : « أنت جئت تعرضين نفسك ، لأنك لست فى بيتك طعام تسدين به رمقك ، والا لما رضينا أن ننظر اليك وأنت على ما أنت عليه من هذه الدمامة كلها ! » . وقد قضت ليلتها فى حمى وهذيان . وفى الصباح كانت عيناها تسطمان . نهضت وقالت : « سأشتكى » . ولم أقل أنا شيئاً ،

ولكنى فكرت بينى وبين نفسى : « كيف تمكن الشكوى ؟ أين الأدلة ؟ » .
وأخذت أولياً تسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ، وتلوى يديها ، وأخذت
الدموع تسيل من عينيها ، ولكنها تكرر أسنانها متجلدة مكابرة . وقد
صبار وجهها بلون التراب منذ تلك اللحظة ، وظل على هذه الحال حتى
النهاية . وتحسنت فى غداة الغد ، وسكتت عن الكلام ، فاعتقدت أنها
هدأت وسكنت . وفى الساعة الرابعة بعد الظهر من ذلك اليوم انما جاء
السيد فرسيلوف .

أقول بصراحة : اننى مازلت غير قادرة على أن أفهم كيف أمكن
أن تصنى أولياً اليه من أول كلمة وهى على ما عليه من سوء الظن وشدة
الارتياب . والحق أن ما جذبنا كلتنا اليه هو هيئته الجادة الرصينة ، بل
القاسية ، وكذلك أسلوبه فى الكلام وهو أسلوب رقيق ، مهذب ،
لا مهذب فحسب ، بل فيه توقير واحترام أيضاً ، بدون أن تملق مع
ذلك : ان المرء يحس أن كلامه تابع من قلبه . قال : « قرأت اعلانك فى
الجريدة . وأرى أنك لم تحسنى كتابته ، وذلك قد يسىء اليك » ، ثم
ذكر بعد ذلك شيئاً لم أفهمه ، شيئاً عن الحساب . ولكننى رأيت أولياً تحمر
(فلا بد أنه رجل ذكى جداً) ، حتى لقد سمعتها تشكره . وألقى عليها
عدداً من الأسئلة . وعرفت أنه يقيم بموسكو منذ مدة طويلة ، وأنه يعرف
مديرة ليسيه معرفة شخصية . وأضاف يقول : « سوف أجد لك دروساً ،
لأننى أعرف كثيراً من الناس هنا ، بل أستطيع - اذا شئت الحصول على
وظيفة ثابتة ، أن أوصى بك أشخاصاً لهم نفوذ كبير . ولكن اسمح لى ،
بانتظار أن يتحقق ذلك ، أن ألقى عليك سؤالاً صريحاً بغير لف ولا
دوران : ألا أستطيع أن أساعدك فى شيء على الفور ؟ وثقى بأنك أنت
التي تحسنين الى إذا أصحت لى أن أساعدك ، فيكون علىّ أنا أن أشكر لك
صنيعك . والأمر بسيط : سوف تردين الى المساعدة متى حصلت على
الوظيفة . وأقسم لك بشرفى أننى من جهتى اذا وقعت يوماً فى ضائقة

كالضائقة التي تعانين منها ، فلن أخجل من أن أطلب مساعدتك ، وسوف أرسل اليك عندئذ زوجتي وابنتي . . . » • لن أروى لكما كل حاله ، وحسبي أن أذكر أنني ذرفت دموعاً حين رأيت شفتي أوليا تختلجان شكراً وعرفاناً بالجميل • ولقد أجابته هكذا : « اذا قبلت مساعدتك ، فانما أقبلها لثقتي برجل شريف مستقيم انساني يمكن أن يكون بمثابة أبي . . . » • لقد عبرت عما في ذهنها بكلام يبلغ هذا المبلغ من الحسن والايجاز والنبيل : « رجل انساني ! » • فما كان منه الا أن نهض فوراً وهو يقول : « سأجد لك دروساً ووظيفة ، حتماً ؛ سأهتم بهذا الأمر منذ اليوم ، لا سيما وأنتك حاصلة على شهادات كافية . . . » ولكنني نسيت أن أقول لكما انه منذ دخل قد دقق في شهادات الليسيه لأنها أرته اياها ، وانه سألها في موضوعات كثيرة • وقد قالت لي أوليا بعد انصرافه : « هل تعرفين يا ماما أنه امتحنتني امتحاناً . . . ما أذكاه ! ما أمتع الحديث مع رجل في مثل علمه وثقافته ! . . . » • كان وجهها يشع فرحاً • وكان على الطاولة ستون روبلاً • قالت لي : « ارفعيها يا ماما • سوف نحصل على وظيفة • وسوف نرد اليه القرض في أقرب وقت • سوف نبرهن على أننا أناس شرفاء ، وأن لنا شعوراً مرهفاً واحساساً رقيقاً ، ولقد لاحظت هو ذلك طبعاً • » • ثم صمتت • ورأيت أنها تتنفس تنفساً عميقاً • وقالت لي بعد برهة : « لو كنا أناساً أفظاظاً يا ماما ، لرفضنا مساعدته كبرياء وأنفة ولكننا بقبولنا هذه المساعدة برهنا على رقة شعورنا ، وعلى أننا نثق به رجلاً جديراً بالاحترام ، شائب الشعر ، أليس كذلك ؟ » • فلم أفهم في أول الأمر شيئاً ، وقلت : « لكن علام نرفض مساعدة رجل نبيل غني يا أوليا ، اذا هو كان فوق ذلك طيب القلب ؟ » • فقطعت حاجبيها وقالت : « لا ياماما ، ليس هذا هو الأمر ، ليس الأمر أمر مساعدة بل أمر روح انسانية • أما المال فلعله كان ينبغي أن لا نأخذه • ألم يعد بأن يجد لي وظيفة ؟ كان هذا يكفي . . . رغم شدة حاجتنا الى المال . . . » • قلت « كفاك يا أوليا ، ما نحن

فى حال تسمح لنا بالرفض » ، حتى لقد ضحك وأنا أقول لها هذا الكلام .
كنت بينى وبين نفسى مسرورة • ولكن ها هى ذى أوليا تعود الى الموضوع
بعد ساعة قائلة : « تريشى يا ماما • لا تنفقى من هذا المال شيئاً • » قالت
ذلك بلهجة قاطعة • فسألته : « لماذا ؟ » ، قالت : « نعم ياماما ، تريشى •
ثم لم تنطق بعد ذلك بشىء • وإنما ظلت مساءها كله صامتة • حتى اذا
كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، استيقظت فسمعت أوليا تنقلب على
سريرها وتسألنى : « أليست نائمة يا ماما ؟ » ، فأجبتها : « لا » ، فقالت :
« هل تعلمين ؟ لقد أراد أن يهينى » • قلت : « ما هذا الكلام ؟ » • قالت :
« حتماً ، حتماً ، انه رجل دنى • اياك أن تنفقى كوبكاً واحداً من ماله • •
وهممت أن أجيبها ، حتى لقد بدأت أبكى على سريرى ، ولكنها انقلبت
الى جهة الحائط قائلة لى : « لا تجيبينى ، دعينى أنام ! » • ونظرت اليها
فى الصباح ، فلم أتعرفها من فرط تغيرها • صدقاً أو لا تصدقاً ، لكننى
أحلف لكما أمام الله أنها قد جنت ! انها منذ عوملت تلك المعاملة فى ذلك
البيت الساقط القدر ، قد اختل قلبها ، واختل عقلها أيضاً • • • نظرت
اليها فى ذلك الصباح ، فاستبدت بى الحيرة وصرت لا أدرى كيف أتصور
الأمر واستبد بى الخوف • قلت لنفسى : « يجب أن لا أعارضها •
سألتنى : « ماما ، لم يترك عنوانه ، أليس كذلك ؟ » • فقلت : « أنت على
خطأ يا أوليا • لقد سمعت حديثه أمس ، فأثنت عليه ، ثم أوشت أن
تدرفى دموع الشكر والعرفان بالجميل • • ولم أقل لها شيئاً آخر ، ولكنها
أخذت تصرخ ، وتضرب الأرض بقدمها قائلة لى : « ليس فى قلبك الا
عواطف ذل ! هى تربية عهد العبودية ، القديمة • • • واضح هذا ! » •
ما أكثر ما قالت لى من كلام جارح ! • • • وتناولت قبعته ، وهربت •
لم أستطع أن أصددها • وصححت أناديه على السلم • ثم تساءلت ماذا
دهاها ؟ الى أين هربت ؟ لقد ذهبت الى مكتب العناوين ، لتعرف أين
يسكن السيد فرسيلوف • وقالت لى حين عادت : « فى هذا اليوم نفسه

سأردّ اليه ماله ، سأرمي ماله في وجهه • لقد أراد أن يهينني ، كما فعل سافرونوف (التاجر) ، ولا فرق بينهما الا في أن سافرونوف فعل ما فعله بفظانة فلاح ، أما هو فبمكر واحتيال ، ورياء ونفاق • • • وفي تلك اللحظة نفسها نقر على الباب ذلك السيد الذي جاءنا أمس ، وقال : سمعتما تكلمان عن فرسيلوف ، فأستطيع أن أزودكما بأنبائه • • • فما ان سمعت اسم فرسيلوف حتى وثبت الى الرجل مستعرة الغضب • وأخذت تتكلم ، وتتكلم • فكنت أنظر اليها فلا أصدق عيني • عهدي بها شديدة الصمت ، ما رأيته في حياتها تتدفق في الكلام هذا التدفق ، فكيف تندفع الآن في الحديث هذا الاندفاع ، ولا سيما مع رجل لا تعرفه ؟ وكانت خداهما حمراوين ، وكانت عيناها تسطعان • قال الرجل لهما : انك على حق يا آنسة • ان فرسيلوف يشبه كل الشبه أولئك الجنزالات الذين يوصفون في الصحف • يتزين واحدhem بجميع أوسمته ، ويسعى الى المربيات اللواتي ينشرن اعلانات في الجرائد ، يسعى ويجد مطلبه • واذا لم يجده يتكلم ، وينذل الوعود البراقة ، ثم يرجع من حيث أتى ! يكون قد تسلى على الأقل • « حتى أوليا ضحكت ، ولكن ضحكها كان متقطعاً عجيباً • وتناول ذلك السيد يدها وحملها الى قلبه قائلاً : « أنا أيضاً أملك ثروة في امكاني دائماً أن أعرضها على فتاة جميلة • ولكن حسبي في أول الأمر أن أقبل يدها • • • » ، ورأيت أنه يجذبها الى صدره ليعانقها ويقبلها ، فوثبت أوليا ، ووثبت أنا معها في هذه المرة ، وتعاوننا كلتانا على طرده • وفي المساء استردت أوليا المال مني وخرجت مسرعة ، ثم رجعت فقالت لي : « ماما ، انتقمت من ذلك الرجل الحقير ! » • قلت لها : « أوليا ، من يدرى أننا لم ندمر سعادتنا بأيدينا ، من يدرى أنك لم تهيني رجلاً شريفاً محسناً ! » وبكيت ألماً وحسرة • لم أستطع أن أسطر على نفسي • فاذا هي تصرخ قائلة : « لا أريد ، لا أريد ، هيه أشرف انسان في العالم ، فاني لا أريد صدقاته ! لا أريد أن يشفق على أحد ! » •

ورقدت خالية البال من أية فكرة • لم يدر في خلدى شىء • لعلما نظرت
 اليه ، هذا المسمار المدقوق فى الجدار من بقايا مرآة ، فلم يخطر فى ذهنى
 شىء • لا أمس ، ولا قبله ، ولا فى يوم من الأيام • لم أقدر أن يحدث
 حادث • لاسيما وأننى كنت لا أتوقع هذا من عزيزتى أوليا • ومن عادتى
 أننى أنام نوماً ثقيلاً ، وأشعر ؟ انه الدم يصعد الى رأسى • وقد ينزل
 الدم الى قلبى فأصرخ فى نومى ، فتوقظنى أوليا فى الليل وتقول لى :
 « ما هذا يا ماما ؟ انك تنامين نوماً يبلغ من الثقل انه يصعب ايقاظك عند
 الحاجة • » فأقول لها : « آ • • • نعم نعم يا صغيرتى أوليا ، ان نومى ثقيل ،
 ثقيل جداً • » • ولا بد اذن أننى كنت فى هذه الليلة أشعر ذلك
 الشخير • وهذا ما كانت تنتظره أوليا: فنهضت دون أن تخشى شيئاً • وكان
 عندنا سير طويل نحزم به حقيبتنا ، وكان السير ملقى فى الغرفة ظاهراً
 للعيان طول هذا الشهر • ولقد حدثت نفسى بالأمس قائلة ان على أن
 أضمه فى مكان ، فليس يلىق أن يبقى ملقى فى الغرفة هكذا ! أما الكرسي
 فلا بد أنها دفعت به بقدمها ؟ ومن أجل أن لا تحدث ضجة وضعت تحته
 تنورتها • ولا شك أننى لم أستيقظ الا بعد مدة طويلة ، بعد ساعة أو
 أكثر • فناديتها : أوليا ! أوليا ! لكن نوعاً من رؤيا قد وافانى فناديتها •
 واما لأننى لم اسمع تنفسها فى السرير ، واما لأن سريرها بدا لى فى
 الظلام خالياً ، فقد رأيتنى أثب دفعة واحدة وأمد ذراعى أتمسك السرير :
 لم يكن فى السرير أحد ، وكانت المخدة باردة • عندئذ انقبض قلبى ،
 وتجمدت فى مكاني كأننى تمثال من حجر ، واضطرب عقلى • قلت
 لنفسى : « لا بد أنها خرجت • » ثم لاح لى بقرب السرير ، فى الزاوية ،
 أمام الباب ، أننى أراها واقفة • فنظرت إليها دون أن أقول كلمة ، ونظرت
 الى هى أيضاً فى الظلام دون أن تتحرك • ولكن لماذا هى واقفة على
 الكرسي • وقلت لها بصوت خافت جداً : « أوليا • اننى خائفة • أوليا ،
 هل تسمعينى ؟ » • عندئذ اتضح فى نفسى كل شىء فجأة • فتقدمت خطوة

الى أمام ، ومددت ذراعى نحوها ، وطوقتها • فكانت تترجع بين يدى •
وأمسكتها فظلت تترجع • أدركت كل شيء • ولم أشأ أن أدرك •••
وأردت أن تصرخ ••• ولكن صوتى لم يخرج • تأوهت فى داخلى :
آه ••• وهويت على الأرض • وعندئذ صرخت •

• • • • •
• • • • •

قلت لفاسين فى الصباح ، بين الساعة الخامسة والساعة السادسة :

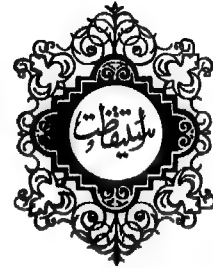
— لولا صاحبك ستيلكوف يا فاسين ، كان يمكن أن لا يحدث شيء
مما حدث •

— ما يدريك ؟ بل كان سيحدث حتماً • لا يجوز للمرء أن يحكم
فى الأمور على هذا النحو • لقد كان كل شيء يسير بالفتاة الى هذه
الخطئة • صحيح أن ستيلكوف ، فى بعض الأحيان •••

ولم يكمل فاسين جملة ، وقطب حاجيه ممتعضاً ؛ وانصرف فى
الساعة السادسة ، فخلوت أخيراً الى نفسى • لقد طلع النهار • وكنت
أشعر بشيء من دوار • ووافقتى صورة فرسيلوف : ان القصة التى روتها
عنه السيدة تظهره فى ضوء جديد • ومن أجل أن أفكر فى الأمر على
مهل ، استلقيت على سرير فاسين بملابسى وحداثى لحظة ، وليس فى
نتى أن أنام أبداً • لكننى لم ألبث أن نمت ، لا أذكر كيف تم هذا • نمت
قراءة أربع ساعات • ولم يوقظنى أحد •

الفصل العاشر

١



فى نحو الساعة العاشرة والنصف ، فلبث مدة لا أصدق عيني : فعلى الديوان الذى نمت عليه فى الليلة البارحة كانت تجلس أمى ، وبجانبها الجارة المسكينة المفجوعة ، أم المنتحرة . وكانت الاثنان قد أمسكت كل منهما يد الأخرى ، وراحتا تتحدثان بصوت خافت حتى لا توفطاني طبعاً ، وكاتتا كلتاهاما تبكيان . نهضت ووثبت لأقبل أمى ، فأشرق وجهها وقبلتني ، ورسمت علىّ اشارة الصليب بيدها اليمنى ثلاث مرات . ولم تكن قد نطقنا بعد بكلمة واحدة حين فتح الباب ، فدخل فرسيلوف وفاسين . مدّ الىّ فاسين يده . ولم يخاطبني فرسيلوف بكلمة ، بل تهالك على المقعد . أغلب الظن أنه جاء الى هنا هو وأمى منذ وقت . وكان وجهه مشدوداً ، وكانت هيئته تتم عن هم وقلق . ولا شك أنه كان قد بدأ حديثاً مع فاسين ، فهاهو ذا يكمل حديثه قائلاً له بصوت واضح جداً :

— ان ما آسف له أكثر من كل شئ آخر هو أنني لم أستطع أن أعالج هذا الأمر كله مساء أمس . ولولا ذلك لما وقعت هذه الحادثة الرهيبة ! كان فى الوقت متسع . لم تكن الساعة قد بلغت الثامنة بعد .

وما ان خرجت من عندنا هاربة حتى قررت بينى وبين نفسى أن أدركها هنا ، فأبدد ما قام فى ذهنها من فهم خطأ • ولكن تلك القضية المستعجلة التى لم تكن فى الحسبان ، والتى كان يمكنى مع ذلك أن أرجئها الى اليوم ••• بل كان يمكنى أن أرجئها أسبوعاً ••• تلك القضية المؤسفة هى التى حالت بينى وبين اللحاق بالفتاة الى هنا ، فأفسدت كل شئ •
أمور تحدث !

فقال فاسين معترضاً :

— لعلك ما كنت لتستطيع أن تقنعها • ان أحقاداً مريرة كثيرة كانت قد تجمعت فى نفسها قبل أن تلقاها •

— بل كنت سأفلح فى اقناعها • كنت سأفلح حتماً • وكانت فى ذهنى فكرة أخرى ، هى أن أرسل اليها صوفيا آندريفنا نيابة عني • لقد خطرت هذه الفكرة ببالى ، ولكنها لم تستقر فيه • كان يمكن أن تفلح صوفيا آندريفنا ، فلو نفذنا هذه الفكرة لأمكن أن تكون المسكينة حية الآن • لا ، لا ! لن أقحم نفسى بعد اليوم فى ••• « أعمل خير » ••• ها قد جربت فكان مسعاً وبلاً ! ما كان أغبأنى حين ظننت أننى ما أزال من أبناء هذا العصر ، وأننى أفهم طبيعة الشباب فى هذا الزمان ! نعم ، ان أدمغتنا قد شاخت حتى قبل أن تنضج • بالمناسبة : ان عدداً هائلاً من الناس لا يزالون بحكم العادة يظنون أنفسهم من جيل الشباب لأنهم كانوا حتى الأمس يتمون الى جيل الشباب ، ولا يدركون أنهم قد أقصوا ونحووا •

قال فاسين بتعقل وحكمة :

— هناك خطأ واضح فى فهم المسألة • ان أم الفتاة تعترف بأن ابنتها ، بعد الحادث الذى وقع لها فى بيت المومسات ، قد أصبحت كمن فقد عقله وأصابه جنون • أضف الى ذلك الظروف القاسية ، والاهانة الأولى التى

ألحقها بها التاجر ... ان هذا كله يمكن أن يحدث في الماضي على هذا النحو نفسه ، وليس هو في رأيي صفة تتميز بها شبيبة هذا العصر .

— ان شبيبة هذا الزمان نافذة الصبر قليلاً ، ناهيك طبعاً عما تتصف به الشبيبة في جميع الأزمنة من ضعف ادراك الواقع ، ولا سيما شبيبة الزمان الحاضر . قل لي : ماذا لفق السيد ستييلكوف هنا ؟

فانبريت أتدخل في الحديث فجأة فقلت :

— ان السيد ستييلكوف هو سبب البلاء كله . فلولا لما حدث شيء . لقد صب على النار زيتاً .

فأصغى فرسيلوف ، ولكنه لم ينظر الى . وقطب فاسين حاجبيه . ثم استأنف فرسيلوف كلامه فقال ماطاً كلماته بدون تعجل :

— هناك شيء آخر مخيف ألوم نفسي عليه . يخيّل الى انني بحكم عادة سيئة مستحكمة قد أبحث لنفسي شيئاً من المرح معها ، فضحكت ضحكة خفيفة ، أي انني لم أكن قاطعاً وجافاً وجهماً بالقدر الكافي ، وهذه صفات ثلاث أظن أن الجيل الجديد يقدرها قدراً كبيراً . فلعلني أتحت لها أن تحسبني نوعاً من سيلاون متجولاً .

فعدت أقاطعه مرة أخرى قائلاً بعنف :

— بالعكس : ان الأم تؤكد أنك أحدثت في نفسها اثرآ حسناً رائعاً ، وأن الفضل في هذا الأثر انما يرجع الى ما كان فيك من جدٍ بل من قسوة ، وما كان فيك من صدق . هذه أقوالها هي نفسها . ان الفتاة الراحلة قد أثنت عليك بعد انصرافك ثناء يحمل هذا المعنى ذاته .

فتمتم فرسيلوف وهو يلقي على أخيراً نظرة سريعة خاطفة :

— ه ... كذا ؟

ثم أضاف قائلاً لفاسين وهو يمد اليه ورقة صغيرة :

— خذ اذن هذه الورقة ، فلا بد منها للقضية •

فتناول فاسين الورقة ؟ واذا رأى أثنى أنظر اليها مستطعاً ، أعطانيها
لأقرأها • انها بطاقة كتب فيها سطران مضطربان كتباً خربشةً بالقلم
الرصاص ، وأغلب الظن أنهما كتبتا في الظلام : « ماما ، ماما العزيزة ،
اغفري لى أثنى قد رسبت في مطلع الحياة : ابتكت أوليا التى أورتك
آلاماً • • »

قال فاسين شارحاً :

— 'وحدثت البطاقة فى هذا الصباح •

فهتفت أقول :

— يا لها من رسالة عجيبة !

فسألنى فاسين :

— عجيبة ؟ لماذا ؟

— هل يستطيع المرء ، فى لحظة كذلك اللحظة ، أن يكتب
بهذا الأسلوب الهزلى ؟

فنظر الى فاسين مستفهماً • فتابعت كلامى أقول :

— هذا الهزل نفسه عجيب • انه من اللغة التى يتخاطب بها تلاميذ
المدرسة • من ذا الذى يستطيع ، فى مثل تلك اللحظة ، وفى رسالة
لأمه الشقية ، أمه التى يحبها هذا الحب الذى نراه واضحاً فى الرسالة
نفسها ، أن يكتب : « رسبت فى مطلع الحياة » ؟

فسألنى فاسين وهو لا يزال لا يفهم :

— لماذا ؟

وقال فرسيلوف أخيراً :

- ليس هنا أى هزل • قد يكون التعبير غير دقيق ، قد يكون ناشزاً ، قد يكون من بقايا اللغة التى يتخاطب بها التلاميذ فى المدرسة كما تقول ، أو قد يكون مستمداً من رواية مسلسل قراتها الفتاة ، ولكن لا شك فى أن الفتاة حين استعملته لم تلاحظ أنها تستعمل لهجة فيها هزل ، وإنما هى استعملته فى هذه الرسالة النظيفة بسداجة تامة وجد كامل •

- مستحيل • لقد أنهت دراستها ، وحصلت عند تخرجها على مدالية فضية •

قال فرسيلوف :

- لا شأن للمدالية الفضية فى هذا • كثيرون من ينهون دراستهم فى هذا الزمان على هذا النحو !

فقال فاسين مبتسماً :

- تقصد الشيبة أيضاً !

فأجابه فرسيلوف وهو ينهض ويتناول قبعته :

- لا ، أبداً •

ثم أضاف يقول بجد غير معهود فيه :

- لئن كان الجيل الحالى أقل معرفة بالأدب ، فمما لا شك فيه ... أن له من إياها أخرى ! ثم ان قولى « كثيرون » لا يعنى « الجميع » • فأت مثلاً لا يمكننى أن اتهمك بأن ثقافتك الأدبية ناقصة ، ومع ذلك فأت لا تزال شاباً •

فلم أستطع أن أمنع نفسى عن أن أقول :

- ولكن فاسين لا يجد فى هذا « الرسوب » خيراً ، ولا يعده سوءاً •

مدَّ فرسيلوف يده الى فاسين صامتاً • وتناول فاسين كسكيتته ليخرج معه قائلاً لى : الى اللقاء •

وخرج فرسيلوف دون أن يوليني اتبهاً • وكنت أنا أيضاً على عجلة من أمرى ، لا أملك من الوقت ما أستطيع أن أضيعه سدى : كان علىَّ أن أسعى باحثاً لنفسى عن مسكن يؤوينى • ان حاجتى الى هذا أقوى منها فى أى وقت مضى !

وكانت أُمى قد انصرفت مصطحبة الجارة • فلما خرجت الى الشارع وجدتنى مشرق المزاج • ان اجسأاً جديداً رجياً قد نبت فى نفسى • وشامت المصادفة أن ينجح مسعأى • فسرعان ما وقعت على مسكن مناسب كل المناسبة • سوف أعود الى هذا من بعد • أما الآن فلأفرغ من الشئ الأساسى •

حين عدت الى بيت فاسين لأخذ حقيتى لم تكن الساعة قد تجاوزت الواحدة كثيراً • وكان فلسين فى البيت فما ان رأنى حتى هتف يقول لى جذل الهيئة صادق الثبرة :

- كم يسعدنى أنك وجدتنى ! كنت على وشك أن أخرج • هناك حادث يجب أن أنقله اليك ، وأنا على يقين من أنه سيهمك كثيراً •

فهتفت أقول :

- أنا على يقين من ذلك سلفاً •

- هيه ! ما أشد هذه الكبرياء فى هيتك ! قل لى : ألم تكن تعرف شيئاً عن رسالة كانت عند كرافت ، ووقعت أمس بين يدى فرسيلوف ، فى أمر الميراث الذى آل اليه ؟ ان كاتب الوصية قد عبر فى هذه الرسالة عن ارادته بما يناقض حكم المحكمة • ويرجع تاريخ الرسالة الى زمن بعيد • الخلاصة اننى لا أعرف ما ذا تتضمن الرسالة على وجه الدقة ، ولكن ألا تعرف أنت شيئاً عن ذلك ؟

— أعرف ، طبعاً ! لقد اقتادني كرافت أمس الأول الى بيته ...
من عند أولئك السادة ، فأعطاني الرسالة • وأنا الذي سلمتها أمس الى
فرسيلوف •

— صحيح ؟ ذلك ما قدرته • تصور أن القضية التي تكلم عنها
فرسيلوف هنا منذ قليل ، والتي حالت بينه وبين اللحاق بالفتاة في مساء
الأمس ليبدد ما وقع في وهما من سوء الظن ، انما هي قضية آثارها تلك
الرسالة • لقد ذهب فرسيلوف الى محامي الأمير سوكولسكي رأساً ،
في مساء الأمس ، وأعطاه الرسالة وتنازل عن الميراث كله • وقد اكسب
هذا التنازل الآن صفة شرعية • فان فرسيلوف لا يهب هبة ، وانما
يعترف في صك التنازل بأن الميراث حق كامل للأمرء •

ذهلت • ولكنني سررت • الحق انني كنت مقتنعاً اقتناعاً تاماً بأن
فرسيلوف كان سيتلف هذه الرسالة التي تعرض مصلحته للخطر • وأكثر
من ذلك أنني قلت لكرافت : ان ائتلاف الرسالة عمل غير شريف ، حتى
انني كررت هذا القول لنفسى في المطعم ، ولكنني كنت في قرارة نفسى
أحس أن هذا الحل يفرض نفسه ، وانه طبعى ، سواء أكان الرجل
شريعافاً أم كان غير شريف • واذا أمكنني أن أثبهم فرسيلوف فيما بعد ،
فانما يكون ذلك منى تظاهراً ، اى انني كنت سأصدر الاتهام عامداً
لأحتفظ بتفوقى على فرسيلوف • أما الآن ، وقد علمت بالمأثرة التي قام بها ،
فقد أحسست بحماسة صادقة تامة • وأسفت لاستخفافى بالفضيلة وقلة
اكتراثى بالواجب ، وسرعان ما وضعت فرسيلوف في منزلة أعلى كثيراً
من منزلتي في هذا المضمار • وأوشكت أن أقبل فاسين • وهتفت أقول
فيما يشبه الهذيان من النشوة :

— ما أعظمه من رجل ! ما أعظمه من رجل ! من ذا الذى كان
يمكن أن يفعل ما فعله ؟

قال فاسين :

– اعترف معك بأن كثيراً من الناس ما كانوا ليفعلوا ما فعل ...
وأن عمله عمل ينزله فى منزلة عالية من النزاهة والزهد بالمنفعة ...

– « ولكن » ؟ أكمل يا فاسين ... هل عندك ما تعترض عليه
قائلاً « ولكن » ؟

– طبعاً ، عندى « ولكن » • ان العمل الذى قام به فرسيلوف
يشتمل فى رأى على تسرع ، ويشتمل على ... على ... ماذا أقول ؟
كيف أعبر ؟ نعم يشتمل على شيء من الزيف

– الزيف ؟

– نعم • لقد أراد بهذا الفعل أن يرفع قدر نفسه ... كان كمن
بنى لنفسه « نصباً » يرتقيه • لقد كان فى وسعه أن يقوم بعمل نزيه
دون أن يلحق بنفسه ضرراً • فكأنه أراد أن يقلد نفسه وسام شرف بإيداء
مصلحته • لقد كان فى وسعه – والظروف هى ما عرفت من ان حكم
القضاء صدر ومن أن الوثيقة ليس لها قيمة حاسمة – كن فى وسعه
أن يحتفظ لنفسه بنصف الميراث أو بجزء كبير منه فى أقل تقدير ، دون
أن يعترض على ذلك أى وجدان مهما يكن شديد الاحساس ، قوى
التمت • وهذا رأى متحامى الخصوم نفسه • لقد تحدثت مع المحامى
منذ برهة • فلو فعل فرسيلوف ذلك لكان قد قام بعمل لا يقل جمالاً
عن العمل الذى قام به • ولكنه فعل ما فعل حباً بالظهور ورغبة فى
المباهاة • لقد تحمس السيد فرسيلوف كثيراً وأسرف فى التسرع • ألم
يقل هو نفسه منذ قليل انه كان يستطيع أن يرجى الأمر أسبوعاً ؟ ...

– اسمع يا فاسين ... لا يسعنى الا أن أوافق على أن ما تقوله
سليم ... ولكننى أود أن أرى الأمور تجزى كما جرت !

– هذه مسألة ذوق • أنت الذى حرصت على الكلام • ولولا ذلك
لصمت وما قلت شيئاً •

وتابعت كلامي فقلت :

- هب عمله نصّباً يرتقيه اعلاءً لقدّر نفسه فإن هذا رغم ذلك أفضل . ان ميل المرء اعلاء قدر نفسه ، ولو بارتقاء « نصب » ، أمر جدير بالاعتبار والتقدير . ان له « مثلاً أعلى » على كل حال ، واذا كان الناس في هذا الزمان ليس لهم مثل أعلى ، فما هذا بتقدم . صحيح ان هذا المثل الأعلى مشوه بعض التشويه ، ولكنني أفضل أن يوجد على أن لا يوجد . ولا شك أنك تفكر هذا التفكير نفسه يا فاسين صديقي ، يا عزيزي فاسين ! أنا أعرف أنني أسرف في الحماسة حتى لكأنني أهدي ، ولكنك تفهم عني طبعاً ، والا لم تكن فاسين . على كل حال ، فأنني أعانقك وأقبلك يا فاسين !

- من شدة الفرح ؟

- من شدة الفرح ! ذلك أن هذا الرجل « كان ميتاً فبعث » ، وكان ضائعاً فرجع ! « أنا فتى سيء يا فاسين ، أنا لا أساويك . لذلك أشعر أحياناً بأنني أصبح انساناً آخر ، أسمى وأعمق في آن واحد . انني بعد أن كنت لك المديح أمس الأول (وما مدحتك في الواقع الا لأنك أذلتني وأرهقتني) ، ظلمت أكرهك يومين كاملين ! وقد عاهدت نفسي في تلك الليلة على أن لا أحيثك من بعد أبداً ، لكن جئت اليك في صباح أمس ، فأنني لم أفعل ذلك الا من حنق ، هل فهمت ؟ من « حنق » ! وحين جلست على هذا الكرسي ، أخذت أنتقد غرفتك ، وانتقدك أنت نفسك ، وانتقد كل كتاب من كتبك ، وانتقد مؤجرتك ... كنت أحاول أن أخفض قيمتك وأن أسخر منك ...

- ما كان ينبغي أن تقول لي هذا .

- في مساء أمس ، حين استنتجت من إحدى عباراتك أنك لاتفهم المرأة ، أسعدني كثيراً أنني أستطعت أن أغلبك . ومنذ قليل ، بمناسبة

الكلام عن « الرسوب في مطلع الحياة » ، سعدت مرة أخرى سعادة هائلة لأننى استطعت أن أخطئك • وما ذلك كله الا لأننى مدحتك في ذلك اليوم ...

كان فاسين لا يزال يتسم ، دون أن يدهش أى دهش • وهتف يقول أخيراً :

- ولكن عذا أمر طبعى • هذا ما يحدث دائماً ، لجميع الناس تقريباً ، بل هذا هو الشعور الأول الذى يشب في النفس • ولكن لا أحد يعترف به ، ولا ينبغي الاعتراف به على كل حال ، لأنه ينقض ولا ترتب عليه أية نتيجة •

- يحدث لجميع الناس ؟ هل هذا ممكن ؟ هل جميع الناس على هذه الشاكلة ؟ هل يمكن أن يعرف المرء هذه الحقيقة ثم يحافظ على هدوئه ؟ بمثل هذه الأفكار ، تصبح الحياة مستحيلة !

- فأنت اذن ترى ما يراه القائل :

لوهم^١ يسمو بالنفس خير من ألف حقيقة دنيئة •

فهتفت أقول :

- هذا صحيح كل الصحة • ان هذا البيت من الشعر يعبر عن بديهية مقدسة !

- لا أدري ! لا أريد أن أجزم بأن هذا البيت من الشعر صادق أو كاذب • ان الحقيقة قائمة في مكان بالوسط • كذلك شأنها دائماً • قرب أمر واحد يكون حقيقة مقدسة تارة ، ويكون كذباً سقيهاً تارة أخرى • غير أن هناك شيئاً أعلمه علم اليقين هو أن هذه الفكرة ستظل احدى النقاط الهامة التى يثور حولها الجدل وتكون موضع خلاف وتزاع بين الناس • وانى لألاحظ على كل حال أن بك الآن رغبة في الرقص • فهيا

أرقص ! الرقص متعة ولكننى فى هذا الصباح قد تلقيت ركاماً ضخماً من
من العمل • وأرى أننا تأخرنا •

صحت أقول وأنا أمسك حقيتى :

— سأصرف حالا ، سأصرف حالا • ولكن لى كلمة واحدة •
لئن حدث لى مرة أن « ارتيميت على عنق أحد أقبلة » ، فما ذلك الا لأنك
نقلت الى النبأ منذ وصولى بفرح صادق ، ولأنك قد أسعدك أنتى وجدتك
فى البيت ، حتى بعد قضية « الرسوب فى مطلع الحياة » • فهذا السرور
الصادق قد رد « قلبى الفتى » اليك زائراً بالحببة • استودعك الله ،
استودعك الله ، سوف أحاول أن لا أجىء اليك الا بعد مدة طويلة ، بعد
أطول مدة ، وأنا أعرف أنك تترتاح لغيابى ارتياحاً عظيماً • أقرأ هذا فى
عينيك • وعلى كل حال ، فإن فى غيابى عنك خيراً لنا كليتنا ••

وفىما أنا فى هذه الثروة التى تكاد تخنقنى مرحاً وجدلاً ، سحبت
حقيتى ومضيت بها الى مسكنى الجديد • وكان الشيء الذى يرضينى
ارضاء خاصاً هو أن فرسيلوف قد غضب منى ، ورفض أن يكلمنى وأن
ينظر الى • فما ان أودعت حقيتى فى المسكن الجديد ، حتى طرت الى
صاحبى الأمير العجوز • يجب أن أعترف بأن بعدى عنه خلال هذين
اليومين قد شق على نفسى قليلاً • ولا بد من جهة أخرى أنه علم بما فعله
فرسيلوف •

كنت أعرف أنه سيفرح برؤيتي فرحاً شديداً ، وأقسم اننى كنت سأذهب اليه فى ذلك اليوم بصرف النظر عن رغبتى فى سماع ما سيقوله عن فرسيلوف . ولكن كان يخيفنى أمس ، وقبل ساعات ، أننى قد ألقى عنده كاترين نيقولايفنا ، أما الآن فلا أخشى شيئاً .

عائقتى من شدة فرحه .

وسرعان ما هجمت على الموضوع الأساسى ، فبدأت حديثى معه قائلاً :

- هيه ! ما رأيك فيما فعله فرسيلوف ؟

فبادرنى بقوله :

- « يا بنى العزيز » هذا عمل عظيم ، هذا عمل نبيل ! حتى كيليان (الموظف الذى يعمل تحت) قد شده منه شدها كبيراً . هذا العمل جنون طبعاً ، ولكنه عمل باهر . انه مأثرة عظيمة ! يجب على المرء أن يعرف كيف يقدر المثل الأعلى .

- أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ لقد كنا دائماً على اتفاق فى هذه النقطة .

- يا عزيزى نحن دائماً متفقان . أين كنت ؟ لقد أردت أن أذهب اليك حتماً ، ولكننى كنت لا أعرف أين يمكننى أن أجذك . . . ولم يكن فى وسعنى أن أذهب الى فرسيلوف طبعاً . . . رغم اننى اليوم ، بعد ما حدث . . . هل تعلم يا صديقى ؟ انه بمثل هذه الميزات انما أتيح له أن ينتصر على النساء . أنا من هذا على يقين . . .

- بالمناسبة ، قبل أن أنسى . . . لقد سمعت تعبيراً قيل فى حقه ، فحفظته لأقوله لك خاصة . أمس ، قال شخص بذىء حقير وهو يشتم فرسيلوف ، قال ان فرسيلوف « نبى للنساء الفاضلات » . ياله من تعبير عجيب ! التعبير نفسه ، هه ؟ حفظته لأقوله لك . . .

- « نبي للنساء الفاضلات ! » تعبير أخاذ ! هأهأه ! تعبير ينطبق عليه تماماً ! بل قل انه لا ينطبق عليه ، لكنه تعبير أصاب هدفاً ، بل قل انه لم يصب أى هدف .. ولكن ..

- لا بأس ، لا بأس ! لا تقلق ! انظر الى الكلمة الموفقة فحسب ..
- الكلمة رائعة ، وان لها لمعنى عميقاً .. الفكرة صحيحة كل الصحة . أقصد .. لملك ستصدق ما سأقوله لك .. الخلاصة .. سأفضي اليك بسر . هل لاحظت فى ذلك اليوم أولب تلك ؟ هل تصدق أنها أغرمت بآندره بترفوتش ؟ بل اننى أعتقد أن أملاً يساورها ..
صحت أسأله مستاء :

- أى أمل ؟

- « يا عزيزى » لا تصح هذا الصباح . الأمور تجرى دائماً هذا المجرى . وأنت من جهة أخرى على حق ، من وجهة نظرك . بالنسبة : قل لى يا صديقى ، ماذا حدث لك فى المرة الماضية أمام كاترين نيقولايفنا ! لقد رأيتك تترنح ، وكدت تسقط ، حتى اننى هممت أن أثب لأمسك بك .

- ليس هذا أو ان الكلام فى هذا الأمر . على كل حال ، اضطربت بعض الاضطراب ، لسبب من الأسباب ..

- وهأت ذا يحمر وجهك .

- وهل أنت فى حاجة الى مزيد من الالحاح ؟ انك تعرف أن بينها وبين فرسيلوف شقاقاً .. ثم هنالك تلك الأمور كلها .. المهم اننى اضطربت . دعنا من هذا الى حين آخر .
ورأيت ضابطاً شاباً جميلاً يدخل . فنظرت اليه بعين نهمة ، لأننى لم أكن قد رأيته من قبل أبداً . واذا قلت انه جميل ، فلأن جميع الناس كانوا يقولون عنه ذلك ، ولكن يجب أن أذكر أن وجهه الشاب الجميل

كان فيه شيء منفر • اننى أسجل هنا شعوراً أحسسته فى الوهلة الأولى ، شعوراً خامرنى منذ أول نظرة ، ثم بقى فى نفسى لم يبارحها • انه نحيل الجسم ، حسن القامة ، كستأوى اللون ، نضر البشرة على شيء من صفرة ، جازم النظرة ، تبدو فى عينيه ، القاتميين قليلاً ، فسوة ، حتى حين يكون هادئاً • ولكن نظراته الجازمة هى نفسها الشيء المنفر فيه ، لأن المرء يحس أنها لا تكلفه إلا ثمناً بخساً جداً • الخلاصة •• اننى لا أعرف كيف أعبر عما أريد أن أقوله • على كل حال ، كانت هيئته قادرة على الانتقال من القسوة الى المودة فجأة ، وذلك بصدق لا يستطيع المرء أن يمارى فيه أو أن يججده • فهذا الصدق كان فيه جذاباً • وثمة سمة أخرى : لقد كانت سحته ، رغم هذه المودة وهذا الصدق ، خالية من الفرح • فحتى حين كان هذا الأمير يضحك ، تحس رغم كل شيء أن قلبه لا بد أن يكون خالياً من الفرح ، الفرح الحق ، الفرح الرشيق المضيء • ولكن ما أصعب رسم صورة لوجه من الوجوه ! اننى من جهتى عاجز عن هذا كل العجز •

وسرعان ما اندفع الأمير الشيخ يعترف أحدنا بالآخر ، على ما جرت به عادته المستحكمة الحمقاء •

- صديقى الشاب آركادى آندريفتش (أيضاً آندريفتش)
دولجوروكى •

فالتفت الأمير الشاب الى جهتى معبراً بوجهه عن احترام عظيم • ولكن كان واضحاً أنه لم يسمع باسمى من قبل • وتابع صاحبى الأمير الذى لا يطاق ، تابع كلامه قائلاً :

- هو •• قريب آندره بروفتش ••

ما أثقل هؤلاء الأمراء المعجائز احياناً بعاداتهم المستحكمة !

وسرعان ما حزر الأمير الشاب من أنا • فسرعان ما قال :

- آ . . نعم . . سمعت عنك منذ مدة طويلة . وقد سررت كثيراً
بمعرفة اختك الزبائث ماكاروفنا ، السنة الماضية ، في مدينة لوجا . وقد
حدثني عنك أيضاً . .

دهشت دهشة كبيرة : ان سروراً صادقاً مخلصاً قد التمع في
وجهه .

وتمت أقول وأنا أعقد ذراعيّ على ظهري :

- اسمح لي يا أمير . يجب أن أقول لك بصراحة - ويسرني أن
أقول هذا الكلام بحضور أميرنا العالي - انني أرغب في لقائك رغبة
شديدة ، وان هذه الرغبة قد استبدت بي في الآونة الأخيرة ، واشتدت
بالأمس اشتداداً خاصاً ، ولكن لنية أخرى وغرض آخر . أقول لك هذا
بصراحة مهما يدهشك . خلاصة الأمر أنني كنت أريد أن أدعوك الى
المبارزة بسبب الاهانة الى ألحققتها منذ ثمانية عشر شهراً بفرسيلوف في
مدينة « امس » . فاذا اتفق أن رفضت التحدي بحجة انني تلميذ في
المدرسة وأنني فتى مراهق ، فاني كنت سأوجه اليك هذا التحدي أياً كان
جوابك ، وأياً كان العمل الذي تستطيع أن تقوم به . وما أزال عاقداً
عزمي على انفاذ هذا النية نفسها . اعترف لك بذلك .

وقد ذكر لي الأمير المعجوز فيما بعد انني ألقيت جملتي الأخيرة هذه
بكثير من النبل والشمم .

وارتسم على وجه الأمير الشاب أسى صادق . وأجابني بلهجة
فيها حرارة :

- انك لم تترك لي أن أتم كلامي . لئن كنت قد وجهت اليك بضع
كلمات نابعة من القلب ، فانما السبب في ذلك ما أحمله الآن لأندره
بتروفتش من عواطف صادقة . يؤسفني أنني لا أستطيع أن أذكر لك
على الفور جميع الظروف والملايسات ، ولكنني أحلف بشرفي أنني منذ

مدة طويلة أشعر بأعمق الأسف للفعل السيء الذى بدر منى بمدينة
« امس » • وحين عدت الى بطرسبرج كنت قد عقدت العزم على أن أقدم
لآندره بتروفش كل الترضيات الممكنة أى أن أطلب منه العفو والمغفرة
صراحةً على النحو الذى يحدده هو نفسه ، وفى الصورة التى يرسمها
بارادته • ان مؤثرات سامية جداً وقوية جداً هى التى كانت سبب هذا
التبدل فى رأى • أما أننا كان بيننا دعوى ينظر فيها القضاء ، فذلك أمر
لم يكن له أى تأثير فيما اتخذت من قرار • ولكن موقفه منى بالأمس قد
هزنى هزاً قوياً • وصدقنى اذا قلت لك اننى حتى هذه اللحظة مازلت
مضطرباً أشد الاضطراب لم استرد توازنى بعد • اعلم اننى انما
أجىء الآن الى الأمير لأبلغه أمراً فى غاية الخطورة : منذ ثلاث ساعات ،
أى - على وجه التحديد - فى اللحظة الذى كان يحزر فيه ذلك الصك
مع المحامى ، جادنى الرجل الذى هو محل ثقة آندره بتروفش ، ونقل
الىّ منه دعوة الى المباراة • • دعوة رسمية • • تأراً لحادثة « امس » • • •
هتفت أقول :

- دعاك الى المباراة ؟

وأحسست بعينى تلتهبان ، وبالدلم يصعد الى رأسى •

- نعم ، دعانى الى المباراة • وقد قبلت التحدى فوراً • لكننى
قررت ، قبل النزال ، أن أبعث اليه رسالة أعلن له فيها رأى فى الفعل
الذى صدر عني ، وأعرب له فيها عن أسفى لهذه الخطيئة الرهيبة التى
ارتكبتها • • ذلك أنها كانت خطيئة رهيبة ، خطيئة فظيعة ، مشثومة ! • •
أرجو أن تلاحظ أن هذه الخطوة التى أقوم بها قبيل المباراة ، أعنى هذا
التراجع الذى يصدر عني عشية النزال ، أمر مشين يحرك ألسنة الناس
بما يسىء الى سمعتى ، ويحرض رفاقي فى الحين على هاجر القول فى
حقى ، هل تفهم ما أعنى ؟ ومع ذلك اتخذت قرارى وعزمت أمرى •
ولكن الوقت لم يتسع لارسال الرسالة ، فبعد انقضاء ساعة واحدة على

دعوته اياى للنزال ، وصلتني منه رسالة جديدة يرجونى فيها أن أعفر له أنه أزعجنى ، وأن أسبى تحديه ، ويضيف الى ذلك أنه « يأسف لهذه النوبة الطارئة من الوضاعة والأنانية التى اعترته عرضاً » • تلك ألفاظه نفسها • وبذلك يستهل على أمر القيام بتلك الخطوة ، أغنى ارسال الرسالة • وأنا لم أرسلها بعد ، ولكننى جئت أبحث الأمير قليلاً • وصدقنى اذا قلت لك ان ما عانيت من عذاب الضمير يفوق ما عاناه أى انسان • هل يرضيك هذا الايضاح ، ولو الى حين على الأقل ، يا أركادى ماكاروفتش ؟ هل تقبل أن تسبغ على شرف اعتقادك بصدق ما أقول صدقاً كاملاً ؟

غلبت • لقد رأيت صراحة لا مرأى فيها ، صراحة لم أكن انتظرها أبداً • لا ولا كنت أنتظر شيئاً من هذا القيل قط • فتمتت أجليه بكلمات لا أدري ماذا كانت ، ومددت اليه يدي مستقيمين ، فهزما بيديه فرحاً • ثم خلا بالأمر ، وتحدث معه فى غرفته نحو خمس دقائق •

حتى اذا خسر ج من غرفة الأمير قال لى بصوت عال صريح انتا سنصرف معاً ، وانه سيطلعنى على الرسالة التى سيرسلها الى آندره بتروفتش وانه سيطلعنى كذلك على الرسالة التى تلقاها منه •

فوافقته على ذلك مسروراً أعظم السرور • وانهمك الأمير بتوديعى وتشيعى ، ونادانى أيضاً الى غرفته دقيقة فقال لى هناك :

— « يا صديقى » ، ما أسعدنى ، ما أسعدنى ! • • وستكلم فى هذا من بعد على كل حال • أما الآن فان هناك عمليين أرجو أن تكرم فتتجزهما لى بنفسك على جناح السرعة فى البنك •

قال ذلك وناولنى قراطيس تقتضى منى ، فيما زعم ، أشد اليقظة والانتباه ، وشرح لى أن على أن أذهب الى البنك ، فأودع رسالة ، وأوقع

على ورقة ، الخ ...

فهتفت أقول له ضاحكاً وأنا أتناول الأوراق :

- ما أشد مكرك ! يميناً ليس هذا منك الا تظاهراً وادعاءً ، وليس هناك أى عمل يجب علىّ أن أقوم به . وما هاتان المهمتان المزعومتان الا من صنع خيالك لفقتهما تلفيقاً لتوهمني بأن لوجودى معك نفعاً ، وانى أتقاضى أجرى عن جدارة واستحقاق !

فقال لى :

- أحلف لك انك لمخطيء » يا بنى ! « . هما مهمتان مستعجلتان كل الاستعجال .

ثم هتف يقول وقد فاض قلبه رقة وعاطفة وحناناً على حين فجأة :

- « بنى العزيز ! »

ووضع يديه على رأسه وأردف يقول :

- اننى أباركك ، وأبارك مستقبلك . . لتكن قلوبنا عامرةً بالطهارة والعفة كما نحن الآن . . ولنتحلّ بالخير والجمال الى أقصى ما نطبق . . لنحب الجمال . . فى جميع صوره وكافة أشكاله . . « هيا . . أخيراً . . أخيراً . . لنشكر الله على نعمه وآلائه . . اننى أباركك . . »

ولم يكمل كلامه ، بل أخذ يبكى فوق رأسى . وأعترف بأننى كدت أن أبكى أنا أيضاً . ولئن لم أبك فأننى على الأقل قد قبلت صاحبى الشاذ صادقاً مسروراً . بل تبادلنا قبلات كثيرة .

قادنى الأمير سرجى (أفصد سرجى بتروفتش ، وبهذا الاسم سأسميه بعد الآن) قادنى الى بيته فى مركبة أنيقة ، فأخذت أعجب بما فى شقته من فخامة وأبهة ، أو دعك من الفخامة والأبهة وقل انها شقة كالشقق التى يملكها أناس من « علىة القوم » : غرف واسعة عالية وضاعة (رأيت منها غرفتين وكانت الغرف الأخرى مغلقة) ، وأثاث ان كان لا يذكر بقصر فرساي أو عصر النهضة ، فانه لين طرى مريح وافر أنيق غاية الأنافة ، الى سجاد نمين ، وخشب محفور ، وتماثيل صغيرة . ومع ذلك كان الناس مجتمعين على أن هذه الأسرة فقيرة معدمة ، وانها أصبحت لا تملك شيئاً البتة . ولكن يجب أن أضيف الى هذا أن الأخبار كانت تقول ان الأمير سرجى كان يحب أن يزر الزماد فى العيون حيث يكون ، سواء هنا أو فى موسكو أو فى الجيش ، وانه مقامر ، وانه مدين . وكنت أنا أرتدى ردنجاتاً مهترئاً ، وكان الردنجات عدا ذلك مغطى بالزغب بعد أن نمت من غير أن أخلع ثيابى ، ولم أكن قد بدلت قميصى منذ أربعة أيام . على أن الردنجات لم يكن يبعث على الاشمئزاز ، لكننى ما ان وجدت نفسى عند الأمير حتى تذكرت ما أوصانى به فرسيلوف من تفصيل رداء جديد .

قلت شارد الذهن :

— تصور أننى قضيت الليل دون أن أخلع ثيابى ، بسبب حادثة انتحار !

فلما رأيته يصيح بسمعه منتبهاً على الفور ، رويت له القصة بايجاز . غير أن ما كان يهمه أكثر من كل ما عداه انما هو الرسالة التى يتوى أن

يبعثها الى فرسيلوف • وقد استغربت من جهتي أنه لم يظهر فيه حتى شيء من تبسم ، بل لم تبدر منه حتى حركة يسيرة تحمل هذا المعنى ، حين أعلنت له بغتة منذ قليل ، أنني أريد أن أدعوه الى مبارزة • فأغلب الظن أنني عرفت كيف أجبره على أن لا يضحك ، غير أن الأمر يظل محل استغراب من رجل مثله •

جلسنا متقابلين في وسط الغرفة أمام مكتب كبير ، وأراني رسالته الى فرسيلوف ، وكانت مهياة تهية كاملة • كانت الرسالة تتضمن جميع المعاني التي عبر عنها الأمير • حتى لقد كتبت بلهجة فيها حرارة • والحق أنني كنت لا أعرف بعد ماذا يجب أن أراه من رأي حاسم في هذه الصراحة الظاهرة وهذه الميول الطيبة الحيرة ، ولكنني قد بدأت انقاد للافتان بالرجل ، حتى لقد تساءلت ما الذي يدعوا الى أن لا أصدقته ؟ انه مهما يكن طبعه ، ومهما تكن الاشاعات التي تروج عنه ، قد يتصف بميول حسنة وسجيا كريمة • ورأيت الرسالة الأخيرة التي بعثها اليه فرسيلوف أيضاً ، وهي سبعة أسطر يعلن له فرسيلوف فيها عدوله عن تحديه ، وتراجع عن دعوته الى مبارزته • فرأيت أن هذه الرسالة رغم ما ضمنها فرسيلوف من كلام عن « وضاعته » وعن « أنانيته » تتميز في جملتها بنوع من الاستعلاء • أو قل ان المرء يحس حين يقرأها أن الخطوة التي قام بها فرسيلوف تشتمل على نوع من الاحتقار ! • وقد حاذرت أن ابدى له هذه الملاحظة •

قلت أسأله :

- ولكن ما رأيك أنت في عدوله هذا ؟ ألا تعتقد أنه خاف ؟
فابتسم الأمير ، ولكن ابتسامته كانت تشتمل على كثير من الجلد ، وقال :

- لا ، حتماً •

وكان يبدو عليه من جهة أخرى مزيد من الهم • وتبع كلامه
يقول :

– اننى أعرف شجاعة هذا الرجل • ولكن له – وهذا رأى خاص
بى طبعاً – طرازاً فريداً فى النظر الى الأمور ••
فقاطعته قائلاً بحرارة :

– قطعاً • ان شخصاً اسمه فاسين يرى أن فى حكاية الرسالة
والتنازل عن الميراث نوعاً من اقامة « نَصَب » يرتقيه اعلاءً لقدوره فى نظر
الناس عن عمد • أما رأى أنا فهو أن هذه الأشياء لا يفعلها المرء حباً
بالظهور ، وانما هى تقابل شعوراً عميقاً وعاطفة صادقة •

قال الأمير :

– اننى أعرف السيد فاسين معرفة جيدة •
– آ •• نعم •• لا بد أنك رأيته فى لوجا •

فنظر كل منا فى صاحبه فجأة • وأذكر أننى قد احمر وجهى
قليلاً • وانقطع الحديث على كل حال • وكنت أنا ميلاً الى الكلام •
كنت أتصور اللقاء الذى تم بالأمس ، فيحضنى ذلك على أن ألقى عليه
بعض الأسئلة ، ولكننى لا أعرف كيف أتصرف فى الأمر ، وكنت أشعر
بغير قليل من الارتباك • ومما خطف بصرى أيضاً ما لاحظته فيه من حسن
أدب ورقة تهذيب وطلاقة حركة ، أى ما رأيته فيه من ذلك البريق الذى
يكتسبه أمثال هؤلاء الناس وهم لا يزالون فى المهد • لكننى وقعت فى
رسائله على خطئين فاحشين من أخطاء الاملاء • وأنا فى لقاء أمثال هؤلاء
الناس لا أخفض رأسى أبداً ، حتى انى شرستى تمنع فى بعض الأحيان
عنفاً سيئاً • ولم يكن من شأن رديجوتى المغطى بالزغب أن يهدى •
ما يضطرم فى نفسى • وكنت قد لاحظت أن الأمير يتفرس فى أحياناً بكثير
من الاستطلاع •

قلت فجأة :

- قل لي يا أمير : ألا ترى في قرارة نفسك أنه أمر مضحك أن يدعوك « غر » ، مثلي الى مبارزة ، ولا سيما بسبب اساءة لحقت شخصاً غيره ؟

فأجابني برصانة ووقار قائلاً :

- انه لأمر طبعي أن يغضب المرء لاساءة ألحقت بأبيه . فلست أرى في عملي شيئاً سخيلاً يبعث على السخرية .

- أما أنا فأرى عملي سخيلاً سخيلاً رهيباً .. من وجهة نظر شخص آخر طبعاً ، لا من وجهة نظري أنا . ولا سيما أن اسمي هو دولجوروكي ، وليس فرسيلوف . فإذا كنت لا تقول الحقيقة ، أو اذا كنت تلتطف الأمور من باب الكياسة التي يلتزمها أبناء المجتمع الراقى ، فأنت اذن تخدعني وتفشنني في سائر الأمور الأخرى .

فكرر يقول بجذ كبير :

- لا ، لا أرى في هذا شيئاً سخيلاً . انك لا تستطيع أن لا تحس بدم أبيك فيك ! .. صحيح أنك ما تزال فتى يافعاً ، و .. لا أدرى .. لكن يخيّل اليّ أنه لا يجوز لقاصر أن يبارز ، وأنه لا يجوز لأحد أن يلجى دعوته الى النزال .. فيما توجبه الأنظمة ! .. غير أن هناك اعتراضاً واحداً يجدر أن ننظر فيه : انك حين تدعو الى المبارزة على غير علم من الشخص الذي لحقت به الالهانة والذي تريد أن تثار له ، ألا تكون بذلك قد انتقصت من قدره ولم توله ما يجب له من احترام ؟

وفجأة دخل خادم ليبلغ عن قدوم زائر ، فانقطعت محادثتنا . وأغلب الظن أن الأمير كان ينتظر هذا الزائر ، فما ان رأى الخادم حتى نهض دون أن يكمل كلامه ، وتقدم الى لقائه مسرعاً ، فكلّمه الخادم بصوت خافت ، فلم أسمع من كلامه شيئاً . وقال لي الامير :

- معذرة . سأرجع بعد دقيقة .

وخرج . وبقيت وحيداً . وأخذت أذرع الغرفة ذاهباً آيها وأنا مسترسل في التفكير . غريب : لقد أعجبني الأمير ولم يعجبني . ان فيه

شيئاً لا أستطيع أن أصفه وأن أعبر عنه ، لكنه شيء يصدمني ويؤذني .
قلت أحدث نفسي : « اذا كان لا يسخر مني فانه اذن ممتلي سذاجة ..
ولو كان يسخر مني ، لبدا لي أكثر ذكاءً » ، برقت هذه الفكرة
العجيبة في ذهني . ودنوت من الطاولة فأعدت قراءة رسالته الى
فرسيلوف . ومن ذهولي لم أشعر بانقضاء الوقت ، حتى اذا أفقت من
شرودى لاحظت فجأة أن دقيقة الأمير دامت ربع ساعة . فاضطربت من
ذلك بعض الاضطراب . وعدت أسير في الغرفة ذاهباً آيماً . ثم تناولت
قبعتي أخيراً وقررت أن أنصرف . انني أتذكر هذا . قلت لنفسى : اذا
رأيت أحداً بعثته يستدعى الأمير ، حتى اذا جاء ودعته مؤكداً أن ثمة
عملاً يناديني وأننى لا أستطيع المكوث معه أكثر مما مكثت . فبدا لي أن
هذا أحفظ للكرامة ، لأننى تصورت أنه بتركى هذه المدة الطويلة انما
يدل على أنه يزدرينى .

وكان للغرفة بابان اثنان يقعان في طرفي جدار واحد . وكان
البابان كلاهما مغلقين . وكنت قد نسيت من أى باب دخلنا ، أو قل اننى
لذهولي فتحت واحداً من البابين بغير تفكير ، فاذا أنا أفاجأ باختي ليزا
جالسة على ديوان في غرفة طويلة ضيقة . ولم يكن في الغرفة أحد
غيرها ، فلا بد أنها كانت تنتظر أحداً . ولكن ما ان اعترتني هذه الدهشة
الأولى حتى سمعت صوت الأمير يتكلم بصوت عال راجعاً الى المكتب .
فأغلقت الباب ، ودخل الأمير من الباب الآخر فلم يلاحظ شيئاً . أتذكر
أنه أخذ يعتذر عن تأخره أشد الاعتذار ، وأنه جاء على ذكر امرأة سماها
آنا فيدوروفنا . ولكننى كنت قد بلغت من الانشداه والاضطراب أننى لم
أكد أفهم من كلامه شيئاً ، وتمننت أقول ان على أن أعود الى بيتى حتماً .
ثم خرجت متعجل الحطى . ولاشك أن هذا الأمير المهذب ذلك التهذيب
كله قد بدا له سلوكى غريباً . وقد شيعنى الى الباب وهو ما يقفأ يتكلم
ويتكلم ، بينا أنا لا أجييه بشيء ولا أنظر اليه .

صرت فى الشارع ، فاسندرت يسرةً ، وأخذت أسير على غير هدى . كان كل شىء فى رأسى مختلطاً مضطرباً . وكنت أسير سيراً بطيئاً . أظن أننى قطعت مسافة طويلة ، تبلغ نحو خمسمائة خطوة . وانبى لكذلك اذا أنا أحس ربثاً رقيقاً على كفتى . فالتفت . فرأيت أختى ليزا . لقد أدركتنى ، ولامست كفتى بمظلتها . وكان فى نظرتها المتلألئة فرح عظيم ، وشىء من مكر .

- يسرنى جداً أنك سرت فى هذا الطريق ، والا لما استطعت أن ألقاك طول النهار .

كانت تلهث قليلاً من سرعة السير .

- ما أشد لهائك !

- ركضت كثيراً لأدركك .

- ليزا ، أنت من رأيت منذ قليل ؟

- أين ؟

- عند الأمير . . الأمير سوكولسكى . .

- لا ، ليست أنا . . لا يمكن أن تكون قد رأيتنى . .

فصمت . وسرنا نحو عشر خطوات . انفجرت ليزا ضاحكة ،

وقالت :

- طبعاً أنا التى رأيتنى ! رأيتنى وحدقت الى عيني ، وحدقت اليك

أنا أيضاً . فلماذا تلقى هذا السؤال ؟ ما أغرب طبعك ! . . ولقد راودتنى

رغبة قوية فى الضحك حين حدقت الى . . كانت هيئتك مضحكة جداً .

وضحكك ضحكاً شديداً • فبدد ضحكها قلقي •

— ولكن ما جاء بك الى هناك ؟

— زرت آنا فيدوروفنا •

— أية آنا فيدوروفنا ؟

— السيدة ستوليافا • حين كنا نقيم بمدينة لوغا ، كنت أقضي عندها أياماً كاملة • كانت تستقبلنا أنا وماما ، وكانت تجيء إلينا أيضاً • وكانت لا تزور أحداً غيرنا تقريباً • انها تمت إلى الأمير سوكولسكى بقرابة بعيدة ، وكذلك الى الأمراء سوكولسكى • أظن أنها للأمير بمثابة جدة •

— فهل تقيم عند الأمير ؟

— بل الأمير يقيم عندها •

— لمن الشقة اذن ؟

— لها • انها تملك الشقة منذ سنة • وقد وصل الأمير منذ قليل فنزل ضيفاً عليها • وهى نفسها لم تجيء الى بطرسبرج الا منذ أربعة أيام •

— طيب •• حفظها الله هى وشقتها ! ••

— ولكنها سيدة لطيفة •

— لا أنكر عليها ذلك • ثم انها تملك للطف وسائله وأسبابه • نحن أيضاً أناس لطاف • انظرى الى هذا النهار ما أجمله ! ما أبدع هذا الجو ! وما أجملك اليوم يا ليزا ! ما أنت الا طفلة على كل حال •

— قل لى يا آرКАДى : أرأيت الى حكاية تلك الفتاة بالأمس ما كان

أهولها ! ••

— آه •• شىء محزن يا ليزا ، محزن جداً !

— محزن حقاً • يا لهذا المصير ما أشد هوله ! أليس شراً يا آرКАДى

أن نكون نحن فرحين هذا الفرح كله بينما تهوم روحها الآن في
الظلمات ، في ليل بهيم ليس له قرار ، حاملةً اثمها معها ؟ قل لي
يا آرКАДى : من المسئول عن الائم الذى ارتكبته ؟ آه .. ما أشد هول
هذه المسألة ! هل تفكر أحياناً في تلك الظلمات ؟ آه .. لشدما أخاف
من الموت ! وهذا أيضاً اثم ! اننى لا أحب الظلمة . هذه الشمس أحلى
كثيراً ! تقول ماما ان الخوف من الموت شر .. قل لي يا آرَكَدى : هل
تعرف ماما حق معرفتها ؟

- لم أعرفها بعد الا قليلاً يا ليزا ، قليلاً !

- يا لها من انسانة ! يجب أن تعرفها ، يجب أن تعرفها . يجب
على المرء أن يفهمها خاصة !

- أنت أيضاً كنت لا أعرفك ، وهأنذا أعرفك الآن معرفة تامة ! ..
في دقيقة واحدة ، نفذت الى حقيقتك كلها ! .. ليزا ، مهما تخافى من
الموت ، فلا بد أنك ذات كبرياء ، وجسارة ، وشجاعة . أنت خير منى ،
خير منى كثيراً . أحببك حب الجنون يا ليزا . ليزا ، يستطيع الموت أن
يجيء متى شاء ، أما الآن فلنعش ، فلنعش ! لنا أن نتألم لتلك البائسة ،
ولكن فلنبارك الحياة . أأست على حق ؟ ان لى « فكرتى » يا ليزا . ليزا ،
هل تعلمين أن فرسيلوف تنازل عن الميراث ؟

- كيف لا أعرف ذلك ؟ لقد تعانقنا أنا وماما .

- انك لا تعرفين ما بنفسى يا ليزا ، لا تعرفين ماذا كان هذا الرجل
في قلبى !

- دعك من هذا الكلام ، اننى أعرف كل شيء !

- تعرفين كل شيء ؟ نعم ، حتماً . أنت ذكية . أنت أذكى من
فاسين . ان لك ولما عيوناً نافذة ، اسانية ، أقصد النظرة ، لا العيون ..
لقد أخطأت التعبير . ما أغبانى أحياناً يا ليزا .

- بل أنت فى حاجة الى من يسيطر عليك • هذا كل شىء •

- فسيطرى علىّ يا ليزا • ما أحلى النظر اليك اليوم يا ليزا ! هل تعلمين أنك رائعة الجمال ؟ لم أر عينيك قبل اليوم أبداً • • رأيتهما الآن أول مرة • من أين جئت بهما يا ليزا ؟ من أين اشتريتهما ؟ كم دفعت منهما ؟ ليزا ، أنا لم يكن لى أصدقاء ، حتى لقد كانت هذه « الفكرة » حماقة ، أما الصداقة معك أنت فليست حماقة • • هل تقبلين أن تكون صديقتين ؟ هل تفهمين ماذا أريد أن أقول ؟

- أفهم كل الفهم •

- أقصد صداقة بغير عقد ، بغير شروط • نكون صديقتين وكفى ، ببساطة !

- نعم ، صداقة وكفى ، ببساطة • • غير أن لى شرطاً : اذا اتفق ان اتهم احدها الآخر يوماً ، اذا ساءنا أمر من الأمور ، اذا اعتكر مزاجنا ، بل اذا نسينا أيضاً كل شىء فلن ننسى أبداً هذا اليوم ولا هذه الساعة ! فلتتعاهد على هذا • لتتعاهد على أن تتذكر الى الأبد ، هذا اليوم الذى سرنا فيه معاً وقد أمسك كل منا يد الآخر ، وضحكنا فيه كثيراً ، وسعدنا فيه هذه السعادة كلها • • هل تقبل ؟ تقبل ؟

- نعم يا ليزا ، نعم ، أقسم لك • يخيل الىّ يا ليزا اننى أسمعك الآن أول مرة • • ليزا ، هل قرأت كثيراً ؟

- لم تلق على هذا السؤال قبل اليوم ! أمس فقط ، حين أخطأت فى كلمة ، تفضلت فانتبهت الى هذا أيها السيد الفيلسوف !

- لماذا لم تبادرينى أنت بالحديث بعدما رأيت اننى غبى الى ذلك الحد من الغباء ؟

- كنت أنتظر أن تصبح أكثر ذكاء • • لقد عرفتك منذ البداية

يا آرКАДى ماكاروفتش ، فسرعان ما قلت لنفسى : لسوف يجىء ، لسوف
يجىء آخر الأمر حتماً . وآثرت أن أدع لك شرف القيام بالخطوة
الأولى . قلت لك فى سرى : « لا ، عليك أنت أن تجرى الآن ورائى ! » .

— ها . . يا للصغيرة المغناج ! طيب قولى بصراحة يا ليزا : لابد
أنك ضحكت منى كثيراً طوال هذا الشهر ، أليس كذلك ؟

— طبعاً . لأنك مضحك فعلاً ، مضحك جداً يا آرКАДى ! ولكن
هل تعلم ؟ لعننى لهذا السبب انما أحبيتك هذا الشهر ، ذلك أنك كنت
طريفاً . غير أن طرافتك رديئة أحياناً . أقول لك هذا حتى لا تتباهى
وتفتخر . ولكن هل تعلم مَنْ ضحك منك أيضاً ؟ ماما . ضحكنا معاً .
كنا تنهامس قائلين : « غريب الأطوار ! ما أغرب أطواره ! » . وكنت
أنت تظن طوال هذا الوقت أننا نرتعد رعباً منك .

— ليزا ، ما رأيك فى فرسيلوف ؟

— هناك أشياء كثيرة يمكن أن يقال فيه . لكننا لن نتكلم عنه الآن .
ليس هذا اليوم أو ان الحديث عنه ، أليس كذلك ؟

— أنت على حق . لا ، لا ، ان ذكائك رهيب حقاً يا ليزا . انك
أذكى منى حتماً . انتظرى قليلاً ، اننى متى فرغت من هذه الشئون
كلها ، سوف أذكر لك فى النهاية بعض الأشياء . . .

— ما بالك تقطب حاجيك ؟

— لم أقطب يا ليزا ، ما هذا بشئ . . اسمعى يا ليزا . . الأفضل
أن أقولها بصراحة : ان لى سمه خاصة هى أن فى نفسى نقاطاً حساسة
لا أحب أن يلمسها أحد . . أو قولى ان لى مشاعر معينة لا أحب عرضها
طلباً لاعجاب الناس . مخجل ، أليس كذلك ؟ ولهذا أفضل أحياناً أن
أقطب الحاجبين ولا أقول شيئاً . أنت ذكية ، فعليك أن تفهمى .

- ولكننى مثلك • اننى أفهمك فهماً كاملاً • ومما أيضاً مثلك •

- آه يا ليزا ! كل ما أتمناه هو أن نعيش فى هذه الحياة الدنيا مدةً

طويلة • ماذا قلت ؟

- لم أقل شيئاً •

- انك تنظرين الى ...

- وأنت تنظر الىّ أيضاً • اننى أنظر اليك ، واننى أحبك ...

رافقتها حتى البيت تقريباً • وذكرت لها عنوانى • وحين تركتها ،

قبلتها أول مرة فى حياتى •

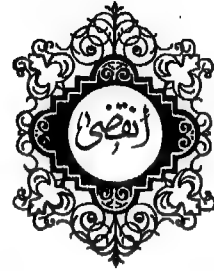
هذا كله كان حسناً ، لولا أن هناك ظلاً كان يعكره : ان فكرة
 حزينة كانت تضطرب في نفسى منذ الليل ولا تبارح خيالى . ذلك أننى
 حين التقيت فى مساء الأمس بتلك المسكينة قلت لها اننى سأترك البيت ،
 وان على المرء أن يبنى عشه بعيداً عن الأشرار ، وان لفرسيلوف عدداً
 من أولاد الزنا ؛ فلا شك أن هذه الكلمات التى يقولها ابن عن أبيه
 قد أكدت لجميع شكوكها فى فرسيلوف ، وعززت احساسها بأنه أراد بها
 سوءاً . لقد كنت أتهم ستييلكوف ، ولعلنى أنا الذى صيبت على النار
 زيتها . فكرة رهية ، رهية حتى اليوم . ولكننى فى ذلك الصباح ، رغم
 كل ما عانيت من عذاب فى أول الأمر ، قد بدا لى أن الأمر ليس من
 الخطورة فى المحل الذى أحله فيه ، وكنت أكرر لنفسى من وقت الى آخره :
 « دعك من هذا الكلام ، فان فى نفسها من الحقد المتراكم قبل أن تراها
 وقبل أن تقول لها شيئاً ما كان سيدفعها الى الاقدام على فعل ما فعلته حتماً !
 هيا . . . سينقضى الأمر ، وسأبرأ من هذه الوسوس . . . وسأكفر عن
 غلطتى بطريقة من الطرق . . . بعمل من الأعمال الحسنة . فما يزال فى
 عمري خمسون عاماً ! » .

ولكن الفكرة ظلت تتحرك وتضطرب فى نفسى .

الجزء الثاني

الفصل الأول

١



شهران تقريباً ، أرجو من القارئ أن لا يقلق :
 فسوف يتضح له كل شيء . وكما دوت في
 بداية يومياتي تاريخ ١٩ أيلول (سبتمبر) ،
 فأنني أسجل هنا تاريخ ١٩ تشرين الثاني
 (نوفمبر) ، وهو يوم لا أنساه ، وذلك لأسباب كثيرة . يجب أن أذكر
 أولاً أن من رآني منذ شهرين لن يعرفني اذا هو رآني الآن . هذا من
 جهة المظهر على الأقل . أقصد انه سيعرفني ، ولكنه لن يفهم شيئاً . انني
 أرتدى الآن ثياباً تبلغ غاية الأناقة بل الغندرة . هذه نقطة أولى . ان
 الحياط الذي أوصاني به فرسيلوف يوماً ووصفه بأنه فرنسي دقيق في
 عمله رفيع الذوق قد خاط لي ثياباً كاملة ، ولكنني لا أرتديها فهي لا تبلغ
 المستوى الذي يليق بأنيق مثلي . وانما لي الآن خياطان من درجة أعلى ،
 خياطان من الدرجة الأولى ، حتى انهما فتحا لي حساباً . ولي حساب
 مفتوح أيضاً في مطعم راق . ولكنني ما أزال في هذا المجال تعوزني
 الجسارة : فما ان أملك مالا حتى أبادر الى سداد الدين ، رغم علمي
 بأن هذا أمر ناب أعرض به مهاتني للاقتصاص . ولي في شارع نفسكي
 حلاق فرنسي من باريس ، يروي لي النواذر والملح كلما ذهبت اليه لقص

شعري ، حتى أصبحت حكاياته معروفة لى مألوفة عندي . وأعترف بأننى أتمررن معه على الكلام بالفرنسية . اننى أعرف اللغة الفرنسية ، بل أعرفها معرفة مناسبة ، ولكننى فى المجتمع الراقى أشعر دائماً بخجل فلا أجروُ على التكلم بها مجازفاً . هذا عدا أن لهجتى لابد أنها بعيدة عن اللهجة الباريسية . ولى كذلك عربية وحوذى هو ما تفتى ، يليينى كلما ناديت . انه يقود مركبة فخمة يجرها حصان كميت ممشوق (أنا لا أحب الخيل الصهباء) . غير أن هناك أشياء ليست كما أحب . نحن الآن فى اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثانى (نوفمبر) . البرد قارص منذ ثلاث أيام . ومعطفى المصنوع من فراء الراتون ، وهو هدية أهداها لى فرسيلوف ، قد أصبح قديماً ، فلو شئت أن أبيعهُ لما جئنى بأكثر من خمسة وعشرين روبلاً . لا بد لى من معطف جديد . وجيى خا . وعدا ذلك يجب على أن أحصل على مال لهذا المساء ، بأى شكل من الأشكال . والا « أفلس وهلك » . هذه هى الألفاظ التى كنت أستعملها فى ذلك الأوان . آواه ! يا للشقاء ! من أين جاءت هذه الألف ، وهذه الخيول ، وهذه المطاعم (أمثال مطعم بوريل) على حين فجأة ؟ كيف أمكن أن أنسى كل شىء ، وأن أتغير كل هذا التغير ؟ يا للخرى والعار ! أيها القارىء ، انى محدثك الآن عن خزى ، عن تلطخى بالعار ، ولا شىء يمكن أن يخل بالشرف عندي كهذه الذكريات !

اننى أحكم فى الأمر كما يحكم قاض ، وأعرف أننى مذنب . فرغم أنى والزوجة تجرفنى ، كنت وحيداً بلا مرشد ولا ناصح ، فلقد كنت أشعر بسقوطى ، فوالله ليس لى اذن من عذر . ومع ذلك كنت شبه سعيد خلال ذيك الشهرين . لماذا شبه سعيد ؟ بل لقد كنت سعيداً مسرفاً فى السعادة ، حتى لقد بلغت من فرط السعادة أن شعورى بتلطح شرفى ، وهو شعور يخالجنى فى لحظات كثيرة متكررة ، ويهز نفسى هزاً قوياً ، كان يغمرنى بمزيد من النشوة والسكر ، هل تصدقون ؟ كان لسانى حالى يقول : « ما دمت أسقط ، فلأسقط الى الدرك الأسفل ؟ على

اننى لن أسقط ثم لا أخرج ، بل سأخرج • ان لى نجماً يهدينى ! • «
على جسر هزيل نحيل من ثارة ، جسر بغير درابزين ، كنت أسير فوق
الهاوية ، وكان يسعدنى أن أسير هذا السير • وكان منظر الهاوية يقتن
لى • نعم ، كان يفرحنى أن أشعر أنى فى قلب الخطر • و « الفكرة » ؟
لا خوف عليها • سوف تأتى من بعد ، فى وسعها أن تنتظر • ما هذا كله الا
« انحراف » : « • • • لماذا لا يهب المرء لنفسه شيئاً من مسرة ؟ » ذلكم هو
عيب « فكرتى » ، تلکم هى آفتها : أنها تتسامح فى جميع الانحرافات •
فلعلها لو كانت أقل صلابة ومتانة ، لكنت نقتى بها أضعف ، ولكن يمكن
أن أخشى الانحراف عنها •

ما أزال محتفظاً بمسكنى الصغير • لقد احتفظت به دون أن
أمسكه ، وأودعته حقيبتى وصرتى وأشياء أخرى • أما اقامتى فاکرها عند
الأمير سرجى سوکولسكى • أمكث عنده ، وأبيت عنده ، وأقيم أسابيع
كاملة • • • أما كيف حدث هذا ، فسوف ترون ذلك بعد قليل • ولأحدثکم
الآن عن مسكنى الصغير • انه عزيز فى نفسى • اليه انما جاء يزورنى
فرسيلوف بنفسه أول مرة ، بعد المشاجرة التى قامت بيننا ، ثم جاء مراراً
كثيرة • أكرر أن تلك المدة لم تكن الا عاراً فظيماً ، ولكنها كانت سعادة
كبيرة أيضاً • • • كنت فى تلك الفترة أوفق فى كل شىء ، وكان كل
شىء يتسم لى ! وكنت أقول لنفسى فى تلك اللحظات من النشوة : « علام
ذلك الوجه المتجهم والسحنة الكالحة ؟ فيم ذلك الانقباض ، وتلك الطفولة
المنعزلة المكتنبة والأحلام المستحيلة تحت الغطاء فى الفراش ، وتلك
الأيمان والحسابات ، وحتى « الفكرة » ؟ ذلك كله أخيلة وأوهام ! العالم
شىء آخر • وكنت فرحان جداً • كان كل شىء رائياً • كان لى أب :
فرسيلوف • وكان لى صديق : الأمير سرجى • وكان لى أيضاً • • •
لكن دعونا من هذا • واحزنناه ! ان كل ما حدث عندئذ باسم الحب والنبل
والشرف قد ثبت بعد ذلك أنه كان قبحاً شنيعاً وعاراً وغشاً •
كفى !

جاء الى أول مرة بعد قطيعتنا بثلاثة أيام • ولم أكن في البيت •
فانتظرنى • ورغم أننى انتظرتة طوال هذه الأيام الثلاثة فقد بلغت من
الاضطراب حين دخلت غرفتى الصغيرة أن عينيَّ ضربت عليهما غشاوة •
وأن قلبى خفق خفافاً شديداً • فوقفت في العتبة • ومن حسن الحظ أن
مؤجرى قد استحسن أن يجالس الزائر فوراً حتى لا يصيبه ضجر • فلما
دخلت كان يقص عليه حكاية من الحكايات مندفعاً بخاررة • انه موظف
بسيط • في نحو الأربعين من العمر • مجبور الوجه • مدقع الفقر • مثقل
بعبء زوجة مصدورة وابن مريض • له طبع منفتح مسالم مواع رقيق •
فابتهجت بوجوده • بل ان وجوده قد أخرجنى من مأزق • والا فما عساي
أقول لفرسيلوف • وكيف كان يمكن أن أكلمه ؟ كنت أعرف أن فرسيلوف
سيجىء من تلقاء نفسه • أنه سيكون هو البادىء بالسعى الى • كما كنت
أريد تماماً • لأننى ما كنت لأبدأ أنا بالسعى اليه مهما يكن من أمر •
لا معاندة له • بل حباً به • مدفوعاً الى ذلك بنوع من غيرة المحب • بنوع
من عاطفة لا أعرف كيف أعبر عنها • لا أعرف كيف أصفها • اننى
لا أجيد الافصاح • ولا بد أن القارئ قد ألف أن لا يجد في كتابتى
فصاحة أو بلاغة • ولكن رغم اننى انتظرتة طوال هذه الأيام الثلاثة •
وكننت أتصوره في كل حين داخلاً على • فقد كنت عاجزاً عن تخيل
الحديث الذى سيجرى بيننا بعد كل ما حدث من صدام عنيف • مع أننى
بذلت جهوداً كثيرة فى سبيل أن أتصور ما قد يدور عليه كلامنا •

قال لى دون أن ينهض :

— ها ••• هانت ذا •••

ومد الى يده ، واستطرد يقول :

- اجلس هنا ، الى جانبنا • ان بطرس هيبوليتوفتش يروى لى قصة شائقة جداً عن تلك الصخرة التى كانت 'ترى قريبة من ثكنة بافلوفسكى ، أو ربما قريبة من هنا ...

فأسرعت أجيب قائلاً وأنا أجلس على كرسى بجانبهما :

- نعم ، أعرفها ... تلك الصخرة ...

كانا أمام الطاولة • وكانت الغرفة الصغيرة مربعاً لا يتجاوز طول ضلعه أربعة أمتار • وكنت أتنفس بمشقة •

التمتع فى عيني فرسيلوف وميض فرح : لا شك أنه لم يكن هادئ ، النفس ، لا شك أنه كان يتوقع أن أقوم بحركات ، ثم اطمأن الآن • وأردف يهيب بمؤجى أن يكمل قصته :

- اتمم يا بطرس هيبوليتوفتش •

كانا قد أخذنا. يتخاطبان منذ الآن بالاسم الثنائى ، اسم الشخص وأبيه • فالتفت بطرس هيبوليتوفتش الى وتابع كلامه يقول منقبض الهيئة كأنما هو يخشى سلفاً أن لا أكون مستمعاً حسناً :

- نعم ، حدث الأمر فى عهد الامبراطور الراحل • أنت تعرف اذن تلك الصخرة ، تلك الصخرة الضخمة التى تجثم فى وسط الشارع ولا تزيد على أن ترزعج • لقد مر الامبراطور بذلك المكان مراراً كثيرة ، وكانت الصخرة فى مكانها دائماً • فضاقت بها أخيراً • الحق أنها كانت أشبه بجبل حقاً ، أشبه بجبل فى وسط الشارع ، يؤذى منظرها الأبصار • فها هو ذا الامبراطور الراحل يقول : « فلتختف الصخرة من هذا المكان ! » • نعم قال : « فلتختف ! » • تعرفون ماذا يعنى أن يقول الامبراطور الراحل : « فلتختف الصخرة من هذا المكان ! » • هل

تذكرون الامبراطور الراحل ؟ فما العمل بالصخرة ؟ طاش صواب الجميع • وكان المجلس البلدى حاضراً ، وكان آخرون لا أذكر الآن من هم ، حاضرين أيضاً • غير أن واحداً من أعلى شخصيات ذلك العهد قد كُلف بتنفيذ أمر الامبراطور الراحل • فاليكم ما علمه ذلك الرجل : لقد قيل له ان تنفيذ أمر الامبراطور سيكلف خمسة عشر ألف روبل ، لا تنقص كوبكاً واحداً ، بل تكلف خمسة عشر ألف روبل فضة (ذلك أن الأوراق المالية قد بدلت روبلات فضة في عهد الامبراطور) • « خمسة عشر ألف روبل ؟ هل يعقل هذا ؟ » • أراد الانجليز في أول الأمر أن يمدوا سككاً حديدية ، فيزلقوا الصخرة فوقها ، ثم يجرونها بقاطرة بخارية • ولكن كم كان يمكن أن يكلف هذا من نفقات ؟ لم تكن قطارات السكك الحديدية قد وجدت بعد ، وكان خط تسارسكوييا سيلو هو الخط الوحيد الذى يعمل •••

فقاطعته أقول متبرماً ممتليء النفس أسفاً وخبجلاً أمام فرسيلوف :

– ألم يكن فى الامكان قطعها ؟

ولكن فرسيلوف كان يصغى الى كلام المحدث بسرور ظاهر للعين • فأدركت أنه يرحب بوجود الرجل ، لأنه كان هو أيضاً يشعر بخبجل أمامى ، ويحس بحرج من الانفراد بى • حتى لقد كان ذلك منه بادرة مؤثرة •

– قطعها ؟ تلك هى بعينها الفكرة التى خطرت بالبال حينذاك • هى فكرة مونفران الذى كان ، كما تعلمون ، يبنى فى ذلك العهد كاتدرائية القديس اسحاق • قال سوف نقطع الصخرة نثراً بالمنشار ، ثم نقلها • نعم ، ولكن ما النفقات ؟

– لا مجال لنفقات كبيرة ، 'نقطع نثراً بالمنشار ثم تنقل ، هذا كل شئ !

- لا ، اسمح لى • كان لابد من تركيب ماكينة ، ماكينة بخارية •
ثم الى أين تنقل الصخرة ؟ الى أين ينقل جبل هذه ضخامته ؟ قيل ان
النفقات لن تقل عن عشرة آلاف روبل ، عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً •

- اسمع يا بطرس هيلوليتوفتش • هذه سخافات • لم يحدث هذا
كله على هذا النحو •••

ولكن فرسيلوف رمانى فى تلك اللحظة بغمرة خفيفة لا ترى ،
رأيت فيها اشفاقاً كبيراً على مؤجرى بل تألماً شديداً له ، فأعجبني ذلك
منه كثيراً ، وضحكت مجاملاً •

لم يلاحظ الرجل شيئاً وكان يخشى أكبر الخشية كسائر أمثاله
من القصاصين أن يقاطعه أحد بالقاء أسئلة ، فقال فرحاً جذلاً :

- نعم ، هو كذلك ، هو كذلك ، هو كذلك • لقد جاء شباب من
الضواحي روسى السحنة تماماً ، له لحية صغيرة مدببة ، يرتدى قفطاناً
طويلاً يغطي الكمين ، ثمل بعض الثمل ، بل لم يكن ثملاً • جاء فى
اللحظة التى كان فيها الانجليز و مونفران يعقدون مؤتمراً يتبادلون فيه
الآراء ، ووقف يستمع الى أحاديثهم • ووصل الشخص الكبير المكلف
بالإشراف على تنفيذ أمر الامبراطور ركباً عربية فضمة ، فأصغى الى كلام
المؤتمرين فثارت ثائرتة : كيف تطول المناقشات هذه المدة كلها ثم
لا يتوصلون الى نتيجة ؟ وفجأة وقع بصره على ذلك الشاب واقفاً على
مسافة غير قريبة ، مبتسماً ابتسامة زائفة ••• لا ••• لا زائفة •• ليس
هذا هو اللفظ المناسب •• بل •• بل ••

فقال فرسيلوف يحاول مساعدته فى العثور على الكلمة المناسبة
بلباقة •

- ساخرة ؟

- نعم ساخرة ! أفصد ساخرة قليلاً ••• انها تلك الابتسامة الروسية

التي تعرفونها • ومن شدة استياء الرجل الكبير زعق يسأل الشاب :
« وأنت يا ذا اللحية هناك ؟ ما وقوفك ؟ ماذا تنتظر ؟ من أنت ؟ » •

فأجاب الشاب :

— أنظر الى الصخرة الصغيرة يا سمو الأمير • نعم بهذا ناداه : سمو
الأمير • أظن أنه كان الأمير سوفوروف الايطالي • خسارة : نسيت من
هو • ولكن هبه أميراً فلقد كان روسياً صرفاً ، كان نموذجاً روسيا حقاً ،
رجلاً وطنياً ، قلباً روسيا رجلاً واسماً • فاستطاع أن يدرك كل شيء •
وقال يخاطب الشاب الآتى من الضواحي :

— هيه ! أتولى أنت نقل الصخرة ؟ والا فما ضحكك ؟

— يضحكني الانجليز يا سمو الأمير • فلأن الحزينة الروسية عامرة ،
ولأنهم ليس فى بلادهم ما يأكلونه ، تراهم يطلبون أسعاراً فاحشة ! أعطنى
مائة روبل يا سمو الأمير ، فلا ترى للحجر أثراً فى مساء غد ! فى وسعكما
أن تصور المشهد • أراد الانجليز أن يلتمهوه نيشاً • وضحك مونفران •
والأمير وحده — هذا القلب الروسى الطيب — قال : « اعطوه مائة روبل !
أتنقل الصخرة اذن ؟ » •

— فى مساء غد نكون قد نقلناها يا سمو الأمير •

— وكيف تعمل حتى تنقلها ؟

— لا يسيئك جوابى يا سمو الأمير اذا قلت : هذا سرنا نحن •

قال له ذلك بلغة روسية أصيلة • فأعجب الأمير ، وقال : « اعطوه
كل ما يريد ! » • وتركوه هناك ، فماذا تظنان ؟ هل وفى بما قال ؟

توقف المتحدث لحظة عن الكلام ، وأجال علينا نظرة رقيقة زاخرة
بالعاطفة • فقال فرسيلوف مبتسماً :

— لا أدرى •

وكنت أنا متجههم الهيئة •

فهتف الآخر هتاف المنتصر ، كأنه هو الذى حقق المعجزة ، هتف

يقول :

- بل وفى بما قال • كيف ؟ استأجر فلاحين ومجارف • • • • • مجارف روسية طيبة • • • • • وحفر حفرة بجانب الصخرة • ظلوا يحفرون طول الليل • حفروا حفرة ضخمة ، بضخامة الصخرة نفسها • • • • • بل أعمق قليلاً • حتى اذا فرغوا من حفر الحفرة ، فقدت الصخرة توازنها • فلما فقدت توازنها دفعوها الى الحفرة صائحين : « هوررا » • فسقطت الصخرة فى الحفرة • ثم أسرعوا يهيلون عليها التراب ، ومهدوا التراب بمخبط ، وفرشوا حصى صغيرة ، فعاد الطريق كما كان • ولم يبق للصخرة أثر !

قال فرسيلوف :

- انظر الى هذا الخدق !

- وجاء ناس كثير ، هرعت جماهير كبيرة • واغتالز الانجليز انذين أدوكوا كل شىء فوراً • ووصل مونفران وقال : « هذا عمل بسيط ، بسيط جداً ، يقوم به فلاحون ! » ولكن ذلك بعينه هو السر : عمل بسيط جداً ، ثم لم يخطر لكم على بال أيها الأغبياء • سأقول لكم شيئاً آخر : ان الرئيس الكبير ، الشخص الحكومى العظيم ، احتضن الرجل وقبله ، ثم سأله : « من أين أنت ؟ » فأجابه الرجل : « من اقليم ياروسلاف يا سمو الأمير • مهنتى خياط ، وفى الصيف أجيء الى العاصمة أبيع فاكهة • » • ووصل الأمر الى علم السلطات • فأمرت للرجل بمداية تتدلى من عنقه • ومضى يتجول والوسام فى عنقه ، ثم مضى يشرب • تعلمان أننا معشر الروس لا نستطيع أن نسيطر على أنفسنا • وذلك هو السبب فى أننا ما نزال ندع للأجانب أن يأكلونا ، أليس كذلك ؟

قال فرسيلوف :

— حتماً ، الذكاء الروسى ...

ولكن شاء حسن الحظ أن تنادى القصاص امرأته فى تلك اللحظة ،
فهرع اليها • ولولا ذلك لما استطعت أن أصبر • وأخذ فرسيلوف يضحك •

— لكنه يا عزيزى قد سلاّنى ساعة كاملة قبل أن تصل ... ان قصة
هذه الصخرة ... هى من أتمه ذلك الركام من القصص المعبرة عن
الوطنية ، الشائعة بين الناس فى بلادنا • ولكن كيف أقاطعه ؟ لقد كان
ينوب فرحاً كما رأيت • أظن أن الصخرة لا تزال فى مكانها اذا لم
أخطئ ، ولم ينزلها أحد فى حفرة ...

فهمت أقول :

— طبعاً ... كيف تجرأ فزعم ما زعم ؟ ...

— ما هذا الذى تقول ؟ ما بالك تستاء هذا الاستياء فيما أرى ؟ لا بد
أنه مزج بين شيئين : لقد سمعت فى طفولتى قصة من هذا النوع عن
صخرة ، ولكنها ليست هذه الصخرة • « وصل الأمر الى علم السلطات » •
كانت نفسه كلها تغنى لحظة قال هذا • ان أمثال هذه الحكايات ضرورية
فى هذه البيئة المسكينة • وان عندهم ذخيرة كبيرة منها ، ولا سيما بسبب
ميلهم الى المغالاة • انهم لم يتعلموا شيئاً ، ولا يعرفون أمراً من الأمور معرفة
دقيقة صحيحة • فهم الى جانب قيامهم بأعمال مهنتهم ولعبهم بالورق ،
يشتاقون الى الحديث عن شئ انساني ، شعري ... من هو بطرس
هيوليتوفتش هذا ؟

— انسان فقير بائس •

— أرايت ؟ ولعله لا يلعب بالورق أبداً • فاذا روى هذه الحكايات
الحالية كان يرضى بذلك ما يملأ نفسه من حب الانسان لأخيه الانسان :
لقد أراد أن يسرنا • وهو يرضى بذلك أيضاً ما يزرخ به قلبه من روح

وطنية • انظر مثلاً في هذه القصة الأخرى التي يروون فيها أن الانجليز عرضوا على زوفيا لوف مليوناً في مقابل أن لا يضع ماركته على بضاعته... •••

- نعم نعم ، أعرف هذه الحكاية •••

- من ذا الذي لا يعرفها ؟ هو أيضاً كان يعرف حين روى لك قصة الصخرة أنك قد سبق لك أن سمعتها حتماً ، ولكنه يرويها مع ذلك ، متخيلاً « عن عمد » أنك لا تعرفها • ان الحكاية التي تتحدث عن رؤيا ملك السويد قد أصبحت قديمة فيما يبدو ، ولكن الناس كانوا في أيام شبابه يتناقلونها همساً متلذذين • وكذلك تلك القصة الأخرى التي كانت تروى عن شخصية في مطلع هذا القرن أنها جثت راكعة أمام أعضاء مجلس الشيوخ في أحد اجتماعاته • وقد راجت أيضاً قصص كثيرة عن الكومندان باخوتسكى ، ومن بين تلك القصص تلك التي تتحدث عن انتزاع النصب التذكاري • ان أبناء الشعب مولعون كثيراً بالقصص المتعلقة بالبلاط • من ذلك حكاياتهم عن تشرنيشيف ، وهو أمير من العهد السابق عمره سبعون عاماً استطاع فيما تروى القصة أن يبدل سحته بتديلاً كبيراً ، فإذا رآه أحد لم يخطر بباله أن يكون قد تجاوز من عمره الثلاثين ، حتى ان الامبراطور الراحل كان لا يصدق عينيه حين يراه في الاستعراضات •••

- هذه أيضاً أعرفها •

- من ذا الذي لا يعرفها ؟ ان هذه الحكايات كلها تبلغ الذروة من فساد الذوق • ولكن اعلم ان هذا النوع من فساد الذوق أوسع انتشاراً وأعمق ذبوعاً مما نظن • ان هذه الرغبة في الكذب من أجل مسرة الآخرين شائعة حتى في أرقى مجتمع ، لأننا نعاني جميعاً من داء الغلو الذي يضطرم في قلوبنا • كل ما هنالك من فرق هو أن القصص التي نلقاها في المجتمع الراقى تنتمى الى نوع آخر : كم نحكى عن أمريكا مثلاً ؟ وعن رجال الدولة أيضاً ؟ لا أكتمك اننى أنا نفسى أتمنى الى هذه الفئة من الناس ، ولشدهم عانيت من ذلك طول حياتى !

— أنا أيضاً قصصت حكاية تشرنيشيف مراراً •

— أنت أيضاً؟

— فى هذا البيت الذى أسكنه يسكن مستأجر آخر هو موظف مجدور الوجه كالأول ، متقدم فى السن ، لكنه واقى الى درجة رهبة ، فما ان يفتح بطرس هيبوليتوفتش فمه ، حتى يأخذ يقاطعه ويعارضه ويكذبه • وقد بلغ من نجاحه فى ذلك أن بطرس هيبوليتوفتش يتملقه كعبد ، ولا يرجو الا أن يسره ، لا لشيء الا أن يحمله على الاصغاء اليه •

— وهذا نوع آخر من فساد الذوق ، بل لعله أدعى الى النفور من النوع الأول • الأول حماسة كله • « كل ما أطلبه هو أن تتيح لى أن أتكلم ، وسوف ترى أن ما سأقوله جميل جداً » • أما النوع الثانى فهو خال من روح الشعر ، وهو اسفاف وكآبة : « لا تقل لى سخافات • اين وقع هذا ؟ متى ؟ فى أية سنة ؟ » • ان من يقف هذا الموقف انسان لا قلب له • يا صديقى ، اسمح دائماً للناس أن يكذبوا قليلاً • هذا كذب برى • بل اسمح لهم أن يكذبوا كثيراً • فأنت بذلك تبرهن أولاً على رقة شعورك وحسن أدبك ، وأنت بذلك تحصل ثانياً على حق الكذب أيضاً : فائدتان فى آن واحد • يجب على الانسان أن يجب أخاه الانسان •

وأضاف فرسيلوف قائلاً وهو ينهض عن كرسيه :

— اننى مستعجل • يجب أن أنصرف • مسكنك رائع • سأذكر لصوفيا آندريفنا ولأختك أننى زرتك فوجدتك فى صحة حسنة • الى اللقاء يا عزيزى •

كيف ؟ أهذا كل شيء ؟ أنا لم تكن حاجتى الى هذا • كنت أنتظر شيئاً آخر ، كنت أنتظر الشيء « الجوهري » ، رغم أننى أدركت أن الأمور لا يمكن أن تجرى على غير هذا النحو • وسرت معه الى السلم حاملاً شمعة • وهمّ المؤجر أن يخرج من غرفته بهدوء ، ولكننى أمسكت ذراعه

ورددته بقسوة وشدة ، دون أن يلاحظ فرسيلوف ذلك ، فنظر الى مدهوشاً ، ولكنه اختفى فوراً •

قال فرسيلوف ماطاً كلماته ، لا لسبب الا أن يتكلم ، وربما لكى يعنى أنا من أن أقول شيئاً :

– هذه السلالم وعرة •• وأنت فى الطابق الثانى •• طيب •• كفى •• الآن أهتدى الى طريقى •• لا تقلق •• يا عزيزى •• لا تنزل معى أكثر مما نزلت • أخشى أن تصاب بركام •

ولكننى لم أتركه • ونزلنا معاً الى الطابق الأول • فاذا أنا أقول له :
– انتظرتك ثلاثة أيام •

أفلفت منى هذه الجملة كأنما برغم ارادتى • وكنت أحتق من شدة الانفعال •

– شكراً يا عزيزى •

– كنت أعلم أنك آت الى حتماً •

– وأنا كنت أعلم أنك تعلم أننى آت اليك • شكراً يا عزيزى •

وصمت • صرنا أمام الباب • وما أزال أتبعه • وفتح الباب ، فاذا بالزيج تندفع فجأة فتطفئ الشمعة • فأمسكت عندئذ ذراعه • وكان الظلام حالكاً • فارتعش ولكنه لم ينطق بكلمة • وارتيمت على يده ، وأخذت أقبلها بشراة عدة مرات ، بل مراراً كثيرة •

قال :

– لماذا تحبنى هذا الحب كله يا بنى العزيز ؟

ان صوته الآن صوت آخر ، صوت مختلج ، له نبرة جديدة كل الجدة ، لكأن المتكلم شخص غيره •

وأردت أن أجيب ، لكننى عجزت عن ذلك ، ورجعت أصعد السلم
 مسرعاً . ونبت هو فى مكانه ينتظر . ولم أسمع الباب الخارجى يفتح ثم
 يغلّق مفرقاً الا حين صرت فى طابقي . وانسلت الى غرفتي متحاشياً
 المؤجر الذى رأيت فى طريقى مرة أخرى ، وشدت المزالج لأحكم اغلاق
 الباب ؟ وبدون أن أشعل شمعة ، ارتيمت فوق سريري مكباً بوجهي على
 المخذة ، وبكيت ، وبكيت . تلك أول مرة أبكى فيها بعد مدرسة توشار !
 وكان نشيجي يخرج من صدرى قوياً جداً وكنت أنا سعيداً جداً
 ولكن كيف أستطيع أن أصف ؟

خططت الآن هذه الأسطر دون أن يحمر وجهي ، لأن ذلك كله
 لعله كان حسناً رغم كل ما فيه من غرابة مستحيلة !

ولكن ذلك كلف أبى ثمناً باهظاً . فلقد برهنت على اننى انسان طاغية . لم يجبر أى حديث بيننا عن ذلك المشهد الذى جرى فى الظلام .
التقينا مرة أخرى بعد ثلاثة أيام ، فجرى كل شيء وكأن ما حدث كان حلماً . حتى لقد كنت فظاً . وتم اللقاء الثانى فى غرفتى كاللقاء الأول :
ذلك أننى رغم رغبتى فى رؤية أمى لم أرد له زيارته .

ظلت أحاديثنا طوال تلك المدة ، أى خلال هذين الشهرين ، تدور على نظريات عقيمة ومسائل مجردة : حرصنا حرصاً شديداً على تحاشي الأمر الجوهرى . وكان هذا الأمر الجوهرى هو بعينه ما يتطلب ايضاحاً ، بل يتطلب ايضاحاً سريعاً . وعن هذا الأمر الجوهرى انما كنا نتقى الكلام . لم أتكلم لا عن أمى ولا عن ليزا (كنت أزورهما كل أسبوع) ولا عن نفسى ، ولا عن قصتى كلها . أفكان هذا الصمت خجلاً ، أم كان نوعاً من حماقة الشباب ؟ أغلب الظن أنه كان نوعاً من حماقة الشباب ، لأن الحجل يستطيع المرء أن يتقلب عليه بطريقة من الطرق آخر الأمر . لقد سمعت فرسيلوف سوء العذاب . حتى لقد كنت فى معاملته وفحاً عدة مرات ، وكان ذلك على مضض منى أيضاً : كانت الوقاحة تنطلق من تلقاء ذاتها ، على نحو لا سبيل الى مغالته ومقاومته ، فكنت لا أملك أن أنهى نفسى عنها . وكان فى لهجته هو شيء من سخرية ، على عهدى به ، وان تكن هذه السخرية رقيقة فى الواقع . ومما أدهشنى أيضاً أنه كان يفضل أن يجرى الى ، حتى صرت فى النهاية لا أذهب الى أمى الا قليلاً ، مرة واحدة فى الأسبوع لا أكثر ، ، ولا سيما فى الآونة الأخيرة ، حين طاش صوابى تماماً . وكان يأتى دائماً فى المساء ، فتظل تثرثر ، وكان يحب أيضاً أن يثرثر مع مؤجرى ، فكان يحتفى أن يصدر هذا عن رجل مثله .

وقد برق في ذهني خاطر : أتراه ليس له صديق يذهب اليه ؟ ولكنني كنت أعلم علم اليقين أن له معارف ، حتى انه في المدة الأخيرة قد جدد كثيراً من العلاقات القديمة بالمجتمع الراقى ، بعد أن أهمل تلك العلاقات في السنة الماضية . ولكن كان لا يبدو مفتوناً بهذه العلاقات كثيراً ، وكأنه لم يجدد عدداً كبيراً منها الا تجديداً رسمياً شكلياً ، وانما هو يؤثر أن يجيء الى . • ومما يؤثر في قلبي أحياناً أنه حين يجيء في المساء ، يكاد يشعر كل مرة بشيء من الحجل لحظة يفتح الباب ، فينظر الى في البرهة الأولى بعينين تعبران عن قلق خاص كأنه يسأل : « ألا أضايقك ؟ اذا كنت أضايقك فقل لي ذلك فأصرف ! » • بل كان يلقي السؤال أحياناً • ففي ذات مرة ، في الآونة الأخيرة ، دخل على و كنت قد فرغت في تلك اللحظة نفسها من ارتداء بدلة جديدة جاءتني من عند الحياط منذ لحظة ، و كنت أتهياً للخروج ذاهباً الى الأمير سرجي من أجل أن نمضي معاً الى مكان لي فيه عمل (أما ما هذا المكان ، فسوف أشرح ذلك فيما بعد) • دخل فرسيلوف وجلس ، ربما دون أن يلاحظ أنني أتهياً للخروج • ان له ذهولاً عجبياً في بعض الأحيان • ربما يشبه المصادفة ، أدار الحديث عن المؤجر • فثارت ثائرتي ، وقلت :

— ليذهب المؤجر الى الشيطان !

فاذا هو ينهض فجأة ، ويقول :

— معذرة يا عزيزتي • أظن أنك تتهياً للخروج ، وأنتى أضايقك ،

فسامحني ، أرجوك •••

وأسرع يخرج بمذلة • ان هذه المذلة يظهرها لي رجل مثله ، رجل يبلغ منزلته في المجتمع الراقى ، ويتصف بما يتصف به من روح الاستقلال ، ويملك ما يملكه من أصالة الشخصية ، ان هذه المذلة كانت لا تلبث أن تثير في قلبي على الفور كل ما يضره له من محبة حنان ، وكل

ما يحمله له من ثقة به واطمئنان اليه • ولكن اذا كان يجنبني هذا الحب كله • فلماذا لم ينهني ولم يزجرني حين أخذت أهوى الى الدرك الأسفل ؟ لعله كان يكفي أن يقول لي كلمة واحدة حتى أتوقف عن الانهيار • أو لعله كان لا يكفي ذلك • ولكنه كان يرى فرط تأقبي وتندوي ، ويلاحظ تشدقي وتنفجي وتبججي ، ويبصر سائق عربتي الجودى ما تفىء (حتى لقد أردت مرة أن أوصله الى بيته بعربتي فرفض ، بل لقد تكرر هذا نفسه مراراً فكان فى كل مرة يرفض) • وكان يرى أنني أتلف أموالاً طائلة ، ثم هو لا يقول كلمة واحدة ، ولا ينطق بحرف واحد ، ولا يبدى أى ميل الى الاستطلاع • ان هذا لا يزال يدهشنى حتى اليوم • وكنت أنا لا أخرج أمامه • بل كنت أعرض كل شيء ، دون أى شرح أو تعليق طبعاً • كان هو لا يسألنى ، وكنت أنا لا أتكلم من تلقاء نفسى •

ومع ذلك أوشكنا مرتين أو ثلاث مرات أن نتكلم عن الأمر الجوهرى ، مرة فى البداية بعد التنازل عن الميراث • فقد سأله حينذاك مم سيعيش الآن ، فأجابنى قائلاً بصوت هادىء هدهوءاً خارقاً :

— سأدبر أمري يا صديقى •

اننى أعلم الآن أن المبلغ الصغير الذى تملكه تاتيانا بأفلوفنا ، أن هذا المبلغ الصغير نفسه قد أنفق نصفه على فرسيلوف فى هاتين السنتين الأخيرتين •

ومرة تكلمنا عن أمى : قال فجأة بحزن :

— كثيراً ما قلت لصوفيا آندريفنا فى مطلع حياتنا المشتركة ، بل فى مطلعها ووسطها ونهايتها : « يا عزيزتى ، اننى أعذبك وسأظل أعذبك عذاباً شديداً ؟ ولست آسف لذلك ما دمت أمامى • ولكننى أعلم أننى سأنتحر معاقبة لنفسى اذا أنت مت • » •

وانى لأذكر من جهة أخرى أنه كان فى ذلك المساء صريحاً صراحة خاصة ، قال :

- ليتنى على الأقل كنت امرأةً تافهاً لا إرادة له ، مثلاً من أنه كذلك ! ولكن لا . فانا أعلم اننى قوى قوة لا نهاية لها . ما مكنم قوتى فى رأيك ؟ ان قوتى هى فى هذه القدرة المباشرة على التلاؤم مع كل شىء ، وهى قدرة يتميز بها جميع الروس الأذكاء من أبناء جيلنا . لا شىء يستطيع أن يدمرنى ، ولا شىء يستطيع أن يدهشى . اننى قوى جم النشاط ككلب الراعى أستطيع أن أحس عاطفتين متعارضتين فى لحظة واحدة معاً ، بسهولة لا تفوقها سهولة ، ودون أن تشارك فى ارادتى . ولكننى أعرف مع ذلك أن هذا أمر فيه حطة ، لأن فيه فرط تعقل . لقد عشت حتى الآن قرابة خمسين عاماً ، وما أزال الى الآن أجهل أهو شر أم هو خير أن أبلغ هذه السن . لا شك فى أننى أحب الحياة ، وهذا ما تشهد به الوقائع وتدل عليه . ولكن حب الحياة عند رجل مثلى ، شىء فيه جبن . هناك أمور جديدة فى هذه الأزمنة الأخيرة : فأمثال كرافت لا يتلأمون فينتحرون . واضح أن أمثال كرافت حمقى . ومعنى ذلك أننا نحن أذكاء . فليس هناك تواز يمكن أن نقيمه ، وتبقى المسألة مفتوحة . هل يعقل أن لا تكون الأرض قد وجدت الا لأناس مثلنا ؟ جائز ! . . . ولكن هذه الفكرة تحزن النفس وتبطل العزيمة . الخلاصة . . الخلاصة . . المسألة تبقى مفتوحة .

كان يتكلم بحزن . ومع ذلك لا أدرى أكان صادقاً أم لا . ان فى نفسه على الدوام نوعاً من سر لا يريد أن يكشف عنه بحال من الأحوال .

أغرقته عندئذ بالأسئلة • هجمت عليه هجوم الجائع على قطعة خبز • فكان يجيبني دائماً بمودة وبساطة ، ولكنه ينتهى فى الحثام الى حكم عامة وقوالى مأثورة ، فيستحيل علىّ أن استخرج من أقواله شيئاً • وكانت هذه الأسئلة جميعها قد أفلقتنى طوال حياتى • وانى لأعترف لكم صريحاً كل الصراحة بأننى كنت أرجى • الاجابة عنها دائماً الى حين لقائنا ببطرسبرج • حتى لقد أعلنت له ذلك ، فلم يسخر منى ، بل شد على يدى •

فيما يتعلق بالسياسة العامة والمسائل الاجتماعية لم أستطع أن انتزع منه شيئاً على وجه التقريب ؟ وكانت هذه المسائل مع ذلك هى التى تعلقنى أكثر من كل ما عداها ، بحكم فكرتى • وفيما يتعلق بأناس مثل درجاشيف استطعت أن أنتزع منه فى ذات مرة هذه الملاحظة : « انهم أدنى من أى نقد » • ولكنه سرعان ما أردف يضيف أنه يحتفظ لنفسه بهذا الحق : وهو أن لا يخلع على رأيه هذا أى « قيمة ذات بال » • أما ما ألقته عليه من أسئلة عن الدول المعاصرة ما مآلها ، وعن العالم ما مصيره ، وعن السلام الاجتماعى كيف يتحقق ، فانه أصم أذنيه عن سماعه زمناً طويلاً ، ثم استطعت فى النهاية أن أنتزع منه هذه الأقوال :

— أظن أن هذا كله سيتم على نحو عادى جداً • ان جميع الدول ، رغم توازن الميزانيات ، و « عدم وجود عجز » ستفنى « ذات صباح » ، فإذا هى متورطة تورطاً حاسماً ، وإذا هى جميعاً ترفض أن تدفع ، وإذا هى فى افلاس شامل • ولكن جميع العناصر المحافظة فى العالم بأسره سستاهض هذا ، لأن هذه العناصر ستكون هى مالكة الأسهم وستكون هى الدائنة ، فلا تريد أن تقبل الافلاس • وبطبيعة الحال ، سيحدث عندئذ نوع من

الأكسدة : يزداد عدد اليهود ، ويقوم حكمهم ، وبعد ذلك ، فإن جميع الذين لم يملكوا أسهماً في يوم من الأيام ، ولا ملكوا شيئاً بعامه ، أى جميع الشحاذين ، سيفرضون المساهمة فى الأكسدة طبعاً . فتقوم المعركة . . وبعد سبعين هزيمة بيد الشحاذين مالكي الأسهم ، ويأخذون أسهمهم ، ويحلون محلهم ، كمساهمين أيضاً بطبيعة الحال . وقد يقولون شيئاً جديداً ، وقد لا يقولون . وأغلب الظن أنهم سيفلسون هم أيضاً . أما فيما عدا هذا يا صديقى ، فانتى لا أستطيع أن أوغل مزيداً من الايغال فى قراءة المصائر التى سوف تغير وجه العالم . على كل حال ، أقرأ رؤيا يوجنا . . .

— ولكن هل ستكون الأمور مادية الى هذا الحد ؟ هل شئون المال

وحدها هى التى تنتهى العالم الحاضر ؟

— أنا لم أنظر الا الى زاوية من اللوحة طبعاً ، ولكن هذه الزاوية مرتبطة بسائرها ارتباطاً لا انفصام له .

— فما البعل اذن ؟

— أوه ! لا تسرف فى التسرع يا عزيزى : هذا كله ليس وشيك الحدوث . أفضل شيء على كل حال ، هو أن لا يعمل المرء شيئاً البتة . فيكون ضميرك مرتاحاً على الأقل ، لأنك لا تكون شاركت أية مشاركة . . .

— دعنا من هذا الكلام . لتتكلم جادين . أريد أن أعرف ما الذى يجب على أن أفعله ، وكيف ينبغى أن أعيش ؟

— ما الذى يجب عليك أن تفعله يا عزيزتى ؟ كن شريفاً ، لا تكذب أبداً ، لا تشته أن تملك منزل جارك . . . الخلاصة : عليك بالوصايا العشر فأعد قراءتها . . . ان كل شيء مدون فيها الى الأبد .

— كفى كفى ، هذا كله قديم جداً ، وما هو الا ألفاظ ، وانما المهم أن نعمل .

– طيب ، اذا كنت فريسة ضجر شديد ، فحاول أن تحب أحداً أو أن تحب شيئاً ، أو حتى أن تتعلق بشيء .

– انك لا تزال تسخر ! ثم ما عساي أفعل وحدي ، باتباع وصاياك العشر ؟

– تطبقها غير متشرد بين المشكلات والشكوك فتصبح انساناً عظيماً .

– مجهولاً من جميع الناس .

– لا سر يبقى خافياً .

– انك ما تزال تمزح !

– طيب ، اذا كنت تأخذ كل شيء مأخذ الجد الى هذه الدرجة ، فالأفضل أن تسارع الى التخصص : كن مهندساً أو محامياً . فيكون لك شاغل حقيقي جدى ، وتهذب بالآلة ، وتنسى جميع هذه الأمور الصيانية !

سكت . ما عسى أستطيع أن أستخرج منه ؟ ولماذا كنت بعد كل حديث من هذه الأحاديث اضطررب مزيداً من الاضطراب ، ويربو قلقي عما كان عليه من قبل ؟

ثم اننى كنت أرى رؤية واضحة أنه لا يزال فى نفسه نوع من سر لا يكشف عنه . وكان هذا ما يجذبني اليه مزيداً من الجذب يوماً بعد يوم .

قاطعته يوماً أقول :

– اسمع ، لقد ساورنى دائماً أنك لا تقول هذا الكلام الا عن غضب وألم ، أما فى قرارة نفسك فأنك شديد الحماسة لفكرة عليا تخفيها أو تخجل من الاعتراف بها .

- شكرآ يا عزيزتى •

- اسمع ! لا شيء أسمى من أن يكون المرء نافعاً • فقل لى : فى أى شىء يمكننى فى لحظة معينة أن أكون نافعاً أكبر نفع ؟ أعرف أنك لن تحل المسألة • ولكننى فى حاجة الى رأيك : قل لى رأيك ، فأخذ به ! عَيْن لى فكرة عظيمة •

- تبادل الحجارة خبزآ ، هذه هى الفكرة العظيمة •

- أعظم فكرة ؟ الواقع أنك رسمت طريقآ يجب اتباعه • ولكن قل لى : أهذه أعظم فكرة ؟

- هى عظيمة جداً يا صديقى ، عظيمة جداً • ولكنها ليست العظمى • هى عظيمة ، ولكن عظمتها من مرتبة ثانية ، وهى عظيمة فى الوقت الراهن فحسب : فمتى شبع الانسان لم تبق عظيمة • بل ان الانسان سرعان ما يقول : « طيب ، هاأناذا شبع ، فماذا أعمل الآن ؟ » • ويبقى السؤال قائماً الى الأبد •

- لقد تكلمت عن « آراء جنيف » • ولم أفهم أنا ما « آراء جنيف » هذه •

- « آراء جنيف » يا عزيزى ، هى الفضيلة بغير يسوع المسيح • تلك هى أفكار هذه الأيام ، بل قل هى فكرة الحضارة الحديثة كلها • الخلاصة : هذه حكاية من تلك الحكايات الطويلة التى تبعث على الضجر والسأم • فالأفضل أن نصمت •

- تود دائماً لو نصمت !

- تذكر يا صديقى أن الصمت لا خطر منه ، وأنه براءة وجمال • الصمت جميل ؟

- طبعاً • الصمت جميل دائماً ، والصامت أجمل من المتكلم دائماً •

- ولكن الكلام على نحو ما تتكلم أنا وأنت أشبه بالصمت على كل حال • تباً لهذا الجمال ، تباً لهذا الجمال ، بشت هذه الميزة !
قال لى فجأة وهو يغير لهجته قليلاً ، حتى لقد كان كلامه عاطفة وكان فيه شيء من الحاح خاص :

- يا عزيزتى ، لا أريد أبداً أن أغويك فأبدل مثلك العليا بفضيلة من الفضائل البورجوازية • لا أريد أن أقول لك ان « السعادة خير من البطولة » ، بالعكس : البطولة أسمى من أى سعادة ، واستعداد المرء للبطولة هو فى ذاته سعادة • ذلك أمر لا جدال فيه بيننا • تلك مسألة محلولة • وإذا كنت أحترمك فلأنك استطعت فى عصرنا هذا المعنف أن تنشئ لك فى قوارة قلبك « فكرة » (اطمئن ، انتى أتذكر هذا الأمر) • ولكن يستحيل عليك أن لا تفكر أيضاً فى القصد والاعتدال • ذلك أنك تحلم الآن بحياة لها دوى ، تحلم أن تحرق لا أدري ماذا ، وأن تمزق لا أدري ماذا ، أن تسمو فوق روسيا كلها ، أن تمر مرور سحابة ساطعة ، أن تفرق العالم كله فى الرعب والاعجاب ، ثم تمضى تختفى فى الولايات المتحدة ! ان فى قلبك شيئاً كهذا حتماً ، لذلك أرى أن من المفيد أن أحذرك ، لأننى أحمل لك عاطفة صادقة •

ماذا كان فى وسعى أن استخرج من هذا أيضاً ؟ ان هذا الكلام لا يتضمن الا قلقاً علىَّ بصدد حالتى المالية • هو الأب بعواطفه الحالية من كل روح شعرية ، وان تكن عواطف طيبة • ولكن أهذا ما كنت فى حاجة اليه ازاء أفكار ينبغى لكل أب صادق أمين أن يرسل ابنه الى الموت تضحية فى سبيلها ، كما فعل هوراس القديم بذويه فى الزمان الحالى من أجل الفكرة الرومانية ؟

وكنت أسأله كثيراً عن الدين ، ولكن الضباب فى هذا المجال كان اكتف من الضباب فى كل مجال آخر • فاذا سألته : ماذا يجب على أن

أعمله في هذا المجال ؟ أجبني أغبي إجابة ، كما يجاب طفل صغير ، فقال :
« يجب أن تؤمن بالله يا عزيزي ! » •

وقد اشتد حنقي مرة فهتفت أقول له :

– فإذا كنت لا تؤمن بهذا كله ؟

فإذا هو يقول لي :

– ذلك حسن جداً يا عزيزي !

– حسن جداً ؟ كيف ؟

– هذه علامة طيبة يا صديقي ، بل هي أضمن علامة ، لأن الملحد الروسي – هذا اذا كان ملحداً حقاً وكان على شيء ولو قليل من الذكاء – هو خير انسان في هذا العالم ، فهو يعامل الله بالحسنى لأنه طيب ، وهو طيب لأنه مسرور بالحاده سروراً كبيراً • ان الملحدين في بلادنا روسيا أناس جديرون بالاحترام ، أناس يوثق بهم ، وهم دعائم الوطن ان صح التعبير •••

هذا شيء طبعاً • لكنه ليس كل ما كنت أريده • مرة واحدة أفصح عن فكرته ، ولكن بطريقة تبلغ من الغرابة أن دهشتي ازدادت ، ولا سيما بعد الذي ترامى صده الى سمعي عما يأخذ به نفسه من كفارات ومن عبادات كاثوليكية • قال لي يوماً ، لا في البيت بل في الشارع ، بعد حديث طويل ، وكنت أوصله الى منزله :

– يا عزيزي ، يا صديقي ، ان حب البشر على ما هم عليه أمر مستحيل • ومع ذلك يجب أن نحبهم • لذلك يجب أن تصنع لهم خيراً وأن تكظم عواطفك وتسد أنفك وتغض عينك (هذا الشرط الأخير لا غنى عنه) • تحمل ما يفعلون من شر ولا تؤاخذهم ان استطعت ، « متذكراً أنك أنت أيضاً انسان » • هذا لا ينفي أن من حقا أن تقسو عليهم اذا وهب لك أن كان ذكاًوك أعلى من متوسط ذكائهم • البشر

منحطون بطيعتهم ، وهم يحبون أن يحبوا عن خشية وخوف •
فلا تستسلمن لهذا الحب ، ولا تكف عن احتقارهم • في سورة من سور
القرآن يأمر الله نبيه بأن ينظر الى الكفار نظرته الى قرآن ، وأن يحسن
اليهم ، ويمضي في طريقه •

ان في هذا شيئاً من تعال ، ولكنه صدق وحق • فاحتقر البشر ،
حتى حين يكونون طيبين ، فحين ذلك انما هم أشد ما يكونون عفناً وتناً •
يا صديقي ، أنا لا أقول هذا الكلام الا لأننى أعرف نفسى معرفة جيدة !
لا يملك انسان غير غبى الا أن يحتقر نفسه ، شريفاً كان أو غير شريف •
يستحيل على الانسان أن يحب أخاه الانسان ولا يحتقره • رأى أن
الانسان 'خلق بتكوين جسمه عاجزاً عن حب أخيه الانسان • لقد وقع
خطأ لغوى منذ البداية • ما ينبى أن تفهم من « حب الانسانية »
الا الانسانية التى خلقتها لنفسك فى قرارة قلبك (بتعبير آخر : أنا أخلق
نفسى وأخلق لها الحب) ، أى الانسانية التى لن توجد حقيقة واقعة فى
يوم من الأيام أبداً •

– لن توجد أبداً ؟

– أتعرف يا صديقى بأن ذلك أمر سخيف ، ولكن ليس الذنب ذنبى
أنا • وكما لم 'أسأل رأبى حين خلق العالم ، فابى احتفظ لنفسى بالحق فى
أن يكون لى رأى •

هتفت أقول :

– كيف يمكن بعد هذا أن يقال عنك انك مسيحي متحمس
ومبشر ، وأنت تأخذ نفسك بكفارات وعبادات ؟

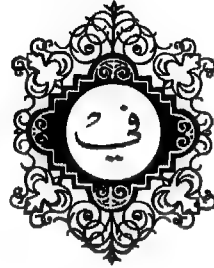
– من ذا يقول عنى هذا ؟

فقصصت عليه ما سمعت • فاصغى الى كلامى بانتباه شديد ، ولكنه
علق الحديث •••

لا أفصح فى تذكر المناسبة التى جرتنا الى هذا الحديث الذى لا أنساه •
ولكننى أذكر أنه زعل ، وذلك أمر كان لا يكاد يحدث له أبداً • كان
يتكلم باندفاع ، وبغير سخرية ، كأنما هو يوجه كلامه الى شخص غيرى •
ولكننى هنا أيضاً لم أصدق : فما كان له ، مع غبى مثلى ، أن يعالج بالجد
موضوعات كهذه •

الفصل الثاني

١



ذلك الصباح من ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر)
 رأيته عند الأمير سرجى • اتنى أنا الذى وصلت
 بينهما ، ولكن كان بينهما نقاط التقاء كثيرة من قبل
 أن أصل أنا بينهما (أقصد تلك القصص التى
 وقعت بينهما فى الخارج ، الخ) • وعدا ذلك كان الأمير قد قطع له عهداً
 بأن يكون له ثلث الميراث على الأقل ، أى قرابة عشرين ألف روبل • وأذكر
 أننى قد دهشت من أن يخص فرسيلوف بثلث الميراث لا بنصفه • ولكننى
 لم أقل شيئاً • ولقد بذل الأمير هذا الوعد بمبادرة منه • أما فرسيلوف فلم
 ينطق بنصف كلمة ، ولا جازف بأية إشارة • ان الأمير هو الذى قدم
 العرض ، فلم يقابله فرسيلوف الا بالصمت ، ولا ذكر به فى يوم من
 الأيام ، ولا بدا عليه أن يتذكره البتة • يجب أن أشير عابراً الى أن الامير
 قد افتتن به فى أول الأمر افتتانا كبراً ، ولا سيما بأجاديته ، حتى لقد
 تحمس له ، وأعرب لى عن ذلك مراراً • بل انه كان فى بعض الأحيان ،
 حين يخلو الى ، يهتف قائلاً عن نفسه بما يشبه اليأس « اتنى انسان ضئيل
 الحظ من الثقافة ، واتنى أسير فى طريق خطأ » • • • ذلك أننا كنا حينئذ
 صديقين حميمين ! وقد حاولت من جهتى أن أوحى الى فرسيلوف برأى

حسن في الأمير ، مدافعاً عن عيوبه ، مع أنني أراها • ولكن فرسيلوف
كان يبقى صامتاً أو كان يبتسم •

وقد صحت ذات يوم أقول لفرسيلوف منفرداً به :

– اذا كانت له عيوب ، فإن له مزايا تساويها •

فأجابني فرسيلوف وهو يضحك ساخراً :

– انك تبالغ في مدحه !

– أين المبالغة ؟ لست أفهم !

– المبالغة في قولك ان مزاياه تساوى عيوبه • فلو كانت له مزايا بقدر

عيوبه لصنع معجزات !

ولم يكن هذا رأياً بطبيعة الحال • المهم أنه كان يتحاشى الكلام عن
الأمير كتحاشيه الكلام عن الأمور الجهورية عامة ، بل كان تجنبه الكلام عن
الأمير أشد من تجنبه الكلام عن تلك الأمور الجهورية • وكنت أقدر أنه
يزور الأمير في غيابه ، وأن بينه وبينه علاقات خاصة • ولكنني كنت راضياً
بالأمر • وكان لا يثير غيرتي أن يكون في حديثه مع الأمير من الجد والدقة
والوضوح ما ليس في حديثه معي من مثل ذلك كله ، وأن يخلو حديثه
إليه مما يمازج حديثه إلى من سخريه • بل قد بلغت من فرط السعادة
أن ذلك كان يرضيني ويعجبني • وكان يشفع لفرسيلوف في هذا عندي
أن الأمير رجل محدود الذكاء قليلاً ، فالتلميح لا يغني معه عن التصريح
حتى لقد يحتاج حتى يفهم إلى الحاح ، والا فقد يفوته ادراك معنى بعض
الأمازيح • ولكن ها هو ذا قد أخذ يتحرر في الآونة الأخيرة • وبدأ
أن عواطفه نحو فرسيلوف قد تتغير • ولاحظت فرسيلوف ذلك بما أوتي من
لطافة الحس • ولاحظت تغيراً كهذا في علاقات الأمير بي • حتى لقد كان
هذا التغير واضحاً كل الوضوح • فلم يبق من صداقتنا الأولى الحارة الا
صور ميتة • ومع ذلك ظلت أذهب إليه • وهل كان يمكنني أن أفعل غير

هذا بعد أن أبجرت ؟ آه ... ما كن أشد سذاجتى ! هل يمكن لبسطة القلب أن تؤدي بانسان الى مثل هذه الدرجة من الحرافة والحطة ؟ كنت أقبل منه مالا ، وفي ظنى أن ذلك ليست له عواقب ، وأنه من طبيعة الأمور . بل قل لم يكن الأمر كذلك : لقد كنت أعلم منذ ذلك الحين أن هذا ليس ما كان يجب على أن أعمله ، ولكننى كنت لا أفكر فى الامر كثيراً ، ولا أثبت عليه طويلاً . ولم أكن أذهب اليه من أجل المال ، رغم حاجتى الشديدة الرهية الى المال . وكنت أعلم أننى لا أذهب اليه من أجل المال ، ولكننى أدرك أننى آجىء كل يوم فأخذ مالا . على أتى أدور فى الزوبعة وكانت نفسى عدا ذلك مشغولة بشيء آخر يختلف عن هذا كل الاختلاف . كانت نفسى كلها تغنى !

حين دخلت فى نحو الساعة الحادية عشرة من ذلك الصباح ، وجدت فرسيلوف عند الأمير مشارفاً على ختام حديث مستفيض . كان الأمير يصغى وهو يذرع الغرفة ذاهباً آيياً . وكان يبدو على الأمير شيء من الاضطراب . ان فرسيلوف يث فى نفسه بعض الاضطراب دائماً . فالأمير شديد التأثير الى درجة السذاجة ، وكان هذا يجعلنى أنظر اليه من عل . ولكننى أعود فأكرر أنه فى هذه الأيام الأخيرة قد ظهر فيه شيء من خبث وشر . فلما رأتى توقف ، وتقبض وجهه قليلاً . وكنت أعرف بينى وبين نفسى كيف أفسر هذا الظل يظهر على وجهه فى ذلك الصباح ، ولكننى لم أتوقع أن تتبدل سحنه هذا التبدل . كنت أعلم أن هناك أنواعاً شتى من المنفصات قد تراكمت عليه ، ولكن المؤسف أننى كنت لا أعرف عشر معشارها ، وكان ما عدا ذلك سرّاً أجهله جهلاً تاماً . ومما يزيد الأمر مضايقة لى أننى كنت أندخل فى شئونهِ أحياناً كثيرة محاولاً أن أواسيه وأن أسدى اليه بالنصح ، دون أن يفوتى أن أسخر من ضعفه فى استعلاء قائلاً له : ما هذا الاستسلام لمثل هذه « الترهات » ! وكان يلتزم الصمت . ولكن يستحيل أن لا يكرهنى كرهاً رهيباً فى تلك اللحظات : لقد كنت

ففي وضع زائف دون أن يخطر بباله ذلك • آه • • • • • شهد الله أن الأمر
الجوهري ما كان يدور في خلدي ، ولا كان يخطر على بال !

ومع ذلك مد اليدي به حركة مهذبة • وهز فرسيلوف رأسه محيياً
دون أن يقطع حديثه • واستلقت على الديوان •

ما أعجب تلك الأساليب التي كنت أصطنعها في ذلك الوقت ! كنت
أنظر إليه من عل ، وأعامل أصدقاءه معاملة أصدقائي • آه • • • • • لو كان
يمكن أن أتقهقر الآن في الزمان الى الوراء ، لسلكت سلوكاً آخر • • •

كلمتان أخيرتان قبل أن أنسى : كان الأمير ما يزال يسكن تلك الشقة
نفسها ، لكنه يشغلها الآن كلها تقريباً ، فإن مالكتها ستوليفافا لم تقض
فيها الا شهراً واحداً ثم سافرت •

كانا يتكلمان عن طبقة النبلاء أو طبقة الأشراف • يجب أن أذكر أن هذه المسألة كانت تشغل بال الأمير كثيراً ، وتعذبه كثيراً ، رغم ما يصطنعه من مظاهر التقديمية ؛ حتى لأعتقد أن كثيراً من الجوانب السيئة في حياته قد نشأت عن ذلك ، أو بدأت بذلك : انه من فرط ولوعه بلقب الأمير قد قضى حياته كلها يبذر المال ويغرق في الديون مدفوعاً بزهو بطل وكبرياء كاذبة ، رغم أنه لا يملك ثروة • وقد أسمع فرسيلوف مراراً أن النبالة ليست في هذا ، وحاول أن يدخل في قلبه تصوراً ارفع من هذا التصور • ولكن الأمير تأذى في آخر الأمر ، وأهانه أن يلقيه أحد دورساً • ولا شك أن مشهداً من هذا النوع هو ما كان يجري في ذلك الصباح ، ولكنني لم أحضر بدايته • وقد بدت لي أقوال فرسيلوف في البداية رجعية ، ولكنه استدرك بعد ذلك •

كان يقول (وأنا أثقل المعنى وحده بقدر ما تسعفنى الذاكرة) :

- ان كلمة الشرف تعنى الواجب • فحين تسيطر في دولة من الدول طبقة ذات امتيازات ، فان البلاد تكون قوية عزيزة الجانب • ولهذه الطبقة دائماً شرفها ولها دائماً ديانة شرف تعتقها • وقد تكون هذه الديانة خطأ ولكنها رباط يحقق تلاحم الأمة ، فهي نافعة في الأخلاق ، وهي نافعة في السياسة خاصة • ولكن العيب يتألمون وأعنى بالعيب جميع أولئك الذين لا ينتمون الى تلك الطبقة ؛ فمن أجل أن لا يتألموا توجب لهم المساواة في الحقوق • فهذا ما حدث عندنا ، وهو أمر حسن جداً • غير أن جميع التجارب التي تمت حتى الآن ، وفي كل مكان (أى في أوروبا) ، تدل على أن المساواة في الحقوق تؤدي الى انخفاض في مستوى الشرف •

وفى مستوى الواجب تبعاً لذلك • فالأناية حلت محل الفكرة القديمة التى كانت تشد البلاد برباط قوى ، وصار كل شيء الى حرية للأفراد • فلما تحرر البشر ، وخلصوا من فكرة تشد بعضهم الى بعض ، بلغوا من فقدان كل رابطة عليا أنهم أصبحوا لا يدافعون عن حريتهم • ولكن النبالة الروسية لم تشبه نبالة الغرب فى يوم من الأيام • وحتى فى أيامنا هذه ، بعد أن فقدت حقوقها ، تظل نبالتها قادرة على أن تبقى نظاماً أعلى يحافظ على الشرف والأنوار والعلم والمعاني السامية والأفكار الرفيعة ، ولا سيما اذا هى كفت عن أن تكون طبقة مغلقة ، والا كان فى انغلاقها موت الفكرة • وقد ظلت أبواب النبالة فى بلادنا مشقوقة منذ مدة طويلة ، والآن حان الوقت الذى يجب ان تفتح فيه هذه الأبواب على مصاريحها • فاذا كل مآثره من مآثر الشرف أو العلم أو الشجاعة تهب لصاحبها حق الانتماء الى هذه الطبقة العليا • فبذلك تستحيل الطبقة من تلقاء نفسها الى جمع يضم خيار الناس بالمعنى الصادق الحق لهذه الكلمة ، لا بالمعنى القديم من حيث أنها طبقة مغلقة ذات امتيازات • وفى هذه الصورة الجديدة ، أو قل هذه الصورة المجددة يمكن أن تبقى هذه الطبقة وأن تستمر •

فكشف الأمير أسنانه قائلاً :

— وماذا يبقى عندئذ من النبالة ؟ ان ما تتصوره لهو محفل ما سونى لا طبقة نبلاء •

يجب أن أعود فأكرر أن الأمير رجل جاهل جهلاً رهيباً ، حتى لقد استدردت على ديوانى غضباً ، رغم أننى لم أوافق فرسيلوف على مقاله موافقة تامة • وأدرك فرسيلوف أن الأمير حائق • فأجاب يقول له :

— لا أدري ماذا تنبيه بالماسونية • ولكن اذا رفض أمير روسى هذه الفكرة ، كان معنى ذلك أن الوقت لم يحن بعد ، وأن الفكرة سابقة لأوانها • صحيح أن الفكرة القائلة بأن الشرف والثقافة والعلم شرط

الانتماء الى طبقة لا تغلق أبوابها ولا تجسد على حالها بل ما تنفك تتطور وتتجدد ، هي حلم يتوق اليه الانسان ، ولكن هل هي مستحيلة ؟ يكفي أن هذه الفكرة قائمة ولو في عدد قليل من الأذهان حتى نقول انها لم تضع ، فهي تسطوع نقطة مضيئة في ظلمات كثيفة .

قال الأمير :

— أراك تحب أن تستعمل هذه الألفاظ : « فكرة عليا » ، « فكرة كبيرة » ، « فكرة تربط الناس وتشدهم بعضهم الى البعض » ؟ فأريد أن أفهم ما الذي تعنيه على وجه الدقة من قولك : « فكرة كبيرة » ؟

فأجاب فرسيلوف بتهكم ناعم :

— لا أدري بماذا أجيبك يا عزيزي الأمير . بل لعلني أكون أقرب الى الصدق اذا قلت لك انني عاجز عن الاجابة . ان الفكرة الكبيرة هي في العادة عاطفة تظل بدون تعريف خلال مدة طويلة أحياناً . ولكنني أعلم أن هذه العاطفة هي ما ولد الحياة الحية دائماً ، أقصد الحياة التي ليست حياة مصطنعة مستخرجة من الكتب وقائمة على الألفاظ ، بل حياة حقة ، حياة يتدفق فيها الفرح ولا يخالطها ضجر . فالفكرة العليا التي تتبع منها هذه الحياة هي اذن ضرورة لا غنى لها ، وان ساءت الناس طبعاً .

— ولماذا تسوء الناس ؟

— لأن الناس يسامون أن يعيشوا بأفكار ، ويهيجهم أن تخلو معيشتهم منها .

وبلغ الأمير هذه الغمزة . ثم قال يسأل وقد استمر غضبه استعثاراً واضحاً :

— وما تلك الحياة الحية في رأيك ؟

- لا أدري أيضاً يا أمير • ولكننى أعرف أنها شيء بسيط غاية البساطة ، شيء عادى الى أبعد الحدود ، شيء ظاهر للعيان كل يوم فى كل دقيقة ، بل شيء يبلغ من البساطة أننا لا نكاد نصدق أنها تبلغ هذا المبلغ من البساطة ، وأننا نلقاها فى طريقنا منذ ألوف السنين دون أن نلاحظها أو أن نتعرفها •

قال الأمير :

- لكننى أردت أن أقول ان فكرتك عن النبالة هى فى الوقت نفسه انكار للنبالة ونفى لها •

- فاعلم اذن ، ما دمت حريصاً على ذلك ، أن النبالة لعلها لم توجد عندنا فى يوم من الأيام •

- هذا الكلام كله غامض غموضاً رهيباً ، مبهم ابهاماً فظيحاً • حين يتكلم الانسان ، يجب عليه فى رأى أن يشرح ويوضح •••

وتفضن جين الأمير ، وألقى نظرة على ساعة الجدار • فتناول فرسيلوف قبعته ونهض وهو يقول :

- 'يشرح ويوضح ؟ لا بل الأفضل أن لا يشرح وأن لا يوضح • وهذه آفة من آفاتي على كل حال : فأنا لا أفيض فى الشرح والايضاح • نعم ، هو كذلك • وثمة سمة غريبة أخرى من سمات طبعي : اذا اتفق لى أن أخذت أشرح وأن أوضح فكرة أو من بها ، فأتنى فى جميع الأحيان تقريباً أنتهى أنا نفسي الى الكف عن الايمان بها ، واتهى الى جحودها • وأخش أن تجرى الأمور اليوم هذا المجرى • الى اللقاء يا عزيزى الأمير • انتى استرسل فى الحديث وأنقاد للثرثرة عندك ، وهذا أمر لا يفتقر •

وخرج • فشيعة الأمير بأدب ، ولكننى تأذيت وجرح شعورى •

وقال لى الأمير دون أن ينظر الى وجهاً لوجه ، ودون أن يتوقف :

ـ ما بالك تقطب حاجيك ، وما بال وجهك يتجهم ؟

فأجبتة أقول متهدج الصوت :

ـ يتجهم وجهى لأننى أرى فيك تبديلاً تجاهى وحتى تجاه فرسيلوف ... تبديلاً يبلغ من الغرابة أن ... لا شك أن كلام فرسيلوف قد كان فى البداية رجعيّاً ولكنه استدرك فى النهاية ، و ... لعل أقواله كانت فكرة عميقة ، ولكنك لم تفهمها ، و ...

ـ لا أريد أن يلقننى أحد درساً ، وأن يعاملنى معاملة صبي صغير •

كذلك قال الأمير بلهجة قاطعة غاضبة • فقلت له :

ـ يا أمير ، ان هذه الأقوال ...

ـ دعنا من الحركات المسرحية ، من فضلك ! اننى أعلم أن ما أفعله فيه حطة ، فأنا مبذر ، وأنا مقامر ؟ وربما كنت لصاً ... نعم ؟ ربما كنت لصاً ؟ لاننى أتلّف مال أسرتى ، ولكننى لا أريد قضاة يحكمون علىّ من فوق • لا أريد ذلك ، ولا أطيعه ، ولن أقبله • أنا قاضى نفسى • وبما معنى هذا الكلام المتببس الذى يقوله ؟ اذا كان يريد أن يقول لى شيئاً ، فليعبر عنه بصراحة بدلاً من الايغال فى هذه المتاهات المظلمة والنبوءات الغامضة • ومع ذلك ينبغي أن يكون قبل كل شيء أهلاً لأن يقول لى شيئاً ، يجب أن يكون له حق فى هذا ، يجب أن يكون هو نفسه رجلاً شريفاً ...

ـ أولاً : أنا لم أحضر بداية الحديث ، وأجهل عمّ كنتما تتكلمان • ثم لماذا تقول ان فرسيلوف ليس شريفاً ؟ هلا أذنت لى بالقاء هذا السؤال !

ـ كفى كفى ، أرجوك • لقد طلبت منى بالأمس ثلاثمائة روبل • فإليك هى !

قال ذلك ووضع المال على الطاولة ، وجلس فى مقعد ، وارتد مسنداً

ظهره اليه بحركة عصبية ، ووضع ساقاً على ساق . فوفقت مضطرباً
وتمتعت أقول :

- لا أدري . لقد طلبت منك هذا المبلغ فعلاً وأنا في حاجة
ماسة اليه حقاً ولكن ازاء هذه اللهجة التي تخاطبني بها ، فاني

- دعك من اللهجة . واني لأعذر اليك اذا كنت قد نطقت بكلام
يجرح شعورك فاني ما أردت أن أسئ اليك . وأؤكد لك أن هناك
هوماً أخرى تملأ نفسي ! اسمع ، لقد تلقيت رسالة من موسكو . انك
تعلم أن أخي ساشا قد مات وهو صبي منذ ثلاثة أيام . وتعلم أن أبي
مصاب بشلل منذ ستين . وقد كتبوا اليّ أن حالته ساءت حتى أصبح
لا يستطيع أن ينطق بكلمة ، ولا يقدر أن يتعرف أحداً . وهم هناك
مبتهجون منذ الآن ، بسبب الميراث ؛ ويريدون أن يذهبوا به الى خارج
البلاد . ولكن الطيب كتب اليّ قائلاً ان أبي لن يبقى حياً أكثر من
أسبوعين آخرين . وهكذا سنبقى أنا وأمي وأختي . . . فكأنني سأكون
وحيداً . بل هأنذا وحيد . . . وذلك الميراث ، ذلك الميراث ، آه . . .
ألا ليت له لم يجيء أبداً ! ولكن اليك ما كنت أريد أن أبلغك اياه : لقد
وعدت بطرس أندريفتش أن يناله من هذا الميراث ما لا يقل عن عشرين
ألف روبل ولكن هل تصور أننا بسبب الاجراءات الرسمية لم
نستطع بعد أن نحصل على هذا الميراث حتى الآن ؟ حتى انني . . . أقصد . . .
حتى اننا . . . أقصد حتى ان أبي لم يصبح هذا الميراث في حوزته . ومع
ذلك ما أضخم المبالغ التي أنفقتها في هذه الأسابيع الثلاثة الأخيرة ! . . .
وما أشنع الربا الذي يأخذه هذا الوغد الدنيء ستييلكوف . . . انني
أعطيك الآن آخر ما معي . . .

- لا يا أمير ، اذا كان الأمر كذلك . . .

- ليست هذه هي المسألة . أبداً . ان ستييلكوف سيجيئي اليوم

بمال قطعاً ، وسيكون ما يجيئني به كافياً الآن . ولكن ما أحقر هذا الرجل ! لقد توسلت اليه ضارعاً أن يجد لي عشرة آلاف روبل ، فأستطيع أن أعطى أندره بتروفتش عشرة آلاف على الأقل . ان الوعد الذي بذلته بأن أترك له ثلث الميراث يعذبني تعذيباً شديداً . لقد قطعت على نفسي عهداً ، فينبغي أن أفي به . وأحلف لك أنني احترق رغبة في تحقيق التزاماتي . انها ثقيلة على نفسي ؛ ثقيلة جداً . ان هذه العلاقة ترهقني
 أنني لا أستطيع أن أرى أندره بتروفتش ، لأنني لا أستطيع أن أنظر اليه وجهاً لوجه لماذا يستغل سوء حالتي هذه ؟

- كيف يستغل سوء حالتك يا أمير ؟

قلت له ذلك وأنا أقف أمامه مبهوراً . وأضفت:

- هل ألمع أو غمز أو عرضَ أحياناً ؟

- أبداً . أنني لأقدر له هذا . لكنني أنا الذي أعرضَ بنفسى . وما

أبرح ازداد تورطاً وارتباطاً . ما أحقر ستييلكوف هذا !

- اسمع يا أمير ، هدىء نفسك ، أرجوك . أرى أنك كلما أمعت

في هذا السبيل اشتد اضطرابك ، وتفاقم عذابك . وقد لا يكون الأمر مع

ذلك الا سراباً آه . . . أنا أيضاً تورطت تورطاً دنيئاً لا يفتقر . لكنني

أعرف أن هذا عارض طارئ سوف يكفيني أن أربح مبلغاً ثم

قل لي : ان دينك علىَّ يصبح ألفين وخمسمائة وربلاً إذا أنا أخذت هذه

الثلاثمائة ، أليس كذلك ؟

- أظن أنني لا أطلبك بسداد هذا الدين .

قال الأمير ذلك وابتسم فجأة .

قلت :

- تقول انك ستعطي فرسيلوف عشرة آلاف روبل ، فاذا قبلت الآن

ما أخذته منك فيجب أن يدخل في حساب العشرين ألفاً التي ستخص

بها فرسيلوف • ولن أقبل أن يكون الأمر غير ذلك • ولكن ... ولكنى
سأرد اليك المبلغ بنفسى حتماً • هل تظن أن فرسيلوف يجيء إلينا من أجل
هذا المال ؟

قال الأمير بلهجة تحمل معنى اللغز :

- ليت مجيئه للمال •

- تكلمت عن « علاقة ترهقك » ... فإذا كنت تعنى فرسيلوف
وتعني فهذا كلام جارح • وقلت أيضاً : لماذا لا يكون هو كما يريد من
الناس أن يكونوا ؟ هذا هو منطقك ، فاسمح لى أن أقول لك ان هذا
ليس بمنطق • هبه لا يلتزم بما يطلبه من غيره ، ان هذا لا يمنعه من الدعوة
الى الحقيقة • ولماذا كلمة الدعوة أو التبشير هذه ؟ ثم انك تستعمل كلمة
النبوءات ، فقل لى : هل أنت الذى وصفته فى ألمانيا بأنه « نبي للنساء » ؟
- لا ، لست أنا •

- ذكر لى ستيلكوف أنك قائل هذه الجملة ؟

- كذب • لست قادراً على خلع ألقاب فكهة • ولكن اذا أراد أحد
أن يدعو الى الفضيلة أو أن يبشر بها ، فليكن فاضلاً هو نفسه : ذلك
منطقي ... ولا يهمنى كثيراً أن يكون هذا المنطق خطأ • أريد هذا ،
وسيكون • فلا يجزؤون أحد بعد على أن يجيء الى ليحكم على وليعاملنى
معاملة صبي صغير •

وهتف أخيراً يقول وهو يحرك يده بإشارة تهيب بى أن لا أعقب
على كلامه :

- كفى ! آه ... أخيراً •

وفتح الباب ودخل ستيلكوف •

لا يزال كما كان ، حسن الهندام ، ناهداً بصدوره الى أمام ، محدقاً بنظره تحديقاً أبلي ، ظاناً نفسه أمكر من غيره ، راضياً عن ذاته أعظم الرضى . ولكنه حين دخل هذه المرة ألقى على الغرفة نظرة مستطلعة غريبة ، وكان فى نظره شئ من روية وتفرس ، فكأنه يحاول أن يحزر من رؤية وجهينا شيئاً من الأشياء . على أنه لم يلبث أن اطمأن بالآ ، وأضاءت شفتيه ابتسامة غرور وفتح كنت أتاذى منها كثيراً .

ولقد كنت أعلم منذ مدة طويلة أنه يزعج الأمير كثيراً . وسبق أن جاء الى الأمير ، وأنا عنده ، مرة أو مرتين . وأنا أيضاً . . كان لى معه شأن فى الشهر الأخير ، ولكنى فى هذه المرة استغربت زيارته بعض الاستعراب لسبب من الأسباب .

قال له الأمير حتى دون أن يحييه :

— حالا .

وأدار لنا ظهره ، وأخرج من مكتبه أوراقاً وحسابات .

ولقد كنت من جهتى متأذياً من الكلمات الأخيرة التى قالها لى الأمير تأذياً شديداً . فان اشارته الى أن فرسيلوف رجل غير شريف، كانت تبلغ من شدة الوضوح (وشدة ما تبعته فى النفس من الدهشة أيضاً) أنه كان يستحيل أن أصرف النظر عنها ، وأن لا أطلب لها بايضاح . ولكن كان لا يمكن أن يخطر هذا بالبال أثناء وجود ستيلىكوف .

وعدت أتمدد على الديوان ، وفتحت كتاباً كان أمامى ، فرأيتنى أقول للأمير بلهجة لعلها لا تخلو من سخرية :

- يلنسكى ، الجزء الثانى ! ... هذا شىء جديد ! واضح أنك حتى التفت الىّ وقال لى بخشونة :

وكان الأمير منهمكاً فى قلب أوراقه ، ولكنه ما ان سمع كلمتى التفت الى وقال لى بخشونة :

- دع هذا الكتاب وشأنه ، من فضلك !

فكانت جملة هذه تتجاوز الحدود المألوفة ، ولا سيما أمام ستيلكوف ! وبمصادفة تشبه العمد جعد ستيلكوف وجهه بحركة دنيئة مأكرة ، وغمزنى مشيراً الى الأمير خلصة . فاشحت وجهى عن هذا الرجل الغبى . وقلت أخاطب الأمير :

- لا تزعل يا أمير ، فهأنذا أدعك للرجل الرئيسى ، وأنسحب . كنت قد قررت أن لا أتحرج فى كلامى . فقال ستيلكوف جذلاً وهو يشير الى نفسه باصبعه :

- أنا الرجل الرئيسى ؟

- نعم أنت . أنت الرجل الرئيسى ، وانك لتعرف ذلك حق معرفته !

- لا ، اسمح لى . ان فى كل مكان على هذه الأرض رجلاً ثانياً . فأننا الرجل الثانى . الرجل الأول يفعل ، والرجل الثانى يأخذ . فبذلك يصبح الثانى أول ويصبح الأول ثانياً . أصحیح أم لا ؟

- جائز ، ولكننى لا أفهم عنك ، على عادتى .

- اسمح لى . لقد قامت فى فرنسا ثورة . وأعدم الناس بالمقصلة . ثم جاء نابوليون فأخذ كل شىء . فالثورة هى الأولى ، ونابليون هو الثانى .

ولكن نابليون أصبح هو الأول ، وأصبحت الثورة هي الثانية • أصبح
أم لا ؟

يجب أن أذكر عابراً أنني حين أخذ يتكلم عن الثورة الفرنسية
رأيت في كلامه ذلك المكر نفسه الذي لاحظته في المرة الأولى فأضحكني
كثيراً • انه ما يزال ينظر الى نظرتي الى رجل ثوري ، فكلمنا لقيني رأى
من واجبه أن يقذف بعبارات من هذا النوع •
قال الأمير :

— هيا بنا !

واسلاً كلاهما الى غرفة أخرى • حتى اذا خلوت الى نفسي اتخذت
قراراً قاطعاً بأن أرد اليه الثلاثمائة روبل متى انصرف ستيلاكوف • لقد
كنت في حاجة الى هذا المال ؟ ولكنني عزمت أمري واتخذت قرارى •

لبثا عشر دقائق لا يُسمع لهما صوت ، ثم اذا هما يتكلمان بصوت
عال على حين فجأة • أصبحا يتكلمان كلاهما في آن واحد ، ويقاطع
أحدهما الآخر ، ولكن الأمير لم يلبث أن أخذ يصرخ ، فلو سمعته لقلت
انه غاضب غضباً يبلغ درجة الحلق الشديد • وكان يدفع في بعض
الأحيان اندفاعاً قوياً • لذلك غفرت له أشياء كثيرة • ولكن خادماً دخل
في تلك اللحظة نفسها ، فدللته على الغرفة التي فيها الأمير ، فما ان دخل
عليهما حتى هدأ كل شيء في الغرفة دفعة واحدة • وسرعان ما خرج
الأمير مهموم الهيئة ولكنه مبتسم • ورجع الخادم راکضاً ، فما انقضت
دقيقتان حتى دخل زائر •

انه رجل مهيب الطلعة ، تزدان بزته بالأوسمة ، ويحمل صدره
رقماً امبراطورياً ، ولا يزيد عمره على ثلاثين عاماً في أكثر تقدير ، وهو
من أبناء المجتمع الراقى ، تعبر هيئته عن صرامة وقسوة • يجب أن أنه
القارئ الى أن سرجى بتروفتش كان لا يسمى حقاً الى المجتمع

البطرسبرجى العالى ، زغم شوقه المحرق الى ذلك ، ورغبته المحمومة فيه (كنت أعرف فيه هذه الرغبة) ، فلا بد أن يقدر مثل هذه الزيارة قدراً عظيماً وأن يعدها شرفاً كبيراً . ولقد تم التعارف بين الرجلين منذ مدة قصيرة بعد جهود كبيرة بذلها الأمير ، (كنت أعرف ذلك) ، والزائر انما يرد الآن للأمير زيارة سابقة ، ولكن شاء سوء الحظ أن يجيئه مباغتاً . فرأيت ما زخرت به سحنة الأمير من ألم ، وما كان فى نظرتة من زيغ حين التفت لحظة الى ستيلكوف . ولكن ستيلكوف احتمل هذه النظرة كأن شيئاً لم يكن ، ولم يخطر بباله أبداً أن ينصرف ، بل جلس على الديوان طلق الحركة منبسط الأسارير ، وأخذ ينكش شعره بيده اظهاراً لاستقلاله فى أغلب الفن . حتى لقد اصطنع الوقار والمهابة . الخلاصة أنه كان لا يطاق ! أما أنا فكنت فى ذلك الأوان قد تعلمت حسن التصرف وكياسة السلوك ، فما كان لأحد أن يحمر خجلاً من وجودى . ولكن ما كان أشد دهشتى حين لمحت فى الأمير تلك النظرة نفسها ، النظرة الزائفة الغاضبة المسكينة الكارهة ، فأدركت أنه خجل من وجودنا كلينا ، وأنه لا يفرق بينى وبين ستيلكوف من هذه الناحية ! فأحنقتى هذه الفكرة . فرأيت نفسى استرخى على المقعد استرخاء أدعى الى الراحة ، وأخذت أقلب الكتاب غير مكترث ، كشخص لا يعنيه شيء البتة . ولا كذلك ستيلكوف ، فقد حملق عينيه ، ومال الى أمام ، وأصاخ بسمعه الى الحديث ، ولعله كان يظن أن هذا من الأدب واللفظ والكياسة والتودد . فألقى عليه الزائر نظرة أو نظرتين . وكذلك فعل لى على كل حال .

أخذ الأمير والزائر يتأقلمان أبناء عائلية . كان الزائر قد عرف أم الأمير التى هى سليلة أسرة كريمة المحدث مشهورة . واذا صح ما أدرسته فقد كان الزائر ، رغم ما فى سكونه من بساطة ولطافة ، كان يشعر باستعلاء ، ويحس بأنه يبلغ من رفعة القدر أن زيارة منه لا بد أن تكون شرفاً عظيماً لمن يحظى بها . ويقينى أن الأمير ، لو خلا الرجلان أحدهما

الى الآخر ، لبدأ عليه وقار أكبر وحذق أعظم ، غير أن شيئاً من الاختلاج
فى ابتسامته التى لعلها كانت مفرطة فى التودد ، وشيئاً من الذهول الغريب ،
كانا يفضحان ما هو فيه من حرج وضيق •

وما ان انقضت خمس دقائق حتى أعلن عن وصول زائر آخر
شاعت المصادفة التى تشبه العمد أن يكون حضوره محرجاً للأمير مسيئاً
الى سمعته • اننى أعرف هذا الزائر : سمعت عنه كثيراً وان لم يعرفنى
هو يوماً • انه شاب فى غضارة الشباب ، وان يكن فى الثالثة والعشرين
من العمر ، يرتدى أجمل الثياب ، ويتنمى الى أسرة كريمة ، ويتمتع
بوسامة حلوة ، ولكن لا شك أنه لا يختلف الى المجتمع الراقى • ولقد
كان فى العام الماضى ما يزال يعمل فى فوج من أشهر أفواج فرسان
الحرس ، ولكنه أُحيل على التقاعد ، وعلم جميع الناس بسبب احالته على
التقاعد • حتى ان أهله أعلنوا فى الصحف أنهم غير مسئولين عن ديونه •
ولكن هذا لم يمنعه من الاستمرار فى اللهو والقصف والمجون ، مقترضاً
بفائدة تبلغ عشرة فى المائة على الأقل ، مقامرّاً بمبالغ ضخمة فى مجتمعات
القمار ، مدمراً نفسه فى سبيل « فرنسية » شهيرة • ولقد ربح منذ أسبوع
فقط ، فى سهرة واحدة ، قرابة اثنى عشر ألف روبل ؛ فحقق بذلك
نصراً • وهو على علاقة طيبة بالأمير ، حتى لقد كانا يقامران بمبالغ
مشتركة فى كثير من الأحيان •

ارتعش الأمير حين رآه • لاحظت ذلك وأنا جالس فى مكاني • وكان
هذا الفتى يشعر أنه فى بيته حيث كان ، ويتكلم بصوت عال دون أى
تحرج أمام أى انسان ، ويقول كل ما يخطر بباله مرحاً وفرحاً • وما
كان له أن يلاحظ طبعاً ان الأمير يرتجف خجلاً من صحبته أمام زائره
العظيم •

وسرعان ما بادر ية اطعمهما متحدثاً عن لعب الليلة البارحة حتى قبل أن
يجلس • قال مخاطباً الضيف الكبير وهو يحسبه واحداً من الصحب :

- أظن أنك كنت حاضراً بالأمس •

ولكنه بعد أن أنعم النظر فيه استدرك يقول هاتفاً :

- آ آ آ معذرة ... ظننتك واحداً من العصابة !

فبادر الأمير يعرف الرجلين أحدهما بالآخر :

- ألكسى فلاديميروفتش دارزان ! هيبوليت ألكسندروفتش

ناشتشوكين !

وكان الفتى رغم كل شيء حسن الهيئة ، وكان اسمه طيباً ومعروفاً .

غير أن الأمير لم يقدمه اليها ، أنا وستيلكوف ، فلبثنا في ركنينا • وأبيت
أنا إباء قاطعاً أن ألقت وجهي نحو الجمع • ولكن ستيلكوف ابتسم ابتسامة
صغيرة فرحة ، وهمّ أن يفتح فاه متكلماً • وأخذ هذا كله يسلينى •

قال دارزان :

- كنت في العام الماضي ألقاك كثيراً عند الأميرة فيريجيينا • فأجاب

ناشتشوكين بطرف :

- أذكر هذا • ولكنك كنت في ذلك الوقت ترتدى بزة عسكرية

فيما أظن •

- نعم ، كنت أرتدى بزة عسكرية ، ولكن بسبب ... هه ! هذا

ستيلكوف ! ما المصادفة التي جاءت بك الى هنا ؟ ... نعم ... بسبب
أمثال هؤلاء السادة أصبحت لا أرتدى البزة العسكرية •

قال ذلك وهو يشير الى ستيلكوف صراحة ، وانفجر ضاحكاً • وعد

ستيلكوف هذه العبارة تودداً لطيفاً ، وفرح بها وضحك هو أيضاً • واحمر
الأمير خجلاً ؛ وأسرع يلقي على ناشتشوكين سؤالاً ما ؛ بينما اقترب
دارزان من ستيلكوف وانخرط معه في حديث حار ، ولكن بصوت خافت •

سأل الزائر الأمير :

- لا بد أنك عرفت في الخارج كاترين يقولنا آخماكوفا ؟

- آ... طبعاً... كانت معرفتي بها حسنة جداً •

- أظن أن نبأ سيداع هنا في القريب • يقال انها ستزوج البارون

بيورنيج فصاح دارزان يقول :

- هذا صحيح !

فقال الأمير يسأل ناشتسوكين باضطراب واضح ونبرة خاصة :

- أأنت تعلم هذا... علم اليقين ؟

- بل ذكر لي • وأظن أن الناس قد بدت تتحدث فيه منذ الآن •

لكنني لا أعلمه علم اليقين •

قال دارزان وهو يدنو منهما :

- النبأ صحيح ، أكدته لي دوباسوف أمس ، و دوباسوف أول من يعلم

أمثال هذ الأخبار • ولا بد أن الأمير يعرف على كل حال ...

انتظر ناشتسوكين أن يفرغ دارزان من كلامه ، ثم التفت الى الأمير

من جديد يقول له :

- أصبحت لا تختلف الى المجتمع، الا نادراً •

فقال الأمير بلهجة جافة :

- كان أبوها مريضاً في الشهر الماضي •

فاذا بدرارزان يقول فجأة :

- هذه آسة لها مقامرات !

فرفعت رأسي ونصبت جذعي ، وقلت :

- يسرنى أنتى أعرف كاترين نيقولايينا معرفة شخصية ، وأظن أن من واجبي أن أؤكد لكم أن تلك الشائعات جميعها ليست الا أكاذيب دينية ... اختلقها أولئك الذين حاموا حولها ثم لم يظفروا بطائل ...

وصمت بعد هذه المقاطعة الحمقاء ، وظللت أنظر الى الحضور ملتهب الوجه قائم الجذع . فالتفت الجميع الى ، ولكن ستييلكوف لم يلبث أن ضحك ساخراً . ودهش دارزان فابتسم أيضاً .

وقال الأمير مشيراً الى ، معرفاً بى دارزان :

- آركادى ماكاروفتش دولجوروكى !

فقال دارزان وهو يلتفت الى صريح الهيئة باش الوجه :

- صدقنى يا أمير : لست أنا من يتحدث فى الأمر . ثمة شائعات ، ولست أنا من يذيعها وينشرها .

فأجبه قائلاً بسرعة :

- لست أتهمك .

ولكن ستييلكوف كان قد انفجر يضحك كما لا يليق بأحد أن يضحك ، لأن دارزان ناداني بقوله « يا أمير » . هذا « مقلب » آخر يدبره لى هذا الاسم المشؤم ! ومازلت الى الآن أحمر خجلاً حين أتذكر أنتى لم أستطع - بسبب ذلك الحجل الزائف طبعاً - أن أصحح ذلك الخطأ فوراً وأن أعلن أنتى لست الأمير دولجوروكى ، بل دولجوروكى فحسب . تلك أول مرة يحدث لى فيها هذا . وكان دارزان ينقل بصره مدهوشاً بين ستييلكوف ضاحكاً وبينى مبهوراً .

ثم اتجه الى الأمير يسأله فجأة :

- ها ... نعم ... من تلك المرأة الجميلة التى رأيتها الآن على

سلم بيتك لطيفة نضرة ؟

فأسرع الأمير يجيبه وقد احمر وجهه :

— لا أدري !

فقال دارزان ضاحكاً :

— فمن يدري اذن ؟

فتمتم الأمير يقول :

— مع ذلك ... من الجائز ... من الجائز أن ...

فقال ستييلكوف وهو يشير الى :

— نعم نعم ... هي اخته . أنا أيضاً رأيتها منذ مدة قصيرة .

فقال الأمير مؤيداً ، ولكن بهيئة وقورة جادة في هذه المرة :

— ها ... نعم ! لا بد أنها الزابت ماكاروفنا ، صديقة آنا تيودوروفنا

ستولبايفا التي أسكن الآن في بيتها . لا بد أنها زارت اليوم داريا أو نيسيموفنا

التي عهدت اليها آنا تيودوروفنا بالبيت حين سافرت .

وكان كلام الأمير صحيحاً . ان داريا أونيسيموفنا هي أم تلك الفتاة

المسكينة التي سبق أن تكلمت عن انتحارها . لقد كفلتها تاتيانا بافلوفنا في

أول الأمر ثم جاءت بها الى ستولبايفا . وكنت أعلم أن ليزا تجيء الى

ستولبايفا ، وأنها كانت ترى أحياناً داريا أونيسيموفنا التي أصبح جميع أهل

بيتنا يعطفون عليها ويحبونها . ولكنني في تلك اللحظة ، بعد ذلك الكلام

الدقيق الذي قاله الأمير ، وبعد تلك الفورة السخيفة من ستييلكوف ، وربما

أيضاً لأنني سميت أميراً ، شعرت باضطراب قوى ، واحمر وجهي احمراراً

شديداً . ومن حسن الحظ أن ناشتوكين نهض في تلك اللحظة نفسها

مودعاً ، ومد يده الى دارزان أيضاً . فلما لم يبق معنا الا ستييلكوف ، أو ما

ستييلكوف الى دارزان الذي كان في العتبة مديراً لنا ظهره ، فلوحت

لستييلكوف بقبضة يدي .

وما أن نقضت دقيقة حتى انصرف دارزان هو أيضاً ، بعد أن اتفق على موعد مع الأمير غداة غد ، في بيت من بيوت القمنار طبعاً • وأثناء خروجه هتف يقول شيئاً لستيلكوف ، وانحنى لى انحناء خفيفاً أيضاً • فما ان انصرف حتى وثب ستيلكوف من مكانه ، وتسمر في وسط الغرفة رافعاً أصبعه في الهواء ، وقال :

- ان هذا السيد الصغير قد اقترف في الأسبوع الماضي ما يلي : وقع على سند توقيماً مزيفاً باسم آفريانوف • ورقض السند ، فما يزال موجوداً : جريمة يلاحق مرتكبها من قبل الحق العام • ثمانية آلاف روبل !

فسألته وأنا أرشقه بنظرة كاسرة :

- وهل السند عندك أنت ؟

- أنا عندي مصرف ؟ عندي « بنك اقراض » ، لا سند • انك تعرف ما « بنك اقراض » بباريس ! هو خبز وسعادة للفقراء • فأنا عندي « بنك اقراض » خاص بي ...

فلما رجع الأمير ، أوقفه عن الكلام بقسوة ، وقال له بلهجة عنيفة :

- ما عملك هنا ؟ لماذا بقيت ؟

فقال له ستيلكوف وهو يطرف عينيه :

- ماذا ؟ والمسألة ؟

فصرخ الأمير قائلاً وهو يضرب بقدميه الأرض :

- كلا ثم كلا ثم كلا ! قلت لك ...

- طيب ... اذا كان الأمر كذلك ، فليكن كذلك • ولكن الأمر

لن يكون كذلك ...

قال ستيلكوف هذا ، ثم استدار وخرج بحركة عنيفة ، خافضاً رأسه ، حائياً ظهره • وصرخ الأمير يقول له في العتبة :

— واعلم أننى لست خائفاً منك يا سيد !

كان الأمير مستعر الغضب والحقق • وأراد أن يجلس ، لكنه رآنى فلم يفعل • وكانت نظرتة كأنها تقول : « وما بقاؤك أنت ؟ » • فبدأت أتكلم فقلت له :

— يا أمير •••

لكنه قاطعنى قائلاً :

— لا وقت عندى يا آر كادى ماكاروفتش ! حقاً لا وقت عندى ! يجب على أن أخرج •

— لحظة قصيرة يا أمير • أمر هام جداً • اليك أولاً الثلاثمائة روبل •

— ما معنى هذا ؟

لقد كان يمشى فتوقف • قلت :

— بعد الذى حدث ••• وبعد الذى قلته عن فرسيلوف من أنه رجل غير شريف ••• ثم بعد لهجتك هذه فى الكلام طول الوقت ••• بعد هذا كله ، لا يمكننى أن أقبل أخذ هذا المال •

— ومع ذلك ظللت تقبل طوال شهر كامل •

وجلس فجأة • وكنت واقفاً أمام الطاولة أفرك كتاب بيلنسكى باحدى يدي ، وأمسك قبعتى بالأخرى • قلت :

— كانت العواطف غير العواطف يا أمير ••• وما كان لى أن أصل الى ذلك المبلغ الضخم لولا القمار على كل حال • المهم أننى لا أستطيع اليوم أن أقبل •••

— أنت غاضب لأنك لم تستطع أن تجتلى فى أى أمر من الأمور • هلا أرحت هذا الكتاب ، من فضلك !

- ماذا تعنى بقولك اتنى لم « أستطع أن أجلى فى أى أمر من الأمور » ؟ ثم انك ، بحضور ضيوفك ، قد عاملتنى كعاملتك ستيلكوف وجعلتنى فى مثل منزلته •

فقال وهو يضحك ضحكة لاسعة :

- ذلك هو السر • وعدا هذا فقد اضطربت حين سُميت أميراً •

كانت ضحكته شريرة • فأنفجرت أقول :

- لست أفهم ••••• ثقب أن لقب الأمير هذا الذى تفخر به أنت ، لا أرضى أنا أن أشيله من الأرض •••••

- أعرف طبعك • لشدما صحت صياحاً مضحكاً لتدافع عن آخماكوف ••••• اترك هذا الكتاب !

فهتفت أقول :

- ما معنى كلامك ؟

فاذا هو ينتصب على مقعده غاضباً كأنه يهم أن يشب • ويزأر قائلاً :

- اترك الكتاب !

فقلت وأنا أسارع الى الخروج من الغرفة :

- ذلك ما يتجاوز أخيراً جميع الحدود •

ولكن ما كدت أتناول الصالون حتى سمعته ينادينى من مكتبه :

- ارجع يا أركادى ماكروفتش ! تعال ! تعال ! ••••• تعال ••••• حالا !

فلم استمع له ، وانصرفت • لكنه لحق بى راكضاً ، حتى اذا أدركنى أمسك ذراعى وجرّنى الى مكتبه ، فلم أقاوم •

قال لى وقد شحب لونه من شدة الانفعال ، ومدّ الى الثلاثمائة روبل التى تركتها:

- خذها ! خذها ! أصر على هذا •• والا فأتنا •• خذها •• أصر على هذا !

- ولكن كيف يمكنني أن آخذ يا أمير ؟

- أنا مستعد لأن اعتذر اليك اذا شئت • هأنذا اعتذر :معذرة •

- يا أمير ، أنا قد أحييتك دائماً ، فاذا كنت ، أنت أيضاً •••

- أنا أيضاً ••• خذها !

فأخذتها • وكانت شفتاه ترتجفان •

- انني أفهمك يا أمير • انك غاضب من ذلك الوعد ••• ولكنني لن

أقبل أن آخذ المال رغم كل شيء الا اذا تعانقنا ، كما كنا تفعل بعد مشاجراتنا السابقة •

وكنت ارتجف أيضاً وأنا أقول هذا الكلام •

فقال الأمير وهو يبتسم خجلاً :

- ياللعواطف الرقيقة !

لكنه مال علىّ وقبلني • فسرت رعدة في جسمي : ذلك انني حين

قبلني رأيت في وجهه اشمئزازاً واضحاً •

- هل جاءك بالمال على الأقل ؟

- لا قيمة لهذا !

- من أجلك انما •••

- جاء بالمال ، جاء به •••

- يا أمير ، لقد كنا أصدقاء •• وأخيراً •• ان فرسيلوف •••

— طيب ••• طيب •••

— ما زلت لا أدرى حقاً هل هذه الثلاثمائة روبل ••• وكان المبلغ
بيدي • فقال :

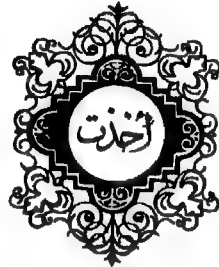
— خذها ! خذها !

وعاد يضحك من جديد ، لكن ضحكته كانت تشتمل على شر
وسوء •

أخذت المال •

الفصل الثالث

١



المال منه لأننى كنت أحبه • ولمن لا يصدقنى
سأقول اننى فى اللحظة التى أخذت فيها المال
كنت مقتنعاً اقتناعاً جازماً بأن فى وسعنى أن
أحصل على المال من مصدر آخر لو شئت • ومعنى
هذا أننى لم آخذه عن حاجة ، بل أخذته على سبيل الكياسة حتى لا أجرح
شعور الأمير • كذلك كنت أفكر فى ذلك الحين وأأسفاه ! على اننى حين
تركت الأمير كنت أحس بضيق وانزعاج رغم كل شيء • لقد أحسست
بتبدل ضخيم فى سلوكه معى ذلك الصباح • انه لم يسبق ان استعمل فى
مخاطبتي لهجة كتلك اللهجة يوماً • أما على فرسيلوف فقد كانت نوريته
صريحة معلنة • لا شك أن ستييلكوف كان قد عكز مزاجه • ولكن تبدل
سلوكه قد بدأ قبل ذلك • أعود فأقول : ان هذا التبدل كان يلاحظ منذ
الأيام السابقة ، ولكنه لم يكن قوياً هذه القوة ، لم يكن قد بلغ هذه
الدرجة •

ولعل من العوامل التى كان لها تأثيرها أيضاً ، ذلك النبأ الأحمق

الذى يتعلق بالبارون بيورنج ، مرافق صاحب الجلالة • ولقد انصرفت مضطرباً أنا أيضاً ••• ولكن شعاعاً آخر كان يلوح أمام عيني حينذاك ، فكنت أقوّت كثيراً من الأمور لا أوليها انتباهاً ، وكنت أتعجل انقضاءها ، أطرد كل ما هو مظلم ، ولا ألتفت الا الى كل ما هو مضيء لامع ساطع ••

ان الساعة لم تبلغ الواحدة بعد • ومن عند الأمير ذهبت مع سائق عربتي ماتفتى رأساً الى عند ستيلكوف ، سواء أصدقتموني أم لم تصدقوني • لم تفاجئني زيارته للأمير (وكان قد وعده بأن يجيء اليه) بقدر ما فاجأتني غمزات أرسلها اليّ ، على عادته القبيحة ، ولم تتناول ما كنت أتوقع أن تتناوله • كان ستيلكوف قد بعث اليّ بالبريد ، فى مساء أمس ، رسالة ملفزة يتوسل اليّ فيها أن أزوره اليوم بين الساعة الواحدة والساعة الثانية ، قائلاً : « ان هناك أشياء غير متوقعة يريد أن يبلغنى اياها » • ولم يشر الى هذه الرسالة بكلمة واحدة حين كنا عند الأمير • ما عسى يكون بينى وبين ستيلكوف من أسرار ؟ ان الفكرة وحدها سخيفة مضحكة • ومع ذلك فأتنى ، بعد كل ما جرى ، كنت أشعر بشيء من الارتجاف وأنا ذاهب اليه • صحيح أتنى اتجهت اليه مرة ، منذ خمسة عشر يوماً ، لاقتراض بعض المال ، وقد عرض عليّ أن يقرضنى ، ولكننا لم نصل الى اتفاق ورفضت العرض : لقد جمجم عندئذ بكلمات غامضة على عادته ، وبدا لى أنه يريد أن يفرض عليّ شروطاً خاصة • واذا أتنى أعامله باستعلاء كلما التقينا عند الأمير ، فقد رفضت فكرة فرض شروط خاصة ، رفضتها باباء وششم ، وخرجت رغم أنه ركض ورائى الى الباب يحاول صدى عن الخروج • واقرضت المال يومئذ من الأمير •

ان ستيلكوف يسكن مستقلاً ، ويعيش حياة باذخة : منزل يتألف من اربع غرف واسعة ، جميلة الاثاث : مع خادمين ، رجل وامرأة : ومع مديرة للبيت متقدمة فى السن •

دخلت غاضباً • وبدأت أتكلم منذ أن اجتزت الباب ، فقلت :

- اسمع يا عزيزي ، قل لي أولاً : ما هذه الرسالة التي بعثتها الى ؟
اننى أرفض أن يكون بيننا مكاتبة • ولماذا لم تقل ما تريد قوله ، حين كنا
منذ قليل عند الأمير ؟ كنت بين يديك !

- وأنت ، لماذا لم تتكلم حينئذ أيضاً ؟ لماذا لم تسألني عن شيء ؟
قال ذلك وفتح فاه بابتسامة تعبر عن رضاً كامل • فصرخت أقول
غاضباً :

- الجواب بكل بساطة هو أن المحتاج منا الى الآخر هو أنت لا أنا •
- فلماذا تجيء الى أذن ؟

وكاد يقفز من شدة سروره • فسرعان ما استدردت أريد أن أنصرف ،
ولكنه أمسك كتفي وقال :

- لا ، لا ، كنت أمزح • ان الأمر جد • ستري •

فجلست • أعترف بأن الفضول قد انتصر • جلسنا متقابلين عند طرف
مكتب كبير • ورأيتَه يبتسم ابتسامة رقيقة ، ويرفع اصبعه ، نهفت أقول
له غاضباً من جديد :

- أرجوك ، لا رقة ولا اصبع ! ولا رموز بخاصة ! هلم الى الوقائع
رأساً ، والا انصرف فوراً •

فقال عتاباً عتاباً غيباً وهو يترجيع على كرسيه ويرفع جميع غضون
جيبه :

- انك ... متكبر •

- بالتكبر تجب معاملتك !

- أخذتَ اليوم ... مالاَ من الأمير : ثلاثمائة روبل • وأنا أملك مالاَ • ومالى خير من ماله •

- من أين عرفت أنتى قبلت ؟ أهو الذى قال لك ؟
وشدعت شدها قوياَ •

- هو قال لى • ولكن هدىء نفسك • لم يقل لى ذلك الا عرضاً •
لم يقله متمداً • ولكنه قال لى • وكان فى امكانك مع ذلك أن لا تقبل •
أهذا صحيح أم لا ؟

- ولكننى ، فيما سمعت عنك ، تسليخ جلود الناس سليخاً بما تأخذه
من ربا ؟

- ان لى « بنك تسليف » • فلا أسليخ جلد أحد ، ولا أقرض الا
الأصدقاء • أما غير الأصدقاء فيمكنهم أن يقرضوا من « بنك تسليف
المحتاجين » •

ان « بنك التسليف » هذا الذى يشير اليه ستيلكوف مصرف يقرض
مبالغ من المال على رهون ، ومقره فى مسكن آخر ، وكانت أحواله
مزدهرة •

وأردف ستيلكوف يقول :

- وللأصدقاء أعطى مبالغ ضخمة •

- هل الأمير واحد من هؤلاء الأصدقاء ؟

- هو واحد منهم • لكنه يقول علينا سخافات • يجب أن ينتبه
ويحاذر !

- أهو بين يديك الى هذه الدرجة ؟ هل ديونك عليه ضخمة ؟

- عليه ؟ ... ضخمة !

- سيدفع لك • ان له ميراثاً •••

- هذا الميراث ليس له • وهو مدين لى بمال ، وبغير المال أيضاً !••
الميراث لا يكفى • سأقرضك بغير فائدة •

قلت ضاحكاً :

- بصفتى صديقاً كذلك ؟ ما الذى جعلنى استحق هذه الصداقة ؟

- سوف تستحقها •

وتقدم نحوى بكل جسمه وهم أن يرفع اصبعه • فهتفت أقول له :

- ستيلكوف ! لا اصبع ! والا انصرفت •

فقال وهو يغمز غمزة مأكرة :

- اسمع ••• قد يتزوج أنا آندريفنا !

- اسمع يا ستيلكوف ، ان حديثك يتخذ طابع الفضيحة ••• كيف

تجرؤ أن تجيء على ذكر اسم أنا آندريفنا ؟

- لا تغضب !

- اننى أجبر نفسى على الاستماع اليك ، لأننى أرى أن ثمة مكيدة

تدبر ، فأريد أن أعرف كل شيء ••• ولكن نفذ صبرى يا ستيلكوف !

- لا تغضب • دعك من التكبر • دع التكبر لحظة قصيرة ثم تعود

اليه متى شئت • أنت تعرف أنا آندريفنا ؟ وتعرف أن الأمير قد يتزوجها ؟

- سمعت عن مثل هذا المشروع طبعاً • أعرف كل شيء • ولكننى

لم أكلم الأمير فى هذا الموضوع يوماً ، وان كنت أعرف أن الفكرة انما

هى فكرة الأمير سوكولسكى العجوز الذى هو الآن مريض • وأنا لا يد

لى فى هذه القصة كلها ، ولم أشارك فيها أية مشاركة • والآن أريد أن

ألقى عليك سؤالين : أولاً - لماذا تكلمنى فى هذا الموضوع ؟ ثانياً - هل كاشفك به أنت ؟

- ليس هو الذى يكلمنى فى هذا الأمر • هو لا يريد أن يكلمنى فيه • ولكننى أكلمه فيه أنا ، فلا يريد أن يصنى الى • وقد أخذ يصرخ صراحاً قوياً حين كنا عنده منذ قليل •

- اننى أفهمه ! واننى أؤيده !

- ان الأمير سوكولسكى ، العجوز ، سيعطى آنا آندريفنا مهرأ كبيراً ، فهى تعجبه • فإذا خطبها الأمير سوكولسكى الشاب استطاع أن يرد الى مالى • وسوف يرد الى الدين الآخر أيضاً • سيرده الى حتماً ! أما الآن فلا يستطيع ذلك •

- ولكن قل لى : ما شأنى أنا فى الأمر ، وما النفع الذى ترجوه منى ؟

- تستطيع أن تنفعنى فى أمر أساسى • انك على صلة بهم • وأنت معروف فى كل جهة • فتستطيع أن تطلع على كل شىء •

- وما الذى يجب أن أطلع عليه ؟

- يجب أن تعرف : هل الأمير يريد ؟ هل آنا آندريفنا تريد ؟ هل الأمير العجوز يريد ؟ تستطيع أن تعرف الحقيقة •

فانتفضت مستاءً وقلت له :

- كيف تجرؤ أن تعرض على أن أكون لك جاسوساً ، وأن أكون لك جاسوساً فى سبيل مال أيضاً ؟

- لا تتكبر ! لا تتكبر ! دع التكبر مدة قصيرة أخرى ، خمس دقائق لا أكثر !

وأجلسنى • وكان واضحاً أنه لا يهاب لا اشارات يدي ، ولا صيحات صوتي • وقررت أن أصغى اليه حتى النهاية •

- وانما يجب علىّ أن أعرف بسرعة ، أن أعرف بسرعة ، فقد يفوت الأوان بعد حين ! لقد لاحظت كيف بلغ الأمير المسألة حين تكلم الضابط عن البارون والسيدة آخماكوفا ، أثناء وجودنا عند منذ قليل ، ألم تلاحظ ؟

شعرت بخجل من نفسي لأننى أصغى الى كلامه ، وأحسست أننى أخفض قدرى بالحديث معه ، ولكن فضولى كان قد ثار فلا سبيل الى مغالبتة •

قلت بلهجة قاطعة :

- اسمع ! أنت ••• أنت وعد • واذا كنت أبقي هنا ، وأصغى الى كلامك ، وأسمح لك بأن تتكلم عن هؤلاء الأشخاص ••• وحتى اذا كنت أجيبك ، فليس معنى ذلك أبداً أننى أعترف لك بهذا الحق • كل ما هنالك أننى أرى أن نمة مكيدة تدبر • ما عسى أن يكون أمل الأمل فيما يتعلق بكاترين يقولان ؟

- ليس له أى أمل • غير أنه ساخط •

- هذا خطأ •

- انه ساخط • فيما يتعلق بأخماكوفا ، انتهى الأمر • بقى مخرج واحد : آنا آندريشنا • سأعطيك ألفى روبل ، بلا فوائد ولا سند •

قال ذلك وارتد الى ظهر مقعده ، وحملق ناظراً الىّ • وحملت أنا أيضاً •

- انك ترتدى بدلة مشتراة من شارع « ميلبونايا الكبير » • فانت

في حاجة الى مال ، في حاجة الى مال • ومالى خير من ماله • سأدفع أكثر
من ألفى روبل •••

- ولكن لماذا ؟ لماذا ؟ لست أفهم !

وضربت الأرض بقدمى غاضباً ، فمال على وقال بلمهجة معبرة :

- حتى لا تعرقل وتمنع !

فصرخت أقول :

- ولكننى أقول :

- ولكننى لا أتدخل !

- أعرف أنك تصمت • وهذا حسن •

- لست فى حاجة الى استحسنائك • وهبنى تمنيت لهذا الزواج أن
يتم ، فسأظل لا أتدخل ، لأننى أرى أن لا شأن لى فى الأمر وأن تدخل
لا يليق !

- صحيح ، صحيح ، لا يليق !

ورفع اصبعه • ثم أردف يقول :

- نعم ، لا يليق !

وانفجر ضاحكاً • ثم تابع كلامه فقال :

- أفهم ، أفهم ! لا يليق بك أن تتدخل ! ولكنك لن تصنع حواجز ،
أليس كذلك ؟

وغمز بعينه ، لكننى رأيت فى غمزته وقاحة فظيعة ، بل رأيت فيها
سخرية واستهزاء ، وحطة وخسة • لقد افترض وجود دناءة فى نفسى ،
وكان يعوّل على هذه الدنائة • ذلك واضح • لكننى لم أدرك بعد ما الذى
كان يريد أن يصل اليه •

وهذا هو يقول :

- ان آنا آندريفنا هي أيضاً أختك •
- أمنحك من الكلام عنها • وليس من حقل أن تتكلم عنها •
- لا تتكبر • اصبر على دقيقة أخرى • اسمعني : سوف يقبض
مالا • فيكفلنا « جميعاً » • هل تتابع كلامي ؟
- وقد شدد على قوله « جميعاً » • قلت :
- أظن اذن اننى سأقبل ماله ؟
- ألسنت تقبله الآن ؟
- الآن آخذ النصيب الذى يخصنى •
- النصيب الذى يخصك ؟
- النصيب الذى يخصنى من مال فرسيلوف : انه مدين لفرسيلوف
بعشرين ألف روبل •

- هو مدين لفرسيلوف ، لا لك أنت •
- فرسيلوف أبى •

- لا • أنت أسمعك دولجوروكى ، وليس فرسيلوف • على أن
النتيجة واحدة • والحق أننى فكرت هذا التفكير • كنت أعلم أن لهذا
شأنا هاماً جداً • فلم أكن غيباً الى ذلك الحد • ولكننى أكرر لك أننى
ما فكرت هذا التفكير الا « كياسة » •

صرخت أقول :

- كفى • اننى لا أفهم شيئاً البتة • وكيف تجرؤ فتدعونى لئلا هذه
السخافات ؟

- هل يعقل أنك لم تفهم حقاً ؟ أترك تتعمد عدم الفهم تعمداً ؟

كذلك قال ستيلاكوف وهو يرشقى بنظرة نافذة تصحبها ابتسامة
شك • فقلت أجبه :

- أحلف لك اننى لا أفهم •

- أقول انه سيكفلنا جميعاً ، جميعاً ، جميعاً • وانما المهم أن لا تحول
أنت دون اتمام الأمر •

- أرى أنك فقدت عقلك ! ما الذى تعنيه بقولك « جميعاً » • أترأه
يكفل فرسيلوف مثلاً ؟

- لن يكفلك وحدك ، ولن يكفل فرسيلوف وحده ، بل سيكفل
آخرين ... ان آنا أندريفنا اختك ، مثل « اليزابث ماكروفا » سواء
بسواء •

نظرت اليه محملاً • فاذا أنا أرى فى نظراته الدنيئة الى نوعاً من
شفقة على • وقال :

- لا تفهم ؟ طيب ! هذا أحسن ! انه لحسن جداً أن لا تفهم • هذا
أمر محمود ... اذا صح أنك لا تفهم حقاً !

فبلغ حلقى ذروته ، فصرخت أقول وأنا أتناول قبعتى :

- شيطان يأخذك أنت وسخافاتك ! انك رجل مختل العقل •

- ما هذه سخافات ! وسوف ترجع •

فأجبت قائلاً بلهجة قاطعة وقد صرخت فى العتبة :

- لا •

- بل سوف ترجع ... وسنقول عندئذ كلاماً آخر • سيدور بيد

حديث هام • ألفا روبل • تذكر هذا ولا تنسه !

لقد أحدث فى نفسى أثراً يبلغ من الاضطراب والدناءة أتنى حين خرجت من عنده حاولت أن لا أفكر فيه ، واقصرت على أن بصقت ، اشمئزاً • وكنت كلما تصورت أن الأمير كلمه عنى وعن هذا المسال أحسست بما يشبه وخز الاير • وقلت أحدث نفسى : « سوف استرد خسارتى ، فارجع اليه أمواله فى هذا اليوم نفسه » •

وأصبحت أرى سبيلكوف الوغد رجلاً مثاقفاً ، رغم أن كل غبائه وتعمده ، لا سيما وأتنى قدرت أن ثمة مكيدة تحاك حتماً • غير أن وقتى كان لا يتسع للاهتمام بالكشف عن مكائده ، وذلك هو السبب الرئيسى فى عماوتى الطارئة العابرة !

نظرت فى ساعتى قلقاً ، فرأيت أنها لم تبلغ الثانية • أستطيع اذن أن أقوم بزيارة ، والا لهلكت من فرط الانفعال الى أن تحين الساعة الثالثة • فذهبت الى آنا آندريفنا فرسيلوف ، أختى • كانت قد انعقدت الصلة بينى وبينها منذ مدة غير قصيرة عند الأمير العجوز أثناء مرضه • وكان شعورى بأننى لم أرها منذ ثلاثة أيام أو أربعة يعذب ضميرى • ولكن آنا آندريفنا هى التى ساعدتنى : كان الأمير يحبها حباً عظيماً ، حتى لقد وصفها أمامى ذات يوم بأنها ملاكه الحارس • يجب أن أقول بالمناسبة : ان فكرة تزويجها الأمير سرجى بتروفتش انما نبث فعلاً فى رأس صاحبى الأمير العجوز ، حتى لقد عبر لى عن هذا غير مرة ، فى السر طبعاً • وقد نقلت الخبر الى فرسيلوف لأتنى كنت قد لاحظت أنه يهتم اهتماماً كبيراً بالأبناء التى أنقلها اليه عن لقاءاتى بآنا آندريفنا ، رغم أنه

قليل الاكترات بسائر الأخبار مهما تكن ذات شأن • وقد جميع فرسيلوف عندئذ قائلاً ان آنا آندريفنا بملك من الذكاء ما يجعلها قادرة على الاستغناء عن نصائح الآخرين في أمر يبلغ هذا المبلغ من الدقة والحرص • ولقد كان ستيلكوف على حق حين افترض أن المعجوز سيخص آنا آندريفنا بمهر ضخم ، ولكن كيف اجترأ أن يعوّل على شيء له هو ؟ ان الأمير الشاب قد صرخ يقول له انه لا يخافه : ولكن ألم يكن مدار حديثهما في مكتب الأمير على آنا آندريفنا في الواقع ؟ آه ••• انتى أتصور الحق الذي كان يمكن أن يستعر في نفسى لو كنت في مكانه •

ولقد كنت في الآونة الأخيرة أذهب الى آنا آندريفنا أحياناً كثيرة • ولكن كان يحدث دائماً شيء غريب : انها هي التي كانت تحدد لي موعداً في جميع المرات ، وكانت تنتظرني حتماً ، ولكن ما أن أدخل حتى تشعرني بأننى وصلت على غير توقع • لاحظت ذلك فيها ، ولكنه لم يضعف تعلقي بها • وكانت تقيم عند فاناريوتوفا ، جدتها ، كربية لها طبعاً (كان فرسيلوف لا يدفع شيئاً لعلوها) ، ولكن دورها عندها يختلف كل الاختلاف عن الدور الذي يسند عادة الى ربيات السيدات الكبيرات ، كما نلاحظ ذلك مثلاً في قصة بوشكين « البنت البستونية » ، ربيبة الكونتيسة المعجوز • لقد كانت آنا آندريفنا نوعاً من كونتيسة هي نفسها • كان لها في المنزل مسكنها الخاص ، المستقل كل الاستقلال ، رغم أنه يقع في نفس الطابق الذي تسكنه فاناريوتوفا ، وفي نفس الشقة ، ولكنه يتألف من غرفتين منفصلتين ، فلم أصادف أحداً من آل فاناريوتوفا في يوم من الأيام ، لا حين كنت أدخل ، ولا حين كنت أخرج • وكان من حقها أن تستقبل من شاء ، وأن توزع وقتها التوزيع الذي تحب • ولكن يجب أن نذكر أنها كانت قد بلغت الثالثة والعشرين من عمرها • وقد انقطعت عن التردد الى المجتمع منذ السنة الماضية انقطاعاً يكاد أن يكون تاماً ، رغم أن فاناريوتوفا كانت لا ترضى بأية نفقة على حفيدتها التي كانت

تحبها كثيراً فيما سمعت • وكان يعجبني في آنا أندريفا أنني كنت ألقاها في ثياب بسيطة دائماً ، وأراها عاكفة على شغل أو على كتاب في جمع الأحيان • وكان في هيتها تقشف يشبه أن يكون تقشف سكان الأديرة ، فكان هذا يعجبني فيها أيضاً • وكانت قليلة الكلام ، وكانت تزن كلامها ، وتعرف كيف تصني الى كلام غيرها ، وذلك ما كنت أنا عاجزاً عنه • وكان وجهها يتخضب بالحمرة قليلاً إذا قلت لها انها تذكرني كثيراً بفرسيلوف رغم أنني لا أرى بينهما أية سمة مشتركة • وكانت تحمر في كثير من الأحيان ، وكانت تحمر احمراراً سريعاً ، ولكن الحمرة التي تخضب وجهها حمرة ضئيلة دائماً ، فكانت هذه الصفة من صفات وجهها تعجبني كثيراً • وكنت عندها لا أسمى فرسيلوف باسمه أبداً ، وانما اسميه آندره بتروفتش ، وكان هذا يبدو طبعياً فهو يتم من تلقاء نفسه بدون تكلف • حتى لقد لاحظت أن آل فاناريوتوف عامة يشعرون بخجل وعار من فرسيلوف • لاحظت هذا خاصة على آنا أندريفا ، وإن كنت لا أستطيع أن أقول هل كلمة « الخجل » أو « العار » هي الكلمة المناسبة • ولكن كان ثمة شيء من هذا القليل • وكنت أكملها أيضاً عن الأمير سرجي بتروفتش ، فكانت تصني الى كلامي كثيراً ، وكان يبدو عليها الاهتمام بما أحمل اليها من مثل هذه الأنباء • ولكن كان يحدث دائماً أنني أنا الذي أنقل اليها هذه الأنباء ، أما هي فلم تسألني عن شيء في يوم من الأيام • ولم أجروأبداً أن أكلمها عن امكان زواج بينهما ، رغم أنني رغبت أن أقص ذلك مراراً كثيرة ، لأن هذه الفكرة كانت تعجبني وتسرنى أنا أيضاً • ولكن ما أكثر الأشياء التي أصبحت لا أجروأ أن أتعرض لها بحديث عندها ، ومع ذلك كنت أشعر في غرفتها بارتياح كبير • ومما كنت أحبه كذلك جداً كبيراً أنها كانت واسعة الثقافة ، فهي تقرأ كثيراً ، بل تقرأ كتباً ليست سهلة ، وكانت أكثر مني اقبالاً على القراءة وانهماكاً فيها •

انها هي التي استدعتني اليها في المرة الأولى • وقد قدرت أنها ربما كانت تريد أن تعلم مني أمراً ما • آه • ما أكثر الأمور التي كان كثير من الناس في ذلك الأوان يستطيعون أن يعلموها مني ! • • • وقلت لنفسى في تلك المرة الأولى : « لا ضير ! انها لا تستقبلني لهذا السبب وحده » • الخلاصة اننى قد أسعدنى أن أكون قادراً على أن أفيدھا فى أمر من الأمور ، و • • • حين كنت أجلس بقربھا ، كان يبدو لى دائماً أن أختى هي التي تجلس بجانبى ، رغم أننا لم نتكلم يوماً عن قرابتنا لا تصريحاً ولا تلميحاً • فكأن هذه القرابة لم توجد فى يوم من الأيام • كان يبدو لى حين أزورها اننى يستحيل علىَّ استحالة تامة أن أتعرض لهذا الموضوع ، وكنت حين أنظر اليها تبرق فى خاطرى أحياناً ففكرة عجيبة : أنها ربما كانت تجهل هذه القرابة ما دامت تقف منى هذا الموقف وتعاملنى هذه المعاملة •

حين دخلت عليها وجدت عندها ليزا • فكذت أشده • كنت اعرف
أنهما قد التقتا قبل الآن • حدث ذلك اللقاء عند « الطفل الرضيع » • قد
أتكلم فيما بعد • اذا عرضت لى فرصة • عن تلك النزوة التى اعترت
آنا آندريفنا • ذات الكبرياء والخفر • وهى أن ترى ذلك الطفل • وقد
أتكلم أيضاً عن اللقاء الذى تم بينها وبين ليزا هناك • ولكن لم أكن أتوقع
أبداً أن تقوم آنا آندريفنا بدعوة ليزا إليها • لذلك دهشت حين رأيتها •
وكانت دهشة لذيذة • وبدون أن أظهر شيئاً من هذه الدهشة طبعاً •
حيث آنا آندريفنا • وصافحت ليزا مصافحة حارة • وجلست بقربها •
وكانتا كلتاهما منكبتيين على عمل « خطير الشأن » : كان فستان السهرة
التي تملكه آنا آندريفنا • وهو فستان جميل لكنه قديم • أى لبس قبل
الآن ثلاث مرات • كان ذلك الفستان ممدوداً على الطاولة وعلى ركبهما
تفكران فى تغيير شكله • ان ليزا « فنانة » كبيرة فى هذا المجال • وانها
صاحبة ذوق مرهف • هذا اذن مجلس حرب تعقده « سيدات عاقلات » •
وتذكرت فرسيلوف • فضحكت • وكنت مشرق المزاج على كل حل •

قالت آنا آندريفنا مبرزة كل كلمة من كلماتها بوقار :

— أنت اليوم جذل جداً • هذا شئ ممتع •

ان لها صوتاً دائماً مختلفاً • ولكنها تنطق كلماتها دائماً بهدوء
ورفق • خافضة أهدابها الطويلة قليلاً • على ابتسامة خاطفة تطوف
بوجهها الشاحب •

قلت مرحباً :

- تعرف ليزا كم أكون مزعجاً حين لا أكون جذلاً •

فقلت ليزا بمكر :

- وربما كانت أنا أندريفنا تعرف ذلك •

هذه وخزة من ليزا • آه لو عرفت ما كان يجثم على صدر ليزا
العزيرة في ذلك الوقت ، وما ذا كان يفيض به قلبها من هموم !

وقالت أنا أندريفنا تسألني :

- ماذا تعمل الآن ؟

(لاحظوا أنها هي التي رجتني أن أجيء إليها !) • قلت
أجيبها :

- أنا الآن هنا • واني لأتساءل لماذا يحلو لي دائماً أن أراك قارئة
في كتاب أكثر مما يحلو لي أن أراك عاكفة على شغل من أشغال الحياطة
والتطريز وما الى ذلك • لا ، لا ، لا ، حقاً ان أشغال السيدات لا تناسبك •
أنا من هذه الناحية أشارك أندره بترففتش رأيه •

- ألم تحزم. أمرك على دخول الجامعة بعد ؟

- أشكرك شكراً لا حدود له على أنك ما نسيت أحاديثنا السابقة •
هذا دليل على أنني أخطر ببالك أحياناً • ولكن ... فيما يتعلق بالجامعة ،
لم أثبت على أمر بعد • ثم ان لي أهدافي •

قالت ليزا :

- اى ان له سره •

قلت :

- دعى هذه الأمازيخ يا ليزا ! ان رجلاً ذكياً قال في الأيام
الأخيرة ان حركتنا التقدمية كلها خلال الخمسة والعشرين عاماً قد
برهنت قبل كل شيء على مدى ايغالنا في الجهل ، ولم ينس أن ينسب هذا

الى جامعتنا طبعاً • من المسئول عن هذا الجهل ان لم تكن الجامعات هي
المسئولة ؟

فقلت ليزا :

- لا بد أن بابا هو الذى قال هذا الكلام • فأنت فى أكثر الأحيان
لا تزيد على أن تكرر أقواله •

- لكأنك تفترض يا ليزا أننى ليس شئ من فكر •
وقالت آنا آندريفنا مدافعة عنى :

- ليس بالأمر الشائع كثيراً فى هذا الزمان أن نرى أناساً يحسنون
الاستماع الى أقوال أشخاص أذكىاء ، ثم يحسنون حفظها وتذكرها فى
الوقت المناسب •

فاستأنفت كلامى قائلاً بحرارة :

- حقاً يا آنا آندريفنا • ان من لا يفكر الآن فى روسيا ليس
بمواطن ! ربما كنت أنظر الى روسيا من زاوية خاصة : لقد تحملنا الغزو
التتارى ، ثم تحملنا قرنين من العبودية ، ولعل تحملنا هذا أن يكون مرده
الى أن الأمرين كليهما قد أرضيانا • والآن وهبت لنا الحرية ، ويجب أن
تتحملها : فهل نحن على ذلك قادرون ؟ هل الحرية ترضينا وتتفق
وذوقنا ؟ هذا هو السؤال •

ألقت ليزا نظرة سريعة على آنا آندريفنا • فسرعان ما غصت
آنا آندريفنا طرفها ، وتظاهرت بأنها تبحث عن شئ ما • ورأيت ليزا
تحاول أن تسيطر على نفسها بكل ما أوتيت من قوة • ولكن بصرينا
التقيا مصادفة على حين فجأة ، فاذا بليزا تضحك • فانفجرت قائلاً :

- ليزا ، ان المرء لا يفهمك حقاً •

فأسرعت تكف عن الضحك ، وتقول بلهجة يخالطها حزن :
- اغفر لى • لا أدرى ماذا فى رأسى •

واختلجت فى صوتها دموع على حين فجأة • فضجبت خجلاً
شديداً ، وتناولت يدها قبلتها بشدة •

فأقلت آنا أندريفنا برفق ووداعة • وهى ترانى أقبل يد ليزا :
- انك طيب القلب نبيل النفس •

- انى ليسعدنى يا ليزا أن أراك مرة تضحكين • هل تصدقين
يا آنا أندريفنا اننى منذ بضعة أيام أرى فى وجهها كلما لقيتها نظرة غريبة ،
نظرة يتموج فيها قلق ، فكأنها تتساءل : « ترى هل علم شيئاً ؟ هل يجرى
كل شىء مجرى حسناً ؟ » • حقاً ان فيها شيئاً من هذا النوع •

فأقلت عليها آنا أندريفنا نظرة بطيئة ثابتة ، فخفضت ليزا عينها •
وقد أدركت على كل حال أن الصلة بينهما أوثق مما تصورتها حين
دخلت • فسررتى هذه الفكرة وأبهجتى • قلت مخاطباً آنا أندريفنا
بعاطفة :

- قلت منذ هنيهة اننى طيب القلب ، فلا تستطيعين أن تتصورى
يا آنا أندريفنا مدى من أصيب من تحسن حين أكون عندك ، ومدى ما
أشعر به من سعادة حين ألقاك !

فأجابتنى قائلة بوقار :

- وأنا يسرنى أن أسمعك تقول هذا الكلام فى هذه اللحظة •

يجب أن أذكر أنها لم تكلمنى فى يوم من الأيام عن حياة الفوضى
التي أعيشها ، وعن الزوجة التي كانت تجرفنى أعاصيرها ، رغم أنها
كانت - فيما أعرف - على علم بكل شىء ، حتى انها سألت عنى بعض

الناس • فكان هذا أول الماع منها ، فما زادني ذلك الا ميلاً اليها •

وقلت أسألها :

- وكيف صحة مريضنا ؟

- تحسنت كثيراً • نهض عن فراشه • وقد خرج يتزّه أمس
واليوم بالعربة • ولكن ألم تذهب اليه أنت اليوم ؟ انه ينتظرك •

- انتى مذب فى حقه • ولكنك أنت التى تزورينه الآن ، فتحلين
محلى تماماً • انه رجل لا وفاء له ، استغنى بك عنى ، واستبدلك بى •
فانقلب وجهها قليلاً • لأن مزاحتى يمكن أن تبدو عامية مبتذلة •

قلت :

- أنا آت من عند الأمير سرجى بروفش ، و ... بالمناسبة يا ليزا:
هل كنت منذ قليل عند داريا أونيسيموفنا ؟

فقال ليزا مقتضبة ، دون أن ترفع رأسها :

- نعم •

ثم سألتنى فجأة ، كأنما لتقول أى شئ :

- ولكن كنت أظن أنك تذهب الى الأمير المريض كل يوم ؟

فأجبت أقول ضاحكاً :

- أذهب • ولكننى لا أكمل الطريق اليه ، فما ان أدخل البيت

حتى أمضى يسرة •

قالت آنا أندريفنا :

- حتى الأمير نفسه لاحظ أنك تزور كاترين نيقولايفنا كثيراً •

تكلم عن هذا أمس وضحك كثيراً •

— مم ضحك ؟

فأجابت آنا آندريفنا ضاحكة :

— كان يمزح كما تعلم • قال : « والله ••• يظهر أن المرأة الجميلة لا تنفّر دائماً قلب شاب فى غصارة الصبا ••• » •
هتفت أقول :

— عبارة بارعة • لا شك أنها ليست منه ، بل منك أنت •
— لماذا ؟ بل هى منه •

فاذا أنا أنبرى فجأة فأسألها بجرأة غبية :

— فما قولكما اذا كانت هذه المرأة الجميلة تنبّه الى الشاب رغم أنه لا قيمة له ولا شأن ، ورغم انه شديد الحجل والبساطة والسذاجة ، يقبع فى ركنه حائفاً من أنه « صغيرها » ، ثم اذا هى تفضله فجأة على جميع من يحومون حولها ويحيطون بها مولهين عابدين ؟

كان قلبى يخفق • فانفجرت ليزا تقول ضاحكة :
— اذن لقد ضعت !

فهتفت قائلاً :

— ضعت ؟ لا • لم أضع • وأظن اننى لن أضيع أبداً • اذا وقفت امرأة فى طريقي ، فسوف تكون مضطرة أن تتبعنى • لا يسد أحد طريقي الا ويناله عقاب •

لقد قالت ليزا فى ذات يوم ، عرضاً ، بعد ذلك بمدة طويلة ، اننى قد نطقت بهذه الجملة على نحو غريب ، بجدر شديد ، كأننى أزن كل كلمة وأفكر فى كل لفظة • ولكن العبارات كانت عندئذ تبلغ من فرط السخف والاضحاك أنه لم يكن للمرء سبيل الى السيطرة على نفسه ، والامتناع عن الضحك •

وقد انفجرت آنا آندريفنا تضحك مرة أخرى بالفعل •

فصحت أقول منتشياً ، لأن هذا الحديث والمجربى الذى سار فيه قد طابا لى كثيراً :

- اضحكى يا آنا آندريفنا • اضحكى منى • ضحكك لذة لى •
اننى أحب ضحكك يا آنا آندريفنا ان لك موهبة مميزة : تصميم ساكنة
وادعة ، ثم اذا أنت تتطلقين فى ضحك ما كان لشيء فى وجهك قبل ثانية
واحدة أن ينذر به • عرفت سيدة بموسكو كت أختلس النظر اليها
أحياناً • انها تكاد أن تكون فى مثل جمالك ، ولكنها لا تحسن الضحك ،
فكان وجهها ، الذى لا يقل فتنة وسحراً عن وجهك ، يفقد هذه الفتنة
وهذا السحر متى ضحكك ، بينا هما يزددان توهجاً فى وجهك حين
تضحكين • اننى منذ مدة طويلة أريد أن أذكر لك هذا •

ولقد مكرت حين نطقت بتلك الجملة عن السيدة التى « تكاد تكون
فى مثل جمال » آنا آندريفنا • تظاهرت بأن الجملة أفلتت منى بدون
ارادة ، وحتى بدون أن ألاحظ ذلك • كنت أعرف أن مثل هذا المديح
الذى يفلت من قائله « افلاتاً » يؤثر فى المدوح أضعاف تأثير المديح
المقصود • ولقد كنت واثقاً بأن آنا آندريفنا سرت رغم الحمرة التى تخضب
بها وجهها • والسيدة التى زعمت أنها فى مثل جمال آنا آندريفنا انما
كانت من تلفيق خيالى : فأتى ما عرفت فى يوم من الأيام سيدة كهذه
السيدة بموسكو • وما كان ذلك منى الا بقصد ازجاء المديح لآنا آندريفنا ،
وبعث المسرة فى قلبها •

قالت وهى تبسّم ابتسامة لطيفة :

- يتراءى للمرأة أنك فى هذه الأيام خاضع لتأثير امرأة جميلة...

فأخسست أننى أظير ... وكدت أن أبوح لهما ... لكننى سيطرت
على نفسى وأمسكت عن الكلام •

- بالناسبة ، لقد قلت منذ قليل عبارة قاسية في حق كاترين
نقولايضا •

فقدحت عيناى شرراً ، وانبريت أجيب قائلاً :

- لقد أسأت التعبير ... وانما يرجع ذلك الى تلك النعمة
الحية التى تزعم أن كاترين نيقولايفنا تناصب أندرة بتروفتش العداء •
وهم يتجنون عليه أيضاً ، ويقولون فيه النائم اذ يزعمون أنه أحبها
وعرض عليها عروضاً ويزعمون أموراً أخرى أيضاً • وليست هذه
النعمة أخبت من تلك النعمة الثانية التى تزعم أنها عرضت على الأمير
سرجى بتروفتش ، أثناء حياة زوجها ، أن تتزوجه متى ترملت ، ثم لم
تف بعودها • انتى أعلم علم اليقين أن هذا كذب وافشاش ، وأن الأمر
كله لم يكن الا مزاحاً ؟ ففي ذات مرة ، قالت للأمير أثناء لحظة مرح في
الخارج : « ربما في المستقبل » • ولكن كان هذا كلاماً في الهواء ؟
وأنا أعلم حق العلم أن الأمير من جهته لا يمكن أن يصدق مثل هذا
الوعد •

ثم استدركت أضيف :

- ولا هو اهتم بأن يصدقه •

وأضفت أدرساً بمكرٍ قولى :

- أظن أن فى ذهنه أفكاراً أخرى • صدقانى اذا قلت لكما انه ،
حين حدثه ناشتوكين فى بيته منذ قليل عن أن كاترين نيقولايفنا قد
تزوج البارون بيورنيج ، استقبل النبأ أحسن استقبال •

هنا سألت أنا آندريفنا قائلة برصانة يخالطها نوع من الدهشة :

- ناشتوكين ؟ ناشتوكين كان عنده ؟

- نعم ، ناشتسوكين نفسه • انه واحد من أولئك الرجال الذين
يوحون بالاحترام و ...

- وناشتسوكين هو الذى كلمها عن هذا الزواج من بيورنج ؟
كذلك تابعت آنا آندريفنا أسلتها وقد استيقظ اهتمامها فجأة
فقلت :

- عن الزواج ، لا ؟ بل هو كلمها عن امكان الزواج ، عن شائعة
قال انها تروج فى المجتمع • أما أنا فأنى مقتنع بأنها حكاية ملفقة !
ففكرت آنا آندريفنا ثم عكفت على شغلها •
وأضفت أقول بحماسة مباغثة :

- اننى أحب الأمير سرجى بتروفتش • صحيح أن له عيوبه ؟ فهذا
أمر لا يمكن نكرانه وقد سبق أن كلمتك عنه ... انه محدود الأفكار •
ولكن ألا تشهد له هذه العيوب نفسها بأنه امرؤ نبيل النفس ؟ فى هذا
اليوم مثلاً كدنا أن نتشاجر من أجل فكرة : هو مقتنع بأن على المرء اذا
أراد الكلام عن النبيل أن يكون هو نفسه نبيلاً ، والا فان كل ما يقوله
كذب • فهل هذا الكلام منطقى ؟ لا ... ولكنه يشهد لقائله بأنه شديد
المطالب فيما يتعلق بالنبيل والواجب والعدالة • أليست على حق ؟
وهتفت فجأة أقول وقد وقعت عيني مصادفة على الساعة الموضوعة
فوق المدفأة :

- آ • • • كم الساعة ؟

فقالت آنا آندريفنا بهدوء بعد أن نظرت الى الساعة :

- الثالثة الا عشر دقائق •

وكانت طول مدة حديثي عن الأمير تصنعي الى كلامي خافضة
عينها ، معبرة عن شيء من سخرية مأكرة لكنها لطيفة : لقد كانت تعرف
لماذا أمدحه هذا المديح كله . وكانت ليزا تنصت ماثلة على شغلها ، ولكنها
أصبحت لا تشارك في الحديث منذ مدة طويلة .

انتفضت مودعاً كمن أصابه حرق . فقالت آندره آندريفنا تسألني :

— أنت مستعجل ؟

— نعم . . . لا . . . بل أنا مستعجل ، هذا صحيح . ولكن لحظة
يا آنا آندريفنا . . .

كذلك بدأت أقول منفعلًا انفعالًا شديدًا وتابع كلامي :

— كلمة واحد يا آنا آندريفنا . . . لا أستطيع أن لا أقول لك اليوم
ما أريد قوله ! أريد أن أعترف لك بأنني قد باركت مراراً ما أظهرته لي
من طيبة ولطف اذ دعوتني الى زيارتك . . . وقد أحسنت الى هذا العلاقات
التي قامت بيننا احساناً كبيراً . انني هنا أتظهر من أدراني ، فأخرج من
عندك وأنا خير ما كنت قبل أن أجيء ، هذا صحيح . حين أكون الى
جانبك لا أستطيع أن أقول سوءاً ، بل لا أستطيع حتى أن تراودني أفكار
سيئة . فالأفكار السيئة تتلاشى من ذهني متى رأيته معك . فإذا برقت
في خيالي ذكرى سيئة وأنا بقربك ، احمر وجهي فوراً وخجلت من
نفسي . ولقد سرني مسرة خاصة في هذا اليوم أن أجد أختي عندك .
ان هذا يدل على كثير من النبل فيك . . . انه يدل على عاطفة جميلة . . .
الخلاصة : لقد قلت أشياء « أخوية » جداً ، اذا سمحت لي أخيراً أن أحطم
الجليد ، وأن . . .

كانت آنا آندريفنا أثناء كلامي قد نهضت من مكانها ، وأخذ وجهها
يحمّر مزيداً من الاحمرار شيئاً بعد شيء . وها هي ذى ترتاع فجأة

كأن لكل شيء حدوداً ما ينبغي تجاوزها ، وتسرع الى مقاطعتي قائلة :
- ثق أنني سأقدر عواطفك بكل قلبي ... ولقد كنت أفهم حتى
قبل أن أسمع كلامك ... منذ مدة طويلة ...
وقطعت كلامها مضطربة وهي تصافحني مودعة • وسرعان
ما أدركتني ليزا في الغرفة الأخرى •

قلت أسأل ليزا :

- ليزا ، لماذا شددتني من كمي ؟

- انها شريرة ، انها مأكرة ، انها لا تستحق • انها لا تحرص عليك
الا لتستدرجك الى الكلام •

كذلك أسرت الى ليزا بهمس سريع مبغض حاقد • لم آّر لليزا
هينة كهذه الهينة في يوم من الأيام • قلت :

- ما هذا الذي تقولينه يا ليزا ؟ انها فتاة عذبة جداً !

- اذن أنا الشريرة •

- ماذا بك يا ليزا ؟

- أنا شريرة جداً • ربما كانت أعذب فتاة ، وكنت أنا السيئة
الشريرة • هيا ، دعني • اسمع : ان ماما تطلب منك « مالا تستطيع أن
تكلمك فيه » • هذه ألقاظها نفسها • يا عزيزي آرКАДى ، انقطع عن
القمار ، اترك القمار يا عزيزي ، أرجوك ؟ أتوسل اليك ••• وماما
أيضاً •••

- ليزا ، أعلم هذا بنفسى ، ولكن ••• أنا أعلم اننى بما فعلته قد
برهنت على ضعف فى الادارة وخور فى العزيمة ••• ولكن ما هذه الا
سخافات عابرة لا أكثر • اسمعى : لقد راكمت على نفسى ديوناً رهية. كما
لا يفعل ذلك الا رجل أحمق ، وانما أريد الآن أن استرد ما خسرت له لأدفع
تلك الديون • والربح ممكن • كنت حتى الآن أقامر على غير هدى ،

أقامر متقاداً للمصادفة ، أقامر بغباء • أما الآن فلسوف أرتعش خوفاً على كل روبل ألقيه على مائدة القمار ، ولن ألقيه عليها الا بروية وتفكير • لن أكون أنا اذا لم أربح ! ليس القمار عندي هو ملك على نفسي واستبد بي • ليس القمار بالشئ الأساسي • ما هو الا عرض طارىء • أوكد لك ذلك ! أنا أقوى من أن لا أكف متى شئت ••• سأرد الديون أولاً ، ثم أكون لكم دون غيركم ، وقولي لماذا اننى لن أترككم •••

— ما أبهظ الثمن الذى دفعته للحصول على تلك الثلاثمائة روبل ! •••

قلت مرتعشاً :

— من أين عرفت هذا ؟

— سمعت داريا أونيسيوفنا كل شئ •

وفجأة رفعت ليزا ستارة ودفعتنى الى داخل « المصباح » وهو حجرة صغيرة مدورة كلها نوافذ ؛ فما ان أفقت من ذهولى حتى سمعت صوتاً أعرفه ، وصليل مهماز ؛ ومشية عرفت صاحبها • فهمست أسأل ليزا :

— أهو الأمير سرجى ؟

فأجابتنى بهمس أيضاً :

— هو نفسه •

— لماذا أراك خائفة هذا الخوف كله ؟

— هكذا ! لا أريد بجال من الأحوال أن يرانى هنا •

— « غريب » ! أتراه يحاول مغازلتك مثلاً ؟ لسوف أريه ••

قلت هذا ضاحكاً ، ثم أردفت أسألها :

— الى أين تذهين ؟

- لتخرج • أنا ذاهبة معك •

- هل ودعت هناك ؟

- نعم ، ومعطى فى حجرة المدخل •

وخرجنا • وفيما كنا نهبط السلم ساورتنى فكرة ، فقلت :

- هل تعلمين يا ليزا ؟ لعله جاء يعرض عليها الزواج •

فأجابت ليزا قائلة بهدوء ولهجة قاطعة ، وصوت خافت :

- لا ... لن يعرض عليها •

- هل تعلمين يا ليزا ؟ اتنى رغم المشاجرة التى وقعت بينى وبينه -

ما دام قد روى لك كل شىء - أحبه حباً صادقاً وأتمنى له النجاح ،

أحلف لك • لقد تصالحنا • حين نكون سعداء ، نكون أخيراً • ان فى

نفسه أفكاراً نبيلة ، أو قولى على الأقل ان نفسه تربة صالحة لنمو أفكار

نبيلة • فإذا أصبح بين يدي فتاة مثل آنا فرسيلوف ، التى تتمتع بقوة الارادة

وثبات الجنان وحصافة الرأى ، أمكن أن يكون انساناً طيباً وسعيداً •

يؤسفنى اتنى مستعجل جداً • ولكننا سنسير بضع خطى معاً • أريد أن

أحكى لك •

- بل اذهب وحدك • وسأسير أنا فى اتجاه آخر • هل تأتى

للغداء ؟

- سأتى ، سأتى • هذا وعد • اسمعى يا ليزا • هناك شخص حقير ،

بل شخص هو أدناً المخلوقات طراً ، اسمه ستيلىكوف اذا كنت تعرفينه :

ان لهذا الشخص تأثيراً رهيباً وسلطاناً كبيراً على شئون الأمير سرجى

وأعماله ... ان لديه سندات مالية ... الخلاصة انه قابض عليه برجليه

قبضاً شديداً ، وقد بلغ الأمير من فرط السقوط أن الاثنين كليهما أصبحا

لا يريان مخرجاً من المصاعب المالية الا هذا الزواج من آنا أندريفنا •

فيجب تسيبها تسيباً جدياً • هذه سخافات على كل حال • ستولى ترتيب كل شيء بنفسها فيما بعد • ثم ما رأيك ؟ هل ترفضه ؟

فقاطعتي ليزا قائلة :

— الى اللقاء • ليس في وقتي متسع •

ورأيت فجأة في نظرتها السريعة الحاطفة كرهاً يبلغ من القوة أنني لم أملك الا أن أصبح مرتاعاً :

— ليزا ، عزيزتي ، لماذا ••• ؟

— ليس هذا الكره لك • ولكن انقطعُ عن القمر •••

— آه ••• أبسبب القمر ؟ فلن أقامر اذن ، انتهى !

— قلت منذ هنيهة : « حين نكون سعداء » • فهل أنت « سعيد »

جداً ؟

— سعيد سعادة هائلة يا ليزا ! سعادة هائلة ! آه ••• ربه •• الساعة

بلغت الثالثة ، بل تجاوزتها ! استودعك الله يا صغيرتي العزيزة ليزا •

قولي يا ليزا ، يا عزيزتي ، هل يستطيع المرء أن يدع امرأة تنتظره ؟

أيجوز هذا ؟

— أنت على موعد ؟

ألقت على هذا السؤال وهي تبسم ابتسامة خفيفة ، ابتسامة 'ولدت

على شفيتها ميتة ، ابتسامة راعشة مختلجة • قلت لها :

— ناوليني يدك لتجلب لي الحظ !

— لتجلب لك الحظ ؟ يدي ؟ يستحيل أن أفعل بحال من الأحوال !

وابتعدت مسرعة • وقد أطلقت تلك الصرخة جادة كل الجسد !

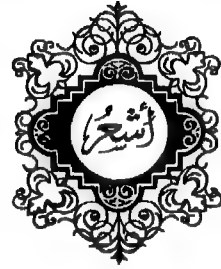
واردت على عربتي فركبتها •

نعم ، نعم ، ان تلك « السعادة » هي التي جعلتني ، كالخلد الأعشى ،

لا أدرك شيئاً ولا أرى الا نفسي !

الفصل الرابع

١



اليوم حتى يخوف من سرد القصة • كل ما
سأرويّه قد أصبح قديماً • ولكن ذلك كله
ما يزال الى هذه الساعة يبدو لي أشبه بسرّاب •
كيف أمكن أن تضرب امرأة مثلها « موعداً »
لصبي تافه كالصبي الذي كنته في ذلك الأوان ؟ ذلك ما يبدو في الوهلة
الأولى أنه حدث !

بعد أن تركت ليزا ، وابتعدت مسرعاً ، خفق قلبي ، وتصورت أنني
فقدت عقلي حقاً : ان فكرة « موعداً » تضربه لي هذه المرأة قد بدت لي
مستحيلة استحالة صارخة على حين فجأة ، فلا سبيل الى تصديقها • ومع
ذلك كان لا يساورني أى شك فيها • أكثر من هذا أن تصدّيقى الفكرة
كان على قدر قوة استحالتها ، فكلمة بدت لي استحالتها أقوى ، كان تصديقى
لها أكبر •

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة قليلاً ، فكان هذا ما يقلقنى : « مادام
هناك موعداً ، فكيف يمكن أن أصل متأخراً ! » • وعرضت لذهنى أسئلة

غية من نوع هذا السؤال : « أيهما أفضل : الجسارة أم الحجل ؟ » • ولكن ذلك كله كان يمضى عابراً • أما انشئ الأساس فهو يمكث في قلبي ، وهو ما لم أستطع أن أحده •

لقد قالت بالأمس : « غداً ، في الساعة الثالثة ، سأكون عند تاتيانا بافلوفا » • ذلك كل شيء • فاليكم الاسئلة التي كانت تهمني على فكرى •
اولاً : لقد كانت تستقبلني في شقتها دائماً على انفراد ، وكانت تستطيع أن تقول لي كل ما تريد دون أن تنتقل الى بيت تاتيانا بافلوفا • فلماذا تحدد في هذه المرة مكاناً آخر هو بيت تاتيانا بافلوفا ؟ ثانياً : اذا كان الأمر أمر « موعد » ، فيجب أن لا تكون تاتيانا بافلوفا في بيتها ، فكيف السبيل الى حملها على الغياب عن البيت بدون أن يشرح لها كل شيء سلفاً ؟ هل يكون معنى هذا أن تاتيانا بافلوفا مطلعة على السر ؟ كان هذا يبدو لي أمراً لا يمكن تصوره ، كان يبدو لي مفتقراً الى الحياء بل خالياً من الحشمة •

ثالثاً وأخيراً : لعل الأمر كله لا يزيد على أنها تنتوى زيارة تاتيانا بافلوفا ، فأبلغتني رغبتها أمس بدون أي هدف آخر ، فطقت أنا أتصور وراء ذلك أشياء لا وجود لها • لقد قالت ما قالته عرضاً ، وقالته باهمال ، وقالته بهدوء ، وقالته بعد جلسة مملّة جداً ، لأنني طوال الوقت الذي مكثته عندها كنت مضطرباً ، فأنا جامد في مكاني أجمع بكلام مشوش ، ولا أعرف ماذا أقول ، وكانت هي - كما اتضح ذلك فيما بعد - تنهياً للخروج ، فكان يسرها أن تراني أنصرف • تلك الأفكار كلها كانت تغلي وتغور في رأسي ؟ وعزمت أمرى أخيراً ، قائلاً لنفسى : « سأذهب الى هناك ، وأقرع الجرس » ، فتفتّح لي الطباخة ، فأسأل هل تاتيانا بافلوفا في البيت ؟ فان لم تكن تاتيانا بافلوفا في البيت كان معنى ذلك أن الأمر أمر « موعد » حقاً • ولكن لم يكن يساورني أي سر شك ، لم يكن يساورني أي شك •

صعدت راکضاً • وهناك ، على فسحة السلم ، أمام الباب تبدد كل
رعبى • قلت لنفسى : « هيا ، ليحدث أى شىء » فأنما المهم أن أعرف
حقيقة الأمر بأقصى سرعة ! • وفتحت الطباخة الباب • وبصوتها الأخن
وبرودتها الكريهة قالت ان تاتيانا بافلوفنا ليست بالبيت • وليس بالبيت
أحد آخر ؟ ألا ينتظر أحد تاتيانا بافلوفنا ؟ • لقد أردت أن ألقى عليها
هذا السؤال ؟ ولكننى لم أقبل ؟ وانما قلت محدثاً نفسى : « سأرى بعينى »
وجمجت أقول للطباخة انتى سأنتظر تاتيانا بافلوفنا ، وخلعت معطفى ،
وفتحت الباب •

كانت كاترين نيقولايفنا جالسة أمام النافذة « تنتظر تاتيانا بافلوفنا »
فما ان رأتنى حتى بادرت تسألنى مهمومة قلقة :
- أهى اذن غائبة ؟

وكان صوتها ووجهها لا يتفقان وما كنت أتوقع ، فجمدت فى العتبة •
وتمتمت أسألها :

- من هى ؟

- تاتيانا بافلوفنا ! لقد رجوتك أمس أن تبلغها أنتى سأجىء اليها فى
الساعة الثالثة •

- أنا ... ما رأيتها •

- هل نسيت ؟

جلست كمن حكم عليه بالاعدام هذا هو الأمر اذن : انه واضح
وضوح النهار ! ومع ذلك لم أستسلم • قلت أقاطعها نافذ الصبر :

- لا أذكر أنك رجوتنى أن أبلغها شيئاً • انك لم تطلبى منى شيئاً:
كل ما قلته لى هو أنك ستكونين بيتها فى الساعة الثالثة •

ولم أكن أنظر اليها وأنا أقول هذا الكلام •

فهتفت تقول فجأة :

- اذا كنت قد نسيت أن تبلغها ، واذا كنت تعرف أنني سأكون هنا فلماذا جئت اذن ؟

فرفعت رأسي ، ونظرت اليها ، فلم أرفى وجهها لا سخرية ولا غضباً ، وانما رأيت ابتسامة مضيئة مرحة ، ورأيت ذلك المكر الذي يشبه أن يكون مكر طفل ، والذي يعبر عنه وجهها دائماً ، فكأن هيئتها كانت تقول : « ها قد غلبتك ، فما عساك قائلاً الآن » .

لم أشأ أن أجيب ، وخفضت عيني . ودام هذا الصمت نصف دقيقة . ثم اذا هي تسألني :

- أأنت قادم من عند بابا ؟

قلت :

- بل من عند آنا أندريفنا . لم أكن عند الأمير يقولوا ايفانوفتش .
ثم أضفت :

- ولقد كنت تعلمين هذا حق العلم !

- ألم يحدث لك شيء عند آنا أندريفنا ؟

- أتقصدين أن هيئتي هيئة مجنون ؟ لقد كانت هيئتي هيئة مجنون من قبل أن أذهب الى آنا أندريفنا .

- فهل استرددت عندها شيئاً من عقلك ؟

- لا . وانما علمت هناك أنك ستزوجين البارون بيورنج .

فظهرت عليها علائم الاهتمام فجأة ، وسألتنى .

- أهى التى قالت لك هذا ؟

- بل أنا الذى أعلمتها به ، لأننى سمعت ناشتوكين يقوله للأمير

سرجى بتروفتش .

وما زلت خافضاً عيني لا أنظر إليها • لأن النظر إليها معناه أن أغرق في الضياء والفرح والسعادة • وأنا لم أشفأ أن أكون سعيداً • ثم وخزت الحسرة قلبي ، فإذا أنا أتخذ قراراً ضحماً في لحظة واحدة • فطفقت أتكلم وأتكلم ، دون أن أعرف ماذا أقول • كنت أختنق ، وأتمتم ، وأتلطم ، ولكنتي أصبحت أنظر إليها بجراًة • وكان قلبي يخفق • وقلت جملة لا أدري ماذا كانت ، جملة لا شأن لها بما نحن فيه ، ولكنها جملة بارعة محكمة • فكانت في البداية تصفى الى كلامي مبتسمة ابتسامتها الهادئة التي لا تبارح وجهها أبداً ، ولكن الدهشة ثم الارتياح لم يلبثا أن أخذا يبرقان في نظرتها الساكنة • ومع ذلك لم تفارقها ابتسامتها ، غير أن هذه الابتسامة نفسها أخذت تخرج في بعض الأحيان •

ورأيتها ترتعش كلها ، فسألتها فجأة :

— ماذا بك ؟

فأجابتنى كالمدعورة :

— أنا خائفة منك •

— فلماذا لا تصرفين ؟ انك تعلمين أن تاتيانا بافلوفنا غائبة ، ولا شيء يدل على أنها آتية بعد قليل • فما عليك الا أن تنهضي وتصرفي •

— كنت أريد أن أنتظرها ••• أما الآن فالأفضل فعلاً أن •••

قالت ذلك ونهضت نصف نهوض •

فقلت وأنا استوقفها :

— لا ، لا • ابقى جالسة • هانت ذى ترتعشين من جديد • ولكنك

ما تزالين في ذعرك بتبسمين •• ابتسامتك هذه لا تفارقك أبداً ••• وهانت ذى تبسمين ابتسامة صريحة كاملة •••

— أأنت تهذي ؟

- نعم أهذى •

همست تقول مرة أخرى :

- أنا خائفة ...

- مم ؟

فقلت وهى تبسم أيضاً ، ولكنها مذعورة مع ذلك :

- خائفة من أن تحترق الجدار •

قلت :

- لا أستطيع أن أحتمل ابتسامتك !

وطفقت أتكلم وأتكلم من جديد • كنت كمن يطير طيراناً • كان شيء ما يدفئنى • لم أكن قد كلمتها قبل الآن على هذا النحو فى يوم من الأيام أبداً ، لأننى كنت شديد الحجل دائماً • أذكر أننى حدثتها عندئذ عن وجهها ، فقلت لها هاتفاً على حين فجأة : «أصبحت لا أستطيع أن أحتمل ابتسامتك • ولقد كنت أصخلك ، وأنا بموسكو ، رهية ، راعة ، تطلقين الكلام زاحراً بالمر على عادة أبناء المجتمع الراقى ! ... نعم ، بموسكو • كنا منذ الحين نتكلم عنك هناك أنا وماريا ايفانوفنا ، ونحاول أن نراك كما لا بد أن تكونى ... هل تتذكرين ماريا ايفانوفنا ؟ لقد ذهبت إليها مرة • وفى أثناء السفر حلمت بك طول الليل فى القطار • وهنا ، قبل وصولك ، ظلمت شهراً كاملاً أنظر الى صورتك فى مكتب أليك ، فلم أستطع أن أحزر شيئاً • ان تعبير وجهك مزيج من مكر طفولى وبساطة لا نهاية لها : ذلك ما يشى به وجهك ! ما رأيت وجهك ! ما رأيت وجهك مرة الا أعجبت به • آه ... أنت أيضاً تعرفين كيف تصطنعين هيئة التكبر والاستعلاء ، وكيف تجعلين نظرتك ساحقة : اننى أتذكر كيف نظرت الى عند أليك حين وصلت من موسكو • لقد رأيتك عندئذ ، ومع ذلك لو سألتى أحد عنك بعد ذلك فوراً ، لما استطعت أن أقول له شيئاً فى

وصفك ، بل لما استطعت أن أجيئه بشيء حتى عن قامتك ! ذلك اننى ما ان رأيتك حتى صرت أعمى • ان صورتك لا تشبهك البتة : عيناك ليستا قاتمتين بل هما واضحتان ، غير أن أهداك الطويلة هى التى تلقى عليهما ظلالاً فتبدوان قاتمتين • وانت بدينة الجسم ، ربعة القامة ، ولكن بدانتك قوة وخفة ؛ هى بدانة قروية شابة معافاة • ووجهك أيضاً قروى ؛ انه وجه قروية حسناء • لا تزعلى ، انه لوجه رائع *** هذا الوجه المستدير المورد الواضح الجسور الضاحك و *** الخجول ! نعم ، الخجول ! انه خجول يا كاترين يقولنا أخما كوفاً ! خجول وعف ، أحلف لك • بل هو أكثر من عف : هو وجه طفلة • ذلك هو وجهك ! لطالما خطف بصرى ، فتساءلت : أهذه هى تلك المرأة نفسها ؟ وأنا أعلم الآن أنك ذكية جداً ، أما فى أول الأمر ، فكنت أظنك محدودة الفكر قليلاً • وان لك روحاً فرحة ، ولكن بدون تجمل مصطنع • وأحب فيك أيضاً ابتسامتك هذه الأبدية : هى جنتى التى عرضها السماوات والأرض ! وأحب أيضاً هدوءك ، وعذوبتك ، وحديثك الرصين الهادى الذى يكاد يكون وائياً • اننى أحب هذا الونى • يخيل الى أنك لو هوى تحت قدميك جسر لظلمت تتكلمين بهذه اللهجة الرصينة الموزونة *** كنت أظنك ذروة التكبر والاهواء الجامحة ، ثم يمضى شهران فلا اسمع منك خلالهما الا حديثاً كحديث طالب لطالب *** ولم أتخيل فى يوم من الأيام جبهة كهذه الجبهة : انها ضيقة قليلاً كجباه التماثيل ، لكنها طرية بيضاء كالمرمر ، تحت شعر غزير رائع • وان لك صدرأً عالياً ، ومشية مرنة ، وجمالاً خارقاً ؛ لكنك لا تشعرين من ذلك بخيلاء • الآن انما أقنع بهذا ، وكنت أرفض دائماً أن أصدقك ! » •

أنصت الى كلامى المستفيض محملقة • وكانت ترى أننى ارتجف • وقد حاولت عدة مرات أن تقفنى عن الاسترسال فى هذا الحديث بحركة رشيقة من يدها الصغيرة المغمودة فى قفاها ، ولكنها كانت لا تلبث فى كل

مرة أن تسحب يدها مضطربة حائرة منهية • حتى لقد كانت تتراجع كلها بحركة سريعة في بعض الأحيان • ومرتين أو ثلاث مرات ، عادت الابتسامة تضيء وجهها • وفي لحظة من اللحظات تخضب خداهما بحمرة شديدة ، ولكنها في النهاية خافت فعلاً وشحب لونهما • فما كدت أن توقف عن الكلام حتى مدت اليّ يدها ، وقالت بصوت ضارع مبتهل ، ولكنه ما يزال رصيناً :

- ما ينبغي أن يقال هذا ••• لا يجوز للمرء أن يتكلم هكذا ! •••
ونهبزت فجأة ، وتناولت شالها و فروتنيّ يديها بغير تعجل •
فهمتُ أسألهما :

- ألتصرفين ؟

فأجابت بلهجة فيها حسرة وعتاب :

- حتماً • أنا خائفة منك ••• انك تسرف •••

- اسمعي ! لن أخترق الأسوار ، أحلف لك •

- لكنك بدأت تخترقها •

ولم تستطع أن تكبح نفسها ، فابتسمت • وأضافت تقول :

- حتى انني لست واثقة بأنك ستدعني أنصرف •

أظن أنها كانت تخشى حقاً أن أسد عليها طريقها • قلت :

- بل سأفتح لك الباب بنفسى ، هيا اذهبي ••• ولكن ••• ألا فاعلمي

أننى اتخذت قراراً ضخماً • فإذا كنت تريدان أن تهبي لنفسى ضياءً ،

فارجعي واجلسي واسمعي منى كلمتين أخيرين • وإذا لم تريدي ،

فانصرفي ، وسأفتح لك الباب بنفسى •

فنظرت اليّ وعادت تجلس •

فهمتُ أقول ثملاً :

- لو كنت امرأة أخرى لخرجت مستاءة أشد الاستياء • ولكنك
عدت تجلسين •

- انك لم تبع لنفسك أن تقول لى مثل هذا الكلام فى يوم من
الأيام •

- كنت خجولاً • ومازلت خجولاً • وحين وصلت الى هنا ، كنت
لا أعرف ما عسانى أقول • أتظنين أننى أصبحت غير خجول ؟ لا • اننى
ما أزال خجولاً • لكننى اتخذت قراراً ضخماً على حين فجأة ، وأحسست
أننى سأنفذه • فلما اتخذت ذلك القرار طاش صوابى وطفقت أتكلم •
اسمعى الكلمتين اللتين أريد أن أقولهما لك : أأنت تتخذيْنى جاسوساً
أم لا ؟ أجيبنى ! هذا هو السؤال !

فاحمر وجهها بغته • واستدركتُ أقول لها :

- لا تجيبنى بعدُ يا كاترين نيقولايفنا • استمرى على الاصغاء ، ثم
قولى لى الحقيقة كلها •

لقد قلبت جميع الحواجز دفعة واحدة ، وأصبحت أطيّر فى
الفضاء •

- منذ شهرين ، كنت وافقاً هناك وراء الستارة ، وكنت أنت
تحدثين مع تاتيانا بافلوفنا عن الرسالة . فظهرت لكما ، وأسرفت في
الكلام خارجاً عن طوري بغير روية . فأدركت على الفور أنني على علم
بشيء ما ... ولم يكن في وسعي إلا أن تدركي ... كنت تبحثين عن
وثيقة هامة ، وتخشين خطرهما عليك خشية كبيرة . انتظري يا كاترين
نيقولاييفا ، لا تتكلمي بعد . أنني أعلن لك بأن شبهاتك كانت في محلها :
فالوثيقة موجودة ... فقد رأيتها بعيني .. انها رسالتك الى أندرونكوف ،
أليس كذلك ؟

فسألتني بسرعة وقد امتلأت نفسها اضطراباً وانفعالاً :

- رأيت تلك الرسالة ؟ أين رأيتها ؟

- رأيتها ... رأيتها عند كرافت ... كرافت الذي انتحر .

- حقاً ؟ رأيتها بعينيك ؟ وماذا صارت اليه ؟

- مزقها كرافت .

- مزقها أمامك ؟ رأيتَه يمزقها !

- مزقها أمامي ، ربما لأنه كان يتبأ بموته . ولم أكن أعرف أنه
سيقتل نفسه بمسدس ..

- اذن أتلفها . الحمد لله !

كذلك قالت ببطء ، بعد أن تنفست الصعداء . ثم رسمت إشارة

الصليب .

لم أكذب عليها • بل لقد كذبت ، لأن الوثيقة كانت عندي ، ولم تكن عند كرافت في يوم من الأيام • ولكن ذلك أمر لا قيمة له • وأنا لم أكذب فيما يتعلق بجوهر القضية ، لأنني في اللحظة التي كذبت فيها قطعت عهداً على نفسي لأحرقن تلك الرسالة في هذا المساء نفسه • ويميناً لو كانت الرسالة في جيبي حينذاك ، لأخرجتها وناولتها أياها • ولكنني لم أكن أحملها ، وإنما كانت في البيت • وقد لا أعطيها الرسالة مع ذلك لأن من الصعب عليّ أن أعترف لها بأن الرسالة كانت عندي طول هذه المدة فاحتفظت بها ولم أسلمها إليها • ولكن لا فرق : فلقد قررت أن أحرق الرسالة على كل حال ، وأنا اذن لم أكذب ! أقسم لقد كنت صادقاً في تلك اللحظة •

وتابعت أقول خارجاً عن طوري :

— فإذا كان الأمر كذلك ، فأرجو أن تجيبني عن هذا السؤال : لماذا جذبتني إليك ودلتني واستقبلتني في بيتك ؟ أليس لأبك قدّرت انني على علم بأمر الوثيقة المقلقة ؟ انتظري يا كاترين نيقولايفنا ، انتظري دقيقة أخرى ، لا تتكلمي ؟ أثبح لي أن أنهى كلامي : انني طوال المدة التي ظلمت أزورك في أثنائها ، كنت أقدر أنك لا تلاحظيني ولا تدليني الا لتستدرجيني الى الكلام عن تلك الرسالة ، ولتجبريني على الاعتراف ... انتظري دقيقة أخرى • كنت أقدر وأشبه ، ولكنني كنت أتألم وأتعذب • أصبحت لا احتمل منك هذا الرياء ... ذلك أنني اكتشفت أنك بين سائر مخلوقات الله أنبلها نفساً ! أقول لك بصراحة ، نعم ، أقول لك بصراحة : انني كنت عدوك ، ولكنني وجدت أنك أنبل مخلوقات الله ، فغلبتني دفعة واحدة • ولكن الرياء ... أقصد شبهة الرياء كانت ترهقني ... فيجب الآن أن يتقرر كل شيء ، أن يتوضح كل شيء • لقد حان الوقت • ولكن انتظري قليلاً ، لا تتكلمي ، واعرفي كيف أنظر أنا الى هذا كله الآن ، في اللحظة الراهنة : اذا كانت الأمور قد جرت على

هذا النحو فلن أغضب ، بل أقصد : لن أستاذ ، لأن هذا طبيعي • اننى ادرك ذلك حق الادراك • اى شىء فى هذا يخالف الطبيعة أو يتصف بأنه شر ؟ الوثيقة تعذبك وتقلقك ، وأنت تقدرين أن فلاناً من الناس على علم بكل شىء ، فمن حقت أن تمنى أن يتكلم فلان هذا ••• ليس فى هذا شر ؛ ليس فيه أى شر • اننى أتكلم صادقاً كل الصدق • ومع ذلك يجب أن تقولى لى الآن شيئاً ••• يجب أن تعترفى (اغفرى لى استعمال هذه الكلمة) • اننى فى حاجة الى معرفة الحقيقة ، فى حاجة ماسة الى معرفة الحقيقة ! فقولى لى : هل من أجل أن تستدريجى الى الكلام عن تلك الوثيقة انما لاطفتنى ودلتنى ••• يا كاترين نيقولايفنا ؟

كنت أتكلم ولا أستطيع التوقف عن الكلام ، وكان جينى يحترق احتراقاً • وكانت تصفى الى الآن بنير قلق ، حتى ان هيتها كانت تم عن عاطفة • ولكن نظرتها كانت تشتمل على خجل ، ربما من شعورها بشىء من العار •

ثم قالت بصوت بطىء خافت :

- نعم من أجل ذلك •

وأضافت تقول فجأة وهى ترفع الى يديها قليلاً •

- سامحنى ، أخطأت •

لم أكن أتوقع هذا • توقعت كل شىء الا هاتين الكلمتين ، حتى منها هى التى كنت أعرفها الآن • صحت أقول :

- وتقولين « أخطأت » ؟ بكل هدوء تقولين « أخطأت » ؟

- انى لأشعر بأخطائى فى حقت منذ مدة طويلة ••• ويسعدنى

اليوم أن يكون كل شىء قد توضح ••

- منذ مدة طويلة ؟ فلماذا لم تقولى ذلك فى حينه ؟

فابتسمت وقالت :

- ذلك أنتى كنت لا أعرف كيف أقوله •

وابتسمت مرة أخرى وأضافت تقول مستدركة :

- أو قل كان فى امكانى أن أعرف ... لكننى كنت أشعر بعذاب الضمير ... لأننى ، كما تقول ، لم « أجذبك » فى أول الأمر الا من أجل ذلك الهدف ، ثم ألبث أن أحسست أنا باشمئزاز ... وسئمت ذلك الزيف كله ... أوؤكد لك ! وسئمت تلك الارتباكات كلها ...

أضافت ذلك ببلهجة تتم عن مرارة •

قلت :

- لماذا ، لماذا لم تسألينى صراحة ؟ كان فى وسعك أن تقولى لى :
« أنت تعرف أمر الرسالة ، فعلام التظاهر ؟ » فلو ألقيت على ذلك السؤال لاعترفت لك فوراً بكل شئ !

- كنت ... كنت خائفة منك بعض الخوف • بل يجب أن أعترف بأننى كنت أثق بك • ثم لقد مكرت أنا ومكرت أنت !

قالت هذه الجملة الأخيرة وهى تضحك • فهتفت أقول مصعوقاً :

- نعم نعم ، لقد كنت دينياً • آه ... انك لا تعرفين عمق الهوة التى سقطت فيها !

- هأنت تعود الى الكلام عن الهوة التى سقطت فيها ، والدرك الأسفل الذى انحدرت اليه ... انتى أعرف أسلوبك !

وابتسمت ابتسامة رقيقة ، ثم أضافت تقول بحزن :

- ان تلك الرسالة هى من حوادث حياتى أبعتها على الحزن ، وهى من أفعالى أكثرها خفة وطيشاً • لطالما أنبنى ضميرى على كتابتها • انتى

بتأثير الظروف وتأثير مخاوفي قد شككت في أبى العزيز الشهم • واذ قدرت أن هذه الرسالة يمكن أن تقع بين أيدي أناس أشرار ••• ومن حقى أن أقدر هذا (قالت ذلك بحرارة) ، فقد ارتعدت خوفاً من أن يستخدموها وأن يطلعوا عليها بابا ••• وكان يمكن أن يؤثر ذلك في صحته تأثيراً شديداً بسبب حالته التي هو فيها ، فإذا هو يكرهنى •••

ثم أضافت تقول وقد حدثت في عيني فلاحظت في نظرتي بعض الالتماع في أغلب الظن :

- نعم ••• وخفت أيضاً على نفسى •• خفت أن يحمله مرضه على أن يحرمنى من أرزاقه ••• كان هذا الشعور ماثلاً هو أيضاً • ولكن لا شك أننى كنت هنا مخطئة في حقه : فهو أطيّب قلباً وأكرم نفساً من أن لا يغفر لى • ذلك كل ما حدث • أما عن سلوكى معك ، فما كان ينبغي لى أن أنصرف كما تصرفت ! اننى أشعر الآن بخزى •

بذلك ختمت كلامها وقد اعتراها خجل مبالغ • فهتفت أقول :

- لا ، ليس لك أن تشعرى بخزى •

- لقد عوّلت فعلاً على حرارة اندفاعك ، أعترف بذلك •

قالت هذا وهى تخفض عينها •

فهتفت أقول كالسكران :

- كاترين نيقولايفنا ، من ذا يجبرك على مثل هذه الاعترافات ؟ ماذا كان يكلفك من جهد أن تهضى فتبرهنى لى بالفاظ منتقاة أنه كان ثمة شيء ما فعلاً ، ولكن هذا الشيء لا قيمة له ••• كما يجيد أن يفعل ذلك أبناء مجتمعت الرافى فى مواجهة الحقيقة ؟ اننى امرؤ غبى بليد ، فلو فعلت ذلك لصدقتك على الفور ، ولصدقت كل ما قد تقولينه لى ! ماذا كان يكلفك من جهد أن تفعلى هذا ؟ ولم تكونى خائفة منى مع ذلك ، فكيف ارتضيت أن تخفضى قيمتك أمام دساس حقير ، ومراهم تافه ؟

فقلت بوقار شديد ، لأنها لم تدرك تعجبي في أغلب الظن :
 - أنا لم أخفض قيمتي أمامك ، لأنني قلت الحقيقة على الأقل .
 - بالعكس ، بالعكس . ان هذا بعينه هو ما أترض عليه .
 صاحت تقول وهي تحمل يدها الى وجهها كأنما لتخفيه بها :
 - كان هذا منى شراً وا أسفاه ! كان طيشاً وقبحاً ! وأمس كنت
 أشعر بالحزى ؟ فلذلك كنت سيئة الحال شديدة الانزعاج حين جئت
 تزورنى .

ثم أضافت تقول :

- والواقع أن الظروف توجب علىّ حتماً أن أعرف الحقيقة
 كاملة عن مصير تلك الرسالة المشئومة ، ومع ذلك كنت قد أخذت
 أماسها ... فكنت استقبلك في بيتي لا بسبب تلك الرسالة وحدها ...
 أضافت هذه الجملة الأخيرة بفتنة . فوجف قلبي . وتابعت كلامها
 فقلت :

- نعم ، لم أكن أستقبلك بسبب تلك الرسالة وحدها .. لا ..
 حتماً .. اننى ..

وأملت بشفتيها ابتسامة رقيقة . وأردفت قائلة :

- اننى .. لقد عبرت أنت عن هذا منذ قليل يا أركادى
 ماكاروفتش .. فذكرت أننا كثيراً ما نتحدث كما يحدث طالب طالبة .
 أؤكد لك أننى في كثير من الأحيان أشعر في المجتمع بضجر وسأم ، ولا
 سيما بعد اقامتي في الخارج ، وبعد تلك المصائب العائلية كلها ... حتى
 لقد أصبحت لا أخرج كثيراً ، وليس هذا عن كسل منى . وكثيراً ما أتمنى
 أن أعزل في الريف ، فأعيد هناك قراءة كتيبي المفضلة التي هجرتها منذ
 زمن طويل ، والتي لا أتمكن من إعادة قراءتها هنا . على أنني قد قلت

لك هذا كه من قبل • انك تتذكر ذلك • حتى ضحكتَ لأننى أقرأ
الجرائد الروسية ، بمعدل جريدتين فى اليوم ، أليس كذلك ؟

— لا ، لم أضحك ...

— ربما لأنك كنت أنت أيضاً متأثر • لقد اعترفت لك منذ مدة
طويلة بأننى روسية ، وبأننى أحب روسيا • تتذكر أننا كنا نشترك دائماً
فى قراءة « الوقائع » كما كنت تسميها (وابتسمت) • ورغم أنك كنت
فى كثير من الأحيان ... غريباً متفرداً بعض الشيء ، فقد كنت فى أحيان
أخرى تتحمس فتعرف كيف تقول كلمة حق ، وكنت تهتم بنفس الأشياء
التي كنت أهتم بها أنا • انك لطيف وأنيس وأصيل متى كنت « طالباً » •
أما الأدوار الأخرى فلا تلائمك كما يلائمك دور الطالب •

أضافت هذه الجملة الأخيرة وهي تبسم ابتسامة حلوة فيها مكر
محجب • واستطردت تقول :

— تتذكر أننا كنا فى بعض الأحيان نقضى ساعات كاملة فى الاهتمام
بالأرقام فنحسب ونقيس ، نحصى عدد المدارس فى بلادنا ، ونسأل عن
تطور التعليم وما يقود اليه ؟ وننظر فى عدد جرائم القتل ، وجرائم السطو ،
ونقارن ذلك كله بالأخبار السارة ... كنا نحاول أن نعرف أين ينتجه هذا
كله ، وما الذى سنصير اليه آخر الأمر • ووجدت فيك الصدق • ان
الرجال فى المجتمع الراقى لا يخاطبونا بهذه اللغة نحن معشر النساء •
كنت فى الأسبوع الماضى أكلم الأمير « ... سوف » عن بسمارك ،
لأننى شديدة الاهتمام ببسمارك ، وكنت لا أعرف ماذا يجب أن
يكون رأيي فيه • فهل تتصور ما فعله الأمير ؟ جلس الى جانبي ، وطقق
يقص على حكايات شتى مسرفاً فى ذكر التفاصيل ، وكان فى كلامه كله
نوع من سخرية ، وكان فى كلامه ذلك النوع من التواضع والتنازل الذى
يصطنعه « كبار الرجال » فى العادة حين يكلمونا نحن النساء اذا « تدخلنا

فيما لا يعني ، • لقد أصبحت لا أطيق هذا التواضع المصطنع الزائف •
هل تذكر كم من مرة أوشكنا أن نتشاجر في كلامنا عن بسمارك ؟ كنت
تريد أن تبرهن لي على أن لك « فكرة أعلى كثيراً » من فكرة بسمارك •
قالت هذا وضحكت فجأة • واستطردت تقول :

- ما رأيت في حياتي الا رجلين اثنين كلماني جادين حقاً ؟ فأما
الأول فهو المرحوم زوجي الذي كان رجلاً ذكياً ، ذكياً جداً ••• وكانت
نفسه تزخر نبلاً (قالت هذا بلهجة مؤثرة) ، وأما الثاني فانك تعرف •••
فهتفت أقول لاهاً :

- فرسيلوف ؟

- نعم • كنت أحب كثيراً أن أسمع • وقد أصبحت في النهاية •••
صريحة معه كل الصراحة ، بل لعلني أسرفت في هذه الصراحة ، غير أنه
أصبح عندئذ لا يصدقني •

- لا يصدقك ؟

- وما صدقني أحد في يوم من الأيام على كل حال •
- ولكن فرسيلوف ! فرسيلوف !

قالت وهي تخفض عينيها وتبتسم ابتساماً غريباً :

- لم يقتصر على أن لا يصدقني ، بل قرر جازماً أنني « أتصف
بجميع العيوب » •

- ليس فيك عيب واحد •

- بل ان لي بعض العيوب ، أنا أيضاً •

هتفت أقول وقد سطعت عيناى :

- كان فرسيلوف لا يجبك ، فلذلك لم يفهمك •

- فتغير شيء ما في وجهها وقالت بحرارة والحاح شديد :
- دع هذا الأمر ، ولا تكلمنى أبداً عن هذا ... عن هذا الرجل .
- ولكن كفى ، لقد حان الوقت ...
- ونهضت لتتصرف قائلة لى وهى تحديق فى تحديقاً صريحاً :
- فماذا ؟ أتغفر لى أم ؟
- أنا ؟ أغفر لك ؟ اسمى يا كاترين نيقولايفنا ، ولا تغضبى : هل صحيح أنك ستزوجين ؟
- فقال مضطربة ، كالمتراعة :
- لم يتقرر الأمر بعد .
- أهو رجل طيب ؟ معذرة ، اغفرى لى هذا السؤال .
- نعم ، هو طيب جداً ...
- لا تجيبى بعد الآن ، لا تنعمى على بأن جواب . أنا أعلم أن هذه الأسئلة مستحيلة حين ألقيا أنا ! وقد أردت أن أعرف أهو جدير أم لا .
- ولكننى سأعرف منه بنفسى .
- قالت متراعة :
- لا ... اسمع !
- طيب ، طيب ... سأمتنع ، سأمتنع ، سأصرف النظر عن هذا الأمر . ولكن اليك ما أريد أن أقوله لك : أسأل الله أن يهبى لك جميع أنواع السعادة ، جميع أنواع السعادة التى تمنيتها ... جزاء ما وهبت لى من سعادة فى هذه الساعة القصيرة ! ان ذكراك قد نقشت الآن فى نفسى الى الأبد . لقد كسبت كنزاً عظيماً هو فكرة الكمال هذه التى تجسدينها . كنت أقدر فيك خداعاً وغنجاً زائفاً ، فكنت من ذلك شقياً ... لأننى لم أستطع أن أوفق بين هذا الاشتباه وبين ما أراه فيك . وأصبحت فى الأيام

الأخيرة أفكر في هذا الأمر ليلاً ونهاراً • أما الآن فقد وضع لي كل شيء وضوحاً تاماً ! حين كنت آتياً الى هنا كنت أتصور أن ألقى نفاقاً ومكرًا ، وحية لائبة ، فاذا أنا أجد سعادة ، وعظمة ••• اذا أنا ألقى طالبة ! ••• أتضحكين ؟ اضحكي ! ولكنك قديسة ، فلا يمكنك أن تضحكي مما هو مقدس •••

— أنا لا أضحك. الا لأنك تستعمل تعابير رهيبة • فما هي هذه «الحية اللائبة» التي ذكرتها ؟

وانفجرت تضحك • ولكنني تابعت كلامي متحمساً أقول :

— لقد أفلتت منك اليوم كلمة ثمينة • كيف أمكنك أن تقول انك كنت تعوّلين على « حرارة اندفاعي » ؟ صحيح أنك قديسة ، وأنت نفسك تفرّين بهذا ما دمت تتخيلين أنك ارتكبت ذنباً تريدان التكفير عنها ••• مع أنه ليس ثمة ذنب في الواقع ، لأن كل ما يصدر عنك فهو مقدس ولأنه لا شيء يمكن أن يُلطّخك • ولكن كان في امكانك مع ذلك أن لا تنطقى بذلك التعبير •

واستطردت أقول صائحاً مشوشاً :

— ان هذه الصراحة التي ليست أمراً مألوفاً انما تدل على عفوك العظيمي ، وعلى ما تضمينه لي من احترام وعلى ما تحسّينه من ثقة بي • لا تحمري لا تحمري ••• من ذا الذي تقول عليك فزعم أنك امرأة جامحة الهوى ؟ آه ••• اغفري لي ••• انتى أرى في وجهك تعبيراً عن ألم ! اغفري لمراهق مندفع عباراته الحرقاء ! ولكن هل الأمر اليوم أمر عبارات ، أمر تعابير ؟ أليست فوق كل التعابير ؟ قال فرسيلوف يوماً : لئن قتل عطيل ديمونة ثم قتل نفسه ، فإنه لم يفعل ذلك عن غيرة ، وانما فعله لأنه سلب مثله الأعلى • انتى أفهم اليوم هذا الكلام ، بعد أن رُدد الى مثلي الأعلى !

قالت بعاطفة :

— انك تسرف في مدحى : أنا لا أستحق هذا المدح !

ثم أضافت تقول مازحة :

— هل تذكر ما كنت أقوله عن عينيك ؟

— كنت تقولين عنهما انهما مجهران ، واننى أرى الذبابة جمللاً !

لا ، لا ، اننى لا أضخم الأمور الآن ... ماذا ؟ أتصرفين ؟

كانت فى وسط الغرفة تحمل شالها وفروتى^٥ يديها ، فأجابتنى

تقول :

— بل سأنتظر أن تنصرف أنت ، ثم أمضى بعدك • على أن أكتب

كلمتين لثانيانا بأفلوفنا •

— أنا منصرف ، أنا منصرف ، ولكن اليك كلمتين أخريين : أرجو

لك السعادة ، وحيدة أو مع من تختارين ! أما أنا فلست فى حاجة الا الى

مثلى الأعلى •

— عزيزى ، عزيزى الطيب آرКАДى ماكاروفتش ، صدق أننى

سأفكر فيك • ان أبى يصفك دائماً « بالفتى اللطيف ، الطيب » • صدق

أننى سأذكر دائماً ما رويته لى عن الصبى الصغير المسكين الذى ترك عند

غرباء ، وما رويته لى عن أحلامه فى عزله • اننى لأفهم كيف تكونت

نفسك فهماً واضحاً كل الوضوح •

ثم أضافت تقول وهى تبسم ابتسامة ضارعة زاخرة بالحياء والخفر ،

وتشد على يدي مصافحة :

— ولكن لا يجوز لنا بعد اليوم أن نلتقى كما كنا نلتقى ، مهما كن

طالبين ... و ... هل تفهم ما ذا أريد أن أقول ؟

- لا يجوز ؟

- لا ، لا يجوز • وسيستمر ذلك مدة طويلة ••• هذا ذنبى أنا •
اننى أرى أن اجتماعنا بعد الآن مستحيل استحالة مطلقة • على أننا سوف
نلتقى أحياناً عند بابا •••

- أتخشين حرارة اندفاعى وحما عواطفى ؟ ألا تثقين بى ؟
أردت أن أهتف ملقياً عليها هذا السؤال ، ولكنها بلغت من شدة
الحجل أما فى تلك اللحظة فإن الألفاظ لم تخرج من حلقى •
وتوقفت فجأة بقرب الباب وقالت تسألنى :

- قل لى : هل رأيت ••• بعينيك ••• أن تلك الرسالة قد تم
تمزيقها ؟ هل تذكر هذا تذكرأ واضحاً ؟ وكيف عرفت أن الورقة التى
تم تمزيقها هى نفسها رسالتى الى آندرونيكوف ؟

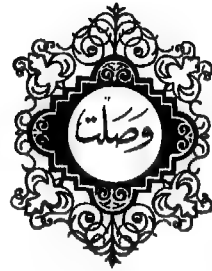
- حدثنى كرافت عن مضمونها ، بل أطلعنى عليها ••• استودعك
الله ! كنت اذا جئت اليك أفقد كل شجاعة ، فاذا خرجت لحظة هممت
أن أقبل الموضع الذى وطأته بقدميك من الأرض •
قلت هذا الكلام الأخير لا أدري كيف ولا لماذا • ثم خرجت
بسرعة دون أن أنظر اليها •

أسرعت الى بيتى • كانت نفسى مترعة بحماسة شديدة وافتسان
قوى • وكان كل شىء مرصع فى خاطرى كروبة • وكان قلبى زاخراً
مفعماً • فلما اقتربت من منزل أمى تذكرت فجأة ما رأيته فى ليزا من
التكر لجمل أنا آندريفنا ، وتذكرت الكلمة القاسية الرهيبة التى قالتها فى
حقها منذ قليل ، فشعرت بقلبي ينسحق ألماً لهما كليتهما ! « ما أقسى قلوبهن
جميعاً ! ولكن ليزا ما بالها ؟ » • كذلك تساءلت وأنا أضع قدمى على درج
الباب •

وصرفت ماتفتى ، بعد أن أمرته بأن يعود الى فى الساعة التاسعة •

الفصل الخامس

١



متأخراً عن موعد الغداء ، ولكنهم لم يكونوا قد
جلسوا الى المائدة : كانوا ينتظروننى . وقد
أعدوا للغداء ألواناً من الطعام اضافية ، ربما
لأننى كنت لا آكل عندهم الا نادراً ، فكان على
المائدة مشهيات وسردين وما الى ذلك . ولكن ما كان أشد دهشتى وما كان
أكبر حزنى حين رأيتهم جميعاً مهمومين مكفهرين : فأما ليزا فأنها حين
رأتنى لم تكذب ترسم على شفيتها ابتسامة ، وأما ماما فكان واضحاً أنها قلقة ،
وأما فرسيلوف فقد تبسم ولكن بجهد . سألت نفسى : « أترامهم
تشاجروا ؟ » وجرى كل شئ فى البداية مجرى حسناً ، باستثناء أن
فرسيلوف امتعض حين جئ به حساء الشعيرية ، ثم سقط حين جئ
بالكفتة ، فقال غاضباً :

- يكفى أن أتبناً أن صنفاً من أصناف الطعام لا تحتمله معدتى حين
أراه فى الغداة على المائدة !

فقلت أسمى تجييه خجلى :

— ماذا تريد يا آندره بتروفتش ؟ لا يستطيع المرء أن يخترع في كل يوم لوناً جديداً •

— ان أملك على نقيض بعض صحفنا التي ترى في كل جديد شيئاً حسناً •

لقد أراد فرسيلوف أن يمزح ، أن يقول شيئاً فيه مرح وصدقة ، ولكنه لم يفلح ، بل لم يزد على أن أرب أمى مزيداً من الرعب ، وهي لم تفهم شيئاً من تلك المقارنة بينها وبين الصحف طبعاً ، ومضت ترسل نظرات زائغة هنا وهناك • وفي تلك اللحظة دخلت تاتيانا بافلوفنا ، فلما دُعيت الى المشاركة في الغداء أعلنت أنها تغدت ، وجلست على الديوان قريبة من أمى •

لَمْ أَكُنْ قد أفلحت بعد في الحصول على حظوة هذه الانسنة • هي لقد كان تهجمها علىَّ يزداد بمناسبة كل شيء ، وبغير أية مناسبة • وكان استياؤها قد اشتد في الآونة الأخيرة : فهي لا تستطيع أن ترى ثيابي الأنيقة ، وقد روت لي ليزا عنها أنها كادت تصاب بنوبة عصبية حين علمت بأن لي خوذياً تحت امرتي • وقد أصبحت في النهاية أتحاشاها ما استطعت الى ذلك سبيلا • أذكر أنني منذ شهرين ، حين رفض أبي الميراث هرعته الى بيتها أحدثها عن سلوك فرسيلوف ، ولكنني لم أحظ منها بأى عطف على هذا السلوك ، حتى لقد استاءت استياء رهيباً : لقد أسخطها أشد الاسخاط أن فرسيلوف رد الميراث كله بدلاً من أن يرد نصفه ، ووجهت الىَّ أنا ملاحظة لاذعة فقالت :

— أراهن أنك على ثقة بأنه رد الميراث ودعا الآخر الى المباراة لا لشيء إلا أن يعلو قدره واعتباره في نظر آرКАДى ماكاروفتش •

كادت تحزر ! فلقد كنت أحس بشمور من هذا النوع حينذاك •

وما إن دخلتُ حتى أدركتُ فوراً أنها ستهجم عليّ ، بل كنت مقتنعاً أنها ما جاءت الا لهذا الغرض . لذلك بادرت الى اصطراع لهجة طليقة جداً ، ولم يكلّفني هذا جهداً كبيراً ، لأنني كنت لا أزال مغمم النفس فرحاً . يجب أن أشير الى أن هذه اللهجة الطليقة كانت لا تناسبني أبداً ، ولا توافق سحنتي اطلاقاً ، وأنها كانت كثيراً ما تجلّلتني بالخرى ، وذلك ما حدث ، فسرغان ما قبض عليّ متلبساً بجريمة الكذب ، ذلك أنني - بدون أية عاطفة سيئة ، بل بدافع الحفة وحدها - حين لاحظت أن ليزا حزينة حزناً شديداً ، أفلت من لساني على حين فجأة ، دون أن أفكر فيما أقوله ، أفلت من لساني قولي :

- منذ قرن من الزمان لم أكل هنا ، ثم هانت ذى عابسة الوجه ، متجهمة الهيئة يا ليزا . فهل اخترت لحزنك وكأبتك هذا اليوم اختياراً ؟

فأجابتنى ليزا تقول :

- أعاني من صداع .

ثم اذا بتاتيانا بافلوفنا تهجم هجمتها قائلة :

- ما قيمة أن تكوني مريضة ؟ لقد تفضل آرКАДى ماكاروفتش فجاء

الى هنا : فيجب عليك أن ترقصي وأن تبتهجي !

فانبريت أقول :

- انك بلية حياتي حقاً يا تاتيانا بافلوفنا ! لن أجيء بعد اليوم أبداً

متى كنت هنا !

قلت ذلك و خبطت المائدة بيدي في غضب صادق . فانتفضت أمي ،

وألقى عليّ فرسيلوف نظرة خاصة غريبة . وانفجرت أنا أضحك واستغفر .

قلت ملتفتاً الى تاتيانا بافلوفنا ، بلهجة ما تزال طليقة :

- انني أسحب كلمة « البلية » .

فأجابت تقول جازمة :

- لا ، لا ، ثق أنك تمدحني مدحاً عظيماً حين تصفني بأنتى بلية
حياتك ، ولا تصفني بنقيض ذلك !

وقال فرسيلوف مبتسماً :

- يا عزيزى ، يجب على الانسان أن يعرف كيف يتحمل البلايا
الصغيرة فى هذه الحياة • ولا جمال للحياة بغير بلايا !

فصحت أقول وأنا أضحك ضحكاً عصبياً :

- انك فى بعض الأحيان رجعى رهيب !

- يا صديقى ، هذا لا يهمنى !

- لا يهمنى ؟ انك مسرف فى الأدب والتعذيب • لماذا لا تتطلق على
السحبة فتقول لحمار انه حمار ؟

- أنفسك تعنى ؟ أنا أولاً لا أريد ولا أستطيع أن أحكم على أحد !

- لماذا لا تريد ، لماذا لا تستطيع ؟

- كسلأ واشتمزازاً • قالت لى امرأة ذكية فى يوم من الأيام : ليس
من حقى أن أحكم على الآخرين ، « لأننى لا أجيد الألم » ، ومن أجل أن
ينصب المرء نفسه حاكماً وقاضياً ، يجب عليه أن يكتسب حق الحكم بما
يقاسى من آلام • صحيح أن هذا الرأى يشتمل على غلو وتفخيم ، ولكن
لعله يصدق فى تطبيقه على ، وقد ارتضيت أن أصدقه وأن أتقيد به •

هتفت أسأله :

- هل يمكن أن تكون تاتيانا بافلوفنا هى التى قالت لك هذا الرأى ؟

فقال فرسيلوف وهو يرشقنى بنظرة دهشة :

- كيف حزرت ؟

– من النظر فى وجهها ، فقد انعط فجأة ••

الحق أننى لم أحزر الا مصادفة • وقد علمت فيما بعد أن هذه الجملة
انما قالتها تاتيانا بافلوفنا لفرسيلوف بالأمس أثناء مناقشة حامية • وأخذت
أدرك بمزيد من القوة أننى جئت اليهم منطلق النفس مفعم القلم فرحاً فى
غير الأوان المناسب : فقد كان لكل منهم هم ثقيل جائم على صدره •

قلت :

– اننى لا أفهم شيئاً ، لأن هذا الكلام كله مجرد جداً • انك تحب
الكلام فى أمور مجردة يا أندره بتروفتش • وهذه سمة من سمات
الأنانية • فجميع الأنانيين يحبون أن يتكلموا فى الأمور المجردة !

قال :

– عبارة جميلة ! ولكن دعنى ولا تلح •

فتابعت كلامى منطلقاً أقول بحرارة :

– بل اسمع لى ! ما معنى قولك « أن يكتسب حق الحكم بما يقاسى من
الآلام » ؟ كل انسان شريف فهو قاض • ذلك رأى أنا •

– لن تقع اذن على عدد كبير من القضاة •

– أعرف واحداً •

– من هو ؟

– انه هنا يتحدث معى !

فضحك فرسيلوف ضحكة غريبة ، ومال على أذنى بجسمه كله ،
وأمسك كفى ، وهمس يقول لى : « انه يكذب عليك » •

لم أستطع أن أفهم 'ماذا أراد أن يقول ، ولكن لاشك أنه كان فى
تلك اللحظة مضطرباً اضطراباً شديداً (عقب علمه بنأ من الأنباء كما عرفت

ذلك فيما بعد) ، ولكن هذه الجملة « انه يكذب عليك » قد قيلت بلهجة تبلغ من الجذو وهيئة تبلغ من الغرابة والبعد عن المزاح ، أنتى رأيتى أرتعش ارتعاشاً عصياً ، حتى لكأنتى مرتاع ، وألقيت عليه نظرة متوحشة • ولكن فرسيلوف أسرع يضحك •

قالت أمى بعد أن خافت حين رآته يهمسن فى أذنى :

- الحمد لله ! لقد ظننت أن •• لا تزعل منا يا آركادى • الأذكىاء فى هذا العالم كثير ، ولكن من عسى يحبك كما نحبك ، بعد أن نرحل نحن عن هذه الحياة ؟

- لهذا السبب أرى أن حب الأبوين مناف للأخلاق ، فهو حب لا يحظى به المرء عن جدارة واستحقاق • وانما ينبى أن يكون الحب مستحقاً •

- ستستحقه فيما بعد ، وبانتظار ذلك نحبك لغير سبب يدعو الى الحب •

أخذ الجميع يضحكون • فهتفت أقول ضاحكاً كذلك :

- لعلك يا ماما لم تقصدى أن تسددى الى هدف معين ، ولكن أصبت قلب هذا الهدف •

وانبرت تاتيانا بافلوفنا تهجم على من جديد فقالت :

- أترأك كنت تظن أن هناك أسباباً تدعو الى حبك ؟ نعم ، انهم يحبونك لغير سبب يدعو الى حبك ، بل قل انهم يحبونك من خلال الاشتمزاز منك !

فهتفت أقول مرحاً :

- اه •• لا ! •• أترفين من قال لى اليوم انه يجبنى ؟

فأسرعت تاتيانا بأفولفونا تقول بمكر غير مألوف ، فكأنها قد توقعت منى تلك الجملة نفسها:

— اذا قال لك أحد انه يحبك ، فانما قال ذلك ليسخر منك • نعم ، لا بد لانسان مرهف الشعور ، ولا بد لامرأة بخاصة أن تسمئر من نفسك السوداء • ان لك فرقاً فى شعر رأسك ، وانك تلبس قميصاً ناعماً ، وترتدى ثياباً يخطها لك الحياط الفرنسى الشهير ، ولكن ذلك كله ليس الا وحلاً ! من ألبسك ؟ من يطعمك ؟ من يعطيك مالا لتقامر فى الروليت ؟ تذكر من الذى لا تستحى أن تطلب منه هذا المال !

تخضبت أمدى بحمرة شديد • لم أر فى حياتى خجلاً كهذا الخجل يجلل وجهها • فتار حلقى وقلت محمر الوجه :

— اذا كنت أنفق فانما أنفق مالى ، وليس على حساب أؤديه لأحد !

— مالك ؟ مالك أنت ؟ كيف ؟

— اذا لم يكن مالى فهو مال آندره بترفوش الذى يمنعه عنى • آخذه من الأمير سداداً لدين آندره بترفوش عليه •••

فقال فرسيلوف بلهجة جازمة :

— يا صديقى ، ليس لى عليه كوبك واحد •

كانت الجملة ذات مغزى رهيب • فتسمرت فى مكانى صامتاً • ولاشك أننى كان فى وسعى أن أتذكر الحالة النفسية المشوشة العجية التى كنت عليها حينذاك ، فأخرج من الحرج باندفاعه « نبيلة » أو بكلمة ذات تأثير أو بأية حيلة أخرى • ولكننى لاحظت فجأة فى وجه ليزا المكفهر تعبيراً شريراً فيه اتهام وظلم ويكاد يشتمل على سخريه ، فاذا بشيطان يدفنى فأقول لها وأنا التفت اليها :

— يبدو لى يا آنسة أنك تزورين كثيراً داريا أونيسيموفنا فى بيت

الأمير • فهل أستطيع أن أطلب منك أن تعطى الأمير هذه الثلاثمائة روبل التى أبتغونها عليها اليوم هذا التائب كله ؟

وسللت المال من جيبي ومددته إليها • هل يصدق أحد أن هذه الكلمات الشريرة قد قيلت بغير أى قصد ، أعنى أنها كانت خالية من أى تلميح الى أى امر ؟ بل كان لا يمكن أن تشتمل على أى تلميح ، لأننى كنت حتى تلك اللحظة لا أعرف شيئاً البتة ؟ ولعل كل ما أردت أن أفعله هو أن أخزها وخزة بريئة ، وكأن أقول مثلاً : « يا آتسة تتدخل فيما لا يعنينا ، هلا رضيت - ما دمت تحرصين على أن تحسرى أنفك فى كل مكان - أن تذهبي الى هذا الأمير ، الى هذا الشاب ، الى هذا الضابط البطرسبرجى ، فتلقى اليه هذه الرسالة » ما دمت تحبين كثيراً أن تتدخل فى شئون الشباب • ولكن ما كان أشد انشداهى وما كان أعظم ذهولى حين رأيت أمى تنهض بحركة سريعة مفاجئة ، وترفع اصبعها مهددة اياى ، وتصرخ قائلة لى :

- اخرس !

ما كان فى وسعى أن أتوقع منها شيئاً من هذا القيل ، فاذا أنا أنتفض ، من دعر ، بل من ألم ، من جرح فى القلب نازف موجع ، لأننى أدركت بجأة أنه قد وقع شئ فظيع رهيب • ولكن ماما لم تصمد طويلاً ، فما هى الا برهة قصيرة حتى دفنت وجهها فى يديها وخرجت من الغرفة بسرعة ، وتبعها ليزا دون أن تنظر الى الجهة التى كنت فيها ؟ وتأملتنى تاتيانا بأفولونا فى صمت نصف دقيقة ، ثم هتفت تقول ملفزة وهى تنظر الى مدهوشة :

- هل 'يعقل أنك أردت أن تقول كلاماً قذراً ؟

وبدون أن تنتظر منى جواباً ، خرجت هى أيضاً • ونهض فرسيلوف عن المائدة وفى وجهه تعبير عن عداوة تكاد تكون شريرة ، وتناول قبعته من ركن فى الغرفة ، وجمجم يقول مستهزئاً :

كنت أقدر أن لا تكون غيباً هذا الغباء كله ... وانما أن تكون
بريثاً لا أكثر . اذا رجعت فقل لهن أن لا ينتظرنى لتناول الحلوى ، فسأقوم
بجولة .

بقيت وحيدى . ووجدت الأمر فى البداية غريباً ، ثم وجدته مهيناً
جارحاً ، ورأيت فى النهاية أنى على خطأ . ولكننى لم أدرك ما خطئى ،
وانما كنت أحس احساساً بأن خطأ قد صدر عني . وجلست أمام النافذة
أنتظر . وبعد عشر دقائق تناولت قبعتى أنا أيضاً ، وصعدت الى غرفتى
القديمة التى تقع تحت السقف . كنت أعلم أنهما هناك ، أعنى أمى وليزا ،
وأن تاتيانا بافلوفنا قد ذهبت الى بيتها . وقد وجدتهما فى غرفتى فعلاً ،
جالستين على ديوانى تتهاوسان . فما ان رأيتننى حتى انقطع تهامسهما . وما
كان أكبر دهشتى حين لم تظهرا لى غضباً ! ان ماما على الأقل قد طالعتنى
بإتسامة .

أردت أن أتكلم فقلت :

— اغفرى لى يا ماما ...

ولكن ماما قاطعتنى قائلة :

— هيا هيا ! لا قيمة لهذا ... ولكن فليجب كل منكما الآخر ،
ولا تتشاجرا أبداً . أسأل الله أن يمن عليكما بالسعادة .

فقلت ليزا بماطفة واقتناع :

— هو يا ماما لن يسيء الى يوماً . نقي بأنه لن يسيء الى أبداً .

وهتفت أقول :

— لولا تاتيانا بافلوفنا هذه لما حدث شيء من هذا كله . انسانية
مسيئة .

قلت ليزا وهى تشير الى :

— أرايت يا ماما ؟ أسمعت ؟

وصحت أقول :

— واليكما ما أحب أن أعلنه لكم كلكيما : اذا كان أحد يفسد الحياة فهو أنا ، ولولاى لكان كل شيء بهيجاً !

— لا تزعل يا صغيرى أركادى ، يا بنى العزيز ، ولكن ليتك تكف
... عن

— عن القمار ؟ عن القمار ؟ سأكف يا ماما . سأقامر اليوم آخر مرة ، ولا سيما بعد الذى أعلنه آندره بتروفتش صراحة منذ هنيهة اذ قال انه ليس له على أحد هناك كوبك واحد . لا تستطيعين أن تتصورى مدى ما أشعر به من عار ... ولكن على أن أشرح ما بنفسى ... ماما العزيزة ، لقد قلت هنا فى آخر مرة كلمة خرقاء ... كذبت يا ماما : الحق أننى أريد صادقاً أن أؤمن . كان ذلك منى تبجحاً . فأنا أحب المسيح ...

كنا فى المرة السابقة قد جرى بيننا حديث من هذا النوع فعلاً . وقد تأملت أسمى كثيراً وارتاعت كثيراً . فلما سمعت ما قلته الآن ابتسمت لى كما يبتسم المرء لطفل ، وقالت :

— ان المسيح يا صغيرى أركادى سيففر كل شيء : سيففر تجديداتك وما هو أسوأ منها أيضاً . المسيح أب ، المسيح ليس فى حاجة الى شيء ، وسيظل يتلألاً حتى فى أعظم الظلمات ...

ودعهما وخرجت مفكراً فى احتمالات لقائى فرسيلوف فى هذا اليوم نفسه . هناك أشياء كثيرة يجب أن أحادثه فيها ، وقد استحال ذلك منذ قليل . وقد رت أنه لا بد أن يكون الآن فى بيتى ينتظرنى . فذهب الى بيتى ماشياً . ان المشى ليحلو فى مثل هذا الجو البارد .

٢

كنت أقيم بقرب جسر « الصعود » فى عمارة كبيرة ، وكان مسكنى
يطل على فناء العمارة . فما ان دخلت بوابة العمارة حتى رأيتنى
أصطدم بفرسيلوف الذى كان خارجاً من عندى . وقال :

— على عادتى ، كنت أتنزه ماشياً فوصلت الى مسكنك ، حتى لقد
انتظرتك عند بطرس هيوليتوفتش ، ولكننى ضجرت فى النهاية . انهم فى
هذا البيت لا يكفون عن التشاجر . بل ان زوجته مستلقية الآن فى فراشها
تبكى . ألقى نظرة ثم انصرف .

شعرت بشيء من الاستياء . وقلت :

— أظن اننى الشخص الوحيد الذى تزوره ، فكأنك لا تعرف أحداً
فى بطرسبرج الا أنا وبطرس هيوليتوفتش !
— أى بأس فى هذا يا صديقى ؟

— فأين تذهب الآن ؟

— لا ، لن أصعد اليك ثانية ، فاذا شئت تنزهنا ماشين ، فالأمسية
رائعة .

قلت فجأة :

— لو انك ، بدلاً من الاسترسال فى تأملات مجردة ، قد قلت لى
شيئاً إنسانياً ، لو انك — مثلاً — قلت كلمة عن حماقتى التى تدفعنى الى
العمار ، فلعلنى ما كنت لأنجرف ذلك الانجراف كما يفعل أبله معتوه .

فقال وهو يزن كلماته :

— أأنت نادم ؟ هذا حسن • لقد قدرت دائماً أن انغماسك في القمار ليس أصلاً فيك ، وانما هو انحراف عابر •• ! انك على حق يا صديقي ، فالقمار من الموبات ، ناهيك عن أن المرء قد يخسر •
— وقد يخسر مال غيره أيضاً •

— هل خسرت مال غيرك ؟

— خسرت مالك أنت • كنت اقترض من الأمير على حساب دينك عليه • ولاشك أنه سخف وحمافة منى أن أعد مالك مالى ، ولكننى كنت أريد دائماً أن ألعب لأسترد الخسارة •

— أنبهك مرة أخرى يا عزيزى الى أن الأمير ليس عليه لى دين • أنا أعرف أن هذا الشاب يعانى هو نفسه ضيقاً شديداً ، وأرى أنه ليس مديناً
•••••

ا كانت حالى سيئة سوءاً مضاعفاً ••• بل كانت تدعو • فما صفتى الآن حتى يعطينى وأخذ منه ؟
شأنك أنت ••• ولكن قل لى بصراحة : أليس هناك أى سبب ••• خاص يسبب لك الاقتراض منه ، هه ؟
— لا شيء الا كوتنا رفيقين •

— لا شيء الا كونكما رفيقين ؟ أليس هناك أى سبب آخر يسوِّغ لك أن تقترض منه ؟ أليس هناك اعتبارات معينة مثلاً ؟ •••
— ما عسى يكون هنالك من اعتبارات ؟ لست أفهم !

— هذا أفضل • الأفضل أن لا تفهم ! أعترف لك يا صديقي بأننى كنت على يقين من هذا • « طيب ، لنقف عند هذا الحد يا عزيزى » ! وحاول أن نكف عن القمار مع ذلك •

— ليتك أسديت لى هذه النصيحة من قبل ! بل انك حتى فى هذه اللحظة تسديها الى بلهجة تخلو من كل حرارة •

— لو نصحتك قبل الآن لما زدنا على أن نختصم ، ولما سرّك كثيراً أن تستقبلنى فى بيتك مساء • اعلم يا صديقى أن جميع هذه النصائح التى تستهدف نفع الآخرين ليست الا تدخلاً فى شئونهم لا حق لأحد فيه • ولطالما تدخلت هذا التدخل فما جنيت منه الا المنقصات والسخريات • وهبنى لم أعباً بالمنقصات والسخريات ، فان الشئ الهام هو أن هذا التدخل لا يثمر أبداً ، فما من أحد يستمع لك ، ويأخذ الناس يكرهونك •

— يسعدنى أنك بدأت تكلمنى فى غير الأمور المجردة • هذك شئ آخر أريد أن أسألك عنه منذ مدة طويلة ولكننى لم أستطع ذلك حتى الآن • ان الشئ فى الشارع يشجع على المسارة والنجوى • هل تتذكر ذلك المساء الذى كنا فيه عندى ، فى « تابوتى » ، منذ شهرين ، فسألتك عن ماما وعن ماكر ايفانوفتش ؟ هل تتذكر كيف استرسلت فى الكلام منطلقاً « بغير تخرج » ؟ فهل كان يجوز لابن أن يخوض فى الكلام عن أمه بهذه الألفاظ ؟ ولكنك لم تصدر عنك كلمة اعتراض واحدة ! حتى لقد « حللت أزرارك » أمت نفسك ، فشجعتنى على المزيد من خلع العذار •

— يا صديقى ، يسعدنى أن أسمعك تفصح عن ... مثل هذه المشاعر ... نعم ، أتذكر تذكرأ واضحاً ... لقد كنت أتوقع فى تلك اللحظة فعلاً أن أى حمرة فى وجهك ، ولئن أرخيت لك العنان ، فلعلنى انما فعلت ذلك لأجملتك تبلغ آخر الحدود ...

— فلم تزد اذن على أن خدعتنى ، وعكزت النبع الصافى الذى كان فى نفسى مزيداً من التعكير ! نعم ، ما أنا الا مراهق شقى ، وائى لأجهل فى بعض الأحيان ما هو خير وما هو شر • فلو أريتنى الدرب ولو قليلاً لفهمت ولسرت فى الطريق القويمة فوراً • ولكنك لم تزد على أن أثرت حقنى •

— « ايها الابن العزيز » ، لقد أوجست دائماً أننا سنتفق فى يوم من الأيام حتماً : فهذه « الحمرة » فى وجهك قد ظهرت الآن من تلقاء نفسها بدون أن أدلك على شىء ، وأحلف أن هذا خير لك ... اننى ألاحظ يا عزيزى أنك قد تحسنت كثيراً فى هذه الآونة الأخيرة ... أياكون الفضل فى هذا لصحبة ذلك الأمير الشاب ؟

— لا تمدحنى ، فأننى لا أحب هذا • لا تخلق فى قلبى هذا الاشتباه الأليم وهو أنك انما تمدحنى نفاقاً ورياءً على حساب الحقيقة حتى لا أكف عن الإعجاب بنفسى • هل تعلم أننى فى هذه الآونة الأخيرة قد ترددت على نساء ؟ هل تعلم أن أنا أندريفنا مثلاً تحسن استقبالى فى بيتها وتكرم وفادتى ؟

— أعرف ذلك منها نفسها يا صديقى • نعم ، انها لطيفة وذكية • ولكن « لنقف عند هذا الحد يا عزيزى » • شىء غريب • حالتى اليوم سيئة • لعله السأم • اننى أنسب هذا الى البواسير • ما أخبار البيت ؟ لا شىء ؟ تصالحتم وتعاقدتم طبعاً ، هه ؟ هذا ما جرى قطعاً • انه أمر محزن أحياناً أن يضطر المرء الى العودة اليهما حتى بعد جولة مزعجة • ولكم يتفق لى أن أطيل الطريق تحت المطر المنهمر حتى أؤخر لحظة العودة ... ما أشده سأمًا يارب ! ما أشده سأمًا ! ...

— أمى ...

— أمك أكمل مخلوقات الله وأعذبها ، « ولكن » ... الخلاصة : يظهر اننى لا أساويهما قيمة • بالمناسبة : ما بالهما اليوم ؟ ان هيشهما تدل فى هذه الأيام الأخيرة على ... ماذا أقول ؟ ذلك اننى أحاول دائماً أن أجهل ، ولكن لا بد أنهما تدبران اليوم أمراً ... ألم تعلم شيئاً ؟

— لا أعلم شيئاً البتة ، بل ما كان لى أن ألاحظ شيئاً لولا هذه اللعينة تاتيانا بافلوفا التى لا تستطيع أن تمتنع عن العض • انك على حق : لابد أن

هناك أمراً • لقد وجدت ليزا عند آنا آندريفنا ، وكانت ••• حتى لقد أدهشتي حالهما • أظن أنك تعلم أن آنا آندريفنا تستقبلها ؟

— أعلم يا صديقي • وأنت ••• متى كنت عند آنا آندريفنا ؟ في أية ساعة على وجه الدقة ؟ انتنى في حاجة الى معرفة هذا بسبب واقعة ما •

— بين الساعة الثانية والساعة الثالثة • وتصور أنتى حين خرجت رأيت الأمير داخلاً •••

وحكى له زيارتي من أولها الى آخرها تفصيلاً • فأصغى الى كلامي دون أن يقول كلمة واحدة • ولم يعقب بشيء على احتمال زواج الأمير بآنا آندريفنا • وحين كلت المديح لآنا آندريفنا متحمساً تحمساً شديداً عاد يقول مرة أخرى أنها « لطيفة » • وقلت فجأة كأنها أفلتت منى الجملة افلاتاً :

— لقد أدهشتها اليوم ادهاشاً هائلاً حين نقلت اليها ذلك النبأ الجديد كل الجدة وهو أن كاترين نيقولايفنا ستتزوج البارون بيورنچ •

— أدهشتها ؟ فما رأيك اذا قلت لك انها أبلغتني هذا النبأ هي نفسها في هذا الصباح قبل الظهر ، أي قبل أن تدهشها أنت ذلك الادهاش الهائل ؟

— ما هذا الذى تقول ؟

وتسمرت فى مكانى ، واستطردت أتكلم فقلت :

— من أين أمكنها أن تعرفه ؟ ولكن ما هذا الذى أقوله أنا ؟ انه الأمر محقق أنها استطاعت أن تعرف النبأ قبلى ، ولكن هل تتصور أنها أصغت الى كلامى اصغاءها الى نبأ جديد يثير الدهشة ؟ الخلاصة ••• عاشت رحابة الصدر ! يجب على المرء أن يقبل جميع الطباع بجميع خصائصها ، أليس كذلك ؟ فأنا مثلاً اذا علمت نبأ من الأبناء طفقت أذيعه فوراً ، أما هي

فإنها تحكم اغلاق علبة تبغها على كل ما تعرف ... حسن ، حسن ! إنها مع ذلك ألطف المخلوقات ، وإن طبعها أروع الطباع !

— لكل إنسان خلقه طبعاً ! ولكن الشيء الفريد العجيب هو أن هذه الطباع الرائعة تمتاز أحياناً بأنها تلقى عليك ألغازاً غريبة • تصور أن أنا أندريفا قد رشقتني في هذا اليوم نفسه بهذا السؤال من غير لف ولا دوران : « أحب كاترين نيقولايفنا آخماكوفاً أم لا ؟ » •

هتفت أقول مشدوهاً مرة أخرى :

— يا للسؤال العجيب السخيف !

واضطرب فكري لحظة • اتنى لم أبحث معه هذا الأمر في يوم من الأيام ، وما هو ذا الآن ، من تلقاء نفسه ... •

قلت :

— وكيف شرحت سؤالها ؟

— لم تشرحه يا صديقي ... وإنما عادت علبة التبغ 'تفلق' بإحكام أشد • يجب أن تلاحظ من جهة أخرى أنني لم أقبل في يوم من الأيام أن تجرى بيننا أحاديث من هذا القيل • • • ولا هي قبلت ذلك أبداً من قبل • ولكنك تقول إنك تعرفها ، ففي وسعك إذن أن تتخيل أن مثل هذا السؤال يناسب جمالها كثيراً • أترأك تعرف شيئاً ؟

— إن صدور هذا السؤال عنها لفر في نظري كما هو لفر في نظرك •

لعله فضول ، لعله مزاح ؟

— بالعكس • لقد كان في السؤال جد كبير • حتى إنه لم يكن سؤالاً بل استجواباً ، ولا شك أنها ألقت مدفوعة بأسباب خارقة قاطعة • سوف

تراها ، أليس كذلك ؟ فهل تستطيع أن تعرف منها شيئاً ؟ بل اننى أطلب منك هذا طلباً ، لأن الأمر ، كما ترى ...

- ولكن امكان افتراض أنك تحب كاترين يقولان أيضاً يحترني ويذهلني . معذرة : اننى لا أعرف كيف أخرج من هذه الحيرة وهذا الذمول . أنا لم أبج لنفسى فى يوم من الأيام أبداً أن أكلملك فى هذا الموضوع ولا فى أى موضوع من هذا النوع ..

- ولقد تصرفت تصرفاً حكيماً يا عزيزى !

- ان مغامراتك القديمة لا يلقى أن تكون موضوع حديث بيننا طبعاً . ولو كلمتك عنها لكان ذلك منى حماقة . ولكننى لا أكمك أتى فى هذه الآونة الأخيرة ، فى هذه الأيام الأخيرة ، قد هتفت متسائلاً بينى وبين نفسى : « لو أنه أحب هذه المرأة فى يوم من الأيام ولو لحظة واحدة ، لما اقترف فى حقها خطأ يبلغ ذلك المبلغ من الهول الذى بلغه خطوك بعد ذلك . » اننى أعرف ما وقع : أعرف عداوتكما المتبادلة وما يشعر به كل منكما نحو الآخر من نفور وكره ان صح التعبير . لقد سمعت عن هذا ، سمعت عنه كثيراً منذ كنت بموسكو ؟ وما يبرز واضحاً للعيان هنا هو أن ثمة كرهاً شديداً وعداوة ضارية هما نقيض الحب . فكيف تسألك أنا آندريفا فجأة هل أنت تحب كاترين يقولان أيضاً ؟ أمر غريب جداً . لابد أنها أرادت أن تضحك !

قال فرسيلوف بصوت لاحظت فيه شيئاً من اضطراب عميق ينفذ الى القلب ، وهذا ما لا يحدث له الا نادراً :

- لكننى لاحظ يا عزيزى أنك تكلم أنت نفسك عن كاترين يقولان أيضاً بحرارة شديدة . لقد قلت منذ لحظة أنك تتردد الى نساء ... واننى لأشعر بحرج طبعاً اذا أنا سألتك عن أمر كهذه الأمر ... ولكن أليست « هذه المرأة » فى عداد صديقاتك الجديديات ؟

اختلج صوتي فجأة وقلت :

- هذه المرأة ... اسمع يا أندره بتروفتش ، اسمع : ان هذه المرأة هي ما وصفتها منذ حين عند الأمير بأنه « الحياة الحية » ، هل تتذكر هذا الذي قلته ؟ ولقد شرحت كلامك عندئذ بأن هذه الحياة الحية شيء يبلغ من الصراحة والوضوح والبساطة وينظر اليك نظرة تبلغ من الاستقامة أنك بسبب هذه الاستقامة وبسبب هذا الوضوح وهذا الجلاء انما يستحيل عليك أن تصدق أنه هو ما ظللنا نبحث عنه طوال حياتنا بكثير من المشقة والعناء ، فانظر اذن بأى عينٍ استقبلت أنت تلك المرأة المثالية ، وانظر كيف رأيت في الكمال وفي المثل الأعلى « جميع العيوب والردائل » ! ذلك هو رأيي يستطيع القارئ أن يتصور مدى الاضطراب الذي كنت فيه ، ومدى ما وصلت اليه من خروجي عن طوري !

صاح فرسيلوف يقول :

- « جميع العيوب والردائل ! » أوه ! هذه كلمة أعرفها . اذا كانت العلاقة بينكما قد بلغت من العمق أنها ذكرت لك تلك العبارة ، فربما كان يحسن أن أهنتك ! ان هذا يفترض أن بينكما صلة تبلغ من الصمیمية أنه يجب على المرء أن يحمدا لك تواضعك وتكتمك اللذين لا يقدر عليهما كثير من الشبان ...

كان في صوته زنين من ضحك لطيف ، ضحك مودة ، ضحك ملاطفة ... وكان شيء من كياسة ومن اغاظة في أقواله وفي وجه المتألق ، اذا صدق ما لمحتة في الظلام . كان في حالة احتياج شديد ، وأشرقت نفسي رغم ارادتي .

هتفت أقول محمر الوجه وأنا أشد في الوقت نفسه على يده التي كنت قد تناولتها ثم لم أتركها بدون أن أشعر :

- تواضع ! تكتم ! لا ، لا تواضع ولا تكتم . ولا محل لتهنتى ، ولن يحدث شيء من هذا أبداً ، أبداً .

كنت أختق اختقاً ، وأطير طيراناً . كانت تملؤنى رغبة قوية فى أن أطير ، ان فى الطيران فتة عظيمة ! واستطردت أقول :

- وهب شيئاً من ذلك حدث فى يوم من الأيام ، ولو مرة واحدة ، فان رأى يا بابا العزيز اللطيف - هل تسمح لى بأن أناديك بابا ؟ - رأى أنه عار على أى إنسان ، لا على ابن وأبيه فحسب ، أن يتحدث الى شخص آخر عن علاقاته بامرأة ، مهما تكن هذه العلاقات طاهرة نقية ! بل كلما كانت هذه العلاقات أظهر وأبقى كان كتمانها أوجب وألزم . ان الحديث فى هذه الأمور عيب وليس فى هذا المجال نجى يفضى اليه المرء بأسراره ! فكيف اذا لم يكن ثمة شيء البتة ؟ هل يجوز الكلام فى هذه الحالة ؟ هل يجوز ؟

- الا اذا انتهى المرء أن يتكلم ...

- سؤال محتشم ، محتشم جداً : انك قد عرفت فى حياتك نساء ، وكانت لك بهن علاقات ... أليس كذلك ؟ اننى ألقى عليك هذا السؤال عاماً .. عاماً لا خاصاً !

. احمر وجهى وكنت أختق حماسة . قال :

- لنفرض اننى عرفت نساء وكانت لى بهن علاقات ، فما هو السؤال الذى تريد أن تلقيه ؟

- اليك حالة أريد أن تفسرها لى ، ما دامت تجربتك أكبر : هذه امرأة تقول لك وهى تودعك ، تقول لك فجأة ، بغير مقدمات ، وهى تنظر الى جانب : « سأكون فى الساعة الثالثة من الغد فى مكان كذا ... » عند تاتيانا بافلوفنا مثلاً ...

ها قد اندفعت ومضيت الى النهاية . كان قلبى يخفق ، بل لقد كف

قلبي عن الحفان • أردت أن أمسك عن الكلام : ولكن استحالي على ذلك •
وكان هو يصغى بانتباه شديد • استطردت أقول :

– وفي الساعة الثالثة من الغد ، كنت عند تاتيانا بأفلوفنا • دخلت •
وكنتم أفكر على النحو التالي : « ستفتح لي الطباخة – هل تعرف طباختها؟ –
فأسألها فوراً : هل تاتيانا بأفلوفنا هنا ؟ فإذا أجابتنى بأنها ليست هنا ، وبأن
سيدة تنتظرها » فما الذي يجب أن أستخلصه من هذا ؟ قل لي إذا كنت ...
أقصد إذا كنت ...

– يجب أن تستخلص من هذا أن موعداً قد ضرب لك ولكن هل
حدث هذا ؟ وهل حدث اليوم ؟ نعم ؟

– أوه ! لا ، لا ، لا ! أبداً ! أبداً ! لقد حدث ، ولكنه لم يحدث
على هذه الصورة ! هو موعد ، ولكن لا لهذا الأمر • أعلن ذلك قبل كل
شيء ، حتى لا أكون رجلاً غير شريف • لقد حدث ، ولكن ...

– يا صديقي ، هذا كله قد بلغ من الغرابة انني اقترح عليك
أن ...

– كنت في الماضي أتصدق بذهب على كل سائل ... مضي ذلك
الزمان ! بضعة كويكات فقط • ان ضابطاً برتبة ليوتان هو الذي يستجديك
بضعة كويكات ، ضابط سابقاً •

ان قامة طويلة هي قامة شحاذ لعله ضابط محال على التقاعد فعلاً قد
سدّت طريقنا فجأة • وكان أعجب ما في أمره أن هندامه أحسن كثيراً
من أن يكون هندام شحاذ • ولكن ذلك لم يمنعه من مدّ يده مستعظياً •

إذا كنت أذكر واقعة الليوتنان هذه الشقية فأنسى أفضل ذلك عامداً ،
لأن فرسيلوف انما يعرض لذاكرتي دائماً محاطاً بجميع تفاصيل هذه
الواقعة ، حتى التفاصيل الدقيقة منها ، وهي واقعة كانت لي حاسمة مشؤمة ،
ولكننى لم أكن أعرف أنها كذلك .

رفع فرسيلوف صوته عالياً غير طبيعي على حين فجأة ، وقال يخاطب
الليوتنان وهو يقف امامه :

— دعنا ، والا ناديت الشرطة فوراً !

ما كان لي أن أتوقع غضباً كهذا الغضب ، من فيلسوف كهذا الفيلسوف ،
لسبب تافه هذه التفاهة . ولاحظوا أننا قطعنا حديثنا عندئذ في نقطة هي
أكثر النقاط إثارة لاهتمامه واجتذاباً لاتباهه ، كما قال ذلك هو نفسه منذ
هنيهة .

فصرخ الليوتنان يقول بغتة وهو يحرك يده :

— أليس معك خمسة عشر كوبكاً ؟ أى وغد لا يملك خمسة عشر
كوبكاً في هذه الأيام ؟ وغد ! سافل ! يرتدى فاخر الثياب ، ثم هو يجعل
الخمسة عشر كوبكاً قضية كبيرة من قضايا الدولة !

فصاح فرسيلوف منادياً :

— يا شرطى !

وكان الشرطى هناك فعلاً ، فى ناصية الشارع ، وكان قد سمع شتائم
الليوتنان ، فقال له فرسيلوف :

- أرجو أن تكون شاهداً على الشتم ! أما أنت فتعال معنا الى المخفر !

فقال الشحاذ :

- ها ها ! يستوى عندى ... لك ما تشاء ... لن نستطيع أن تثبت شيئاً ! وخاصة لن نستطيع أن تثبت ذكائك !

فقال فرسيلوف جازماً :

- أيها الشرطى ، لا تتركه ، وخذنا الى المخفر .

فهمست أسأل فرسيلوف :

- الى المخفر ؟ لماذا ؟

- حتما يا عزيزى . ان هذه الفوضى فى شوارعنا قد أخذت تضجرنى ، فلو قام كل امرئ بواجبه ، لكان فى ذلك خير للجميع . « ذلك مضحك ، ولكن هو ما سنفعله » .

مشينا مائة خطوة كان الليوتنان يصخب ويتعجرف ، مؤكداً أن هذه المعاملة شيء « غير معقول » ، وان خمسة عشر كوبكاً لا تستحق أن ... الخ ؛ ثم مال على الشرطى يهمس فى أذنه . وكان يبدو على الشرطى ، وهو رجل عاقل يكره الفضائح فى الشوارع ، أنه يوافقه على رأيه ، ولكن بمعنى واحد ، فكان يجمعهم قائلاً له بصوت خافت : « لاسيبيل الآن » ، « لقد نشأت قضية » ، « لو تعتذر فيقبل السيد اعتذارك ، لكان يمكن أن ... » .

فصرخ الليوتنان يقول :

- طيب . اسمع يا سيد . الى أين تذهب بنا ؟ اننى أسألك : الى أين نركض هذا الركض ؟ هل هذا من العقل فى شيء ؟ ما رأيك فى أن يعتذر لك هذا الانسان الشقى وهو يعانى ما يعانى من ألوان العذاب ... ما رأيك فى أن تكفى بما أوقعت فيه من اذلال حتى الآن ... هو ! لسنا فى صالون

على كل حال ... نحن في الشارع ... وفي الشارع تكفى اعتذارات
كهنه ...

فتوقف فرسيلوف وانفجر ضاحكاً • فكدت أنصور أنه لم يسترسل
في هذه القصة كلها الا على سبيل التسلية • ولكن الأمر لم يكن كذلك
قال :

- اننى أعذرك كل العذر يا حضرة الضابط ، وأؤكد لك أنك
لا تخلو من موهبة • ولك أن تتصرف هذا التصرف حتى فى الصالونات •
قريباً سيكون هذا صالحاً كل الصلاح للصالونات أيضاً • وبانتظار ذلك ،
إليك أربعين كوبكاً فاشرب بها وكل • وأعتذر إليك عن ازعاجك
يا حضرة الشرطى ، وأهنتك على ما أظهرت من نبل •

ثم التفت فرسيلوف الى قائلاً :

- ويا عزيزتى • ان هناك مشرباً ليس فى حقيقته الا مكاناً قدراً ،
ولكننا نستطيع أن نشرب فيه شايًا ، فأنا أدعوك ... لسنا بعيدين عنه ،
فهل بنا اليه •

أعود فأقول مرة أخرى اننى ما رأيته مهتاجاً هذا الاحتياج فى يوم
من الأيام • ومع ذلك كان وجهه مرحاً مشرقاً بالضياء • لكننى لاحظت أنه
حين أخرج من محفظة نقوده قطعتين بأربعين كوبكاً ، كانت يدها ترتعشان
وكانت أصابعه لا تطاوعه ، حتى انه رجائى أخيراً أن أقوم عنه باخراج
النقود واعطائها الليوتنان • لا أستطيع أن أنسى هذا •

وقادنى الى مشرب صغير تحت مستوى أرض الشارع • ولم يكن
فى المشرب ناس كثير • وكان يعزف فيه على أرغن من براباريا مبجوح
الأصوات متافر الأنغام • وكانت تنشر فى جوهِ روائح أشبه براحة
قوطة ملوثة بالدسم • وجلسنا فى ركن •

— لملك لا تعرف أننى أحب أحياناً ، من فرط الضجر ، من فرط
 الضجر الرهيب الذى يرهق القلب ، أن أتزل الى هذه الأماكن . فهذه
 الموائد ، وهذا اللحن النشاز الذى يعزف « لوسيا » ، وهؤلاء الخدم الذين
 يرتدون ثياباً وطنية روسية تعوزها اللياقة والحشمة ، وهذا الدخان الذى
 يتصاعد من احتراق التبغ ، وهذه الصرخات يطلقها لاعبو البليارد و ، ذلك
 كله يبلغ من العامية والابتذال أنه يكاد يكون من صنع الخيال .
 طيب يا عزيزى ، ماذا كنا نقول ؟ ان ذلك الابن من أبناء اله الحرب مارس
 قد قطع علينا الحديث عند أهم نقطة فيما أظن ولكن اليك الشاى .
 اننى أحب الشاى حباً شديداً هنا تصور أن فيليب هيوليتوفتش كان
 يؤكد منذ قليل لذلك المستأجر الآخر المجدور أن البرلمان الانجليزى قد
 شكل فى القرن الماضى لجنة من رجال القانون مهمتها أن تدرس جميع
 الجوانب من دعوى المسيح أمام كبير الكهنة وبيلات ، لا لشيء الا أن يعرف
 كيف يمكن أن تجرى الأمور اذا طبقت قوانيننا ، وقد هيئت لهذه التمثيلية
 جميع أسباب الأبهة والجلال ، وحشد لها جهاز قضائى كبير ، فمن محلفين
 الى محامين الى سائر ما هنالك وأن المحلفين قد اضطروا بعد مداوالات
 أجروها فى قاعتهم المغلقة أن يخرجوا بقرار ادانة شيء يثير الدهشة !
 وقد أخذ المستأجر القبى يناقش ويجادل ، ثم غضب وسخط وأعلن أنه
 سيترك البيت منذ الغد وأخذت المؤجرة تذرف دموعاً غزيرة لأنها
 ستفقد بتركة البيت ايراداً « ولكن دعنا من هذا » . ان فى هذه
 المشارب عنادل أحياناً . هل تعرف تلك الحكاية الموسكوبية القديمة التى
 تروى على غرار حكايات بطرس هيوليتوفتش ؟ يقال ان عندليباً كان يفرد
 فى مشرب بموسكو . فدخل المشرب واحد من أولئك التجار الذين
 لا يحبون هذا القناء الذى يجرى على وتيرة واحدة . وقال يسأل : « كم
 تمن العنديل ؟ » فقيل له « مائة روبل » فقال : « اقلوه وجيئونى به ! » ،
 ففعلوا ، فلما صار العنديل على مائدته قال : « اقطعوا لى منه شريحة

بفرشين ! ، ، لقد رويت هذه الحكاية يوماً لبطرس هيبوليتوفتش ، ولكنه لم يشأ أن يصدقها ، حتى لقد استاء ...

وتكلم فرسيلوف كثيراً أيضاً . اننى لا أروى هذه الجمل التى قالها الا على سبيل المثال . وكان يقاطعنى كلما فتحت فمى لأشعر فى سرد قصتى ، فيمضى يقول ترهات لا يربط بينها رابط ولا علاقة لها بما نحن فيه . وكان يتكلم بحرارة ومرح كأنه ثمل . وكان يضحك لكل أمر من الأمور ، بل كان يقهقه هازئاً ، وذلك ما لم أعهده فيه من قبل قط . وقد شرب كأساً من الشاي دفعة واحدة ، وسكب لنفسه كأساً أخرى . اننى أفهم الآن الحالة النفسية التى كان فيها : كان مثله كمثل رجل تلقى رسالة عزيزة غالية هامة طال انتظاره لها ، فلما وصلته وضعها أمامه وتمدد أن لا يفضها ، فهو يقلبها بين أصابعه مدة طويلة ، وينعم النظر فى غلافها ، ويتأمل خاتم البريد الذى عليها ، ويمضى الى غرفة أخرى يصدر أوامره الى الخدم ، أبى هو يؤجل الدقيقة الهامة التى يعلم أنها لن تفلت منه ، وذلك ليزيد لذته ومتعته وبهجته .

قصصت عليه كل شىء طبعاً . . كل شىء . . من البداية . . ودام حديثى قرابة ساعة . وكيف لا أقص عليه كل شىء ؟ لقد كنت شديد الظمأ الى الكلام حتى قبل ذلك . بدأت بالحديث عن لقائنا الأول فى منزل الأمير العجوز عقب وصولها . ثم رويت له كيف تتابعت الأحداث شيئاً بعد شىء . لم أغفل شيئاً ، لم أسقط شيئاً ، ولا كان فى امكانى أن أسقط شيئاً : كان هو نفسه يضعنى فى الطريق ، ويحزر ، ويلقننى ، حتى خيل فى بعض اللحظات اننى أعيش حكاية خيالية ، وأنه كان دائماً هناك ، جالساً أو واقفاً فى مكان ما وراء الباب ، فى كل مرة ، طوال هذين الشهرين : كان يعرف سلفاً كل حركة من حركاتى وكل عاطفة من عواطفى . وجدت فى هذا الاعتراف له لذة لا نهاية لها ، لأننى كنت أرى فيه كثيراً من اللطف والركة والمودة ، وكثيراً من نفاذ

الصبر فى النفس الانسانية ، ورأيت فيه قدرة مدهشة على أن يحزر كل شىء من نصف كلمة . وكان يصنعى الى اصغاء فيه حب وحنان ، كما تصفى امرأة . وقد استطاع خاصة أن يحسن التصرف فما شعرت بأى خجل . وكان يستوقفنى فى بعض الأحيان بغتة ليسألنى عن أمر تفصيلى ، وكثيراً ما كان يقاطعنى ويردد بلمهجة عصبية قائلاً : « لا تنس التفاصيل ، التفاصيل خاصة ، فكلما كانت واقعة من الوقائع أصغر شأنًا فى نظر المرء لأول وهلة ، كانت أعظم خطراً فى حقيقة الأمر أحياناً » . وقد عاد الى هذه الفكرة مراراً . وطبيعى اننى فى بداية قصتى قد تعاليت قليلاً ، ولكن سرعان ما رجعت الى الحقيقة ، فرويت له صادقاً أننى كنت مستعداً لأن أقبل المكان الذى تطوُّها قدمها من أرض الغرفة . وكان أروع وأجمل ما فى الأمر أنه فهم فهمًا كاملاً أن فى وسع امرأة أن « تتعذب خوفاً من وثيقة » ، وأن تبقى فى الوقت نفسه طاهرة نقية لا مأخذ عليها ، كما ظهرت لى فى هذا اليوم . وقد فهم كذلك كلمتى الطالب والطالبة حق فهمها . ولكن حين شارفت على النهاية لاحظت أن ابتسامته الطيبة كان يلوح فيها من حين الى حين نوع من نفاد الصبر ، والقسوة ، والذهول . وكان هذا واضحاً وضوحاً شديداً وحين وصلت الى « الوثيقة » . تساءلت بينى وبين نفسى : « أقول له الحقيقة أم لا ؟ » ، ثم لم أقلها له رغم حماسى كلها . أسجل هذا هنا لأذكره مدى الحياة . لقد شرحت له أمر الوثيقة على نحو ما شرحته لها هى ، أى أقحمت كرافت . فالتمتعت عيناه ، وارتسم على جبهته غصن غريب شديد القمامة ، وقال يسألنى :

— أتذكر تذكرًا واضحاً أن تلك الرسالة قد أحرقها كرافت بلهب شمعتة ؟ ألسنت متوهماً ؟

فأجبتة مؤكداً :

— لا ، لست متوهماً

- ذلك أن لهذه الرسالة شأنًا خطيرًا عندها ، فإذا كانت بين يديك
كان في وسعك منذ اليوم أن ...

ما الذى « فى وسعى أن ... » ؟ لم يذكر هذا . وإنما تابع كلامه
يسألنى :

- هل صحيح حقاً أن الرسالة زالت فليست الآن بين يديك ؟

فارتعشت ، ولكن فى داخل نفسى لا فى ظاهرها . أما فى الظاهر
فأتنى لم أفصح أمرى بشئ ، ولا طرفت لى عين . حتى اتنى أردت أن
لا أصدق سؤاله ، فقلت :

- ماذا ؟ بين يدي ، الرسالة بين يدي ؟ كيف تكون بين يدي
وقد حرقها كرافت ؟

- حرقها ؟

وحدق الى بنظرة من نار ، نظرة جامدة ما أزال أذكرها . وظل مع
ذلك مبتسماً ، غير أن كل ما كان فى وجهه من طيبة ، ومن رقة قد
اختفى فجأة . وعبرت هيئته عن خيرة وإبهام . وازداد ما كان يظهر عليه
من ذهول . فلو كان أكثر سيطرة على نفسه ، لو أنه سيطر على نفسه
كما كان يسيطر عليها حتى الآن ، لما ألقى على ذلك السؤال عن الوثيقة .
أما وأنه فعل ، فهذا دليل أكيد على أنه كان خارجاً عن طوره . ولكننى
اليوم انما أقول هذا الكلام . أما فى ذلك الوقت فاتنى لم أدرك التغير الذى
أصابه ، بمثل هذه السرعة ، وظللت أظلم ، وظلت نفسى زاخرة بتلك
الموسيقى نفسها . ولكن قصتى انتهت . ونظرت اليه . فقال لى فجأة منذ
فرغت من الحديث :

- شئ غريب ، غريب يا صديقى : تقول انك كنت هناك من الساعة

الثالثة الى الساعة الرابعة ، وان تاتيانا بافلوفنا لم تكن فى البيت ، أليس كذلك ؟

— من الساعة الثالثة الى الساعة الرابعة والنصف تماماً •

— تصور أنى ذهبت الى تاتيانا بافلوفنا فى الساعة الثالثة والنصف تماماً ، فاستقبلتنى فى المطبخ • اننى أصدد اليها على سَلَم الخدمة فى كل مرة تقريباً فهتفت أقول وأنا أتقهقر الى وراء من شدة الدهشة :

— ماذا ؟ استقبلتك فى المطبخ ؟

— نعم ، وقالت لى انها لا تستطيع أن تستقبلنى ، فلم أمكث الا دقيقتين • وما كنت قد ذهبت اليها الا لأدعوها الى الغداء على كل حال •

— لعلها وصلت فى تلك اللحظة نفسها ؟

— لا أدرى • ولكن لا • مستحيل • لقد كانت لابسة قميصاً • كانت الساعة هى الثالثة والنصف تماماً •

— ولكن ... ألم تقل لك تاتيانا بافلوفنا اننى عندها ؟

— لا ... لم تقل لى انك هناك ... والا لكنت عرفت فما سألتك عن شىء ...

— اسمع ، هذا أمر خطير جداً ...

— خطير أو غير خطير ، ذلك يتوقف على الجهة التى تنظر اليه منها ... ولكننى أرى أن وجهك قد اصفر لونه ... فأين الخطورة فى الأمر ؟

— لقد ضحك على كما 'يضحك على طفل ...

— بل كل ما فى الأمر أنها « خافت من حرارة اندفاعك » ، كما قالت لك ، فاختبأت وراء تاتيانا بافلوفنا •

- ما هذه القصة يارب ؟ اسمع ، لقد أنطقتى ذلك الكلام كله بحضور شخص ثالث ، أمام تاتيانا بافلوفنا • معنى هذا أن تاتيانا بافلوفنا سمعت ما قلته ! هذا ... هذا رهيب ! بل رهيب بصورة !

- كل شيء نسبي يا عزيزي ! ثم انك قد ناديت برحابة الفكر ، للمرأة عامة ، وهتفت تقول : « عاشت رحابة الفكر » •

- لو كنت أنا عطيل ، وكنت أنت ياجو ، لما استطعت أن تقول خيراً من هذا • ولكننى أقترح • • أضحك • • فلا يمكن أن يكون هنا عطيل ، إذ ليس ثمة علاقات من هذا النوع • وكيف لا أضحك ؟ ليكن ما كان ! اننى أظل رغم كل شيء مؤمناً بما هو أسمى منى كثيراً ، ولا أفقد مثلى الأعلى ! • • • ان كان ذلك مزاحاً منها ، فأننى أعفوه لها • ماذا أن تمزح مع مراهق مسكين ؟ اننى أقبل منها هذا المزاح واضحك • • أنا من جهتي لم ألبس أى قناع • والطالب • • • الطالب ، كان هناك رغم كل شيء • • • كان • • كان فى قلبها ، كان فى نفسها • • كان وبقي وسيبقى • وكفى الآن ! اسمع : ما رأيك ؟ أمضى إليها فوراً فأعرف الحقيقة كلها ، أم لا ؟

قلت « أضحك » ، ولكن الدموع كانت تترقق فى عيني •

- افعل ما يحلو لك يا صديقى ، اذهب إليها اذا كنت ترغب فى ذلك •

- أحس أننى لطخت نفسى اذ قصصت عليك هذا كله • لا تزعل ، ولكننى أرى أنه لا يجوز لرجل أن يتحدث عن امرأة الى شخص آخر • ذلك رأى أكرره وأصر عليه • ان من تتخذه نجياً وتفضى اليه بأسرارك لن يفهم أبداً • الملاك نفسه لن يفهم • حين تحترم امرأة فلا تتخذ لك

نجياً تبوح له بأمورك • وإذا كنت تحترم نفسك فلا تفعل ذلك أيضاً • انتى
الآن لا أحترم نفسى • الى اللقاء • لن أغفر لنفسى ما فعلت •••

- دعك يا صديقى ، انك تبالغ ! أنت نفسك قلت « انه لم يحدث
شئ » •••

وخرجنا ، وودع كل منا الآخر • وقال لى وفى صوته ارتعاش
خاص :

- ولكن ألا تريد أن تقبلنى يوماً من كل قلبك ، كما يقبل ابن
اباه ؟

فقبلته بحرارة •

قال :

- عزيزى ••• كن طاهراً نقياً على الدوام كما أنت طاهر نقى فى
هذه اللحظة •

لم أقبله قبل هذه المرة فى حياتى ، ولا كان يمكنى أن أتصور أن
يطلب منى هو نفسه ذلك •

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المبائين" فإذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشتر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

ألكسندر في سولزنيف